١

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

مستحيل

IMPOSSIBLE





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

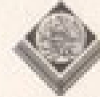
يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

IMPOSSIBLE

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم

ردمك 3-249-29-9953

الطبعة الأولى
1427 هـ – 2006 م



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611)

الفصل الأوّل

كانت صالة عرض سوفيري في باريس تقع في مبنىً مدهش في شارع سانت أونوري هو كناية عن دارٍ عريقة ذات طابع مميّز يعود إلى القرن الثامن عشر. وكان جامعو التّحف يأتون إلى هنا وفقاً لمواعيد مسبقة، ويعبرون الأبواب البرونزيّة الضخمة المؤديّة إلى الفناء الداخليّ حيث تقوم أمامهم مباشرةً الصالة الرئيسيّة. أمّا إلى اليسار فتقع مكاتب المالك سيمون دو سوفيري، وإلى اليمين الجناح المعاصر الذي أضافته ابنته إلى المعرض. وتمتدّ خلف المبنى حديقةً فسيحة ورائعة تزدان بالمنحوتات وبخاصةٍ من أعمال رودان. أقام سيمون دو سوفيري، في ذلك المكان لأكثر من أربعين سنةً، وكان والده أنطوان أحد أهمّ جامعي التّحف في أوروبا. درس سيمون عن رسّامي النهضة، وكبار الفنّانين الألمان قبل أن يفتتح المعرض. وتستشيره الآن المتاحف من كافة أنحاء أوروبا كما يهابه جامعو التّحف الخاصّين، وعلى الرغم من أنّه يبعث الخوف في نفوس الذين يعرفونه، غير أنّه كان محطّ إعجابٍ واحترام من الجميع.

اتّصف سيمون دو سوفيري بشكله المخيف المتجسّد في قامته الضخمة، وبنيته القويّة، وملامحه المتجهّمة، وعينيه الداكنتين اللتين تنفذان مباشرةً إلى الرّوح. لم يكن سيمون على عجلةٍ للزواج، فقد كان في شبابه كثير الانشغال في تأسيس عمله، ولم يكن لديه الوقت للمغامرات العاطفيّة. وعندما بلغ عامه الأربعين، تزوّج ابنة جامع تحفٍ أميركيّ مهمّ، وتجلّى هذا الزواج في اتّحادٍ ناجحٍ وسعيد. لم تتدخّل مارجوري دو سوفيري مباشرةً في أعمال صالة العرض التي تأسّست بشكل جيّد قبل أن يقترن سيمون بها. فقد استهوتها

الصالة، وأعجبت بالأعمال التي كان يعرضها زوجها، إذ أحبّته بعمقٍ وأبدت اهتماماً شديداً بكلّ ما يفعله. كانت مارجوري فنّانةً، ولكنّها لم تشعر أبداً بالشجاعة لتعرض أعمالها. وأتقنت رسم المناظر الطبيعيّة والوجوه ببراعةٍ وبساطةٍ غير أنّها غالباً ما كانت تقدّمها كهدايا للأصدقاء. وبالحقيقة، لطالما أولع سيمون بعملها، ولكنّه لم يتأثّر به أبداً، فهو قاسٍ في اختياراته ولا يرحم في قراراته في ما يخصّ المعرض. تميّز بإرادةٍ حديديّة، وبفكرٍ حادٍّ كالماس، وبحسٍّ عمليّ متوقّد الذكاء، ولكنّه يدفن في صميم نفسه قلباً طيّباً يُخفيه في معظم الأحيان، أو على الأقلّ هذا ما تقوله مارجوري مع أنّ قليلين فقط يصدّقونها. وكان سيمون عادلاً مع موظّفيه وصادقاً مع زبائنه، لا يتوانى عن السعي وراءَ ما يشعر بأنّ المعرض بحاجةٍ إليه. ويستغرق أحياناً عدّة أعوامٍ للحصول على لوحةٍ أو منحوتةٍ ما، ولكنّه لا يستسلم حتى يحصل على مبتغاه. وقد لاحق زوجته قبل زواجهما بالطريقة نفسها تقريباً، وعندما أصبحت له، احتفظ بها كما يُحفظ الكنز، ولكن هذه المرّة لنفسه. ولم يندمج في المجتمع إلاّ عندما شعر بضرورة ذلك فصار يقيم حفلات تسلية للزبائن في أحد أجنحة المنزل.

اتفق الزوجان على تأجيل موضوع الإنجاب. في الواقع، كان ذلك قرار سيمون، فانتظرا عشرة أعوامٍ للحصول على مولود. ولطالما علم سيمون بتوق مارجوري لتصبح أمّاً، فاستجاب أخيراً لرغباتها ولكنّه أُصيب بنوعٍ من الخيبة عندما أنجبت مارجوري فتاةً وليس صبيّاً. وعندما وُلدت ساشا كان سيمون على عتبة الخمسين، في حين أن مارجوري كانت تبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً. وللحال أصبحت ساشا الحبّ الكبير في حياة مارجوري فلم تفترقا أبداً. وراحت مارجوري تمضي ساعات مع ابنتها، تضحكان وتغنّيان وتلعبان في الحديقة. وكادت تموت من الحزن حين أُجبرتا على الافتراق عندما بدأت ساشا بالذهاب إلى المدرسة. أمّا ساشا الطفلة الجميلة والرقيقة فكانت مزيجاً من والديها. أخذت من أبيها نظرته القاتمة الداكنة، ومن أمّها رقّتها السماويّة. فقد

اتسمت مارجوري بجمال ملائكيّ بشعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين، بحيث يُقال عنها إنّها أشبه بأحد الآلهة في لوحة زيتيّة إيطاليّة. تميّزت ساشا بنعومة الملامح كوالدتها وبشعرٍ قاتم وعينين داكنتين كوالدها، ولكن خلافاً لأبويها، كانت ساشا ضعيفة وصغيرة. ولطالما لاعبها والدها ممازحاً وقائلاً إنّها طفلةٌ صغيرةٌ جداً. ومع قِصر قامتها، كانت ساشا تتّصف بروحٍ كبيرة، فورثت قوّة والدها وإرادته الصلبة، ورقّة والدتها ولطفها، بالإضافة إلى الصراحة التي تعلّمتها من والدها منذ نعومة أظافرها. كانت في الرابعة أو الخامسة من العمر عندما بدأ والدها يُظهر اهتماماً جدّياً بها، وما إن بدأ يتقرّب منها حتّى أصبح الفنّ الموضوع الوحيد الذي يكلّمها فيه. وفي أوقات فراغه، كان يتجول معها في أرجاء المعرض، ويعرّفها على الرسوم وأهمّ الرّسامين ويُريها أعمالهم في كتب الفنّ، كما كان ينتظر منها أن تكرّر أسماءهم وأن تقوم بتهجئتها متى أصبح بإمكانها الكتابة. وإلى جانب تمرّدها ومشاغبتها، حفظت كلّ ما لقّنها إيّاه والدها، وكلّ معلومة صغيرة أفشى بها أمامها. وكان فخوراً بها وازداد حبّه لزوجته التي أصبحت مريضة بعد ولادة ساشا بثلاثة أعوام.

كان مرض مارجوري لغزاً في البداية، الأمر الذي أربك الأطباء. أمّا سيمون فاعتقد بأنّه اعتلالٌ جسديّ نفسيّ، ولم يكن صبوراً في أمور المرض والضعف فظنّ أنّه بالإمكان التخلّص من الأمور المرضيّة الجسديّة ومداواتها. ولكن عوضاً عن التغلّب على المرض، أصبحت مارجوري أضعف مع مرور الوقت، وانقضت سنة قاسية قبل أن يحصلوا على تشخيصٍ من لندن وتأكيد من نيويورك، بأن مارجوري كانت تعاني مرضاً انحلاليّاً يفتك بأعصابها وعضلاتها، وسيعطّل في النهاية رئتيها وقلبها. لم يقتنع سيمون بالتشخيص، وواجهت مارجوري المرض بشجاعة، فلم تشتكِ وحاولت المقاومة قدر المستطاع، وتسلّحت بالقوّة لتمضي الوقت المتبقّي لها مع زوجها وابنتها. وكانت تخلد للراحة التامة كلّما سنحت لها الفرصة. لم ينَل المرض أبداً من عقلها، ولكنّه فتك بجسدها كما كان متوقّعاً، وأصبحت طريحة الفراش منذ

كانت ساشا في السابعة من عمرها إلى أن بلغت التاسعة، حينها فارقت مارجوري الحياة. وعلى الرغم من صراحة الأطباء بشأن حالة مارجوري، نزل خبر وفاتها كالصاعقة على سيمون، وعلى ساشا التي لم يحضّرها أيٌّ من والديها لذلك. فلقد نشأ كلٌّ من سيمون وساشا معتادَين على وجود مارجوري في حياتهما، واهتمامها بكلّ ما يفعلانه، ومشاركتها في كلّ دقيقةٍ من حياتهما حتّى عندما ينامان. لذا تلقّيا صدمة كبيرة عندما أدركا رحيلها عن عالمهما، وأدّى ذلك إلى تقرّب ساشا من والدها أكثر من أيّ وقت مضى، فأصبحت ساشا محور حياة سيمون إلى جانب صالة العرض.

نشأت ساشا وهي تنهل من الفنّ وتتنفّسه وتحبّه، فكان كلّ ما تعرف وتعمل وكلّ ما تعشق بالإضافة إلى والدها. ونذر كلٌّ منهما نفسه للآخر. ومنذ طفولتها، عرفت كلّ ما يتعلّق بالمعرض والأعمال المعقّدة والمهمّة كما لو كانت أحد عمّاله، حتّى أنّ والدها كان ينظر إليها – ومع كونها فتاة صغيرة – على أنّها أذكى وأكثر إبداعاً من أيّ شخصٍ وظّفه. غير أنّ الأمر الوحيد الذي أزعجه تمثّل في شغفها المتزايد بالفنّ الحديث والمعاصر الذي كان يغضبه، ولم يتوانَ يوماً عن تسميته بالخردة سرّاً أو علناً، فلقد أحبّ الفنانين العظماء ولا أحد غيرهم.

وعلى غرار والدها، التحقت ساشا بجامعة السوربون وحازت على إجازة في تاريخ الفنون، وتابعت دراساتها العليا في جامعة كولومبيا في نيويورك كما وعدت والدتها. وعملت بعدها عامين كمناوبة في متحف ميتروبوليتان الفنيّ الأمر الذي ساعدها في إكمال دراستها. وخلال هذه الفترة، كانت تعود غالباً إلى باريس، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، كما أنّ سيمون كان يزورها قدر الإمكان في نيويورك. وهذا كان يعطيه دافعاً لزيارة زبائنه، والمتاحف، وجامعي التحف في الولايات المتحدة. فقد كان جلّ ما يريده هو رؤية ساشا، وإذا به يختلق الأعذار ليفعل ذلك، ولكنّه رغب أكثر بعودتها إلى المنزل لأنّه كان حانقاً وعصبياً خلال الأعوام التي قضتها في نيويورك.

غير أنّ الأمر الوحيد الذي لم يتوقّعه سيمون هو ظهور أرثر بوردمان في حياة ساشا. فلقد التقته خلال الأسبوع الأوّل من بداية دراساتها العليا في جامعة كولومبيا، وكانت تبلغ حينها اثنين وعشرين عاماً. ثمّ تزوّجته في غضون ستّة أشهرٍ على الرغم من معارضة والدها الشديدة. شعر سيمون في البداية بالخوف من زواجها في سنٍّ مبكرة، ولكنّ الأمر الذي هدّأ من روعه وجعله يوافق على الزواج، كان وعداً قطعه أرثر عليه بأن ينتقلا للإقامة في فرنسا عندما تنهي ساشا دراستها وتدرّجها في نيويورك. وكاد سيمون يجعله يوقّع له على ذلك، غير أنّه لم يستطع مقاومة رؤية ساشا سعيدة، واقتنع في النهاية بأنّ أرثر بوردمان رجلٌ صالح ومناسب لها.

كان أرثر يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، أي أنّه يكبر ساشا بعشرة أعوام. ارتاد جامعة برينستون، وحاز على شهادة من هارفرد. وتبوّأ منصباً محترماً في مصرف وول ستريت للاستثمار الذي كان وجود فرع له في باريس أمراً ملائماً، فحاول منذ بداية زواجهما السعي إلى إدارته. وبعد مرور عامٍ ولد ابنهما كزافييه، ثمّ أنجبا تاتيانا بعد عامَين. وعلى الرغم من ذلك، لم تفوّت ساشا أيّ شيء من دراستها، وذلك لأن طفليها ولدا في فصل الصيف أي بعد نهاية العام الدراسي. ولقد استخدمت مربيّة لتساعدها في الاعتناء بهما عندما تكون في الجامعة أو في عملها في المتحف. تعلّمت ساشا كيفيّة الاهتمام بعدّة أمور معاً من والدها الذي كان يدير المعرض بينما كانت لا تزال طفلة. وأحبّت حياتها الصاخبة وهامت بحبّ أرثر وولديها، أمّا سيمون الذي كان متردّداً جدّاً في البداية، فسرعان ما ابتهج بالطفلين اللذين أسراه بسحرهما.

أمضت ساشا مع ولديها كلّ وقت فراغ صغير استطاعت سرقته، وغنّت لهما الأغاني التي كانت أمّها تغنّيها لها، ولعبت معهما ألعاب الصغار التي كانت تلعبها معها. وكانت تاتيانا في الواقع تشبه جدّتها لأمّها إلى حدٍّ كبيرٍ وهذا ما أثار أعصاب سيمون في البدء، غير أنّه فيما بعد أحبّ الجلوس مع

تاتيانا ومشاهدتها تكبر متذكّراً زوجته الحبيبة. فكان ذلك أشبه برؤيتها تولد من جديد كطفلةٍ صغيرة.

وفى أرثر بوعده وانتقل مع أسرته إلى باريس عندما أنهت ساشا فترة تدريبها في نيويورك والتي دامت عامين. وفي السادسة والثلاثين من عمره، منحه مصرف الاستثمار منصب الإدارة في فرع باريس إذ كان محطّ ثقة بالنسبة إليهم وإلى ساشا أيضاً. ولا شكّ بأنّ ساشا ستصبح أكثر انشغالاً ممّا كانت عليه في نيويورك حين كانت تعمل في المتحف بدوامٍ جزئيّ، وتقضي ما يتبقى من الوقت في الاهتمام بولديها. أمّا في باريس، فيتوجّب عليها العمل في صالة العرض مع والدها بعد أن أصبحت الآن جاهزة لذلك. ووافق والدها على أن تترك العمل عند الساعة الثالثة من كلّ يوم لتستطيع الاعتناء بولديها، كما أنّها كانت تعلم بأنّ عليها السعي لإرضاء زوجها والتفكير فيه. عادت إلى باريس منتصرةً ومتعلّمةً ومتحمّسةً وشجاعةً وتوّاقةً للعيش في بيتها من جديد. وهذا ما شعر به سيمون إذ أرادها أن تحصل على منزلها، وأن تعمل معه بعد أن انتظر ستاً وعشرين سنةً ليعيش هذه اللحظة التي أتت في النهاية تطبيقاً لرغباتهما المشتركة.

لا يزال سيمون يبدو صارماً كما كان وهي طفلة. ولكن حتّى أرثر لاحظ أنّه مع انتقالهما إلى باريس، ومع تقدّم سيمون في السنّ أصبح هذا الأخير أكثر ليناً. فكان يتحادث مع حفيديه ويمازحهما من وقت إلى آخر على الرغم من أنّه يفضّل في معظم الأحيان أن يجلس وينظر إليهما عندما يزورهم. لم يشعر من قبل بهذه الطمأنينة والراحة في التعامل مع الأطفال ولا حتّى مع ساشا في طفولتها. وكان يبلغ ستّة وسبعين عاماً عندما انتقلت العائلة إلى باريس، ومنذ ذلك الحين بدأت حياة ساشا جدياً.

تمثّل قرارهم الأوّل في اتّخاذ مكانٍ للعيش وفاجأهم سيمون بإيجاد حلٍّ للمعضلة. وكانت ساشا قد خطّطت للبحث عن شقّة في الضفّة اليسرى من المدينة بعد أن كبرت عائلتها بحيث لم يعد المنزل الذي قدّمه المصرف في

الدائرة السادسة عشرة يتّسع لهم، فتطوّع سيمون بالانتقال من الجناح الذي سكن فيه طيلة فترة زواجه وقبل ذلك وبعده، والمؤلّف من ثلاث طبقات فخمة. وأصرّ بأنّه أصبح كبيراً عليه وحده وبأنّ السلالم لم تعد تلائم ركبتيه وهذا ما لم تصدّقه ساشا، إذ إنّ والدها لا يزال يسير لمسافة أميالٍ طويلة. انتقل سيمون إلى الجهة الأخرى من الفناء الداخليّ حيث الطبقة العليا من الجناح الذي يستعملونه للمكاتب الإضافيّة والتخزين. وللحال أعاد تجهيز المكان، وقام بتركيب نوافذ مزخرفة جديدة تحت السّقف السّدّيّ، ووضع أيضاً كرسيّاً متحركاً يصعد السلالم وينزلها فيشكّل تسليةً لحفيديه متى سمح لهما بتشغيله. وكان يسير على السلالم بجانبهما وهما يصيحان من الفرح. وساعدته ساشا في الديكور وإعادة التجهيز ممّا أعطاها فكرةً لم تعجب والدها في البداية. هي خطّةٌ فكّرت فيها منذ سنوات وحلمت بها طوال حياتها، إذ أرادت توسيع المعرض ليضمّ أعمالاً فنيّة معاصرة. وكان الجناح المُستعمل سابقاً للتخزين المكان المناسب لتنفيذ المشروع، فهو يقع عبر الفناء ما بين المكاتب ومنزل والدها الجديد. وكان من الممكن أن يتمّ فتح طابقٍ أرضيّ لحاجات التخزين، ولكنّ ساشا استشارت مهندساً لصنع رفوفٍ متينة في الأعلى. وما إن فاتحت سيمون بفكرة بيع الأعمال المعاصرة حتّى أدار ظهره وصعد إلى السطح، فهو لم يُرد إفساد المعرض وتشويه اسمه المحترم من خلال بيع الخردة التي تحبّها ساشا، والتي صنعها فنّانون لا يملكون أيّة موهبة على حدّ قوله. واستغرقت ساشا عاماً تقريباً من المناقشات إلى أن أقنعته أخيراً.

فبعد أن هدّدته بترك المعرض وفتح محلٍّ بمفردها، وافق سيمون على الأمر على مضضٍ وبتذمّرٍ كبير. فعلى الرغم من أنّ ساشا تميّزت بنعومة أسلوبها في الفنّ، غير أنّها كانت أشدّ صلابةً من والدها وحافظت على تمسكها برأيها إلى أن نالت مبتغاها. وحتّى بعد أن وافق والدها على المشروع، لم تجرؤ على استقبال الفنّانين المعاصرين في المكاتب الرئيسيّة إذ إنّ والدها كان فظّاً معهم. ولكنّ ساشا كانت عنيدةً مثله تماماً. وبعد عامٍ

من انتقالها إلى باريس مع عائلتها، افتتحت جناح الفنّ المعاصر في المعرض بدعاية وأسلوب مميّزين. ولم يندهش والدها بنظرتها التي لا تُخطئ، ليس لأنّها ساشا دو سوفيري بل لأنّها تميّزت بعينٍ ثاقبة في ما يختصّ بالعمل المعاصر الجيّد والصّلب، فكانت تماماً كوالدها الذي لا يتراجع عن أيّ عملٍ يؤمن به.

حافظت ساشا على التوازن بين العالمَين، فكانت على اطّلاع بما يبيعه والدها وتألّقت في عملها الجديد. ومع بلوغها سنّ الثلاثين، أي بعد ثلاثة أعوامٍ على افتتاح جناحها الجديد في المعرض، أصبح هذا الجناح أهمّ صالة للفنون المعاصرة في باريس وربما في كافة أنحاء أوروبا. لم تشعر ساشا بهكذا سعادة من قبل، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى آرثر الذي أحبّ كلّ ما تفعله، وساندها في تحرّكاتها ومشاريعها وقراراتها أكثر ممّا فعل والدها الذي بقي منتقداً بعض الشيء على الرغم من احترامه لما حقّقته في العمل المعاصر. ففي الواقع، أدخلت ساشا المعرض إلى عالم الواقع بقوّة.

أحبّ آرثر التعارض بين عمله وعمل زوجته، ولطالما عشق بهجة الفنّ الذي تعرضه ومرح الفنّانين مقارنةً مع المصرفيّين الذين يتعامل معهم. كما سافر غالباً برفقتها إلى مدنٍ أخرى عندما كانت تلتقي فنّانين جدد، كما أحبّ مرافقتها إلى المعارض الفنيّة. وحوّلا طبقات منزلهما الثلاث إلى ما يشبه متحف الفنّ المعاصر بتوقيع فنّانين صاعدين. وكانت الأعمال التي تبيعها في معرض سوفيري المعاصر تدرّ ربحاً أكثر من الأعمال الانطباعيّة والقديمة التي تعامل بها والدها. ولكنّ الازدهار حالف كلّ منهما.

ومضى على عمل ساشا في جناحها الخاص ثمانية أعوامٍ قبل أن يواجهوا أولى أزماتهم الحقيقيّة. فقد أصرّ المصرف الذي عمل فيه آرثر، وأصبح شريكاً فيه على أن يعود إلى فرع وول ستريت لإدارته بسبب وفاة شريكَين في تحطّم طائرة، وأجمع الجميع بأنّ آرثر هو الشخص المناسب لتولّي المنصب في نيويورك. في الواقع، كان آرثر الخيار الوحيد، ولم يجد أيّ

طريقة للرفض خاصّة وأن مهنته كانت تعني له الكثير بالإضافة إلى تمسّك المصرف به وحاجتهم إليه في نيويورك.

بكت ساشا بمرارة حين شرحت الوضع لوالدها الذي اغرورقت عيناه بالدموع أيضاً. فعلى مدى ثلاثة عشر عامٍ من زواجهما، ساندها آرثر في كلّ نشاطاتها المهنيّة، ولقد حان دورها الآن لتقابله بالشيء نفسه وتعود ثانيةً إلى نيويورك. فكان من غير العدل أن تطلب منه التخلّي عن مهنته لأجلها بهدف البقاء في المعرض مع والدها الذي تقدّم في السنّ. فلقد بلغت ساشا الخامسة والثلاثين من العمر فيما كان سيمون في الخامسة والثمانين على الرغم من أنّ العمر لم يبدُ على وجهه. ولقد حالفهم الحظّ في بقاء آرثر في باريس لأطول فترة ممكنة بدون أن يسيء إلى مهنته، ولكن حان الوقت ليعود إلى دياره وكان على ساشا أن ترافقه.

استغرقت ساشا كعادتها ستّة أسابيع لإيجاد فكرة من أفكارها الجنونيّة. فقد كان عليهم العودة إلى نيويورك خلال شهرٍ. وكالعادة، اختطفت أنفاس والدها وأرعبته بفكرتها التي عارضها سيمون بشدّة، تماماً كما فعل عندما اقترحت افتتاح الجناح المعاصر. ولكنّها هذه المرّة لم تهدّده بل رجته، فلقد أرادت ساشا افتتاح فرع لمعرضهما في نيويورك يضمّ الأعمال القديمة والمعاصرة. واعتقد سيمون بأنّ الفكرة جنونيّة، فصالة عرض سوفيري في باريس كانت من أرقى المعارض. ولطالما اتّصل بهم الأميركيّون يوميّاً لإتمام صفقات شراء وكذلك الأمر بالنسبة إلى المتاحف في العالم. فلم يكن هنالك من داعٍ لتأسيس فرع في نيويورك، ولكن مع فارق واحد وهو وجود ساشا هناك الآن، ورغبتها في العمل لوالدها وللمعرض الذي أحبّته منذ أن كانت في التاسعة من عمرها.

شكّل هذا الأمر نقطة تحوّل محوريّة بالنسبة إليهم. واعتقد آرثر بأنّها فكرةٌ لامعة، وسعى إلى دعمها بالكامل، كما حاول جاهداً إقناع والدها، ولكن حتّى بعد مغادرتهما، بقي سيمون يعتقد بأنّها فكرة جنونيّة. اقترحت ساشا أن

تموّل المشروع من مالها الخاص، وكذلك فعل أرثر. فما كان من سيمون في النهاية إلاّ أن أذعن لها كما كان يفعل دائماً. وما إن وصلت إلى نيويورك حتّى وجدت شقّة لهم في بارك أفينيو، ومكاناً في الجادة 64 بين جادة ماديسون والجادة الخامسة لتأسيس سوفيري في نيويورك. وكالعادة، عندما تصمّم ساشا على أمرٍ ما وتدعمه بالعمل الدؤوب وبالطّاقة المميّزة، يتبيّن في النهاية أنّه فكرة لامعة ويأتي بأفضل النتائج. أتى والدها لزيارتها مرّات عديدة، وسلّم بأنّ المكان مناسبٌ تماماً لأعمالهما. وعندما سافر إلى نيويورك لافتتاح المعرض بعد تسعة أشهرٍ، كانت الابتسامة تعلو وجهه. وأصبحت ساشا شخصيّةً بارزةً في عالم الفنّ في نيويورك، ففي الخامسة والثلاثين من عمرها، كانت من أهمّ تجّار الأعمال الفنيّة في العالمِ على غرار والدها الذي لطالما حافظ على هذا المركز. وسُرّتْ بجمعِ كلٍّ من أسلوب متحف ميتروبوليتان ومتحف الفنّ الحديث وشكّل ذلك فخراً كبيراً لها.

كان كزافييه في ذلك الحين يبلغ اثني عشر عاماً في حين كانت تاتيانا تبلغ عشرة أعوام. أحبّ كزافييه الرسم، أمّا تاتيانا فكانت تضع يدها على أيّ آلة تصوير تجدها، وتقوم بالتقاط صورٍ مضحكة للأشخاص في وضعيّات مفاجئة. وبدت تاتيانا كقزمٍ صغيرٍ أشقر، بينما كان كزافييه يشبه والده مع شعرٍ أسود ورثه عن أمّه وجدّه. وكان الطفلان جميلَين ورائعَين يجيدا التكلّم بلغتَين. واتّفق أرثر وساشا على إدخالهما إلى الليسيه في نيويورك، غير أنّ تاتيانا كانت تتكلّم باستمرار عن العودة إلى باريس فقد اشتاقت لأصدقائها، بينما فضّل كزافييه من جهته العيش في نيويورك.

في العامين التاليَين، استمتعت ساشا بإدارة معرضها في نيويورك. وسافرت باستمرار إلى باريس، عادةً مرّتين شهريّاً. وكانت أحياناً تستقلّ الكونكورد لعقد اجتماعاتٍ مهمّة مع والدها وتعود في المساء لتكون إلى جانب أرثر وولديها في نيويورك. وفي عطلة الصيف، غالباً ما كانت تأخذ الولدين إلى باريس لقضاء بعض الوقت مع والدها في المنزل الذي استأجره لسنواتٍ

في منطقة سان جان كاب فيرا، ولكنّها كانت تقيم في إيدن روك مع الولدين. وعلى الرغم من حبّ سيمون الكبير للطفلين، إلا أنّهما كانا يستمرّان في إغضابه إذا أمضى وقتاً طويلاً معهما، فقد كان يتقدّم في السنّ مع أنّ ساشا لم تحبّ الاعتراف بذلك. وبدأ ينطفئ شيئاً فشيئاً بعد أن بلغ سنّ السابعة والثمانين.

وللأسف تحدّثا عمّا يجب أن تفعله عندما ستصبح وحدها في إدارة الأعمال. لم تستطع ساشا تخيّل ذلك، ولكن والدها كان لديه تصوّرٌ واضح للأمر في ذهنه. فبعد أن عاش حياةً طويلةً، لم يشعر بالخوف من الرحيل. ودرّب عمّاله بأفضل طريقة لإدارة الأعمال، بحيث عندما تكون ساشا في باريس أو نيويورك، ستُحاط بأناسٍ كفوئين يعملون لحسابها في المكانَين. وسيتوجّب عليها قضاء الوقت بين المعرضيَن والانتقال من مكانٍ إلى آخر، غير أنّ اختيار مكان الإقامة يعود إليها بفضل كفاءة والدها وبُعد نظره. وكان لديهما مدراء بارعون في كِلا المعرضيَن، ولكنّها ما زالت تشعر بأنّ باريس هي منزلها على الرغم من تمتّعها بالعيش والعمل في نيويورك. ولكن كان أرثر آنذاك منشغلاً للغاية بالمصرف ولم يكن بوسعه أبداً العيش خارج نيويورك، فعلمت ساشا بأنّها ستكون عالقة هناك حتّى يتقاعد زوجها. وبما أنّه كان يبلغ من العمر سبعة وأربعين عاماً، لم يكن تقاعده قريباً. شعرت ساشا بأنّها محظوظة لأنّ والدها استمرّ في إدارة نصيبه من الأعمال في سنّه المتقدّمة، وكان ذلك جديراً بالثناء على الرغم من أنّه قد بدأ يضعف تدريجيّاً. ومع كلّ ذلك، صُعقت ساشا بوفاته المفاجئة عن عمر بلغ التاسعة والثمانين، فلقد توقّعت أن يعيش إلى الأبد. ولكنّ سيمون توفّي بالضبط كما أراد، إذ أُصيب بسكتة دماغيّة في مكتبه، وقال الأطباء بأنّه لم يتألّم بل فارق الحياة بلحظة بعد أن أتمّ صفقة كبيرة مع جامع تحف هولنديّ.

وفي تلك الليلة، سافرت ساشا إلى باريس بحالة صدمة، ومشت حول المعرض بلا هدفٍ عاجزة عن تصديق رحيله. اتّسمت مراسم الجنازة بالوقار

وحضور الشخصيّات المرموقة ومن بينها الرئيس الفرنسيّ ووزير الثقافة. وأتى كلّ شخصٍ بارز في عالم الفنّ تعبيراً عن احترامهم له وكذلك حضر أصدقاؤه وزبائنه وآرثر والولدان. كان يوماً بارداً من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وهطل المطر بغزارةٍ عندما حان وقت دفنه في مقابر بير لاشيز في الدائرة العشرين الواقعة شرقي باريس. وهناك كان محاطاً بأمثال فيكتور هوغو وبروست وبالزاك وشوبان، ممّا شكّل المكان الملائم ليرقد فيه بسلام.

وبعد الجنازة، أمضت ساشا أربعة أسابيع في باريس في العمل مع المحامين، وفي تنظيم الأمور، وترتيب أوراق والدها وممتلكاته الشخصيّة. ومكثت هناك فترة أطول ممّا توجّب عليها، ولكنّها لم تحتمل الرحيل في ذلك الوقت. وللمرّة الأولى منذ أن تركت باريس، أرادت البقاء في المنزل قرب المكان الذي عاش وعمل فيه والدها. وبعد مرور شهرٍ، شعرت بأنّها يتيمة عندما استقلّت الطائرة عائدةً إلى نيويورك. وبدت الشوارع والمحلات التجاريّة التي تعلوها زينة الميلاد كإهانةٍ لها، هي التي خسرت والدها للتوّ. وعلى الرغم من ذلك، ازدهر فرعا المعرض، وكانت الأعوام التالية هادئة وسعيدة ومنتجة. افتقدت ساشا والدها كلّ يوم، ولكنّها استقرّت في نيويورك بينما كان ولداها يكبران. وكانت تعود إلى باريس مرّتين في الشهر لمتابعة أعمال المعرض هناك.

وبعد مرور ثمانية أعوامٍ على وفاة والدها، حصدت صالتا العرض نجاحاً كبيراً. وفي تلك الفترة، كان آرثر يفكّر بالتقاعد في سنّ السابعة والخمسين، فمع إنتاجيّة مهنته والاحترام الذي ناله منها أقرّ لساشا بأنّه بدأ يشعر بالملل. أمّا كزافييه فكان في الرابعة والعشرين من عمره، وكان يعيش ويرسم في لندن ويعرض أعماله في معرضٍ صغيرٍ في سوهو. أحبّت ساشا رسومات ابنها، ولكنّه في نظرها لم يكن مستعداً بعد ليعرض أعماله في صالتها، فلم يُعمها حبّها له عن رؤية حاجته لبذل جهدٍ أكبر. تميّز كزافيير بموهبةٍ حقيقيّة، ولكنّه لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية بالنسبة إلى فنّان. كان شغوفاً بعمله وأحبّ كلّ ما

يحيط به من عالم الفنّ الذي شكّل هو فرداً منه خلال إقامته في لندن، وهذا ما جعل ساشا تفتخر به. وآمنت بأنّه سيصبح فنّاناً عظيماً يوماً ما، وحينها ستقوم بعرض أعماله.

أمّا تاتيانا فقد تخرّجت من جامعة براون قبل أربعة أشهرٍ وحازت على شهادةٍ في الفنون الجميلة والتصوير الفوتوغرافي، وبدأت عملاً كمساعدةٍ ثالثة لمصوّرٍ مشهورٍ في نيويورك. وكان عملها يقتصر على تبديل الأفلام للمصوّر من حينٍ إلى آخر، وتحضير القهوة له، وتنظيف الأرضيّة. ولطالما قالت لها والدتها بأنّ الأمور تبدأ دائماً على هذا النحو. ولم يُبدِ أيّ من الولدين اهتماماً بالعمل مع أمهما في صالة العرض، إذ إنّهما أقرّا بعملها الرائع ولكن أراد كلٌّ منهما متابعة حياته وعمله. وأدركت ساشا كم كانت محظوظة بتعلّم كلّ ما تعرفه من والدها، وبالفرصة التي منحها إيّاها، والتعليم الذي لا يُقدّر بثمن الذي نالته من عملها معه. وشعرت بالأسف لعدم تمكّنها من تقديم ذلك كلّه لهما.

وتساءلت ساشا إن كان كزافييه يريد العمل معها في المعرض يوماً ما، ولكن ذلك بدا مستحيلاً في الوقت الراهن. وما إن بدأ آرثر بالكلام عن فكرته بالتقاعد حتّى أخذ حلم العودة إلى جذورها في باريس يدغدغ مخيّلتها مجدداً. فرغم حبّها للحياة الصاخبة والمسلّية في نيويورك، إلاّ أن الحياة لطالما بدت لها أكثر جمالاً في بيتها الأساسيّ. وعلى الرغم من أنّها تحمل جنسيّتين، إلاّ أن باريس لا تزال بمثابة المنزل بالنسبة لها، وذلك بفضل والدتها. وكذلك مع أنها أمضت ستة عشر عاماً من حياتها أي الثلث في نيويورك، إلاّ أنها بقيت فرنسيّةً بقلبها. ولم يعارض آرثر فكرة العيش في باريس مجدداً حين يتقاعد، وكثُر حديثهما عن ذلك خلال الخريف.

كان شهر تشرين الأول/أكتوبر قد حلّ وانقضت آخر أيّام الصيف الحارّة، وبعد ظهر يوم جمعة مشمس قامت ساشا بجولةٍ تفقّديّة على بعض اللوحات التي خطّطوا لبيعها إلى متحف في بوسطن، في حين احتفظوا

بالأعمال الفنيّة لكبار الفنّانين وبالأعمال التقليديّة في الطابقَين العلويّين من المبنى، أمّا الأعمال المعاصرة التي اشتهروا بها أيضاً، فوضعوها في الطابقَين الأوّل والثاني. وأصبح مكتب ساشا يحتلّ زاويةً في الطابق الأساسي.

وبعد جولتها في الطوابق العليا، وضعت بعض الأوراق في المحفظة الخاصّة بحفظ الملفّات، ونظرت إلى الحديقة المزدانة بالتماثيل خلف مكتبها. فعلى غرار كافة أعمالهم المعاصرة، كانت الحديقة تعكس ذوق ساشا، فأحبّت النظر إلى محتوياتها وخاصة عندما يتساقط الثلج عليها. ولكنّها عرفت بأنّ الثلج لن يتساقط قبل شهرين، فحملت محفظتها المنتفخة والممتلئة بالأوراق، وذلك لأنها كانت ستتغيّب عن المعرض في الأسبوع القادم، فستسافر إلى باريس صباح الأحد للتحقّق من سير الأمور هناك. فكالعادة كانت لا تزال تقوم بالزيارات الروتينيّة كلّ أسبوعَين، كما كانت تفعل منذ وفاة والدها قبل ثمانية أعوامٍ. فأصبحت تاجرة في كِلتا المدينتيَن، واعتادت على العمل الشاق الذي بدا سهلاً بالنّسبة إليها. كما نجحت في تكوين حياةٍ اجتماعيّة وصداقات عديدة، وفي جمع الزبائن في المدينتَين. وكانت تشعر بالراحة في نيويورك كما في باريس.

وفيما كانت تهمّ بمغادرة مكتبها وهي تفكّر بنهاية الأسبوع رُنّ الهاتف. وكان كزافييه يهاتفها من لندن، فنظرت إلى الساعة وأدركت بأنّها تقارب منتصف الليل هناك. ابتسمت ما إن سمعت صوته. فلقد أحبّت ولديها الاثنيَن واعتبرتهما عزيزيَن على قلبها، غير أنّها كانت بطريقةٍ ما أقرب إلى كزافييه. فلطالما سهُلَ عليها التعامل معه. أمّا تاتيانا فكانت قريبةً من والدها أكثر، وتشبه جدّها سيمون في بعض الأحيان. وغالباً ما دعت الحاجة إلى إعطائها بعض الملاحظات، إذ كانت متمسكة برأيها ولا تتنازل كأخيها. ولقد تشابه كزافييه مع والدته في أمورٍ عديدة كاللّطف والكرم والقدرة الدائمة على مسامحة الحبيب أو الصديق. فيما كانت تاتيانا أكثر صلابةً وقساوةً بشأن الناس والحياة.

قال كزافييه مبتسماً وهو يتثاءب: "لقد ظننت بأنك غادرت"، بينما أغمضت ساشا عينيها وفكّرت فيه فاستطاعت رسم صورته في خيالها. لطالما كان ولداً جميلاً وأصبح الآن شاباً وسيماً.

"كنت أهمّ بالمغادرة، وجدتني في الوقت المناسب. لمَ أنت في المنزل يوم الجمعة مساءً؟" إذ إنّ كزافييه يتمتّع بحياةٍ اجتماعيّة نشيطة على الساحة الفنيّة في لندن وعُرِف بضعفه أمام الحسناوات؛ الكثيرات منهنّ. ولطالما أضحك هذا الأمر والدته، فكانت تمازحه بموضوع الفتيات من حينٍ إلى آخر.

فقال لها وكأنّه يدافع عن سمعته: "وصلت للتوّ".

فسألته ممازحةً: "بمفردك؟ كم هذا مخيباً، هل استمتعت؟".

فأجابها قائلاً: "حضرت افتتاح معرضٍ مع أحد الأصدقاء، ثمّ ذهبنا لتناول العشاء. وبعد أن ثمل الجميع، وبدأت الأمور تخرج عن السيطرة عدت إلى المنزل قبل أن يتمّ توقيفنا جميعاً".

– "تبدو القصّة مثيرةً للاهتمام"، وجلست ساشا إلى مكتبها مجدّداً، ونظرت إلى الحديقة، وفكّرت كم تفتقده. ثمّ سألته: "ماذا كنتم تفعلون ليستوجب توقيفكم؟"، فعلى الرغم من ولعه بالنّساء، لم تكن مطاردته لهنّ تؤدّي إلى أيّ أذىً، بل كان شاباً محبّاً للمتعة والتسلية فحسب، ويتصرّف في بعض الأحيان كصبيٍّ طائش. ولطالما أحبّت شقيقته اعتبار نفسها أكثر نضوجاً واحتراماً منه، وكانت تصف النّساء اللّواتي يواعدهنّ بالمقزّزات. ولم تكفّ يوماً عن إعطاء رأيها فيهنّ أمام والدتها وحتّى أمامه، فيما كان يدافع عنهنّ بشراسة بغضّ النظر عن تصرّفاتهنّ، وطريقة ملابسهنّ غير المحتشمة.

– "ذهبتُ إلى الافتتاح مع فنّانٍ أعرفه، إنّه رجلٌ مجنونٌ، ولكنّه فنّان بارعٌ وأريدك أن تلتقيه في وقت ما. يُدعى ليام أليسون، وهو يرسم لوحات تجريديّة رائعة. كان العرض مميّزاً هذه اللّيلة ولكنّه يخالفني الرأي، فقد شعر بالملل في الافتتاح وثمل. ثمّ تابع الشرب في المطعم حيث تناولنا العشاء وثمل أكثر". أحبّ كزافييه دائماً مهاتفتها لإخبارها عن أصدقائه، ولم يكن يُخفي عنها

الكثير من أسراره. أمّا هي فكانت تفتقده طوال الوقت منذ أن غادر المنـــزل.

- "كم هذا مسلٍ، أعني كيف أنّه ثمل". وافترضت أنّ صديقه يناهزه في السنّ، وهذا ما يجعل منهما شابّين شقيّين يسعيان للتّسلية.

- "نعم، كان ذلك مسلٍ، فهو مرحٌ للغاية، تصوّري أنّه خلع سرواله حين جلس إلى الطاولة. والمضحك في الأمر أنّ أحداً لم يلحظ ذلك إلى أن طلب من إحدى الفتيات مراقصته. أعتقد بأنّه هو نفسه نسي السروال إلى أن وصل إلى حلبة الرقص بسرواله الداخليّ الملوّن فانهالت سيّدة عليه ضرباً بمحفظتها، ثمّ طلب منها مراقصته وراح يتمايل حولها لبضع دقائق. كان أكثر المشاهد إثارةً للـضحك رأيـته في حياتي. أمّا المرأة التي بلغ طولها أربعة أقدام، فاستمرّت بـضربه بواسـطة محفظتها وكأنّه مشهدٌ مسرحيٌ من مونتي بيتون. وكان هو راقصاً رهيباً". ضحكت ساشا طويلاً وهي تتخيّل مشهد الفنّان بسرواله الداخليّ يـراقص سيّدة مسنّة بينما توسعه ضرباً. "تصرّف بلطفٍ معها، وكان الجميع مـن حـوله يضحكون ثمّ أراد السّاقي طلب الشرطة، فأخذته إلى منـزله عند زوجته".

- "وهل هو متزوّج؟ في سنّك؟" بدا أنّ ساشا تفاجأت بهذه المعلومة.

- "أمّـي، إنّه ليس بمثل سني، بل يبلغ ثمانية وثلاثين عاماً، ولديه ثلاثة أولادٍ رائعين، وزوجةٌ لطيفةٌ أيضاً".

- "وأيـن كانـت حيـنها؟" قالت ساشا هذا بينما بدا من صوتها رفضها للأمر.

- "إنها تكره الخروج برفقته". في الحقيقة، وصف كزافييه الواقع.

فقـد أصبح ليام أليسون أحد أصدقائه المقرّبين في لندن. هو فنّانٌ جديٌّ ولديـه لمـسة مـضيئة للحـياة بالإضـافة إلى روح مرحة، وحبٌّ للمشاغبة والدعابات والمزاح.

وأبـدت ساشا رأيها بصديق ولدها قائلةً: "أستطيع أن أرى لماذا لا تحبّ

زوجته الخروج معه، فلا أظنّها تودّ الخروج مع زوجٍ يخلع سرواله في مكانٍ عام، ويطلب من السيّدات المسنّات مراقصته".

- "هذا بالتحديد ما قالته عندما أوصلته إلى المنـــزل. فلقد غطّ في النّوم قبل أن أغادر، فاحتسيت شراباً معها ثم انصرفت، إنّها امرأةٌ طيّبة".

- "لا بدّ بأنّها كذلك لتتحمّل هذا الوضع، هل هو سكّير؟".

وبدت ساشا جديّةً لبرهة وتساءلت عن نوعيّة الأشخاص الذين كان ابنها يتـسكّع معهـم. ولم تشعر بأنّ صديق كزافييه ملائمٌ وخافت من تأثيره السّلبيّ على ولدها.

ضـحك كزافييه وأجابها: "كلا، ليس سكّيراً، ولكنّه شعر بالملل، وراهن معي على أنّ أحداً لن يلاحظ بأنّه قد خلع سرواله. وكسب الرهان، فلم يلاحظ أحد ذلك إلى أن نهض ليرقص".

- "حـسناً، أتمنّى ألا تكون أنت أيضاً قد فعلت مثله". وعادت ساشا إلى دورها كأمّ بينما كان كزافييه يضحك، فلقد كان يعشقها.

- "في الواقع، بقيت مرتدياً سروالي، مع أنّ ليام ظنّه تصرفاً جباناً منّي، وقال بأنّه سيضاعف الرّهان إذا خلعته، ولكنني لم أفعل".

- "شـكراً يا عزيزي. ارتحت لسماع ذلك". ثمّ نظرت إلى ساعتها، فقد وعـدت أرثـر بملاقاته عند السّادسة، وكانت الساعة الآن تشير إلى السادسة وعـشر دقائـق، ولكنّها أحبّت التحدّث مع ابنها. "اسمع أنا آسفة، ولكن عليّ الـذهاب فقد وعدت والدك بملاقاته في المنـزل منذ عشر دقائق لأنّنا سنذهب إلى هامبتونـز بعد العشاء".

- "تصوّرت بأنّكما ستفعلان ذلك، أردت فقط الاطمئنان عليكما".

- "أنـا سـعيدة لأنّك اتّصلت، هل من مشاريع مميّزة لنهاية الأسبوع؟" كانـت تحـبّ أن تعـرف أخباره وتحركاته، وكذلك أخبار تاتيانا التي لم تكن تتّصل بهما غالباً. فقد كانت تحاول الحصول على بعض التحرّر، ولقد اعتادت

على الاتّصال بوالدها في تلك الآونة أكثر من والدتها، فهي لم تكلّم ساشا طيلة الأسبوع.

- "ليس لديّ مشاريع، فالطقس رديء، وأظنّ بأنّني سألازم المنزل للرّسم".

- "جيّد، سأسافر إلى باريس يوم الأحد، وسوف أتّصل بك فور وصولي، ألديك الوقت لتحضر لرؤيتي هذا الأسبوع؟".

- "ربّما، سأكلّمك مساء الأحد. أقضيا نهاية أسبوعٍ ممتعة، وبلّغي تحيّاتي لوالدي".

- "سأفعل، أحبّك... وقل لصديقك أن يبقى مرتدياً سرواله في المرّة المقبلة، فقد حالفكما الحظّ بعدم دخول السّجن لقيامكما بأعمال مشاغبة وغير لائقة".

لطالما حظيَ كزافييه بأوقات مسليّة أينما كان، وهكذا بدا أيضاً صديقه ليام. لقد ذكر كزافييه صديقه أمامها من قبل، وأرادها أن ترى أعماله في يوم ما على الرغم من ضيق وقتها، فهي دائماً على عجلة من أمرها، حتّى عندما تأتي إلى لندن كان جدولها حافلاً بلقاءات مع الفنّانين الذين تتعامل معهم، وبالكاد يتسنّى لها الوقت لرؤية كزافييه. وحينها طلبت منه أن يرسل لها ليام رسوماته على رقاقاتٍ مصغّرة ولكنّه لم يفعل، ففكّرت بأنّه غير جديّ أو أنّه ليس مستعداً بعد لترى رسوماته. ولطالما بدا لها أنّ شخصيّته غريبة؛ كالفنّانين الذين تتعامل معهم. ولم تكن واثقة من أنّها تريد إضافة المزيد إلى اللائحة وإن كان كزافييه يعتبره مسلّياً. فلقد كان يسهُل عليها دائماً التعامل مع فنّانين جادّين في مهنتهم ويتصرّفون بنضج. وبدا لها أنّه من الغرابة العمل مع رجلٍ يقارب سنّ الأربعين ويقوم بخلع ثيابه في مكانٍ عام، ولم تكن مستعدّة لذلك. وقالت لكزافييه مودّعة: "أكلّمك يوم الأحد".

فأجاب كزافييه: "سأهاتفك في باريس، إلى اللقاء أمّي". ثمّ أقفل الخطّ. ابتسمت ساشا وأسرعت في مغادرة مكتبها. فلم تكن تريد أن ينتظر أرثر طويلاً، كما أنّه ما زال عليها إعداد العشاء، ولكنّها استمتعت بالتحدّث مع ابنها.

لوّحت بيدها للجميع في المكتب فيما استعجلت الخروج، واستدعت بسرعة سيّارة أجرة لتقلّها إلى المنزل الذي لم يكن يبعد كثيراً عن مكان عملها، واستمرّت تفكّر بكزافييه. عرفت بأنّ أرثر سيكون في انتظارها متلهّفاً لمغادرة المدينة. وكالعادة كان الازدحام كبيراً ككلّ يوم جمعة، ولكن الوضع يتحسّن أكثر إذا انتظرا إلى ما بعد العشاء للانطلاق. بدا الطقس رائعاً، فحتّى في تشرين الأوّل/أكتوبر كان المناخ دافئاً والشمس مشرقة. جلست ساشا في مؤخّرة سيّارة الأجرة وأغلقت عينيها لبرهة، فقد مرّ عليها أسبوع طويل وشعرت بالتّعب.

واعتبرت أنّ الشقّة التي ستذهب إليها هي الشيء الوحيد الذي عليها تغييره في حياتها، فلقد عاشوا فيها لاثنتي عشرة سنة منذ أن انتقلوا من باريس، ومع رحيل الولدين، بدت الشقة كبيرة عليهما. واستمرّت في إقناع أرثر لحمله على بيعها والانتقال إلى منزل أصغر يطلّ على الحديقة العامة في الجادة الخامسة، ولكن في حال عودتهما إلى باريس بعد تقاعد أرثر، اتفقا على التريّث إلى حين وضع خططهما. وإذا انتقلا إلى باريس، فسيكونان بحاجة إلى مسكنٍ صغيرٍ في نيويورك. وللمرّة الأولى في حياتها، شعرت بأنّ الوقت يجري ويمرّ بسرعة، وأحسّت فعلاً بذلك منذ أن تخرّجت تاتيانا وانتقلت للعيش وحدها. وأخذت تشعر بأنّ حياتها الآن فارغة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وخاصّةً مع رحيل الولدين. وكان أرثر يمازحها عندما تقول ذلك، ويذكّرها بأنّها المرأة الأكثر انشغالاً في نيويورك أو خارجها. ولكنّها افتقدت الولدين دائماً، فلطالما شكّلا جزءاً حيوياً ومهمّاً في حياتها، ومع رحيلهما بدأت تشعر بالحزن في بعض الأحيان، وبأنّها أقلّ نفعاً. ولطالما استساغت السفر مع أرثر لقضاء بعض الوقت معاً، فلقد أصبحا مقرّبين أكثر من السابق وازداد حبّهما وشغفهما حتّى بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على زواجهما. ومع الوقت ازداد تعلّقهما ببعضهما البعض.

عــندما وصلت كان أرثر في انتظارها فابتسم ما إن رآها تدخل. كان لا يزال مرتدياً القميص الأبيض الذي ارتداه حين ذهب صباحاً إلى المكتب، ولكنه ثنى الكمّين، ووضع سترته على الكرسيّ فيما كان يوضّب بعض الحاجات في الحقيـبة لقضاء نهاية الأسبوع في منـزلهما في جنوب هامبتونـز. أمّا ساشا فلقـد خطّطت لتحضير السلطة مع بعض الدجاج الجاهز. وفضّلا المغادرة بعد الازدحام الذي كان كثيفاً كما في كلّ نهاية أسبوع من الصيف والخريف.

وبعـد أن طـبع قبلةً على جبينها سألها: "كيف كان يومك؟" كان شعرها الأسـود مرفوعاً كالعادة إلى الخلف بشريط لم تكن تتخلّى عنه إلاّ في نهايات الأسـبوع التـي تمضيها في هامبتونز. فحينها كانت تترك شعرها ليتدلّى على ظهـرها بجديلـة طويلة، وترتدي الثياب القديمة المريحة كسراويل الجينـز، والقمصان الرثّة الواسعة. مبتعدةً بذلك عن الثياب التي ترتديها عادة إلى العمل فـي المعـرض، مما يجلب لها راحة كبيرة. أمّا أرثر فلقد كان يحب أن يلعب لعـبة الغولـف، ويمشي على الشاطئ، إذ كان مولعاً بالإبحار في شبابه تماماً كـولديه، كما كان يحب أن يلعب كرة المضرب مع زوجته. في حين أن ساشا كانـت تمضي معظم وقتها في أعمال الحديقة أو في المطالعة. وكانت تحاول دائماً ألاّ تعمل في عطلة نهاية الأسبوع، إلاّ أنها كانت أحياناً تأخذ معها بعض الأوراق.

علـى غرار شقّتهما في المدينة، أصبح منـزلهما في هامبتونـز كبيراً عليهما، ولكنّ ذلك لم يزعجها كثيراً. إذ لطالما تخيّلت أحفادها يركضون هناك يوماً ما، وغالباً ما كان ولداها يحضران برفقة أصدقائهما لقضاء بعض الوقت. وربمـا شـعرت بـأنّ منـزل هامبتونـز مفعمٌ بالحياة بسبب إطلالته على المحيط، بعكس الشقّة في المدينة التي كانت بالنّسبة إليها باردة ومنعزلة.

وبعد أن قبّلت أرثر اعتذرت منه قائلةً: "آسفة لقد تأخّرت"، وهرعت إلى المطبخ. فبعد كلّ هذه الأعوام، ما زالا مُغرمَين، ويقضيان أوقاتاً مسليّة معاً.

– "اتّصل كزافييه بينما كنت خارجةً من المكتب".

– "كيف حاله؟".

– "بدا ثملاً قليلاً، فقد خرج برفقة أحد الأصدقاء السيّئي السلوك".

– "هل هي امرأة؟" سأل أرثر باهتمام بالغ.

– "كلا، بل خرج مع فنّان. خلع سرواله في المطعم".

– "كزافييه خلع سرواله؟" قال ذلك ونظر باستغراب إلى ساشا التي كانت تقطّع السلطة.

– "كـلا، رفيقه هو الذي خلع السروال، إنّه فنّانٌ آخر مجنون". وهزّت رأسها فيما كانت تضع الدجاج في الطّبق.

وقـف أرثر وتبادلا الحديث بينما كانت تعدّ العشاء، ثمّ جلسا إلى طاولة المطـبخ حـيث وضـعت الأغطية المصنوعة من الكتّان والمناديل والأطباق الجميلة. فلقد كانت تحبّ دائماً أن تقوم بذلك من أجله، أمّا هو فكان يلاحظ هذا ويُطري عليها.

وفـيما سكب لنفسه بعضاً من السلطة التي أعدّتها وبدا مرتاحاً وسعيداً، نظـر إلـى محفظـة الأوراق وقال لها: "لقد جلبت الكثير من العمل معك إلى المنـزل اليوم". فعطلاتهما على الشاطئ كانت مقدّسة بالنسبة لهما، ولم يسمحا أن يعكّرها أيّ شيء باستثناء مرض مفاجئ، أو حدوث أمرٍ لا يمكن تجنّبه. ما عـدا ذلك، كانا في كلّ نهار جمعة سواء أكان الطقس ماطراً أو مشمساً، صيفاً أو شتاءً، يسلكان طريق هامبتونـز عند الساعة السابعة مساءً.

وتابعـا أكل السلطة، ثمّ وضعت له قطعة من الدجاج الذي تركته مدبّرة المنـزل، وقالت له مذكّرةً: "سوف أذهب إلى باريس يوم الأحد".

– "لقد نسيت ذلك، وكم من الوقت ستمكثين هناك؟".

– "أربعة أيام، وربما خمسة، سأكون في المنـزل في نهاية الأسبوع".

وراحـا يـتحدثان كما يفعل أيّ زوجين اعتاد كلٌّ منهما على الآخر. فلم

يتكلّما بأمورٍ مهمّة، فما كان يعنيهما فعلاً هو وجودهما معاً. أخبرها عن تقاعد أحد الموظّفين، وعن صفقة مهنيّة لم تتمّ وفق المخطّط. وحدّثته عن تعاملها مع رسّام جديد وهو شابٌ برازيليّ موهوب. وقالت له بأنّ كزافييه سيحاول المجيء إلى باريس لرؤيتها في الأسبوع المقبل. في الواقع، أحسن كزافييه بفعل ذلك وبوضع جدوله الخاص على عكس تاتيانا التي كانت تحت رحمة المصوّر الذي تعمل لديه. فلقد كان صاحب عملها يمضي ساعاتٍ طويلة في العمل وكانت ترغب بقضاء بعض الوقت مع أصدقائها، ولكنّها كانت تصغر شقيقها بعامين وما زالت تكافح للحصول على استقلاليّتها.

ثمّ سأل آرثر ممازحاً: "من تراها تكون فتاة هذا الأسبوع؟" فهو يعرف ابنه جيّداً وكذلك ساشا. وفيما نظرت إلى آرثر مبتسمة، لاحظت كالعادة بأنّه ما زال يتألّق وسامةً، بقامته الطويلة وجسمه النحيل المتناسق مع ملامحه الجميلة وذقنه القويّة. لقد أغرمت به منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها إلى حياتها، والآن ازداد حبّها له أكثر من السابق، وهي تعلم كم هي محظوظة لوجوده قربها، فالعديد من صديقاتها في نيويورك كنّ مطلّقات أو أرامل، وعاجزات عن إيجاد رجالٍ آخرين. ولم يتوقّفن يوماً عن القول لها بأنّها محظوظة وكانت تعلم ذلك، واعتبرت آرثر حبّ حياتها منذ أن التقت به.

ابتسمت ساشا وقالت له: "آخر مرّة سألته عن صديقاته، كان يخرج مع عارضة للفنّانين التقاها في صفّ الرسم". وكان كزافييه مشهوراً وسط أصدقائه وعائلته بوجود فتياتٍ كثيرات يقفن في الصفّ للتقرّب منه. فهو شابٌ وسيمٌ، طيّب القلب، ولطالما وجدته النساء لا يُقاوَم. وحتّى هو كان يعجز عن مقاومتهنّ. وأضافت ساشا وهي ترفع الأطباق عن الطاولة: "لم أعد أسأله عن أسمائهنّ"، فنظر إليها زوجها مبتسماً وهي تضع الأطباق في غسّالة الصحون. كانت حياتهما في تلك الأيام هادئة، وغير متكلّفة خلافاً للماضي عندما كان الولدان ما زالا في المنزل. حينها كانوا يجتمعون كلّهم حول المائدة مساء. أمّا الآن، فيتناولان عشاءً خفيفاً وسهل التحضير في المطبخ.

وتابعت ساشا قائلة: "لم أسأل كزافييه عن أسماء صديقاته منذ مدّة، ففي كلّ مرّة أدعو واحدة منهنّ بالاسم، يتبيّن أنّه انفصل عنها منذ فترة وحصل على خمس صديقاتٍ من بعدها. أصبحت الآن أعرف". ضحك آرثر على تعليقها، وذهب ليبدّل ثيابه فارتدى سروالاً كاكيّ اللون وقميصاً مريحاً، وفعلت ساشا مثله.

وبعد عشرين دقيقةً، كانا مستعدّين للمغادرة، واستقلا شاحنة ساشا المقفلة التي تشبه القاطرة والتي احتفظت بها بعد رحيل الولدين لأنّها مفيدة لنقل أعمال الفنّانين الشباب. وضعت بعض البقالة في الخلف بالإضافة إلى أكياس للنوم لكلٍّ منهما. وكانا يحتفظان بثياب البحر في هامبتونز، ولذلك لم يُضطرّا لحمل الكثير من الأغراض. كما أخذت معها حقيبة السفر التي أعدّتها للذهاب إلى باريس والمحفظة المليئة بالأوراق. فلقد فكّرت ساشا بالذهاب إلى المطار مباشرةً من هناك صباح يوم الأحد فيكون عليها الانطلاق عند الفجر للوصول إلى باريس قبل حلول منتصف الليل. وكانت أحياناً تستقلّ الرحلة الليليّة ولكنّ الأمر لم يكن مستعجلاً ففضّلت أن تسافر في الرحلة النهاريّة على الرغم من أنّها تكره تفويت قضاء يوم الأحد مع آرثر.

وصلا إلى هامبتونز في العاشرة ليلاً، واستغربت ساشا بأنّها كانت منهكة القوى. فلقد كان آرثر يتولّى القيادة كالعادة، في حين تغط هي في النوم على الطريق لذا فرحت لأنهما أويا إلى الفراش قبل منتصف الليل، بعد أن جلسا على الشرفة قليلاً لمشاهدة المحيط المتلألئ تحت ضوء القمر. بدا الطقس دافئاً ومعتدلاً والسماء صافية وبلّوريّة. وغرقا في نوم عميق ما إن وضعا رأسيهما على الوسادة.

وكعادتهما على الشاطئ، مارسا الحبّ عندما استيقظا في الصباح، ثمّ تمدّدا وتعانقا. فلم يعانِ حبّهما من أي ركودٍ أو مللٍ خلال كلّ تلك السنوات، بل ازداد تآلفهما وتأجّجت مشاعرهما. وبعد ذلك استحمّا، وقصدا المطبخ معاً وأعدّت ساشا الفطور ومشيا طويلاً على الشاطئ، إذ كانا يحبّان فترات الصباح

المسليّة التي يقضيانها هناك. كان يوماً جميلاً بطقسه الحار والمشمس حيث اختفت النسمات أيضاً، رغم أنّه الأسبوع الأوّل من تشرين الأول/أكتوبر، وقريباً سيرشّ الخريف بعض البرد في الجوّ غير أنّ رائحة الصيف ما زالت تفوح في الأجواء.

اصطحب أرثر ساشا مساء السبت للعشاء في مطعمٍ إيطاليّ يحبّانه. وجلسا بعد ذلك على شرفة المنزل، واحتسيا الشراب وتبادلا الحديث. وبدت الحياة سهلةً ومطمئنة. وفي تلك الليلة، ذهبا إلى الفراش باكراً لأنّه كان على ساشا النهوض باكراً في اليوم التالي للوصول إلى المطار والالتحاق بالرحلة المتّجهة إلى باريس. لم تحبّ أبداً الابتعاد عن أرثر، ولكنّ ذلك كان أمراً محتّماً وعاديّاً في حياتهما، فلم تشكّل أربعة أو خمسة أيّام فترةً طويلةً. تلك اللّيلة، نامت متلاصقةً به، وأحاطته بذراعيها، وعانقته عندما غفت. كان يتوجّب عليها النهوض عند الرابعة فجراً والانطلاق عند الخامسة للوصول في الساعة السابعة صباحاً إلى المطار، ومن ثم السفر في رحلة الساعة التاسعة صباحاً التي تحطّ في باريس عند التاسعة مساءً. وفي باريس ستستغرق الرحلة ساعتَين للوصول إلى منزلها لتنال قسطاً من الراحة قبل أن تباشر العمل في اليوم التالي.

عندما دقّ المنبّه عند الساعة الرابعة، سمعته وأطفأته فوراً، ثمّ عانقت أرثر طويلاً ونهضت من الفراش متسلّلةً إلى الحمّام على أصابع رجلَيها لئلا توقظه، وارتدت سروال جينز أزرق وقميصاً أزرق وانتعلت حذاءً مريحاً، فلقد توقّفت منذ مدّة عن ارتداء ثياب أنيقة في الرحلات الطويلة، وبدت لها الراحة أهمّ عنصرٍ خصوصاً أنّها لطالما نامت على متن الطائرة. وقفت طويلاً تتأمّل أرثر قبل أن تغادر، ثم انحنت لتقبّل جبينه برفقٍ كي لا توقظه. فتحرّك إلى الجانب الآخر كالعادة، وكان يبتسم أثناء نومه. ونظر إليها بعينَين نصف مغمضتَين، وابتسم أكثر فيما مدّ يده وشدّها نحوه.

همس في أذنها: "أحبّك ساش، عودي سريعاً، سأشتاق إليكِ". كان دائماً

يقول لها عبارات حبٍّ كثيرة وأحبّته أكثر لدى سماعها. قبّلت وجنته وردّت الغطاء عليه كما كانت تفعل مع الولدين في صغرهما.

وهمست في أذنه: "أنا أيضاً أحبّك، عُد إلى النوم، سأتّصل بك فور وصولي إلى باريس". لطالما فعلت ذلك، وعلمت بأنّها تستطيع مكالمته قبل أن يعود إلى المدينة، وتمنّت لو تبقى بجانبه.

سيكون أمراً رائعاً عندما يتقاعد ويصبح بإمكانه السفر معها إلى أيّ مكان، أحبّت هذه الفكرة أكثر من قبل، وخاصةً عندما أقفلت باب الغرفة وراءها وخرجت من المنزل. كانت قد اتّصلت بسيّارة أجرة منذ الأمس، لذا كان السائق ينتظرها في الخارج من دون أن يقرع جرس المنزل كما طلبت منه. أعلمته عن الرحلة التي ستسافر على متنها وعن مكان المطار، ثمّ نظرت من النافذة وابتسمت بينما انطلقت السيّارة. كانت تدرك تماماً النِّعم التي حصلت عليها، فهي امرأة محظوظة وسعيدة في حياتها ولديها زوجٌ تحبّه ويحبّها، وولدان رائعان، ومعرضان ناجحان يؤمّنان لها الفرح والحياة الجيّدة. لم تكن تريد أكثر من ذلك، ولم تتمنَّ الحصول على المزيد، فساشا سوفيري بوردمان كانت قانعةً بكلّ ما لديها في الحياة.

الفصل الثاني

كانت الرحلة إلى باريس هادئة. فعلى متن الطائرة، تناولت ساشا الغداء، ثمّ شاهدت فيلماً ونامت لثلاث ساعاتٍ إلى أن هبطت الطائرة في مطار شارل ديغول. عرفت جميع العاملين على متن الرحلة وكذلك ضابط الجمارك، وكانوا كلّهم يعرفونها فسهّلوا مرورها. وكانت راكبةً سهلةً ومسليّةً، لا تشرب سوى الماء على متن الطائرة. وكانت منكبّة على عملها بغية تجنّب تأثير فارق الوقت. تناولت في الرحلة طعاماً خفيفاً وشربت الماء وأخذت قسطاً من النوم، ثمّ خلدت إلى الفراش ما إن وصلت إلى المنزل. عرفت بأنّها ستكون على ما يرام في الصباح، فعدّلت ساعتها مع التوقيت المحلّي بعد اعتادت على فارق الوقت بين باريس ونيويورك لمدى اثني عشر عاماً.

بدا الطقس ماطراً وبارداً في باريس على الرغم من أنّه كان صيفيّاً وحاراً في نيويورك. جلبت معها وشاحاً من الكشمير لتضعه فوق سترتها عندما تخرج من الطائرة، وكالعادة كان هناك سائق بانتظارها. تحدثّا عن الطقس والرّحلة بينما كان يوصلها إلى المنزل الذي كان هادئاً عندما وصلت إليه. وكانت مديرة المنزل التي تأتي يومياً للتنظيف قد تركت طعاماً في البرّاد كالعادة. وما إن دخلت ساشا إلى المنزل حتّى أسرعت إلى الهاتف واتّصلت بأرثر الذي بدا سعيداً لسماع صوتها. كانت الساعة الخامسة من بعد الظهر بتوقيت نيويورك، وكان أرثر على وشك المغادرة والعودة إلى المدينة.

وبعد أن أخبرته عن طقس باريس الممطر، قال لها: "اشتقت إليك". فهي تنسى أحياناً كم يكون الشتاء محبطاً في باريس. ثمّ أضاف ممازحاً: "ربّما عليك افتتاح معرضٍ في ميامي". وكان يعلم بأنّها رغم رداءة الطقس الباريسي،

إلاّ أنها كانت تودّ في قرارة نفسها الانتقال مجدّداً والسكن هناك، وبأنها تأمل أن تقوم بذلك في الأعوام المقبلة عندما يتقاعد. وقد استمتع هو أيضاً بالعيش في باريس في الفترة الأولى من زواجهما، وأحبّ كلتا المدينتين. وإنّما ما كان يهمّه أكثر هو وجوده بقربها ومشاركتها جميع لحظات حياتها.

ثمّ قالت له: "سأذهب إلى بروكسيل يوم الثلاثاء، عليّ لقاء أحد الرّسامين الجُدد ورؤية رسّام آخر سبق وتعاملنا معه".

– "حاولي أن تعودي في نهاية الأسبوع فحسب". فقد خطّطا للذّهاب إلى حفلة عيد ميلاد إحدى صديقاتها التي أصبحت أرملةً منذ عام، وبدأت للتوّ بمواعدة رجلٍ جديدٍ لم يستلطفه أحدٌ. كانت قد واعدت عدّة رجالٍ خلال العام المنصرم، ولم ينل أحدهم حظوةً في محيط أصدقائها الذين أحبّوها فعلاً، وتمنّوا أن يختفي هذا الرجل الجديد قريباً من حياتها. أمّا زوجها الذي كان أحد أصدقاء أرثر المقرّبين، فتوفّي بعد نزاعٍ طويلٍ وبطيءٍ مع مرض السرطان عن عمر بلغ اثنين وخمسين عاماً. وكانت زوجته في مثل سنّه أيضاً، ولطالما أطلقت العنان لنكاتها السيّئة حول عودتها عازبة بعد تسعة وعشرين عاماً من الزواج. وأسف أرثر وساشا لحالتها وتحمّلا لقاءاتها المروّعة، وعرفت ساشا أكثر من أيّ شخص آخر بأنها تشعر بالوحدة.

وتابعت ساشا بإطلاع أرثر على جدولها الحافل: "سأحاول العودة يوم الخميس أو الجمعة. أودّ أن أرى كزافييه ويعتمد موعد عودتي على الوقت الذي يستطيع فيه كزافييه المجيء لزيارتي".

– "أبلغيه تحيّاتي". ثمّ تكلّما لدقائق أخرى وبعد أن أنهت المكالمة، أعدّت لنفسها السلطة، واطّلعت على بعض الأوراق التي تركها لها مدير المعرض، وقرأت بريدها في باريس. فقد كان زاخراً بالدعوات إلى العديد من الحفلات، وبالإعلانات عن افتتاح معارض فنيّة، بالإضافة إلى وجود رسالة من صديق. نادراً ما كانت تذهب إلى دعوات العشاء في باريس باستثناء تلك التي تأتي من زبائن بارزين، فتضطرّ عندها للذهاب. ولم تكن تحبّ الذهاب بدون أرثر،

واستمتعت بالحياة الهادئة التي يعيشانها باستثناء تلبية بعض الدعوات الفنيّة، وتناول العشاء مع الأصدقاء المقرّبين.

اتّصلت بكزافييه كما وعدت، ولكنّه لم يكن في المنزل، فتركت له رسالةً على المجيب الآلي. ثم أوت إلى الفراش عند منتصف الليل، ونامت حتّى الثامنة صباحاً عندما استيقظت على صوت المنبّه. كان الطقس ماطراً، وحجب الضباب الرؤية وكأنّ الشتاء كان في أوجه. عند الساعة التاسعة والنصف، ارتدت معطفها وعبرت الفناء بسرعة متوجّهةً إلى المعرض حيث التقت مدير المعرض عند العاشرة. كانت صالة العرض تُقفل يوم الاثنين، ممّا منحهم جميعاً يوماً هادئاً وملائماً للعمل. انشغلت مع المدير برنارد في التخطيط للعروض، وإضافة جداول العام المقبل.

تناولت الطعام في المكتب، ومرّ بعد الظهر بسرعة. كانت الساعة تقارب السادسة عندما أبلغتها السكرتيرة بأن ابنتها تودّ مكالمتها على الهاتف. كان كزافييه يتّصل بها أكثر ممّا تفعل تاتيانا، وكلّمها مرّتين في ذلك اليوم، واتّفقا على أن يأتي لتناول العشاء معها مساء الأربعاء لتتمكّن من العودة إلى أرثر يوم الخميس. رفعت ساشا السمّاعة وهي تبتسم، إذ توقّعت المزيد من شكاوى تاتيانا عن صاحب عملها المصوّر وأملت ألا تكون قد استقالت من العمل. فهي عنيدةٌ في بعض الأحيان، ولا تحبّ أن تكون تابعة للآخرين أو أن تُعامَل بقسوة. وكانت ساشا تعلم بأنّ ابنتها تعتقد أنّ صاحب عملها لا يعاملها جيّداً، فمع حصولها على شهادةٍ في الفنون الجميلة من جامعة براون، توقّعت عملاً أفضل من إعداد القهوة له، وتنظيف الأستوديو بعد مغادرته.

– "مرحباً عزيزتي"، قالت ساشا بالفرنسيّة بدون انتباه، وتفاجأت بالصمت في الجهة الأخرى من الهاتف. واعتقدت بأنّ الخطّ انقطع، وبأنّ تاتيانا ستعاود الاتصال، وكانت على وشك إقفال الخطّ عندما سمعت صوت أنينٍ بدا وكأنّه صوت حيوانٍ متألّم، فسألت: "تاتي؟ أهذه أنت؟ عزيزتي ما الأمر؟" أدركت الآن بأنّه صوت ابنتها تجهش بالبكاء وتنتهد. استغرقت بعض

الوقت لتجيب: "أمّي... تعالي إلى المنـــزل..." وللحال، بدا من صوتها وكأنّها تقدّمت في العمر خمسة أعوام.

– "مـــا الذي حدث؟ هل طُردتِ من العمل؟" كان ذلك الأمر الوحيد الذي استطاعت ساشا التفكير فيه، فلم تكن تاتيانا على علاقة حبّ لتعاني أزمةً عاطفيّة.

أجابـت: "إنّـه أبـي..."، ثمّ انفجرت بالبكاء مجدّداً، فيما كاد قلب ساشا يتوقّف ويخرج من جسمها. ماذا يمكن أن يكون قد حصل له؟

– "تاتيانا أخبريني ماذا حدث، بسرعة، أنتِ تخيفينني".

– "اتّصلوا بي من مكتبه منذ دقائق..." كانت الساعة تقارب الظهر في نيويورك، وعرفت ساشا أنّه لو حصل معه أيّ حادثٍ على الطريق لكانوا اتّصلوا بها مساء أمس، فلقد كان أرثر يحمل معه كلّ أرقام هواتفها، وكذلك تفعل هي.

– "هل هو بخير؟" أحسّت ساشا بانقباضٍ في قلبها، فيما استمرّت تاتيانا بالبكاء.

– "تعرّض لنوبة قلبيّة... في مكتبه... واتّصلوا بالإسعاف..".

– "يا إلهي..." أغمضت ساشا عينيها، وانتظرت سماع بقيّة القصّة بينما كانت يداها ترتجفان وهي تمسك بالهاتف.

– "أمّـي... لقد مات". وفجأةً توقّف العالم بالنّسبة لساشا، وانقلبت الغرفة رأساً على عقب. ومن دون أن تدرك، أمسكت الهاتف بيدٍ وتشبّثت بالمكتب الذي كان لوالدها باليد الأخرى لتحافظ على توازنها. وشعرت بأنّها تقع في هاويةٍ عميقة لا نهاية لها.

– "لا ليس صحيحاً، لا بدّ أنّه خطأ"، وكأنّها كانت تحاول تكذيب الأمر أو تجنّب حدوثه. "ليس صحيحاً!" صرخت ساشا بينما انهمرت الدموع من عينيها، وشعرت أنّ كلّ جزء من جسمها تلقّى صدمةً كهربائيّة قاتلة بينما كانت تصارع لتتنفّس.

ثمّ قالت تاتيانا في ما يشبه العويل: "بلى، هذا صحيح، اتّصلت بي السيّدة جانكيس. نقلوه إلى المستشفى، ولكنّه فارق الحياة على الفور. أمّي... عودي إلى المنـزل..".

– "أنا قادمة". وقفت ساشا بينما علت وجهها نظرةُ هلعٍ، وجالت عيناها في الغرفة كأنّها تنتظر أحداً لمساعدتها، أو ليقول لها بأنّ هذا كلّه كابوسٌ فحسب. ولكنّ أحداً لم يأتِ، بقيت وحدها في الغرفة. ثمّ سألت ابنتها: "أين أنتِ؟".

– "في العمل".

– "حسناً اذهبي إلى البيت... لا، لا تذهبي إلى البيت. اذهبي إلى المعرض، لا أريدك أن تكوني وحدك. قولي لهم ما حصل وسيتفهّمون".

ولكن كلّ ما كانت تاتيانا تفعله هو البكاء في الجهة الأخرى من الخطّ. عرفت ساشا بأنّ ثمّة رحلة متوجّهة إلى نيويورك عند الساعة التاسعة مساءً، وبذلك تصل إلى نيويورك بعد سبع ساعات. كان الوقت أبكر بستّ ساعاتٍ في نيويورك، أي أنّها ستكون في المدينة عند الحادية عشرة ليلاً بتوقيت نيويورك، والخامسة فجراً بتوقيت باريس. وفكّرت بأنّ مساعدتها المخلصة ستهتمّ بتاتيانا، وتأخذها إلى شقّة والديها. فقالت: "ابقي حيث أنتِ تاني، سأطلب من مارسي أن تقلّك". عملت مارسي لدى ساشا منذ أن افتتحت صالة العرض. إنها امرأة لطيفة في العقد الرابع من عمرها، لم تتزوّج أبداً وليس لديها أيّ أولاد فكانت تعتبر ساشا كابنتها. ثمّ عادت للتحدّث مع تاتيانا بعد الصمت الذي ساد: "أحبّك تاني، سأحاول الوصول إلى المنـزل في أسرع وقتٍ ممكن". عندما وضعت ساشا سمّاعة الهاتف كانت ترتجف من رأسها حتّى أخمص قدميها. وفي لحظة جنونٍ، اتّصلت بهاتف أرثر المحمول. فأجابت مساعدته السيّدة جانكيس التي كانت على وشك الاتصال بساشا، ولكنّ تاتيانا سبقتها إلى ذلك. وللحظة، اعتقدت ساشا بأنّ أرثر سيجيب على الهاتف ولكنّه كان صوت السيدة جانكيس: "أنا آسفة للغاية سيّدة بوردمان... أنا آسفة... حدث كلّ شيء بسرعةٍ كبيرة،

لم أعرف... لم يتّصل بي... رأيته قبل خمس دقائق، وعندما عدت لأحضر له أوراقاً ليوقّعها، وجدته مُلقىً على مكتبه. كان قد فارق الحياة. حاولوا إنقاذه ولكنّهم لم يستطيعوا فعل أيّ شيء". ولم تخبر ساشا عن المشهد المرعب الذي رأته عندما حاولوا إنعاشه وفشلوا. كانت تبكي هي أيضاً: "سأفعل كلّ ما بوسعي. هل من أحدٍ عليّ الاتصال به؟ المستشفى؟ دار الجنازة؟ أنا آسفة جداً..".

– "لا، سأقوم بكلّ شيء عندما أصل إلى المنزل". أو ستقوم مارسي بذلك، فلم ترغب ساشا بأن يتولّى أحدٌ اتّخاذ القرارات بشأن زوجها، ولكنّها لم تكن تودّ أن تفعل ذلك بنفسها أيضاً. في البداية كان عليها الاتصال بابنهما.

للحال، أخبرت ساشا مساعدتها في باريس أوجيني بما حدث، وطلبت منها أن تحجز لها مقعداً على الطائرة، وأن تقوم بإحضار أغراضها. ذُهلت مساعدتها في بادئ الأمر، ولم ترغب في تصديق ذلك، ولكنّها عندما نظرت إلى وجه ساشا، عرفت أنّ الخبر صحيحٌ. بدت ساشا كلوحٍ أبيض بدون حراك وكأنّها في صدمةٍ. ورأت أوجيني يديّ ساشا ترتجفان كالورقة عندما رفعت سماعة الهاتف للاتصال بكزافييه.

غادرت أوجيني الغرفة، وعادت حاملةً كوباً من الشاي، ثمّ اختفت مجدّداً لتقوم بترتيبات الحجز للسفر. في هذا الوقت، كانت ساشا تجهش بالبكاء فيما كانت تتحدّث مع كزافييه الذي بدا مذهولاً مثلها تماماً. اقترح عليها أن يسافر إلى باريس لملاقاتها والعودة معها إلى المنزل. ولكنّها كانت تعلم أنّه في حال تأخّرت رحلته، سيُضيّعان بعضهما. فطلبت منه موافاتها مباشرةً إلى نيويورك في الليلة ذاتها إن استطاع. لن يشكّل وصوله باكراً فارقاً بالنّسبة إلى والده، ولكنّه سيساعدها هي وتاتيانا. بكى كزافييه بهدوءٍ عندما أقفل الخطّ. وكانت بقيّة اللّيل مشوّشة للجميع.

وضّبت أوجيني حقائب ساشا كما طلبت منها، وألغت جميع مواعيدها لذلك الأسبوع، فعلى رحلتها إلى بروكسيل الانتظار بعد أن انهارت كلّ حياتها

بلحظة. بقيت ساشا عاجزةً عن تصديق الأمر ولم ترد حتّى المحاولة. أوصلتها مساعدتها ومدير المعرض إلى المطار، ووضعاها على متن الطائرة بعد أن عانقاها كوالدين قلقين على بنتهما. وبعد أن أصبحت في الطائرة، شرحا للعامل على البوّابة ما حصل. وكانا خائفين عليها في أثناء الرحلة، فقد عرض عليها برنارد المدير مرافقتها ولكنّها رفضت وندمت على قرارها عندما أقلعت الطائرة. اجتاحتها موجةٌ من الهلع القويّ، وخافت أن تُصاب هي أيضاً بنوبةٍ قلبيّةٍ. وتنبّه أحد المضيفين على الطائرة بأنّ لون ساشا تغيّر ليصبح أخضر، وبأنّها راحت تتعرّق بشدّة، فغطّوها ببطّانيّاتٍ، وطلبوا من المسافر إلى جانبها الانتقال إلى مقعدٍ آخر، وجلس الضابط المسؤول بجانبها لوقتٍ قصير. سألوها إن كان بحوزتها أدوية مسكّنة، فأجابت بالنّفي، وبأنّها لا تأخذ أبداً منها. غير أنّها لم تفقد زوجها أبداً من قبل، حتّى أنّها لم تشعر بهذا الحزن عندما توفّي والدها. ولكنّه كان يبلغ تسعة وثمانين عاماً آنذاك، ولطالما حذّرها بأنّ تلك اللحظة ستأتي يوماً ما وكانت تعرف ذلك، إذ تحضّرت لها بطريقةٍ أو بأخرى. ولكنّها لم تتحضّر لهذا. ليس لوفاة أرثر. هو الذي عبّر لها عن حبّه قبل يوم فقط عندما تركته نائماً في هامبتونز وقد رحل الآن. لم يكن بإمكانها تصديق ذلك، ولم تتوقّع حدوثه، ولكنّه للأسف قد حصل. وتذكر أنّ المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بعجزها، وضعفها، وخروجها عن السيطرة على نفسها عندما كانت في التاسعة من عمرها عند وفاة والدتها. وأحسّت بأنّها الآن طفلةٌ يتيمة مجدّداً. بكت طوال الرحلة إلى نيويورك. وبعد أن اتّصل برنارد من باريس، حضرت مارسي إلى المطار وانتظرت ساشا التي خرجت من باب الجمارك. وكانت مارسي قد تركت تاتيانا مع أحد الأصدقاء في المنزل.

لم تسألها مارسي عن حالها، فلا حاجة لذلك، إذ كان واضحاً بأنّ حالتها مزرية، وبالكاد استطاعت الكلام. كانت ساشا المرأة الأكثر قوّةً وصلابةً التي عرفتها مارسي، ولكنّها بدت منهارةً وخائرة القوى بالكامل. ضمّتها مارسي، وعانقتها بقوّة، ثمّ أخرجتها من المطار بينما كانت ساشا تبكي بمرارة والغرباء

ينظرون إليها. وضعتها في السيّارة وانطلق السّائق باتّجاه نيويورك. لم يكن بإمكانها الكلام بسبب ذهولها وفي منتصف المسافة أخذت تتحدّث كمن يهذي وتطرح الأسئلة التي لم يكن من المهمّ الإجابة عليها حاليّاً. لم تعد الأشياء ولا الأشخاص والأمكنة والتواريخ مهمّة الآن، فأرثر قد رحل. رحل من دون إنذارٍ أو جلبةٍ. رحل حتّى من دون توديع أولاده أو زوجته. هكذا، بكلّ بساطة، رحل.

وكان اللقاء بين ساشا وتاتيانا بعد نصف ساعةٍ في المنزل مؤلماً وحزيناً. أمّا مارسي فجلست بصمتٍ وبكت. وشعرت بأنّها عاجزة، ثمّ حضّرت بعض الشطائر التي لم يأكل أحد منها، وسكبت الماء والقهوة فلم يشرب أحدٌ أيضاً. وحاولت مارسي أن تقنع ساشا بشرب شيء ما، ولكنّ ذلك لم ينفع. وفي الساعة الثانية فجراً، وصل كزافييه من لندن. وكان قد طلب من أحد أصدقائه أن يقلّه من المطار، وهو أحد الفنّانين الشباب. وقف تماماً وراء كزافييه الذي دخل من الباب وأسرع نحو أمّه. طوّقها هي وتاتيانا بذراعيه، ووقف الثلاثة متعانقين وهم يذرفون الدموع. كاد المشهد يقتل مارسي. جلسوا وتحدّثوا طوال الليل، أمّا الشطائر التي أعدّتها مارسي فكانت من نصيب صديق كزافييه وحده.

حلّ الصباح وانقشعت الحقيقة المجرّدة. ذهبت ساشا إلى المستشفى وأصرّت على رؤية زوجها، أرادت البقاء معه بمفردها. وعندما خرجت من الغرفة، بدت كالشّبح، ولكنّها لم تكن تبكي بل كانت في حالة صدمة بعد أن ودّعته. ثمّ انطلقوا إلى دار الجنازة للقيام بالترتيبات. كما أتى الوزير لزيارتها في الشقّة، وكانت مارسي برفقتها طوال الوقت. أمّا كزافييه فذهب مع تاتيانا إلى شقّتها. وبعد أن غادر الوزير، نظرت ساشا إلى مارسي قائلةً: "هل يحصل ذلك فعلاً؟ لا أستطيع التصديق، ما زلت أنتظر أن يأتي أحدهم ويقول لي بأنّها مزحة رهيبة. ولكنّ الأمر ليس كذلك صحيح؟" أجابت مارسي بتحريك رأسها نحو الأسفل.

لقد أصبح النهار في نهايته، وكانت ساشا لا تزال بحالة صدمة، وبدت شاحبة كالأموات. تلك الليلة، تناولوا البيتزا فقط وخلدت تاتيانا إلى النوم في سريرها القديم، في حين خرج كزافييه برفقة أصدقائه وعاد ثملاً إلى المنزل. جلست ساشا في غرفة الجلوس وراحت تحدّق في الفضاء، فلم تستطع دخول غرفة نومهما. كان هو جلّ ما أرادت، هو ولا أحد سواه. وعندما أوت أخيراً إلى الفراش، بدت متعبة ومنهكة، ولكنّها استطاعت أن تشمّ رائحة عطره على الوسادة، فوضعت وجهها عليها وبكت. بقيت مارسي معها في تلك الليلة ونامت على الأريكة، كانت صديقةً بحقّ. قضت ساعاتٍ من الليل تتّصل بأصدقائهم وتعلمهم بشأن الجنازة. كما اتّصلت بصالة العرض في باريس، كلّهم هناك سيحضرون.

طلبت مارسي الأزهار، واختارت ساشا الموسيقى. وبدأ الأصدقاء بالتّوافد وتقديم المساعدة. وتمّ اختيار الذين سيواكبون أرثر من بين أعزّ أصدقائه وشركائه. وشعرت ساشا بأنها ستموت عندما أرادت اختيار ملابسه، وبطريقةٍ ما وصلوا جميعاً مرتدين ثيابهم إلى الجنازة في الوقت نفسه. وبعد إتمام المراسم، حضر المعزّون إلى المنزل. وعند انتهاء كلّ ذلك، لم تعد ساشا تتذكّر شيئاً، لا الأزهار ولا الموسيقى ولا حتّى الأشخاص الذين حضروا. بدت طبيعيّةً وهادئة وحافظت قدر المستطاع على رباطة جأشها. ولكنّها كانت مفجوعة ومصدومة، وكذلك الولدان. تمسكوا الواحد بالآخر كركّاب سفينةٍ على وشك الغرق فيما كانت المياه تغمرهم. وأتى الجزء الأصعب في اليوم التالي. إذ كان عليها مواجهة الحياة بدون أرثر، وتخطّي الأيام المرعبة وحدها. فاق ألمها الحدّ المعقول، فكان أشبه بجراحةٍ من دون تخدير. وصعب عليها أن تتخيّل كيف ستستيقظ في الصباح ولا تراه إلى جانبها، ولن تراه أبداً مجدّداً. كلّ ما بدا في الماضي رائعاً وسعيداً وسهلاً، أصبح الآن عذاباً مرّاً، وألماً شديداً. أيّ انتصاراتٍ ستحقّق وهو ليس معها؟ وأيّ صباحٍ سيطلع وهو ليس إلى جانبها؟ وأيّ أحلامٍ ستكون وهو ليس فيها؟

لم يعد لحياتها أيّ معنىً بدونه، ولم يعد هناك من سببٍ لحياتها غير ولدَيها.

بعد أسبوعين، عاد كزافييه إلى لندن، وغالباً ما كان يتصل بوالدته. أمّا تاتيانا فعاودت عملها بعد أسبوع وكانت ساشا تهاتفها يومياً، وفي معظم الأحيان كانت تاتيانا تبكي لدى سماع صوت والدتها. ووجدت ساشا الراحة الوحيدة في الحديث مع صديقاتها اللواتي مررن بالتجربة ذاتها، إلى جانب تلقّيها المساندة من موظّفيها، والدّعم المطلق من مارسي. فعلى الرغم من أنّ التحدّث معهنّ بالأمر كان يحبطها، إلاّ أنهن كنّ يخبرنها بصراحة بما يجدر بها توقّعه، ولم يبدُ أيّ من ذلك مشجّعاً.

ولأخبرتها ألانا أبلوبوم التي كان زوجها صديق أرثر، والتي فوّتت ساشا عيد مولدها لأنّ جنازة أرثر جرت قبل يوم من ذلك، بأنّ العام الأوّل من وفاة زوجها كان عذاباً دائماً من بدايته وحتى النهاية. ولا تزال في بعض الأحيان تشعر بهذا العذاب الأليم. ولكن، بعد مرور عام، بذلت جهداً كبيراً للخروج برفقة رجالٍ آخرين، ولكن معظمهم كانوا أنذالاً، ولم تلتقِ رجلاً محترماً بعد غير أنّها على الأقلّ لم تجلس في المنزل بمفردها وتبكي.

وترى صديقة أخرى لساشا في باريس خسرت زوجها منذ ثلاثة أعوامٍ في حادث تزلّج في فال ديزير الأمر بشكلٍ مختلف. فهي تفضّل البقاء وحدها على أن تتواجد مع حمقى. وكانت تبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، وأصبحت أرملةً في الثانية والأربعين. وتضيف بأنّه ما من رجالٍ محترمين متوفّرين، فكلّ الجيّدين كانوا متزوّجين، أمّا الآخرون فأنذال أو أسوأ. وأصرّت على أنّها سعيدة في البقاء بمفردها. ولكن ساشا تنبّهت بأنّ صديقتها بدأت تشرب الكحول بكثرةٍ في العامَين المنصرمَين. وغالباً ما تكون ثملةً وبحالٍ سيئة عندما تتّصل بساشا لمواساتها فلا تحتسب فارق التوقيت بين البلدَين.

وعلّقت ساشا على مكالمات صديقتها مع مارسي قائلةً: "لعلّ الطريقة الأفضل للتغلّب على الأمر هي أن يصبح المرء سكّيراً". أحبطها الاستماع إلى الأرامل، وحتّى المطلّقات من صديقاتها لم تكن حالتهنّ أفضل. صحيحٌ أنّه ما

كان عليهنّ العيش مع الحزن الكبير، ولكنّهن كنّ يختبئن وراء كرههنّ لأزواجهنّ السابقين، وخصوصاً إذا تركهنّ أزواجهنّ لأجل نساءٍ أصغر سنّاً. وشعرت بالخوف من الاستماع إلى كلامهنّ جميعاً، فكانت تتجنّب الحديث معهنّ، وتعزل نفسها وتحاول أن تغرق في العمل. ونجح ذلك في بعض الأحيان، ولكنّه فشل في أحيانٍ أخرى كثيرة.

حلّ عيد الميلاد الأوّل بعد رحيل أرثر، وانتهى مطبوعاً بكربٍ وبسلسلةٍ من العذاب الذي كان تارة صغيراً وطوراً كبيراً. أمضى كزافييه وتاتيانا ليلة العيد معها وعند منتصف اللّيل، كانوا جميعاً في غرفة الجلوس يبكون. ولم يشأ أحدٌ فتح الهدايا وخاصةً ساشا. قدّمت لها تاتيانا وشاحاً من قماش الكشمير لأنّها غالباً ما كانت تبدو باردةً ربّما بسبب قلّة الأكل والنوم. وأهداها كزافييه مجموعة كتبٍ عرف أنها بحاجةٍ إليها. ولكنّه لم يكن عيداً من دون أرثر.

في اليوم التالي، ذهب ولداها للتزلّج مع بعض الأصدقاء. وليلة رأس السنة تناولت دواءً منوّماً عند الثامنة مساءً، ولم تستيقظ سوى عند الثّانية ظهراً من اليوم التالي ممتنّةً ومرتاحةً لأنّها فوّتت هذه الليلة. لم يعْتادا هي وأرثر على القيام بشيءٍ مميّزٍ وخاصٍ لليلة رأس السنة، ولكنّهما على الأقلّ كانا معاً.

لم تشعر مجدّداً بأنّها حيّةٌ تقريباً حتى حلول شهر أيّار/مايو أي بعد سبعة أشهرٍ على وفاة أرثر. فكلّ ما فعلته خلال تلك الفترة كان السّفر مرّةً في الشهر إلى باريس حيث كانت تتجمّد من البرد بمفردها في المنزل ليلاً، وتسارع قدر المستطاع إلى إنهاء عملها للعودة إلى نيويورك. وخلال هذه الأشهر فوّضت كِلا المديرَين في المعرضَين لتولّي العمل، وكانت ممتنّةً للمساعدة التي قدّماها.

فمن دونهما لما استطاعت الاستمرار، ولكانت تائهةً ضائعةً. وكانت أيّام الأحد أسوأ أيّام الأسبوع سواء في باريس أو نيويورك لأنّها لا تستطيع الذّهاب إلى العمل. كما أنّها لم تقصد منزلهما في هامبتونز منذ وفاة أرثر، ولم تشأ العودة إليه وحدها، ولكنّها لم تفكّر أبداً في بيعه بل تناست الموضوع، وسمحت

لـولديها باسـتعماله متى أرادا. أمّا هي فلم تكن ترغب بالذّهاب إليه على كل الأحـوال، ولم تعرف ماذا تفعل ببقيّة حياتها. واستمرّت في العمل الذي أصبح مجـرّداً من أيّ فرحٍ أو سعادة، ولكنّه كان الجزء الوحيد المتبقّي لتشغل نفسها بـه. وبدا كلّ شيء آخر أشبه بصحراء من اليأس، فهي لم تشعر أبداً بالضّياع أو بفقدان الأمل من قبل.

كـان مديـرا المعرضيْن، وحتّى مارسي، يحثّونها على الخروج ورؤية الأصـدقاء. ولكنّها لم تجب على أيّ من المكالمات، ولم تلبِّ أيّ دعوات لعدّة أشـهرٍ. ولـم تكن تتلقّى سوى مكالمات العاملين لديها في المعرض، حتّى أنّها كانـت تحوّل بعضها إلى أشخاصٍ آخرين متى استطاعت. فلم تودّ التحدّث مع أحد منذ وفاة أرثر.

ومع حلول أيّار/مايو، شعرت ببعض التحسّن، وقبلت دعوة على العشاء من ألانا في حزيران/يونيو، ولكنّها ندمت على ذلك. وأحسّت بانـزعاجٍ أكبر عـندما حـان مـوعد العـشاء لأنّ آخـر ما أرادت فعله هو ارتداء ملابسها والخروج. ولكنّ مارسي أخبرتها بأنّ أرثر كان ليشجّعها على الخروج لو كان موجوداً. إلا أنّه في الواقع لكان أصيب بإحباطٍ شديدٍ لرؤيتها في تلك الحالة إذ خـسرت الكثيـر مـن وزنها، ومع ذلك كان الذين لا يعرفونها يطرون عليها بالقـول بأنّها تبدو مذهلة، ولم يعلموا السّبب. فبالنسبة إليهم، كان الحزن يولّد الأناقة والموضة.

وهكـذا، فـي مساءٍ مشؤومٍ من حزيران/يونيو، خرجت للمرّة الأولى. ارتدت سروالاً حريريّاً أسود وحذاءً عالي الكعب، وربطت شعرها إلى الخلف، ووضـعت قـرطيْن مـن الألماس أهداها إيّاهما أرثر في عيد الميلاد السابق لـوفاته. بكـت عـندما أمـسكتهما ووضعتهما في أذنيها. أمّا ملابسها فبالكاد اسـتقرّت على جسمها لأنّها كانت نحيلةً للغاية، وأصبح كلّ ما تملكه أكبر من قياسها.

وبـدت حفلة العشاء مسليّةً أكثر ممّا اعتقدت، ومعظم الوجوه التي رأتها

مألوفة. وكانت صديقتها ألانا مسرورةً بالرجل الجديد الذي تواعده، والذي بدا محتـرماً خلافاً للرجال السّابقين. تحدّث لبعض الوقت مع ساشا وعرفت بأنّه جامـع أعـمالٍ فنـيّة معاصرة، وكان زبوناً لمعرضها مرّة أو مرّتين. ولكنّها انـزعجت عندما اكتشفت بأنّ ألانا طلبت منه إحضار صديقٍ قدّم نفسه لساشا أثناء العشاء. كان ذكيّاً ومثيراً للاهتمام، ولكنّها شعرت بأنّها اشتركت في خدمة المواعدة على الإنترنت، الأمر الذي أحبطها إذ لم يكن لديها أيّة نيّة لفعل ذلك ســواء الآن أو لاحقاً. وكانت تعلم بأنّ ألانا تعرّفت أكثر من مرّة على رجالٍ عبـر خـدمات الإنترنت لتدبير المواعيد. والتفكير بهذا فقط كان يحزن ساشا ويـرعبها، فلم تكن تريد مواعدة أحد، لا هذا الشخص ولا سواه، كلّ ما أرادته هو الحداد على أرثر للأبد.

وقـبل الجلوس إلى المائدة، سألها الرجل ببرودة: "كم ولداً لديكِ؟". ولكن ساشـا تساءلت إذا كانت تستطيع التحجّج بصداعٍ والاختفاء فجأةً. غير أنّها لم تـودّ إحـراج ألانا لأنّ معرفتها بها وطيدة. فكل ما كانت تريده البقاء وحدها فحسب، فجراحها لم تُشفَ بعد ولم ترغب أبداً باستبدال أرثر. أبداً.

فأجابته لامبالية: "لديّ ولدان راشدان".

قـال وقـد بـدا علـيه الارتياح: "هذا جيّد". وعرفت ساشا بأنّه سمسار بورصـة، وبأنّه مطلّق منذ أربعة عشر عاماً. وظهر عليه بأنّه يناهز الخمسين أي أنّه يكبرها بعامين.

وردّت مبتـسمةً بحزنٍ: "في الواقع، هذا ليس جيّداً، فلقد تركا المنـزل وذهب كلٌّ منهما في طريقه، أفتقدهما كثيراً وأتمنّى أحياناً لو بقيا صغيريْن ولا زالا معي في المنـزل". ولكنّه شعر بعدم الارتياح لسماع جوابها.

ثمّ بدأ مجدّداً بالأسئلة، وكأنّه يحمل لائحة استجوابٍ طويلة يريد طرحها: "لا تخطّطين لإنجاب المزيد أليس كذلك؟".

– "أودّ ذلك لكنّني أرملة". كان الجواب كافياً بالنسبة إليها، ولكنّه لم يقتنع فقـال: "قد تتزوّجين مجدّداً". وكأنّه بسرعةٍ كبيرةٍ أزال أرثر ومحاه كليّاً وانتقل

إلى الرجل التالي. ولكنّ ساشا لم تفعل، فهي ما زالت تحتفظ بصورته مطبوعةً في ذهنها وقلبها.

- "لن أتزوّج مجدداً"، قالت ساشا مذهولةً بينما انتقل الجميع إلى المائدة، واكتشفت لسوء حظّها بأنّ مكانها بقربه. لا بدّ أنّ آلانا قامت بتدبير ذلك وكأنّ مخطّطاً ما يدور في رأسها.

ثمّ سألها باهتمامٍ متجدّد: "كم من الوقت دام زواجك؟" وبدا واضحاً بأنّه ينفر من اللواتي يتسوّقن لإيجاد زوج.

وأجابته بينما جلسا: "دام خمس وعشرين سنةً".

- "أرى الآن لماذا ترفضين الزواج مجدداً، ألأنّك تشعرين بالملل بعد كلّ هذه الأعوام؟ فأنا كنت متزوّجاً لإحدى عشرة سنة وسئمت ذلك".

نظرت ساشا إليه مرعوبةً ولم تجبه لفترةٍ طويلة وقالت أخيراً: "لم أشعر بالملل أبداً في زواجي، أحببت زوجي كثيراً".

واستمرّ بالكلام كأنّه يخوض شوطاً في مباراةٍ كلاميّة: "هذا سيئ، لعلّك تتذكّرينه الآن بشكلٍ أفضل بعد أن رحل، فمعظم الأرامل يعانين هذا النوع من الوهم، ويظننّ بأنهنّ كنّ متزوجات من أناسٍ أبرار بعد رحيلهم بينما كان الأمر مختلفاً وهم على قيد الحياة".

فقالت ساشا بنبرةٍ جليديّة: "أؤكّد لك، كنت مغرمةً بزوجي إلى حدّ الجنون، هذا واقعٌ وليس وهماً". ورمقته بنظرةٍ غاضبة، ورغبت في أن تمسك بشيءٍ ما وترميه في وجهه.

لم يُسرّ لجوابها وردّ قائلاً: "حسناً، سأصدّق كلامك. كم رجلاً واعدتِ منذ وفاة زوجك؟" وصودف أنّ آلانا كانت تنظر إلى ناحيتها، وعرفت أنّ الأمور لا تسير على ما يرام لأنّ لون ساشا كان شاحباً من الغضب.

- "لم أواعد أحداً ولا أنوي ذلك. أبداً. توفّي زوجي منذ ثمانية أشهرٍ وهذه الدّعوة الاجتماعيّة الأولى التي ألبّيها".

نظر إليها مندهشاً وقال: "يا إلهي، أنتِ عذراء"، وبعد أن اعتبر الأمر في البداية عيباً، عاد والتفت إليها باهتمامٍ بالغٍ كمن يطلق تحدٍّ، غير أنّه لم يلقَ أيّ اعتبارٍ من جانبها.

- "كلا، لست عذراء، ولا أنوي خوض أيّ علاقةٍ أخرى. أنا أرملةٌ في الثامنة والأربعين من العمر، وكنت مولعةً بزوجي".

وللحال، أدارت له ظهرها، وأخذت تتحدث مع الجالس إلى جانبها من الجهة الأخرى وهو صديقٌ لها وأرثر، وكانا على علاقةٍ وطيدةٍ معه ومع زوجته.

فنظر إليها الصديق القديم بقلقٍ بينما كانت عيناها تسطعان شرراً وغضباً وقال لها: "هل أنتِ على ما يرام؟" تكلّم بصوتٍ خافتٍ وكادت الدموع تنفر من عينيها. فالرجل إلى يسارها لم يُهنها وحسب بل أحبطها وأحزنها أيضاً. وكان عليها توقّع الأسوأ كأرملةٍ من الآن فصاعداً، حتّى أنّها بدأت تفكّر إذا ما كانت ستخبر الذين ستلتقي بهم في المستقبل بأنّها متزوّجة. هي لم ترغب أن تكون "عذراء" كما نعتها الرجل، وكأنّه يسلبها كلّ الاحترام والثّقة اللتين حظيت بهما من زواجها بأرثر. والآن، لم تخسر الرجل الذي أحبّته فقط، بل أدركت أيضاً أنّها أصبحت ضعيفةً بشكلٍ لا يوصف، وخسرت الحماية الاجتماعيّة التي منحها إيّاها زوجٌ محبٌّ، كما فقدت أمان وطمأنينة الحياة الزوجيّة.

أجابت بهدوء: "أنا بخير".

فقال لها مواسياً: "ساشا، أنا آسف". وربّت على يدها ممّا جعل الدموع تتساقط على خدّيها، واضطرّت إلى البحث عن منديلها في حقيبة يدها لتجفّف دموعها، وشعرت بالإحراج وبأنّها مثيرةٌ للشّفقة.

وكان ما تبقّى من الوقت هادئاً، فأكلت ما وُضع في طبقها، وهمّت بالمغادرة بسرعةٍ كبيرةٍ بينما كان الضيوف ينتقلون إلى غرفة الجلوس لاحتساء القهوة. لم تتحلّ بالشّجاعة لتوديع آلانا، وقرّرت أن تهاتفها صباح اليوم التالي.

ولكن لم تضطرّ لذلك لأنّ ألانا اتّصلت بها إلى المكتب. كان يوم السّبت وكانت ساشا كالعادة تعمل في المعرض، إذ انتهت رحلات نهاية الأسبوع إلى هامبتونــز منذ أن توفّي أرثر، ولم تستطع مواجهة الأمر بمفردها.

سألتها ألانا متذمّرةً: "ماذا حدث، هو رجلٌ لطيفٌ فعلاً حين تتعرّفين إليه أكثــر، كما أنّه أعجب بك وقال بأنّك مذهلة!" ولكنّ ساشا وجدت أنّ هذا محبطٌ للغايــة وسارعت إلى الردّ: "هذا لطفٌ منه، ولكنني لم أرغب بموعدٍ مع أحد ألانا، أردت الحضور إلى العشاء وحسب".

– "ولكـنّك لا تستطيعين البقاء بمفردك إلى الأبد ساشا، وعاجلاً أم آجلاً ســيكون عليك الخروج ولقاء الرجال، أنت امرأةٌ شابة. وأقول لك بصدقٍ لن تجـدي الكثير من الرجال المحترمين؛ وهذا الرجل صالح". أو على الأقلّ هذا مــا اعــتقدته ألانــا. غير أنّها أثبتت في العام الماضي أنّ حكمها في اختيار الرجال كان مغلوطاً إلى حدٍّ كبير.

أجابــت ساشا بحزن: "لا أريد رجلاً صالحاً". لطالما أحبّت صديقتها، أو غالــباً ما أحبّتها ولكنّها بدأت تكره تصرّفاتها وما أصبحت عليه، وكأنّ ذوقها الجـيّد وحسن تقديرها وعزّة نفسها قد تبخّرت جميعها. وكانت ساشا واثقة بأنّ ألانا لا تمثّل تصرّفات جميع الأرامل، بل كانت تعاني من صعوباتٍ ماليّة ولذا ســارعت بائسةً إلى إيجاد زوجٍ لحلّها. ولكن، كما كان أرثر يقول، يستطيع الــرجال تبيان الأمر فهو كالرائحة التي لا يمكن إخفاؤها، غير أنّها رائحةٌ لا يحبّونها.

ثــمّ قالت ألانا وكأنّها ترشّ الملح فوق جروح ساشا: "أنت تريدين أرثر، حــسناً إذا أردتِ الحقيقة أنا أيضاً أريد توبي. ولكنّهما رحلا ساشا، رحلا ولن يعودا مطلقاً، ونحن عالقتان هنا في هذه الحياة من دونهما. علينا على الأقلّ أن نتأقلم مع الوضع قدر المستطاع".

– "لــست مــستعدةً لذلك، لعلّ بقائي بمفردي أفضل الحلول فلا أستطيع حتّى التخيّل بأنني أواعد أحداً". ولم تكن تريد ذلك أيضاً. ولم تجرؤ ساشا على

إخبار صديقتها كم تبدو مجنونة، وكيف أنّها أصبحت محرجة.

– "ساشــا، تبلغــين الثامــنة والأربعــين مــن العمر وأنا أناهز الثالثة والخمسين، ما زلنا شابتين لنبقى وحدنا إلى الأبد". ولكن ساشا شعرت بالشباب عندما كان أرثر معها، وتوقّف شبابها عندما توفّي وأحسّت مذاك بأنّها أصبحت عجوزاً.

– "ألانــا، لا أعرف، لا أعرف بماذا أجيب، ولكنني أفضّل الموت الآن على مواعدة رجلٍ ما". كالعادة، تكلّمت ساشا بصدقٍ جارح.

– "كوني صبورةً وامنحي هؤلاء الرجال فرصة، وستجدين عاجلاً أم آجلاً الشخص المناسب". ولكن بالنّظر إلى الذين واعدتهم ألانا طوال العام المنــصرم، باستثناء الرجل الحالي، فليس من بينهم أيّ رجلٍ قد ترغب به امرأةٌ عاقلة إلا لماله ربّما. غير أنّه كان واضحاً أنّ خطّة ألانا مختلفة عن ساشــا التــي تحــاول تخطّي خسارة أرثر ليس إلا. وأضافت ألانا قائلة: "ســيكون شــعورك مختلفاً في الأشهر المقبلة، انتظري مرور العام الأوّل وستكونين مستعدّة".

– "أتمنّى ألا يحصل ذلك، لديّ ولداي ومعرضيّ والفنّانون الذين أتعامل معهــم". ولكنّها تعرف أنّه من دون أرثر، لا شيء يعني لها سوى ولديها ولا أحد سواهما. أمّا عملها فبالكاد استطاعت التركيز عليه، وكلّ ما كان يفعله هو إخــراجها من شقّتها في نيويورك أو من منــزلها في باريس، ولكن لم يعد أيّ شيء في حياتها يُشعرها بالفرح.

ووبّختها ألانا قائلة: "هذا ليس كافياً، وتعلمين ذلك جيّداً".

– "لعلّه كذلك بالنّسبة لي".

– "حــسناً، ولكنني لا أكتفي بهذا الحدّ، أريد إيجاد رجلٍ صالحٍ والزواج به". إن لم يكن صالحاً فسيكون ثريّاً، ولكن ساشا لم تكن مهتمّةً بكلا النوعين. وأضــافت ألانا بحزم: "امنحي نفسك ستّة أشهرٍ أخرى، وسترين نفسك خارجاً تبحثين عن رجلٍ أنت أيضاً".

- "يا إلهي، أتمنّى ألا يحصل ذلك". قالت ساشا ذلك بحزنٍ وعبوسٍ، فمجرّد التفكير بذلك يحبطها أكثر.

- "سنرى بهذا الخصوص". وكأنّها تعرفها جيّداً. ولكن أمراً واحداً كان أكيداً، فلم يكن من السهل على أيّ امرأةٍ مطلّقة أو أرملة إيجاد رجالٍ محترمين هذه الأيام. وتقول ألانا بأنّها سمعت ذلك مراراً من كلّ صديقاتها، وساشا أيضاً سمعت ذلك ولكنّها لم تهتمّ مطلقاً.

عادت إلى باريس في الأسبوع التالي، وهذه المرّة بقيت هناك لأسبوعين. وللمرّة الأولى منذ أشهرٍ زارت الفنّانين في عدّة مدنٍ في أوروبا مثل بروكسيل، وأمستردام، وميونيخ. وفي طريق عودتها إلى نيويورك توقّفت في لندن لرؤية ابنها الذي كان بحالٍ أفضل منها، ومعنويّاتٍ عاليةٍ حتّى أنّه قام بعملٍ جديدٍ مثيرٍ للاهتمام، أعجبها عندما رأته فأعطته اسم معرضٍ ليتفق معه وكان سعيداً بذلك. لم يُرد عرض أعماله في معرض سوفيري لأنّ هذا يدلّ برأيه على نوعٍ من محاباة الأقارب. وقرّر رسم طريقه بنفسه.

وذكر كزافييه صديقه ليام ألبسون أمامها مجدّداً عدّة مرّاتٍ خلال الأشهر الأخيرة. وأصرّ على أنّ ليام فنّان يتمتّع بمهارةٍ كبيرةٍ لم يصادفها في أحد، وأرادها أن ترى أعماله.

فقالت له: "سأكون سعيدة بذلك، ولكنني أريده أن يرسل لي رقاقات عرضٍ عن لوحاته أوّلاً". لم ترغب في إضاعة وقتها، وكانت رؤية رقاقات العرض عمليّةً سهلةً بالنسبة إليها. وعلى الرغم من أنّها طلبت هذا مراراً من كزافييه، إلا أنّ صديقه لم يرسلها أبداً. يقول كزافييه بأنّه خجولٌ وهذا ليس بأمرٍ استثنائيٍّ بالنسبة إلى فنّان شاب وحتى بالنسبة إلى الفنّانين الأكبر سنّاً. ولكنه لا يبدو من النوع الخجول استناداً إلى القصص التي يسلّيها بها كزافييه دائماً. ففي كلّ مرّةٍ يخرج فيها كزافييه عن السّيطرة، أو يسيء التصرّف، أو يذهب إلى حفلاتٍ غريبة، أو يقوم بأعمالٍ طائشة يصادف أنّ ليام يكون موجوداً معه. ومن إحدى مغامراتهما الأخيرة أنّهما خرجا لتناول الغداء بعد

ظهر يوم أحد، وأسرفا بالشّراب حتّى الثمالة، واستقلاّ سيّارة أجرة إلى المطار، وقصدا مراكش لأربعة أيّام. ويخبرها كزافييه بأنّه لم يستمتع هكذا طوال حياته. هاتف والدته بعد عودته، وكانت قلقةً عليه لأنّه لم يردّ على اتصالاتها منذ أسبوعٍ تقريباً.

وعندما نجحت أخيراً في التكلّم إليه وأخبرها أين كان قالت له: "دعني أخمّن، كان ليام متورّطاً في هذا أيضاً". وكأنّها تستطيع التكهّن بذلك من الآن فصاعداً. وكالعادة يتبيّن أنّه يكون برفقة ليام عندما يقوم بكلّ الأعمال الجنونيّة والطائشة. وأضافت: "إنّه مجنونٌ بالكامل، ولا بدّ أن زوجته قدّيسة".

- "إنّها متفهّمة وتتمتّع بروحٍ رياضيّة، على الرغم من أنّها تغضب أحياناً فهي تعمل وتتوقّع منه أن يهتمّ بالأولاد".

- "لا بدّ أنّها تتحمّله وتعيله هو والأولاد". كانت ساشا تعرف فنّانين آخرين مثله، ولكن ليس بهذا القدر من الجنون والتقلّب وعدم احترام أسس التصرّف كما يخبرها كزافييه عنه. "لو كنت مكانها لقتلته فوراً".

- "أعتقد بأنّها هدّدته عدّة مرّاتٍ، ولكنني لا أظنّ بأنّ الرحلة إلى المغرب هي أسوأ ما حدث في زواجهما".

- "لا عجب في ذلك، فهو يبدو كأحد أولئك الأولاد الذين لم أكن أسمح لك باللعب معهم في صغرك لأنّهم يورّطونك دائماً في المتاعب. سيدخل نفسه يوماً ما في فوضى لا يستطيع الخروج منها".

- "هو ليس سيّئاً أو شرّيراً ولا يفعل أي شيء خطير أبداً. يحبّ قضاء وقت ممتع فحسب ويكره أن يقول له أحد كيف يتصرّف. أظنّ بأنّه نشأ في بيئةٍ تحافظ على القوانين والأنظمة، لذا لا يحبّ أن يقوم بما هو متوقّع منه، بل يرغب في أن يطلق العنان لحريّته".

- "في الواقع، أتوق للقائه". قالت ساشا بنبرةٍ ساخرة، وكانت واثقة بأنّه لو أرسل لها رقاقات العرض فسوف تكره عمله. بدا كأنّه صداعٌ تريد تجنّبه على الرغم من أنّ الأشخاص بحيويّته وشخصيّته يتمتّعون عادةً بموهبةٍ مميّزة.

وبرأيها، الفنّانون مثل ليام يريدون أن يُضربوا وينالوا التوبيخ والقسوة وإلا نسوا العودة إلى العمل. وعلى الرغم من أنّ كزافييه أكّد لها بأنّ ليام مجاهدٌ ومثابرٌ في رسوماته، فهو لم يكن يتمتّع بحسّ المسؤوليّة في أيّ أمرٍ آخر. ولكن كزافييه أصرّ على تعريفها به، وكان واثقاً بأنّ معرض سوفيري هو المكان المناسب لأعمال صديقه مع أنّه لم ينجح بعد في تدبير لقاءٍ بينهما وهذا ما أراح ساشا.

أمضت ساشا شهر حزيران/يونيو في نيويورك، ولكنّها لم تقصد أبداً منزل هامبتونز. لم تستطع القيام بذلك، فطلبت من تاتيانا استعماله لأنّها لم ترغب حتّى برؤيته. وفي آب/أغسطس، ذهبت ساشا إلى سان تروبي مدة أسبوعين لرؤية بعض الأصدقاء. شعرت بأنّها ممزّقة ومن دون جذور تعود إليها. وأمضت بقيّة الشهر في منزلها في باريس وأحسّت بأنّها حجر رخامٍ لا حياة فيه، وكأنّ العالم كبيرٌ جداً عليها من دون أرثر، وأصبحت حياتها أشبه بحذاءٍ لم يعد يناسب القدمين. لم تشعر أبداً بأنّها صغيرة إلى هذه الدرجة، حتّى عندما توفي والدها، فلقد كان أرثر إلى جانبها يخفّف عنها الصدمة. أمّا الآن، فهي وحيدةٌ من دون أحد، تعيش مع الذكريات، وبعض الزيارات النادرة من ولديها.

ومع نهاية آب/أغسطس، عادت إلى نيويورك، وحظيت أخيراً بالشجاعة الكافية للذهاب إلى ساوث هامبتونز في عطلة نهاية الأسبوع. وكانت زيارتها هذه إلى ذلك المنزل المرّة الأولى منذ عامٍ وقد أراحها هذا الأمر إلى حدٍّ ما. وكأنّها بذلك وجدت جزءاً من أرثر مجدداً، جزءاً افتقدته بشدّة. كانت الخزانة لا تزال مليئة بثيابه وحاجياته، وعندما نظرت إلى السرير عادت بها الذكريات إلى المرّة الأخيرة التي رأته فيها في الصباح حين همس لها بأنّه يحبّها قبل أن تغادر فقبّلته وعاد إلى النوم.

غلبت عليها الذكريات الكثيرة في ذلك المكان، وأمضت ساعاتٍ تفكّر فيه وتمشي على الشاطئ. وأخيراً شعرت بأنّ طريق العلاج بدأ.

عادت إلى المعرض بحالٍ أفضل بعد العطلة. وكانت تجول في خاطرها فكرةٌ منذ شهرٍ تقريباً، ولكنّها لم تتخذ القرار بعد. هو أمرٌ خطّطت له مع أرثر وقد بدأ يعني لها الآن أكثر من قبل؛ فلقد أرادت العودة إلى وطنها فالبقاء في نيويورك من دونه كان قاسياً عليها.

مرّ شهر أيلول/سبتمبر بسرعةٍ مع عرضٍ افتتاحيّ لفنّانٍ جديد رعته بنفسها، كما نظّمت معرضاً فرديّاً آخر. كانت تتدخّل في تنظيم كلّ العروضات، وتختار الرسوم التي ستُعرض، ومكان تعليقها، وتلعب على التناقضات والتشابهات التي من شأنها أن تبرز خصوصيّة كلّ فنّان. أحبّت عملها، وتميّزت بموهبة فطريّة فيه. كما التقت عدداً من الزبائن القدامى، وبعض الأشخاص الذين تعرفهم، وعقدت اجتماعاتٍ مع مجلس إدارة المعرض، وكانت تخطّط لإقامة صلاة تذكاريّة لمرور عامٍ على وفاة أرثر. وقد وعدها كزافييه بالقدوم لحضورها وكانت الصلاة وقتاً حزيناً لهم جميعاً. حضرها كافة شركاء أرثر، وولداها وأصدقاؤهم المقرّبين الذين غمرهم الحزن الكبير لرؤية مدى الأسى واليأس اللذين ظهرا على وجهها. وعندما غادروا الكنيسة، كان من الصعب على الجميع أن يصدّقوا بأنّه قد مرّ عامٌ على ذلك.

أخبرتها تاتيانا تلك الليلة بأنّها قد استقالت من عملها، وبأنّها ستسافر إلى الهند برفقة أصدقائها لعدّة أشهر. كانت تودّ أن تلتقط صوراً، وعندما تعود ستبحث عن وظيفةٍ في إحدى المجلات. ووعدتها بأن تكون موجودة في عيد الميلاد. كانت تبلغ ثلاثة وعشرين عاماً، وأرادت أن تحصل على الحريّة، وأن تبسط جناحيها وهذا ما أقلق ساشا التي لم يكن بيدها حيلة سوى الخضوع لرغبات ابنتها. ثمّ أبلغت ولديها عن خططها، فقرّرت الانتقال إلى باريس وإدارة المعرض من هناك، بحيث تعكس العمل الذي قامت به لثلاث عشرة سنة. فكلّ ما أرادته منذ وفاة أرثر هو العودة إلى جذورها، ومع مغادرة تاتيانا ستكون على الأقلّ قريبةً من كزافييه بوجودها في باريس. تفاجأت تاتيانا بقرارها، ولكنّ كزافييه كان مسروراً.

وقال لها بلطف: "أعتقد بأنّ هذا أفضل لك"، بعد أن قلق عليها طيلة العام. ففي الماضي، لطالما بدت سعيدةً في باريس، ولعلّ عودتها الآن ستشعرها بالسعادة وخصوصاً بعد العام الحزين الذي قاسته.

ثمّ سألت تاتيانا بقلق: "هل ستبيعين المنزل؟" فعلى الرغم من أنّها نادراً ما تقصده، إلاّ أنها تحبّ أن يبقى ملكهم. ولم تكن على علمٍ بقرار والدها بالتقاعد وبيع المنزل لشراء آخر.

– "كلا، لن أبيعه، سأستعمله عندما آتي إلى هنا". فارتاحت تاتيانا للجواب. في الواقع، لن يكون انتقالها إلى باريس بالتغيير الكبير، فستكون في باريس الآن لثلاثة أسابيع في الشهر بدلاً من أسبوعٍ أو اثنين، وفي نيويورك لأسبوعٍ أو أكثر.

الفصل الثالث

كانت حياة ساشا في باريس حافلة في شهر كانون الأول/ديسمبر فقد كان المعرض يضجّ بالأعمال المزدهرة. التقت عدداً من أهمّ زبائنها الذين أرادوا القيام بعقود شراءٍ كبيرة، أو بيع جزء من مجموعاتهم قبل نهاية العام. وهاتفت كزافييه في لندن كلّ يومٍ تقريباً، وأعدّت رحلة تزلّج لها وللولدين، وكانوا سينطلقون في اليوم التالي لعيد الميلاد إلى سان موريتز حيث ستلتقي أيضاً بزبائن مهمّين.

تميّزت حياتها الاجتماعيّة في باريس بالجانب الرسمي أكثر ممّا كانت عليه في نيويورك، فزبائنها في نيويورك كانوا ناجحين ولكن غالباً غير رسميين في التعامل معها، حتّى أنّ بعضهم أصبحوا أصدقاء لها مع مرور السنين. وكان الأشخاص الذين تحبّهم هناك مثيرين للاهتمام، ومتنوّعين في مصادر عملهم واتجاهاتهم الفنيّة. ولكن في باريس، بدا أنّ بعض الخطوط الاجتماعيّة موسومة وهي تجسّد النموذج الأوروبي. فمعظم زبائنها يتحدّرون من عائلات وخلفيّات أرستقراطيّة وثريّة استمرّت على مرّ الأجيال مثل عائلة روتشيلد، وسواها من الذين يعيشون بإسرافٍ وترفٍ، وكان معظمهم أصدقاء لوالدها. وتميّزت الحفلات التي دُعيت إليها في باريس بالبذخ والأناقة والإتقان أكثر من تلك التي حضرتها في نيويورك، أو التي أقامتها عندما كان آرثر حيّاً. وكان من الصعب هنا أن ترفض الدعوات لأنّ معظم الذين كانوا يوجّهون الدعوات إليها هم زبائن مهمّون اشتروا منها أعمالاً فنيّة ثمينة، ولذلك شعرت في كلّ مرّة أنّها مجبرة على الذهاب. ولطالما عبّرت عن انزعاجها لكزافييه، ولكنّه أصرّ دائماً على أنّ هذا سيجعلها أفضل حالاً. وعلى الرغم من سنّها،

كانت الأصغر في تلك الحفلات، وكان ذلك يشعرها بالملل دائماً، فلقد كانت تذهب لأسبابٍ متعلّقة بالأعمال ليس إلا ولذا كانت تسعد عندما تعود إلى المنزل.

وفي أحد أيام منتصف كانون الأول/ديسمبر الغائم والضبابيّ، وبينما كانت تعمل، أعلمتها مساعدتها بأنّ زبوناً أتى لرؤيتها. هو رجلٌ التقته في حفل عشاءٍ في الليلة السابقة، وكان مهتمّاً بشراء لوحة من العمل الفنيّ الفلمنكي وسُرّت لأنّه أتى وفقاً لحديثهما. تركت مكتبها لاستقباله وأرته مجموعة لوحاتٍ نالت استحسانه.

بدا من الواضح للجميع باستثناء ساشا أنّه من خلال زيارته التي استمرّت ساعتين ونصف لم يُعجَب بالمعرض فحسب بل بمالكته أيضاً. ودعاها إلى العشاء في مطعم ألان دوكاس في اليوم التالي لمناقشة احتمال الشراء منها. كان أحد أهمّ وأرقى المطاعم في باريس، وعلمت بأنّه سيكون عشاءً لمدّة ثلاث أو أربع ساعاتٍ فوجدت في ذلك أمراً مملاً ومتعباً، ولكنّها وجدت فيه أيضاً فرصةً لإبرام عقد بيعٍ بمليون دولار. أرادت التفكير بالعمل فقط في تلك الفترة إلا عندما تتصل بتاتيانا وكزافييه.

– "أمّي لعلّه مهتمٌ بأكثر من اللوحات"، قال لها كزافييه ممازحاً عندما أخبرته عن قبول دعوة العشاء التي كانت في اليوم التالي.

– "لا تكن سخيفاً، أبي كان يلبّي دعواتٍ كهذه طوال الوقت ولم يكن أحدٌ يطارده". ولكنّها كانت تعرف بأنّ بعض النساء كنّ يلاحقنه منذ وفاة والدتها، غير أنّها لم ترَ والدها يظهر اهتماماً بأحدٍ. فهو مثلها أخلص لذكرى زوجته حتّى النهاية، أو على الأقلّ كان ذلك الانطباع الذي أعطاه لابنته. فهي لم تناقش أبداً هذا الأمر معه ولو كانت في حياته امرأة ما في تلك السنوات فلقد كان شديد التكتّم، ولكنّها كانت تشكّ في ذلك.

ثمّ قال كزافييه وملؤه الأمل: "لا تعرفين أبداً ما قد يحدث، فأنت امرأة جميلة وشابة". فلم يكن لا هو ولا شقيقته يريدان أن تبقى بمفردها.

– "هذا ليس صحيحاً، لست شابة بل أنا في الثامنة والأربعين من عمري".

– "تبدين في عزّ الشباب بالنّسبة لي، فأحد أصدقائي يواعد امرأة أكبر منك سنّاً".

فأجابت وهي تضحك: "هذا مقزّز، إنّها نزوة طفوليّة". وبدت لها فكرة مواعدة شابٍ أصغر سنّاً سخيفةً للغاية.

– "ما كنت ستقولين هذا لو كان الأمر يتعلّق برجلٍ في سنّك يواعد شابة أصغر منه".

– "هذا مختلف". قالت ذلك بنبرةٍ أكيدةٍ بينما ضحك كزافييه هذه المرّة.

– "كلا، هذا ليس مختلفاً، بل اعتدت على رؤيته في الحياة اليوميّة دائماً، ولكنّكِ تندهشين أكثر لرؤية امرأة تواعد شاباً أصغر منها سنّاً".

– "هل تحاول أن تقول لي بأنّ مغامرتك العاطفيّة الأخيرة هي مع فتاة يبلغ عمرها ضعف عمرك؟ إن كان الأمر كذلك، فلا أودّ معرفة التفاصيل". ولكن، في النهاية، عرفت ساشا أنّه لو كان الأمر كذلك، لتبخّرت المرأة في غضون أسبوعٍ واحدٍ، فمع كزافييه لطالما كان الأمر سيّان مهما بلغ سنّ اللواتي يواعدهنّ، لا يبقى مع المرأة نفسها أكثر من أسبوعٍ، وأينما تكون النساء يكون هو موجوداً كظلّهنّ.

– "كلا، لم أحاول ذلك بعد، ولكنني سأفعل في حال التقيت امرأة أكبر منّي سنّاً وأعجبتني، سأرغب حينها بالخروج معها. لا تكوني قديمة الطراز". لم تكن كذلك في الواقع، فلطالما أحبّت أن تكون منفتحةً وخاصةً في ما يتعلّق به. وتميّزت بروحها المرحة والرياضيّة بأموره الشخصيّة، ولم تنزعج أبداً من حياته العاطفيّة الناشطة. وكان تفكيرها أكثر تحرّراً مقارنة مع الأمهات الأخريات عندما ارتاد المدرسة في نيويورك وحظي بصديقاتٍ أميركيات. ولقد اعتادت على شراء الواقيات له ولأصدقائه وكانت تتركها في إناءٍ كبيرٍ في غرفته. لم تطرح الكثير من الأسئلة، ولكنّها أبقت الإناء مليئاً باستمرار. فضّلت

أن تكون واقعيّة في مثل هذه الأمور وفي هذا اتّصفت بالتحرّر على الطريقة الفرنسيّة.

– "احذّرك، إذا تزوّجتَ من امرأةٍ بضعف سنّك فلن أحضر الزفاف، وخصوصاً إن كانت إحدى صديقاتي".

– "لا يمكنك التكهّن أبداً، يجب عليك أيضاً الاهتمام بأمورك أنتِ وأن تكوني أكثر انفتاحاً فيها". كان يعلم بأن أمّه لم تواعد أحداً بعد، فقد كانا مقرّبَين لدرجة أنّها لن تخفي عليه أمراً كهذا في حال حصوله.

– "ربما يجب أن أزور المدرسة المحليّة، أو أن أترك رقم هاتفي لديهم لعلّي أستطيع تبنّي أحد هؤلاء الشبّان لأواعده في حال تعذّر عليّ إيجاد رجل".

كانت تمازحه وتضحك وتهزأ من فكرة مواعدة شابٍ أصغر منها، بل تنفر منها وتجدها مقرفة لأنّها اعتادت أن تكون مع رجلٍ يكبرها سنّاً.

أجابها كزافييه بهدوء: "أمّي، عندما تريدين إيجاد رجلٍ سوف تجدين واحداً".

– "كلا، لا أريد". قالت ذلك بحزم وقد زالت الابتسامة من صوتها. كان هذا موضوعاً لا تودّ مناقشته معه أو مع سواه.

– "أعرف ذلك، ولكنني آمل بأنّك سترغبين بذلك يوماً ما". فلقد مضى أربعة عشر شهراً على وفاة والده، وكان كزافييه يعرف أكثر من غيره مدى الوحدة التي تشعر بها. فكانت تتّصل به كلّ ليلةٍ من المنزل، واستطاع تلمّس الحزن في صوتها عندما لا تكون في العمل. لم يحبّ أن يفكّر بها بهذه الطريقة، أمّا تاتيانا فكانت في عطلةٍ في الهند وقلّما اتّصلت بها. وشعر بأنّ ساشا تتحدّث إليه بصراحةٍ أكبر فقام بينهما ذلك الرابط المميّز الذي يجمع أحياناً الأمهات وأبنائهنّ الشبّان. هو رباط الصداقة والوثوق بالآخر.

أخبرته بأنّها ستذهب إلى نيويورك في الأسبوع المقبل لحضور اجتماع مجلس الإدارة في المعرض، وستعود في اليوم الذي يسبق عشيّة عيد الميلاد.

وكان من المفترض أن يصل كلٌ من كزافييه وتاتيانا إلى باريس بعد ظهر عشيّة الميلاد على أن ينطلقوا في اليوم التالي للميلاد إلى سان موريتز. كانوا جميعاً يتوقون لذلك، كما كان الزبون الأخير يملك منزلاً هناك أيضاً، وأملت أن تبرم عقد البيع قبل ذلك الحين.

في اليوم التالي، أتى الزبون لاصطحابها إلى العشاء في مطعم آلان دوكاس في لابلازا. كانت تفضّل أن تقصد لوفولتير لعشاءٍ بسيطٍ ولكن أنيق، غير أنّه في ما يتعلّق بالأعمال، كان عليها الامتثال لرغبة الزبون في اختيار المكان. بدا واضحاً أنّه أراد التأثير عليها، ولكن لم يستهوها أبداً الطعام الغنيّ والدسم مهما بلغ عدد نجوم الشيف. كان آلان دوكاس يحمل ثلاث نجوم.

وكما كان متوقعاً، كان العشاء رائعاً، وبدا الحديث مثيراً والبيع وشيكاً فيما أوصلها غونزاغ دو سان مالوري إلى المنزل. كان رجلاً جذّاباً ومثقفاً وفاحش الثراء، يحمل لقب الكونت ويتصرّف برقيٍّ وتكبّر. هو الكونت دو سان مالوري. تزوّج مرتين وله خمسة أولادٍ يعترف بهم شرعيّاً وثلاثة آخرون تعرف بأنّه يتبرأ منهم. ففي تلك المواضيع تُعدّ فرنسا بلداً صغيراً، وباريس مدينة محدودة المساحة حيث تنتشر الأخبار بسرعة. فكان الجميع على علمٍ بعلاقاته العاطفيّة الأسطوريّة وعشيقاته وأولاده غير الشرعيّين.

قال لها بعدما استغرق في تفكيرٍ حالم: "كنت أفكّر أن أجرّب اللوحة في منزلي في سان موريتز قبل اتّخاذ القرار". بينما كان يقلها إلى منزلها بسيّارته الرياضيّة السريعة التي كان من النادر رؤية مثلها في باريس حيث السيّارات الكبيرة غير ملائمة للتنقّلات. في حين امتلكت ساشا سيّارةً صغيرةً سهلة القيادة والركن، فلم تشعر بالحاجة للتباهي بسيّارةٍ فخمةٍ في باريس أو في أيّ مكانٍ آخر. وعندما أصبحا أمام المبنى الذي يضمّ المعرض والمنزل، أضاف قائلاً: "لعلّك تستطيعين القدوم لرؤيتها وإبداء رأيك فيها".

– "أستطيع القيام بذلك بكلّ سهولة، يمكننا شحنها لك إلى سان موريتز، وسأكون هناك مع ولديّ في غضون أسبوعين". ولكنّه بدا منزعجاً لسماع ذلك.

– "كنت أفكّر بأن تقيمي في منزلي. ربّما تصطحبين ولديك إلى هناك في وقتٍ آخر". كانت تستطيع الاستغناء عن الرحلة مع الولدين ولكنّها لم توافق.

– "أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً، فلقد خطّطنا لهذه الرحلة منذ وقت طويل، كما أنني أتوق لقضاء عطلةٍ معهما". بدت واضحةً، ونظرت مباشرةً في عينيه وكأنها تحاول أن تمرّر إليه الرسالة بأنّه قصد العنوان الخطأ بغضّ النظر عن موضوع الولدين والرحلة. ولم تكن تنوي أبداً أن تخلط العمل مع المتعة، وخصوصاً ليس معه هو. كان يبلغ أربعة وخمسين عاماً وذاع صيته في ملاحقة الشابات.

– "أفترض بأنّك تودّين بيع اللوحة، أليس كذلك آنسة دو سوفيري؟".

– "نعم سيّدي الكونت، اللوحة للبيع، ولكنّني لست كذلك، وحتّى إن بلغ الثمن مليون دولار. سأكون سعيدةً لو تمرّ وترى اللوحة وأنا موجودة". كان صوتها هادئاً ولطيفاً، ولكن عندها بدأت عيناه تتوهّجان. فكلٌّ منهما أوضح وجهة نظره، ولكنّه لم يحبّ ما سمعه منها. لم يعتد على رفض النساء له وبخاصةٍ اللواتي في سنّها، وكان يعتقد بأنّه يقدّم لها معروفاً إذا أقام علاقةً معها لأنّها بدت امرأة حزينة ووحيدة. غير أنّها لم تكن وحيدةً بالقدر الذي اعتقده، ليس بالقدر الذي يدفعها لبيع نفسها بيأسٍ.

فأجابها بنبرةٍ باردة: "لا حاجة لأن آتي لرؤيتها، فقد قرّرت عدم شرائها. في الواقع تساورني الشكوك في أنّها قد لا تكون الأصليّة". وللحال ترجّل من السيّارة وأتى من جهتها ليفتح لها الباب، ولكنّها سبقته، ووقفت على الرصيف تنظر إليه بغضبٍ. ثمّ قالت: "شكراً على العشاء الجميل، لم أعرف مطلقاً من سمعتك بأنّك تلاحق النساء بهذه الأسعار الباهظة. اعتقدت أنّ رجلاً بمكانتك وسحرك وذكائك يحصل عليهنّ من دون مقابل. شكراً على الأمسية الرائعة". وقبل أن يتمكّن من قول أي كلمة، سارت إلى الباب البرونزيّ وفتحته ثمّ دخلت واختفت. وبعد ثوانٍ سمعته يبتعد مسرعاً فيما كانت ترتجف من

الغضب. أراد ذلك الحقير أن يشتريها هي واللوحة واعتقد بأنّها متعطّشة للبيع بحيث تقيم معه علاقة. تخطّى ذلك حدّ الإهانة، فلم يجرؤ أحدٌ على معاملتها بهذه الطريقة عندما كان أرثر حيّاً. وكانت لا تزال ترتجف عندما اتّصلت بكزافييه وأخبرته فصول هذا الموعد. وأعجبه الجزء الأخير من حديثها إلى الكونت فقال لها مطرياً: "أمّي أنتِ مدهشة. وأنت محظوظة لأنّه لم يصدمك بسيّارته عندما غادر".

– "أنا واثقة من أنّه أراد ذلك، يا له من معتوهٍ فاسد". وضحك كزافييه مجدّداً.

– "نعم، يبدو كذلك، ولكن يجب أن تشعري بالإطراء، لأنّني سمعت بأنّه يخرج مع فتياتٍ أصغر من تاتيانا. ويقضي معظم أوقاته هنا في أنابيل".

– "لا يدهشني هذا". وكان أنابيل ملهىً خاصاً في لندن يرتاده أناسٌ أثرياء، ورجالٌ كبار في السنّ وشابات صغيرات. قصدته مع أرثر عدّة مرّات وكانا من أعضاء الملهى، وكذلك مطعم هاريز بار الذي كان يملكه أيضاً الشخص نفسه. ثمّ أضافت: "كيف يمكن للرجال أن ينجوا بتصرّفاتٍ كهذه؟".

– "بعض النّساء يرغبن بذلك، وقد تقيم معظم مالكات المعارض علاقة معه لبيع لوحاتهن".

– "نعم، وعندما يفعلن ذلك، يعيد اللوحة إليهن في اليوم التالي". لطالما حذّرها والدها من الرجال أمثاله عندما دخلت معترك الأعمال. فكان غونزاغ دو سان مالوري في نظر ساشا سيّئ السلوك والتصرّفات.

وكانت لا تزال غاضبة من موعدها معه عندما أوت إلى الفراش. وفي صباح اليوم التالي، أخبرت مدير المعرض بأنّهم لن يبيعوا اللوحة إلى الكونت.

وعلّق برنارد قائلاً: "ظننت بأنّك تناولت العشاء معه الليلة الفائتة".

– "نعم كنت برفقته، ولكنّ الكونت تصرّف بطريقةٍ سيّئة ولحسن حظّه أنّني لم أصفعه. كان يتوقّع أن يشتري خدماتي أيضاً مع اللوحة، واعتقد بأنّني سأقيم معه في سان موريتز وأنّني سأقوم بإلغاء العطلة مع ولدي".

- "وهل رفضت ذلك؟" وتظاهر برنارد بالتعجّب. "يا لها من صفقة سيّئة من طرفك ساشا، فكّري بالأمر، يا إلهي، إنّها مليون دولار. أليس لديك أيّ مسؤوليّة تجاه عمل والدك؟" أحبّ برنارد أن يمازحها دائماً، فبعد خمسة عشر عاماً في المعرض، أصبحا بمثابة صديقين.

- "أصمت برنارد". أجابته بابتسامةٍ ثمّ سارت إلى مكتبها وعادت إلى العمل. فكّرت بأنّه أكثر العروض التي تلقّتها إهانةً. وفي الأسبوع التالي، أخبرت مديرتها في نيويورك والتي صُدمت كثيراً. فقالت كارن وهي تحاول أن تدافع عن مواطنيها: "الأميركيّون لا يتصرّفون بهذه الطريقة".

فعلّقت ساشا قائلة: "لعلّ بعضهم يتصرّفون أسوأ من ذلك حتّى، بدأت أعتقد بأنّ هذا يتعلّق بالرجال لا بجنسيّاتهم على الرغم من أنّ الفرنسيّين يُظهرون وقاحةً أكبر في مثل هذه الأمور. أنا واثقة من أنّ هذا يحدث هنا أيضاً. ألم يوحي إليك أحدٌ بأن تقيمي معه علاقة ليشتري لوحة ما؟" ثمّ جلست ساشا على كرسيّ مكتبها ضاحكةً، ففي النهاية أصبح الأمر مسليّاً. فكّرت كارن مديرتها في نيويورك بذلك لوهلةٍ ثمّ هزّت برأسها.

- "لا أعتقد ذلك، لعلّني لم أفهم".

- "وماذا كنت ستفعلين؟" بدا وكأنّ ساشا تعبث بها الآن.

- "كنت لأقيم علاقةً معه وأجعله يدفع مليون دولار. لقد رأيته في المجلّة ساشا، إنّه رائع".

- "نعم، هو كذلك". وكأنّها تعترف بالأمر، ولكنّها بدت غير مكترثة لأنّها ظنّت بأنّ زوجها كان أكثر جاذبيّة وجمالاً. لم تكن تحبّ نظرة الكونت المتعجرفة والرخيصة، بل فضّلت شهامة ونُبل أخلاق أرثر. فالرجال أمثال غونزاغ دو سان مالوري يعاشرون الساقطات، ومع سيّارةٍ رياضيّةٍ أو من دونها، هي تعرف أمثالهم.

كانت الأيام الثلاثة التي قضتها ساشا في نيويورك حافلة بالأعمال ومرّت بسرعةٍ كبيرةٍ، وكان عليها رؤية عددٍ من الفنّانين، والزبائن

المهمّين الذين وعدت بلقائهم، بالإضافة إلى الاجتماع بمجلس الإدارة وهو السّبب الأساسيّ لحضورها. وأمضت أوّل ليلتين في منزلها توضّب بعض حاجيّات أرثر، فقد أخذت عهداً على نفسها بأن ترمي جزءاً منها. استغرقت أربعة أشهرٍ لاتخاذ هذا القرار، وبدت الخزانة فارغة بعد ذلك ولكن حان الوقت لمثل هذا العمل.

وفي الليلة الأخيرة، ذهبت إلى حفلةِ عيد الميلاد التي أقامها بعض الأصدقاء. وشعرت بالمتعة والحزن في آنٍ معاً لكونها في نيويورك قبل الميلاد. وتذكّرت عندما كان الولدان صغيرين، وعندما كانت تصطحبهما للتزحلق على الجليد في روكفيلر سنتر، وعندما كان أرثر لا يزال حيّاً منذ سنتين. كان من الصعب عليها التواجد هناك. سُرّت برؤية الأصدقاء، ولكنّها تعبت من الشرح لهم بأنّه ما من رجلٍ جديدٍ في حياتها. وكان هذا السؤال الوحيد الذي طرحه الكلّ عليها، وكأنّه لم يعد لكيانها وجودٌ إلا إذا كانت مرتبطةً برجلٍ. جعلها ذلك تشعر بالفشل، والشفقة على نفسها لأن زوجها توفّي وها هي الآن وحيدة. وصعُب عليها رؤية أصدقائها المتزوّجين يغادرون كلّ منهم يتأبّط ذراع شريكه، وشعرت بأنّها الصّنف المنفرد الوحيد على سفينة نوح. وكانت سعيدةً بالعودة إلى باريس في اليوم التالي، كما كانت متحمّسةً لأنّ ولديها سيصلان في اليوم التالي.

أتت بطبّاخٍ ليعدّ لهم حبش العيد لليلة الميلاد، كما زيّنت الشجرة ووضعت الزينة حول المنزل. غمرتها السعادة لرؤية تاتيانا التي لم ترها منذ شهرين. بدت بحالةٍ جيّدة؛ كما أنها قضت وقتاً ممتعاً في رحلتها. وبالكاد استطاعت الانتظار قبل أن تُري والدتها الصّور التي التقطتها. وكانوا يشاهدون الصور عندما أخبرها كزافييه عمّا حصل مع غونزاغ.

وبادر بالقول: "كادت أمّنا تلغي رحلتنا إلى سان موريتز لأنّها كانت ستذهب من دوننا لبيع لوحةٍ بقيمة مليون دولار إلى كونت فرنسيّ".

- "كلا، هذا ليس صحيحاً أيّها الولد الفاسد". ثمّ أخبرت تاتيانا القصّة،

والتي بدت مصدومةً من فكرة أنّ ثرياً فرنسياً حاول إقامة علاقةٍ مع والدتها بحجّة شراء لوحةٍ بمليون دولارٍ.

فقالت تاتيانا متعاطفةً مع والدتها: "هذا مقزّز أمّي". استطاعت بسهولةٍ تخيّل مدى الإهانة التي سبّبها هذا الأمر لوالدتها.

فقاطعها كزافييه قائلاً: "كلا، لم يكن الأمر كذلك، أعتقد بأنّها يجب أن تشعر بالإطراء".

وأجابته تاتيانا وهي ترمقه بنظرةٍ غاضبة: "يا لك من شوفانيّ مثير للشفقة. هذا رهيبٌ لأمّي".

– "حسناً، لقد ربحتما، سأذهب وألقنه درساً. أين يسكن؟".

ثمّ التفت إلى والدته فضحكت وقالت: "لم يكن يجدر بي إخبارك، لن تدعني وشأني من الآن وصاعداً".

– "نعم، سأفعل. وبالمناسبة، أنسى دائماً أن أعلمك بأنّ ليام سيرسل إليك أخيراً رقاقات عرض عن لوحاته. لقد رأيتها وهي جيّدة". وبدا فخوراً بصديقه.

– "أتوق لرؤيتها". علمت بأنّ كزافييه يتمتّع أحياناً بنظرةٍ فنيّة جيّدة، وأحياناً أخرى يحاول مساعدة صديقه على حسابها. لم تدرِ ماذا تتوقّع، ولكنّ الأمر كان يستحقّ المحاولة وخاصةً بعد أن سمعت الكثير عن الفنّان الأميركيّ الشاب في لندن سواء عن مغامراته أو عن فنّه.

– "أعتقد بأنّها ستروقك". قال كزافييه مطمئناً، غير أنّها لم تعلّق بل هزّت برأسها. فلا تزال تأمل ألا تعجبها اللوحات لأنّه يبدو بأنّ الرسام الجديد سيتعبها.

ثمّ سألت مجدداً: "أتذكّرني باسمه؟".

– "ليام أليسون. هو من فرمونت، ولكنّه يعيش في لندن منذ أن تخرّج من الجامعة".

– "سأتذكّر الاسم إذا أعجبتني اللوحات، وسأحاول رؤيته عندما آتي في

المرّة المقبلة". وكان كزافييه يقوم ببعض الاكتشافات الفنيّة لها بين الحين والآخر. تمتّعت ساشا بروح المغامرة، وكانت لها نظرة لا تخطئ؛ ولكنّها عرفت منذ البداية أنّ ليام لن يشبع نظرتها الفنيّة وهو استنتاجٌ قامت به بعد كلّ التصرّفات التي قام بها مع كزافييه.

ذهبوا إلى قدّاس منتصف الليل، وفي اليوم التالي أمضوا معاً في البيت يوماً دافئاً. أهدتها تاتيانا زيّاً هندياً وحذاءً مفتوحاً يتماشى معه. أمّا كزافييه فاشترى لها سواراً ذهبياً من متجر أثريّاتٍ في لندن. ولقد شكّلت هديّته ما كان والده ليقدّمه لها لو كان لا يزال معهم. وأثلج قلبه رؤيتها سعيدةً بالهديّة عندما وضعتها في معصمها على الفور.

نظرت إليهما تلك الليلة عندما خلدا إلى النوم وابتسمت لهما قائلةً: "أنا أكثر النساء حظّاً في العالم". وكانت تقصد كلّ كلمةٍ من ذلك، وللمرّة الأولى منذ وقتٍ طويلٍ أحسّت فعلاً بأنّها محظوظة.

الفصل الرابع

أمضت ساشا وولداها وقتاً رائعاً في سان موريتز على الرغم من استمرارهما بمضايقتها على سبيل المزاح حول موضوع غونزاغ. أقاموا في فندق بالاس حيث توفرت لهم شتّى وسائل الراحة والترف. فمن وقتٍ إلى آخر، أحببت ساشا تدليلهما وبخاصة أثناء العطلات، ولطالما فعلت ذلك مع آرثر، وشعرا بأنّهما محظوظان لتمكّنهما من ذلك. وأصبحت الرحلات التي قاموا بها ذكرياتٍ جميلة طُبعت في ذاكرتهم جميعاً. وكانت رحلة سان موريتز هذا العام إحدى تلك الأوقات الرائعة.

تزلّجت على الثلج مع ولديها أحياناً وبمفردها أحياناً أخرى. وكان كزافييه متزلّجاً ماهراً وحظيت تاتيانا أيضاً بموهبته على الرغم من شعورها المرهف وعدم جرأتها. التقى كلٌّ منهما بأشخاصٍ هناك فخرجا معهم تلك الليلة. أمّا ساشا فتناولت العشاء بمفردها في غرفتها كالعادة ولم تهتمّ أبداً لذلك. فقد أحضرت معها بضعة كتبٍ للمطالعة، ولم تودّ أن تشكّل جزءاً من الحياة الليلية. وشعرت بالراحة والطمأنينة والسعادة عندما عادوا إلى باريس. بقيت تاتيانا معها بضعة أيّامٍ، وبعد ذلك عادت إلى نيويورك للبحث عن عمل. وأمضى كزافييه يوماً إضافيّاً أو اثنين وعاد إلى منزله الصغير في لندن. قبل مغادرته، وصلت رقائق العرض التي أرسلها صديقه ليام أليسون وما أدهشها وأقلقها في آنٍ واحد هو أنّ اللوحات كانت أفضل ممّا وصفها كزافييه. تأثّرت بها ساشا على الرغم من أنّه سيكون عليها رؤية اللوحات لاتخاذ قرار تمثيله.

"سأحاول القدوم في الأسبوع المقبل أو الذي يليه". أخبرت كزافييه وعنت ذلك فعلاً. ولكنّها لم تقصد لندن إلا في الأسبوع الأخير من شهر كانون

الثاني/يناير لرؤية ثلاثة من فنّانيها وللقاء ليام. وكانت قد وضعته على برنامج مواعيدها لتقابله في آخر يوم لها في لندن من دون أن يخلو الأمر من بعض الخوف. فلقد أخافتها جميع تلك القصص التي رواها كزافييه عن مغامرات ليام وتصرّفاته السّيئة، الأمر الذي لم يشجّعها على مقابلته. غير أنّه يصعب تجاهل موهبته الواضحة، وشعرت بأنّها مرغمة على رؤيته وعندما وجدت نفسها في محترفه سُرّت لأنّها أتت.

استقبلها ليام في المحترف وبدت عليه ملامح القلق التي حاول إخفاءها بابتسامةٍ عصبيّة. رافقها كزافييه وربّت على كتف صديقه لإعطائه دفعة من الشجاعة والدعم، فهو كان يعرف بأنّ صديقه قلقٌ. ولكنّ ساشا كانت هادئةً وظهرت عليها صفات امرأة الأعمال مع قليلٍ من القسوة عندما دخلت. ارتدت سروال جينز وقميصاً أسودَين، وحذاءً أسود وبدا شعرها الذي ربطته إلى الخلف أكثر سواداً من القميص. وحتّى مع ملابسها التي كانت تجعلها تبدو صغيرةً جداً، اعتقد ليام عندما صافحها بأنّها مذهلة. وعرف بأنّها مهما ستقول أو ستفكّر بشأن عمله، فسيكون له وقع مهم في حياته للأبد. وإذا قرّرت بأنّه غير ملائم أو رفضت عرض لوحاته في معرضها، فسيشكل ذلك صدمةً كبيرة له. وفيما نظر إليها وهي تعبر المحترف، شعر بالضّعف والخوف. شكرته بلطفٍ لدعوتها. وعلى الرغم من كلّ ما قاله كزافييه، لم يكن لدى ليام أيّ فكرة بأنّ ما يبدو هدوءاً وبساطةً من جانبها كان في الواقع خجلاً. كانت مهتمّةً بالفنّ أكثر من الأشخاص، ولكن كان من الصعب تجاهل ليام. فقد سمعت من ابنها قصصاً كثيرةً عنه، وعرفت من تصرّفاته أيّ نوعٍ من الأشخاص هو. أمّا العامل الجيّد الوحيد فكان زوجته وأولاده الثلاثة وهذا ما أملته. وفكّرت بأنّه لا يستطيع أن يكون عديم المسؤوليّة بالكامل في وجود عائلة في حياته. وبالإضافة إلى ذلك، لم يذكر كزافييه أبداً أنّ ليام غير مخلصٍ بل أخبرها فقط بأنّه "يصعب كبحه"، وبأنّه كثير المزاج ويكره أن يُقال له كيف يتصرّف. فهو يقاوم أيّ جهدٍ لتعديل سلوكه، وينبذ كلّ توقّع يجبره على التصرّف بطريقةٍ

ناضجةٍ أو السيطرة على نفسه. وبحسب كزافييه، إنه يستند في ذلك إلى كونه فنّاناً، ويعتقد أنّ هذا ما يتيح له التصرّف على هواه من دون التقيّد بالآخرين. ولم يكن هذا الأسلوب غريباً عن ساشا، ولكنّها لطالما وجدت أنّ التعامل غالباً ما يكون صعباً مع أشخاصٍ مثله. فهم من النوع الذي يعمل متى أراد ويتسكّع في الأوقات الأخرى ولا يحترم مواعيد العروض. وغالباً ما أحبّ الرجال مثله أن يُعاملوا كالأطفال، وبدا من الواضح أنّ زوجته لديها الإرادة لفعل ذلك. ولكنّ ليس ساشا، فلم تكنْ تهتمّ كم هو جذّابٌ أو ساحرٌ. فإن كان جادّاً بخصوص عمله ولو بحدودٍ معيّنة، فستتوقّع منه، على الأقلّ، أن يتصرّف كراشدٍ أو أن يتظاهر بذلك. ووفقاً لكلّ ما سمعته عنه، لم تكن واثقة أبداً من أنّ ليام مستعدٌ للنضوج. وفي نهاية المطاف، سواء كان جذّاباً أو لم يكن، على عمله أن يكون كاملاً.

مشت ببطءٍ في المحترف حيث علّق بضع لوحاتٍ كبيرة ومضيئة، كما رأت ثلاث لوحات أصغر موضوعة على حوامل. تميّز عمل ليام بالضخامة والقوّة، وكان استعماله للألوان بارزاً فبدت لوحاته كبيرةً للغاية واتّصفت بالبعد والاتّساع. وقفت تتأمّل لوحاته لوقتٍ طويلٍ، وتهزّ برأسها بينما التقط أنفاسه. عرف كزافييه بأنّ سكوتها علامة جيّدة، ولكنّ ليام لم يكن يعرف ذلك ونظر إليها بقلقٍ بالغٍ وهي تشاهد عمله باهتمام، وكاد قلبه يتوقّف حين التفتت إليه وقالت بضع كلماتٍ معدودة: "هذا رائع. أريدها". ثمّ اعترف لها بأنّه كاد يُغمى عليه من السعادة. وأطلق صيحة فرح، وأمسكها وجعلها تدور بسرعةٍ كأنّه يراقصها بانفعالٍ مبتسماً لها ابتسامةً عريضةً، وقال بعد أن أجلسها: "يا إلهي، لا أصدّق ذلك... أحبّكِ! يا إلهي! ظننتُ بأنّكِ ستكرهينها وستقولين بأنّها قذارةٌ مطلقة".

– "ليست قذارة أبداً". ابتسمت له، وسُرّت لأجله وكانت ممتنّةً لكزافييه لأنّه وجده وجعلها تتعرّف إليه. "إنّها رائعة، واستعمالك للألوان جعل قلبي يدقّ بسرعةٍ وعينيّ تدمعان. ولكنّنا لا نستطيع تنظيم معرضٍ لك قبل سنةٍ بسبب

كثرة المواعيد والمعارض. وأريدك أن تقيم معرضك الافتتاحيّ في نيويورك وليس في باريس". فلطالما تميّزت معارض باريس بالهدوء، ولذلك كانت تفضّل إقامة معارض الفنّ المعاصر المهمّة في نيويورك. وهنا أيضاً عرف كزافييه بأنّ في ذلك علامةً جيّدة وقال في نفسه بأنّه سيخبر ليام بهذا لاحقاً فلم يكن يريد أن يكشف كافة أسرارها أمامه وفي حضورها. وكان متأثّراً لأنّه قام بتقديمهما الواحد للآخر، فلقد كان مقتنعاً بروعة عمل ليام وشعر بالسعادة لقبول والدته بتمثيله.

ثمّ هتف ليام مجدداً: "يا إلهي"، وجلس على الأرض بينما كادت الدموع تنهمر من عينيه. عمل عشرين سنةً للوصول إلى هذه اللحظة وها هي قد أتت أخيراً. سيحظى بعرضٍ في صالة سوفيري في نيويورك، فاق ذلك الخيال. فحتّى أنّ ساشا قصدت محترفه وأعجبت بعمله وأخبرته بأنّه يجب أن يعمل بجهدٍ ليكون مستعداً للعرض. "ماذا يمكنني أن أفعل لأشكرك؟" ونظر إليها كمن ينظر إلى حلمٍ أصبح حقيقةً ملموسةً تجسّدت في محترفه. وبدا كولدٍ رأى أعجوبةً أو حوريّةً خرجت من المياه.

فأجابته قائلةً: "ارسم لي المزيد من الأعمال الجيّدة فحسب. لقد أحضرت العقد معي من باريس في حال تمّ الاتفاق بيننا. يمكنك أن تريه لمحامٍ إذا أردت، فلست مستعجلةً للتوقيع". ولم تكن ساشا تمارس ضغطاً على أحدٍ لكي يوقّع.

- "لا ليس في ذلك استعجال، ماذا لو بدّلتِ رأيك؟ أين أوقّع؟ أعطني العقد وحسب، سأوقّعه". كان يطير فرحاً حين نظرت إليه، وبالكاد بدا أكبر من ابنها.

علمت من الأوراق التي أرفقها مع رقاقات العرض بأنّه في التاسعة والثلاثين من عمره. ولكنّها بالنظر إلى مظهره، ما كانت ستصدّق ذلك أبداً. كما أنّه درس مع فنّانين مهمّين، وكانت له عروضٌ قليلة في بعض الصالات الصغيرة. ولكنّه بدا كالولد، فكلّ ما فيه بدا متحرّراً وشاباً وحرّاً. كان طويل

القامة وهزيل الجسم وجذّاباً. أمّا شعره فهو أشقرٌ ويتدلّى على كتفيه معظم الوقت ولكنّه ربطه لاستقبالها. وبدا وجهه ناعماً ويافعاً وكتفاه عريضين وقويين وساعداه طويلين. مشى في المحترف كالمراهق في حذائه الرياضيّ وسرواله الجينز الأزرق وقميصه الملطّخ بألوان الطلاء. دار حولها كالطفل القلق ورجاها أن تعطيه العقد.

قالت له مطمئنة: "إنّه في الفندق"، وبدت نبرة صوتها فجأة كالأمّ. وبما أنّه سيصبح أحد فنّانيها، شعرت بأنّها حاميته. وأضافت بلطف: "سأوصله إليك قبل مغادرتي أو سأرسله عبر الإنترنت. لن أبدّل رأيي ليام فأنا لا أفعل ذلك أبداً". كان صوتها هادئاً، وتأثّرت بفرحه خصوصاً عندما قال بأنّها إحدى اللحظات المحوريّة في حياته. لم تعتقد ذلك، ولكنّها كانت سعيدةً لما يعنيه هذا الأمر بالنسبة إليه. هذا ما أحبّته في عرض أعمال فنّانين جدد مثله لأنّها كانت قادرةً على إعطائهم الفرصة وأحبّت هذا الجانب من عملها. ومع أنّ كزافييه كان محقّاً بأنّه يكبره سنّاً، إلاّ أنه بدا عكس ذلك فكل ما فيه كان فتيّاً. كان يصغرها بتسعة أعوامٍ، ولكنّه يتصرّف كما لو كان في الرابعة عشر ويبدو في العشرينيات لا في الثلاثينيات من العمر. لم يبدُ أكبر من كزافييه بنظرها، ولذلك شعرت بعاطفة الأمومة نحوه. وسألته: "أتريد أن تُري العقد لزوجتك؟" وقد بدا من الفوضى التي تعمّ المحترف أنّها لا تقيم معه، ولم يكن أيّ شيءٍ في المكان يدلّ على وجود زوجةٍ وثلاثة أولادٍ كما أخبرها كزافييه. واعتقدت ساشا أنّهم يقيمون في مكانٍ آخر لأنّ ثيابه أيضاً كانت مبعثرةً هنا وهناك، ومغطاة بالألوان وبدا من الواضح أنّها ثياب العمل. واستنتجت ساشا أنّه لا بدّ أنّهم يعيشون جميعاً في مكانٍ أنظف وأكثر ترتيباً. فأجاب ليام بأسف: "إنّها في فرمونت، سأرسل لها نسخةً بعد توقيع العقد، لن تصدّق ذلك بالتأكيد". ثمّ نظر إلى كلٍّ من كزافييه وساشا.

وبينما صبّ ليام لكلٍّ منهم كأس شرابٍ بدوا جميعاً سعداء. ارتشفت ساشا القليل منه أمّا ليام فشربه جرعةً واحدةً بلحظة. كاد يطير فرحاً وبالنسبة إليها

كان اكتشافاً حقيقياً قام به كزافييه، وتمنّت أكثر من قبل أن يدخل العمل معها لأنّه مثلها تماماً يتمتّع بنظرةٍ فنيّةٍ ثاقبةٍ ورثاها عن والدها. ولكن كزافييه أراد العيش في لندن ومزاولة الفنّ، لا أن يكون ممثّلاً للفنّانين في نيويورك أو باريس. ربّما سيفتتحون معرضاً في لندن يوماً ما، وهي المرّة الأولى التي تفكر فيها بتوسيع الأعمال منذ سنواتٍ. غير أنّ كزافييه ما زال شاباً لتحمّل كلّ هذه المسؤوليّة وحده. لعلّ تلك اللحظة ستحين يوماً ما، فكزافييه لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره إلا منذ فترةٍ قصيرةٍ على الرغم من أنّها دخلت مجال الأعمال وهي في السادسة والعشرين من العمر تحت إشراف والدها. وسألهما ليام بعد صمتٍ: "أستطيع اصطحابكما للعشاء؟ أريد أن نحتفل". بدا وكأنّه سينفجر من الفرح، وبالفعل كان على وشك ذلك من شدّة الحماسة.

فأجابه كزافييه: "أودّ ذلك ولكن..."، وعرفت ساشا ماذا يعني فالعشاء مع والدته وفنّان يتضارب مع مصالحه العاطفيّة، ولم يكن بالتأكيد يرغب أن يمضي السهرة في التحدّث عن الأعمال. في سنّه كانت ساشا متزوّجةً وتعمل في المتروبوليتان ورُزقت بولدين، غير أنّ كزافييه ما زال بعيداً كلّ البعد عن أن يعيش مثل هذه الحياة في الوقت الحالي. وترددت ساشا للحظة لأنّها أملت أن تتناول العشاء مع كزافييه في تلك الليلة ولم تعرف أنّ لديه مشاريع أخرى، ولكن ذلك الجانب المفاجئ طبع شخصيّة كزافييه دائماً. فالتفتت إلى ليام وقالت بلطفٍ: "لمَ لا أصطحبك أنا للعشاء ليام؟ أصبحت وكيلتك الآن ولستَ بحاجةٍ لتدعوني، علينا أن نعتاد على بعضنا البعض". ورأى في عينيها دفئاً لم يلحظه في البداية، وأحبّ ذلك البريق الهادئ والثبات فيهما. وبدا كلّ ما فيها موثوقاً به وصلباً وأعجبه ذلك. فلقد شعر بالخوف منها في بادئ الأمر، ولكنّه أحسّ بأنّها تخفي الدفء خلف مظهرها المحترف والهادئ. أرعبه صيتها وما سمعه عنها ولكنّه أحبّ شخصها. وتساءلت ساشا ما إذا كان يملك بزّةً رسميّةً لأنّ معظم فنّانيها الشباب لا يملكون واحدة. ولم يبدُ أنّ ليام مختلفاً عنهم. في الواقع، بدا أسوأ من بعضهم رغم مظهره الوسيم وسحره وجاذبيّته. أجابها بابتسامةٍ

سحرت قلوب الكثيرين: "أودّ ذلك بكلّ سرورٍ وأستطيع أن أوقّع العقد خلال العشاء".

فأنّبته قائلةً: "عليك قراءته أولاً، والتأكّد من أنّه يلائم شروطك، لا توقّعه من دون أن تقرأه على الأقلّ أو أن تريه لمحامٍ".

– "قد أبيع نفسي عبداً لكِ أو أمنحك أحد أعضاء جسمي إذا أردتِ". كانت نبرته هادئةً واعترى ساشا الذهول، غير أنّها اعتادت سماع هذه الخطابات والإطراءات من فنّانيها.

– "ليس هذا ضرورياً في الوقت الحالي، فبحسب ما أذكر، لم يرد وهب الأعضاء في عقدنا. يمكنك الاحتفاظ بها وأنا متأكّدة من أن زوجتك ستُسرّ بذلك". ابتسم لها ولم يُجب. وفيما نظرت إليه، رأت كم هو وسيمٌ وساحرٌ، وكان النظر إليه مشهداً ممتعاً بالنسبة لها، فعلى الرغم من ملامحه الصبيانيّة والفتيّة، وتصرّفاته وسلوكه تميّز بموهبةٍ لافتة.

ثمّ سألته: "أين تحبّ أن نتناول العشاء؟" كانت قد فكّرت بالذهاب إلى مطعم هاريز بار مع كزافييه، ولكن ابنها مختلفٌ تماماً عن ليام، فلديه الملابس الملائمة ويعرف كيفيّة التصرّف هناك. وكانت تشكّ في أنّه لدى ليام الملابس أو السلوك الملائمين. فهو في النهاية فنّانٌ جائع على الرغم من أنّ حاله سيتبدّل نحو الأفضل بسببها. وكانت متأكّدة من أنّه سيشكّل صدمةً إيجابيّةً من خلال أعماله في نيويورك وباريس، فهو اكتشافٌ حقيقيٌّ يمزج بين بساطة العيش وموهبة عظيمة تنتج في النهاية عملاً رائعاً.

وهتف بصدقٍ لامس قلبها: "أودّ أن أرتدي أفضل ما لديّ وأصطحبك للعشاء لأشكرك".

– "أفضل ما لديك؟" ونظرت إليه نظرةً مفعمةً بحنان الأمّ، فلقد كان يوقظ الأمومة في داخلها كلّما تطلّعت إليه لأنّ كلّ ما فيه يشعرها بأنّه صبيٌّ صغيرٌ وليس رجلاً. وأصبح كلّ ما أرادته فجأةً هو حمايته ومساعدته، وكانت متحمّسةً للعمل معه وإطلاق حياته المهنيّة بقوّةٍ. وشكّل اكتشافاً مهمّاً وجوهريّاً

لها، ولم تكن هذه اللحظة مهمّة له وحده بل لها هي أيضاً.

– "لديّ بزّة رسميّة وقميصان جيّدان. إحداها نظيفٌ على ما أعتقد لأنني استعملت الأخرى لتنظيف السيّارة". ثمّ رمقها بنظرةٍ خجولة فضحكت. وجدت فيه شيئاً لا يُقاوم، وذكّرها بكزافييه عندما كان في سنّ الرابعة عشر وهو يجاهد ليصبح رجلاً. بلغ كزافييه مرحلة الرجولة ولكن ليام ما زال صبيّاً.

– "لنذهب إلى هاريز بار إذاً". لطالما أحبّت تناول العشاء في ذلك المطعم الذي كان المفضّل لديها في لندن.

– "يا إلهي، لا أستطيع التصديق بأنّ ذلك يحدث لي فعلاً، هل تصدّق ذلك؟" التفت مذهولاً إلى كزافييه الذي ابتسم بسعادةٍ لصديقه، فقد تمّ ذلك بشكلٍ أفضل ممّا توقّع لأنّه شعر بالقلق على ليام وكان ممتنّاً لأن والدته قدّمت له الفرصة.

وأجاب كزافييه قائلاً: "نعم أصدّق".

– "أنا مدينٌ لك يا رجل". وضرب كفّه بكفّ صديقه، وكانا يبدوان لها كصبيّين يلهوان، وأملت أن يكون سلوكه جيّداً في هاريز بار تلك الليلة، فمن الصعب التوقّع بذلك مع الفنّانين، ولهذا نادراً ما كانت تصطحبهم للعشاء هناك. غير أنّها قرّرت إعطاء فرصة لليام، فقد بدا أنّ فيه شيئاً بريئاً وساحراً وإذا خرج عن الحدود أو أساء التصرّف ستطلب منه أن يحسّن سلوكه. كان فنّانوها بمثابة أولادٍ لها وحتّى كبار السنّ أحياناً، وشعرت بأنّها الوالدة البديلة لهم وهذا ما أضاف عبئاً إضافيّاً على عملها ولكنّها أحبّت هذا الجزء فلعبت دور الأمّ الدجاجة التي تخاف على صغارها. وعلى الرغم من أنّها لا تكبره كثيراً في السنّ، بدا ليام بحاجةٍ إلى أمّ تحتضنه تماماً كشخصيّة بيتر بان في القصّة الخياليّة.

وقبل أن تغادر مع كزافييه قالت لليام: "فلنتناول العشاء عند الساعة الثامنة، سيقلّك سائقي في السابعة والنصف وسأنتظركما في بهو الفندق". وبينما

نزلا السلالم، لحق بهما ليام وذكّرها: "لا تنسِ أن تحضري العقد معك". كان بعد ظهرٍ مثمرٍ لكليهما وكان ليام متحمّساً للعشاء، أراد أن يحدثها عن العرض وعن عدد اللوحات التي تريدها. وصمّم على العمل في المعرض بجهدٍ ليلاً ونهاراً خلال العام القادم لينتج أفضل ما لديه لأنّه لم يُرد أن يخيب ظنّها به. شكّل هذا الأمر فرصته الكبرى، وأدرك ليام ذلك بعد أن عمل طوال حياته ليعيش هذه اللحظة. ورغم أنه كان يسمح لنفسه بإساءة التصرّف في حياته الخاصة، أو خلال سهراته ومغامراته مع كزافييه، إلاّ أنه لطالما كان جديّاً في عمله. وعرف منذ طفولته بأنّه سيصبح رسّاماً، وهذا ما عزله وأبقاه وحيداً في الطفولة والمراهقة والشباب. ولطالما عرف بأنّه مختلفٌ عن الآخرين ولكنّ ذلك لم يزعجه ولم يهتمّ للأمر. وكانت والدته المشجّعة الأولى له، وغالباً ما ردّدت على مسامعه أنّ عليه أن يتابع أحلامه إلى النهاية. أمّا بقيّة العائلة فلم تكن متحمّسةً وحتّى أنّ والده عامله بقساوةٍ ونعته بغريب الأطوار، وهذا ما أوجد شرخاً بينهما. كانت والدته الشخص الوحيد الذي استطاع رؤية عبقريّته بينما اعتقد الآخرون كوالده وإخوته وأصدقائه بأنّه غريب الأطوار وغامض ولم يفهموا شيئاً من لوحاته التي أسماها والده "خردةً" واستعملها إخوته مسودّةً للكتابة. وكان ليام يجد العزاء في الرسم وعلى غرار جميع الذين عانوا في طفولتهم، كان من الداخل أكثر عمقاً ممّا يبدو عليه. لم تختبر ساشا هذا بعد، ولكنّها شعرت به، فكلّ الفنّانين الذين تعرفهم عانوا أوجاعاً خاصةً أو عاشوا حياةً بمثابة جحيم. وهذا ربّما ما يجعل حياتهم أكثر ألماً ولكنّه يعزّز عملهم والتزامهم بالفنّ. لقد جعلها فقدان والدتها في سنٍّ مبكرةٍ تتعاطف معهم أكثر وتتماشى مع عذاباتهم ولهذا كانت تتفهّمهم أفضلّ ممّا تتخيّل، وكأنّ بينها وبينهم تناغماً أو لغةً غير محكيّة.

وفي السيارة، قال لها كزافييه، وقد بدت عليه السعادة والاعتزاز بصديقه: "عرفتُ بأنّك ستحبّين عمله، إنّه موهوب".

– "نعم، إنّه كذلك". وشعرت بالثقة الكاملة لذلك، وسُرّت لأن كزافييه

وجده، وكانت فخورة به وبنظرته الفنيّة.

وطمأنها قائلاً: "إنّه رجلٌ لطيفٌ أيضاً فهو طيّبٌ وصادقٌ ويحبّ زوجته وأولاده، ومع أنّه يتصرّف بجنونٍ في بعض الأحيان فهو رجلٌ صالحٌ، ومع أنّه غريبٌ قليلاً إلاّ أنه ليس مؤذياً".

- "للأسف أنّ زوجته في فرمونت، كنت أودّ أن أقابلها، إذ يمكنك معرفة الشخص من خلال شريكه".

لم يعلّق كزافييه لفترةٍ ثمّ أجاب: "إنّها رائعة، هما متزوّجان للأبد، ولكنّها فـي فـرمونت منذ فترة". فنظرت إليه ساشا وفي عينيها استفهام: "ماذا يعني ذلك؟ أهما متزوّجان أو أنّها هجرته؟".

- "أعـتقد أنّ الجـواب إيجابـي للسؤالين معاً. فهما ما زالا متزوّجين، وأعـتقد بأنّهما يأخذان استراحةً أو ما شابه. لا يتكلّم ليام كثيراً عن ذلك وهي تـذهب كلّ صيفٍ لزيارة ذويها في فرمونت، ولكنّها لم تعد في أيلول/سبتمبر ككلّ عام. ويقول ليام بأنّها تريد أن تبقى عندهم لبضعة أشهر، وهي تقيم هناك منذ تمّوز/يوليو. إنّه رجلٌ رائعٌ ولكنني لا أعتقد أنّه من السهل العيش معه. كما أنّهـا جعلـته يكمـل دراسته من خلال عملها في منتجع مدرسيّ في الصيف والـشتاء وهـي الآن تعمل سكرتيرة هنا. إنّها تدعمه بالكامل، وتساند الأولاد وتتحمّل كلّ حماقاته وجنونه كفنّان. لا أظنّ بأنّه سيطلّقها أبداً، ولكنني لا أعتقد أنّه كان من السهل عليها حمل عبء العائلة والأولاد بمفردها. أتمنّى أن تعود فهي امرأةٌ طيّبة وأعرف بأنّه يحبّها".

- "ربّـمـا يمكننا الآن أن نغيّر حياته نحو الأفضل". وكانت ساشا تعرف كلّ تلك القصص، فمعظم فنّانيها كانوا يدفعون زوجاتهم إلى الجنون، ويرسمون بيـنما يدعم الآخرون موهبتهم. ولم يكن ليام الشخص الأوّل الذي توتّر زواجه أو تمّـت التـضحية به في سبيل الفنّ. وسمعت ساشا الكثير من هذا من قبل. "أسـتطيع أن أعطـيه بعض المال سلفاً إذا كان ذلك سيشكّل فارقاً بالنسبة له، سأرى ما سيقوله على العشاء. ربما سيساعده هذا الأمر في استعادتها".

- "مـن المؤكّد أنّه سيعني الكثير له، إنّه التوقيت المناسب لذلك لأنّ ابنه البكر سيدخل الجامعة في العام المقبل، وهو يحتاج حقّاً للمال".

- "لنأمل أن يساعده هذا، ولكنّ التغيير لا يحدث بين ليلةٍ وضحاها". مع أنّ كلـيهما يعرفان أنّ هذا ممكنٌ أحياناً. وبعد كلّ ما أخبرها به كزافييه، تمنّت أن يتحـسّن حال ليام بسرعةٍ، فعائلته تحتاج إلى هذا أكثر منه، وبخاصةٍ لأنّ ابـنه سـيذهب إلى الجامعة، على الرغم من أنّه لم يبدُ على ليام أنّه كبيرٌ في السنّ إلى حدّ أن يكون لديه ابنٌ شابٌ فهو نفسه بدا مراهقاً.

عانق كزافييه والدته ووعدها بأن يتناول الفطور معها في الصباح. واتّفقا علـى أن يلتقيا في الساعة العاشرة لأنّه كان عليها أن تقوم ببعض الاتصالات المتعلّقة بالأعمال صباحاً. وكانت قد خطّطت أن تكون في المطار عند الظهر، فأرادت أن تقضي ساعاتها الأخيرة في لندن برفقته.

ثمّ قالت له بنبرةٍ ساخرةٍ ممزوجةٍ بنصيحة الأمّ: "أحسن التصرّف الليلة"، وضـحك بينما مشى مبتعداً عنها. وفكّرت ساشا بأنّه على الأقلّ، هذه المرّة لن يكون بصحبة ليام ولكنّها بعد أن تعرّفت بليام لم تعد قلقةً من تأثيره على ابنها، وسـلّمت بأنّ كزافييه محقٌ في ما قاله بأنّ ليام يبدو ربّما غير ناضجٍ ومتهوّرٍ ولكنّه ليس مؤذياً.

ولوّح لها كزافييه قائلاً: "أراك في الصباح!" وركب سيّارته ثمّ قاد مبتعداً وفخـوراً بنفـسه لأنّهما قاما بعملٍ رائعٍ بعد ظهر ذلك اليوم. فبعد أن كان ليام يعيش وضعاً سيئاً، اتّخذت مهنته الفنيّة منحىً مهمّاً وتصاعدياً.

الفصل الخامس

أقلّ سائق ساشا ليام عند السابعة والنصف تحديداً، ثم ذهب لاصطحابها من فندق كلاريدج عند السابعة وخمس وأربعين دقيقة. وكما وعدت، كانت تنتظر في البهو، وعندما وصلت السيارة اندسّت إلى جانب ليام. كان ليام يرتدي بزّة سوداء أنيقة، وقميصاً أحمر لوّنه بنفسه بعد أن كان في ما مضى أبيض. ونسي ما فعله بالقميص الآخر أي القميص الذي استعمله لتلميع سيّارته. ففي إحدى الليالي، وبينما كان ثملاً، لوّن قميصه باللون الأحمر وقد ظنّ أنّ الأمر مسلٍ. ثمّ اكتشف بعد ذلك بأنّه القميص الوحيد المتبقّي لديه وتمنّى أن يعجب ساشا. في الواقع، لم يعجبها، ولكنّها لم تعلّق. فليام فنّانٌ تماماً كابنها ولكن لو ارتدى كزافييه شيئاً كهذا إلى هاريز بار لقتلته. غير أنّ ليام لم يكن ابنها.

ومن دون أن يلاحظ، نظرت خلسةً إلى حذائه الذي بدا حسناً. كان أسود اللون ويوحي بالجدّية، ولكنّه بدون شريطٍ، فلسببٍ ما رمى ليام الشريط وانتعل الحذاء من دونه. وأدرك بينما كان يجهّز نفسه بأنّه استعمله لغرضٍ آخر، ربما للفّ طردٍ أرسله إلى مكانٍ ما، ولكنّه لم يستطع تذكّر ذلك. واعتقد على كلّ حالٍ بأنّ الحذاء يبدو أفضل من دون شريطٍ وهو يفضّله هكذا. حلق ذقنه جيّداً، واستحمّ فبدت رائحته عطرة وزكيّة، وشعره نظيفاً ومرتّباً وقد ربطه إلى الوراء فتدلّى أشقر على كتفيه. كان جذّاباً ولائق المظهر، ولولا قميصه وغياب الشريط من حذائه لظهر أكثر احتراماً ورصانةً. ولكنّه في النهاية رسّامٌ لا يتبع القواعد ولم يفعل أبداً. فهو لم يجد من سببٍ يدفعه إلى التقيّد بقواعد الآخرين، بل أحبّ العيش وفق قواعده هو، وربّما لهذا بقيت زوجته في فرمونت ولم تأتِ

لرؤيته منذ تموز/يوليو. وعلى الرغم من القميص المطليّ بالأحمر وشعره الطويل المربوط، بدت عليه الجاذبيّة وملامح الأرستقراطيّة بطريقةٍ ما. كان رجلاً وسيماً ومليئاً بالتناقضات. ولو لم يكن رسّاماً لبرع في التمثيل أو عرض الأزياء أو في المحاماة أو العمل المصرفي، ولكنّ القميص الذي لوّنه بالأحمر لا يدلّ على أنّه رسّامٌ وحسب بل طفل متمرّد. فبدا مظهره كمن يقول للموجودين: "انظروا إليّ، أستطيع أن أفعل ما أريد وليس بوسعكم منعي". التفت إلى ساشا وسألها بقلقٍ: "هل أبدو جيّداً؟" هزّت برأسها إيجاباً ولم تودّ أن تجرح مشاعره. ففي النهاية سلّمت بأنّ القميص يبدو عملاً فنيّاً. أمّا شريط الحذاء، فلم تلاحظ غيابه إلاّ عندما وقفا عند مدخل المطعم، وكذلك لم تدرك أنّه لا يرتدي الجوارب أيضاً إلاّ عندما جلس إلى المشرب. كان النادل المسؤول يعرفها جيداً، ومن دون أن يتفوّه بكلمةٍ، أعطى ليام ربطة عنقٍ سوداء طويلة تماشت مع قميصه، وفي الواقع بدت ملائمةً عندما وضعها. وساعدته ساشا بعقدها كما كانت تفعل مع كزافييه في طفولته. وأخبرها ليام أنّه لم يضع ربطة عنقٍ منذ سنواتٍ فنسي كيف يعقدها. وبدا غير مهتمّ على الإطلاق، مع أنّ جميع الحاضرين قد ارتدوا الثياب الأنيقة: فأتى الرجال ببزّاتٍ مصمّمةٍ أنيقة وقمصانٍ راقيةٍ فرنسيّة الصنع، أمّا النساء فتمايلن في أثوابٍ من توقيع أشهر المصمّمين ودور الأزياء. ولكنّ ذلك أيضاً لم يزعجه أو يشعره بالارتباك.

تميّز بثقةٍ كبيرةٍ بالنفس باستثناء ما يتعلّق بساشا، فأراد التأثير عليها ولم يكن يعرف كيف. وكانت هي تبدو قويّةً وواثقةً ومتّزنةً في حديثها معه، وشعر فجأةً بأنّه بريءٌ أمامها. عاملته ساشا كالولد، فأخبرته بأنّ مظهره حسنٌ عندما سألها، ودخلت إلى المطعم بفخرٍ إلى جانبه، وتصرّفت كأنّه ينبغي على كلّ الرجال الحاضرين هناك أن يرتدوا مثله. وهذا ما جعل ليام يمشي بجانبها كمن يشعر بالدوار وخال نفسه بيكاسو عندما جلس.

كان قد سألها مرّتين عن العقد في السيارة، ولتبديد قلقه وقلقها هي أيضاً، أعطته إيّاه عندما جلسا إلى الطاولة فوقّعه بسرعةٍ من دون أن ينظر حتّى إلى

محتواه رغم تنبيهها له بأن يقرأه. ثمّ ناولها إيّاه. أصبح الآن أحد فنّاني معرض سوفيري، وتحقّق أخيراً كلّ ما تمنّاه وحلم به على مدى السنوات العشر الماضية. أخيراً حصل ذلك ومن الآن فصاعداً سيتنعّم بكلّ لحظةٍ تمرّ. عرف بأنّها ليلةٌ لن ينساها مطلقاً، وخالج هذا الشعور ساشا التي شعرت بأنّهما سيضحكان على هذه الأمسية يوماً ما وسيتذكران كيف دخل إلى هاريز بار مرتدياً قميصاً لوّنه بنفسه باللون الأحمر. وعلى الرغم من مظهره الشاب والمضحك، كان فيه شيء من العظمة.

وبعد أن احتسى كأس شرابٍ على المشرب، طلبت ساشا زجاجةً أخرى للاحتفال، وشربا نخباً ثمّ تناولت كأسَين وأنهى ليام ما تبقّى بلمح البصر. وبينما كان يرتشف بعض الجرعات من ذلك الشراب، راح يخبرها بأنّه يُعتبَر الابن الفاسد في عائلته، فوالده كان مصرفيّاً وعاش في سان فرانسيسكو، أمّا أخواه فأحدهما طبيب والآخر محامٍ وتزوّجا بفتاتَين من عائلتَين عريقتَين. وقال ليام إنّه لطالما كان مختلفاً منذ البداية، وغالباً ما حاول أخواه إغاظته بإخباره أنّه ولدٌ متبنّى وهذا ليس صحيحاً. ولكنّه منذ طفولته، اختلف عنهما وكره كلّ ما أحبّه أخواه، فلم يهتمّ بالرياضة ولا بالدراسة بينما كانا تلميذَين لامعَين وترأسا فرق الرياضة التي لعبا فيها كفريق كرة القدم وكرة السلة والهوكي. أمّا هو فكان يجلس وحيداً في غرفته يرسم. عاملاه دائماً بقسوةٍ كبيرةٍ فرميا أعماله ومزّقا لوحاته. كما أخبر ساشا بأنّ والده جعله يعرف في وقتٍ مبكرٍ أنّه مصدر خيبة أملٍ وخجلٍ بالنسبة للعائلة، فأرسله إلى مدرسةٍ عسكريّة ليعاقبه على علاماته السيئة، فأمضى فيها عاماً مرّ عليه كالكابوس. وفي إحدى الليالي، تسلّل إلى مقهى المدرسة ورسم على الجدار رسوماً كاريكاتوريّة تجسّد الأساتذة وكان بعضها خلاعيّاً. واعتبر الأمر بمثابة خطّةٍ ذكيّة لطرده، وقد نجحت بالفعل. وعندما عاد إلى المنزل، استمرّ التعذيب على يد عائلته، وفي النهاية تجاهلوه بالكامل لأنّهم ضاقوا ذرعاً به ولم يعرفوا ماذا يفعلون فتصرّفوا وكأنّه ليس موجوداً في حياتهم. وكانوا يتناسون استدعاءه للعشاء، ولم يكلّفوا

أنفسهم عناء التحدث معه حتّى عندما يجلس معهم في الغرفة. وأصبح إنساناً لا وجود له في عائلته وشعر بأنّه نكرة. وكلّما عاملوه بقسوة، كلّما ازداد تصرّفه سوءاً وتمرّداً، فأخرجوه من حياتهم لأنّه لم يتقيّد بقواعدهم وبالخطط التي وضعوها له. وسمع والده مراراً وتكراراً يقول بأنّ لديه ولدين فقط ولم يتكيّف ليام مع طريقة عائلته في تسيير الأمور ولهذا تجنّبوه.

وفي المدرسة أيضاً، لعب دور المنبوذ، فلم يكلّمه أحد إلاّ لكي يطلب منه رسم مشاهد للمسرح أو ملصقاتٍ أو إعلانات للمدرسة ولا شيء سوى ذلك. أما في بقية الوقت فلم يعره أحد أيّ اهتمامٍ سواء في المدرسة أو في المنزل. ولقّبه التلاميذ بالفنّان المعتوه والغريب الأطوار وهذا ما أزعجه وأهانه في بداية الأمر، ولكنّه بدأ يحبّ اللقب في ما بعد. وتساءل أحياناً في مراهقته إن كان قد فقد صوابه.

"قلت في نفسي إنني لو تصرّفت بالطريقة التي نعتوني بها، أي الفنان المعتوه، لاستطعت فعل ما أريد وهكذا فعلت، قمت بكلّ ما شعرت به بدون تفكير". وبما أنّه لم يبذل أي جهدٍ في دروسه، ولم يحرّك ساكناً لينجح طُرِدَ من مدرسةٍ تلو أخرى، وخرج نهائياً من المدرسة في عامه الأخير ولم يكلّف نفسه حتّى عناء التخرّج إلى أن أجبرته زوجته على نيل الشهادة عندما تزوّجا. غير أنّ المدرسة لم تعنِ له شيئاً، ولم تشكّل بالنسبة له سوى مكانٍ تعذّب فيه بسبب اختلافه عن الآخرين. وأخبرها ليام أيضاً بأنّ أحداً لم يعترف بعمله أو يهتمّ بموهبته ما عدا والدته، فلم يكن الفنّ عملاً مقبولاً في عائلته التي كرّست اهتمامها بالرياضة وبالدروس الأكاديميّة دون سواها، بينما لم ينجح هو في أيّ من المجالين ولم يسعَ لذلك أبداً. وتساءلت ساشا إذا ما كان يشكو من نقصٍ في التعلّم والاستيعاب ليكره المدرسة بهذا الشكل، لأنّ معظم فنّانيها كانوا كذلك وهذا ما سبّب حزناً عميقاً لهم فحاولوا التعويض عنه من خلال مواهبهم الفنّيّة. ولكنّها لم تكن تعرف ليام بشكلٍ كافٍ لتسأله عن ذلك فلاذت بالصمت، واكتفت بالاستماع إلى قصته باهتمامٍ بالغ. وأصرّ على أنّه منذ ولادته عرف بأنّه يريد

أن يصبح رسّاماً. وفي إحدى المرّات، وفي صبيحة عيد الميلاد وقبل أن ينهض الجميع من النوم، رسم لوحةً كبيرةً على جدار غرفة الجلوس ثمّ قام بطلاء البيانو والمقعد. وبدا واضحاً حينها بأنّ القميص لم يكن سوى صرعة منقّحة من ذلك الفنّ ذاته. كان آنذاك في السابعة من عمره ولم يفهم مطلقاً لماذا لم يحبّ أحدٌ من العائلة ما فعله بالغرفة، فراح والده يصفعه بشدّة وانهال عليه ضرباً مبرحاً في مشهدٍ وحشيٍّ. وشرح لها أنّه بعد ذلك، أُصيبت والدته بمرضٍ شديدٍ وتوفيت في الصيف التالي، ومنذ رحيلها أصبحت حياته كابوساً حقيقيّاً. فلقد فقدَ الإنسان الوحيد الذي كان يحميه ويحبّه ويقبل به كما هو. وفي بعض الليالي، لم يزعج أفراد عائلته أنفسهم بمناداته إلى العشاء، وتصرّفوا معه وكأنّه مات بالنسبة لهم فأصبح الفنّ مرتعه الوحيد، وشكّل ملاذاً يؤمّن له الطمأنينة وصلة الوصل مع والدته التي لطالما أحبّت أعماله. كما أخبر ساشا أنّه ولسنينٍ عديدة، وحتى إلى اليوم أحياناً، شعر بأنّه يرسم خصيّصاً لوالدته. ورأت ساشا الدموع تكاد تنهمر من عينيه عندما قال ذلك. أمّا عائلته فعاملته على أنّه مجنونٌ وما زالت، وأضاف بأنّه لم يرَ والده أو أخويه منذ أعوام.

التقى زوجته بيث خلال رحلة تزلّجٍ إلى فرمونت بعد أن غادر المنزل في الثامنة عشر من عمره وذهب إلى نيويورك ليرسم. وتزوّجا بعد عام فيما كان يرسم ويهيم جائعاً في غرينيتش. وعملت بيث كثيراً على حدّ قوله وساندته في كلّ شيءٍ على الرغم من معارضة أهلها. فهي من عائلةٍ محافظةٍ تماماً كعائلته، فلم تحبّه عائلتها لعدم وجود حسٍّ بالمسؤوليّة لديه، ولعدم قدرته على إسعاد ابنتهم ومساعدتها. رزقا بثلاثة أولاد، صبيّان في السابعة عشر والحادية عشرة من العمر، وفتاة في الخامسة. وشكّل أولاده بالنسبة إليه شعاع النور ومصدر الأمل في حياته، وكذلك زوجته بيث حتّى عودتها إلى فرمونت عند عائلتها في تموز/يوليو الماضي. وسألته ساشا بنظرةٍ قلقة: "أتظنّ بأنّها ستعود؟" ورأت فيه رقّةً وضعفاً جعلاها ترغب في أن تلفّه بذراعيها وتصلح كلّ شيءٍ من أجله، غير أنّها عرفت من خلال خبرتها بالفنّانين الذين تعاملت معهم كيف

أنهم ينشرون الفوضى في حياتهم ويستحيل عادةً إصلاح ذلك. فعلاقته بعائلته بدت صعبة الإنقاذ أو الحلّ وربما لا تستحقّ المحاولة حتّى. وحزّ في قلبها سماعه يتحدث عن زوجته وأولاده، وبدا ضائعاً من دونهم وشعرت ساشا بأنّ هنالك الكثير بعد ممّا لم يبح به.

نظر إليها ليام بصدقٍ وأجاب عن سؤالها حول عودة بيث، فتردّد للحظةٍ ثمّ هزّ برأسه وقال: "على الأرجح لن تعود". بدا مقتنعاً الآن أكثر من السابق بأنّ بيث رحلت ولن تعود أبداً.

- "ربما عندما تعلم بأنّ أمورك الماديّة تحسّنت، سيشكّل ذلك فرقاً بالنسبة لها". ولسببٍ تجهله، رغبت بأن تعود بيث من أجل ليام، ولم تكن متأكدة من انعدام فرص رجوعها. كان حزيناً لانفصالهما غير أنّه تقبّل ذلك واعتقد بأنّ الأمر محتّم.

وكان ليام وبيث قد تزوّجا منذ عشرين عاماً، ومن الواضح أنّ زواجهما لم يكن سهلاً وخصوصاً بالنسبة لها. وبدا ليام كمن ارتكب جريمةً ويشعر بندمٍ يتآكله، ولكنّه عرف أنّه لا يستطيع تغيير مسار الأمور.

- "لم تكن الأمور المادية هي السبب". كان واضحاً في قوله، وتساءلت ساشا عن المشكلة الحقيقيّة للانفصال بينما كانا يتناولان طبقاً من المعكرونة مع شرابٍ فرنسيّ ممتاز.

- "ما السبب إذاً؟" ودار في رأس ساشا أسئلة كثيرة، لعلّ الأولاد أصبحوا عبئاً عليهما، أو بكلّ بساطة هي الأعوام الطويلة التي أدّت إلى ملل أحدهما من الآخر.

- "أقمت علاقةً مع أختها في حزيران/يونيو الماضي". وظهرت ملامح الحزن على وجهه وخفت صوته. وعلى الرغم من جهدها لالتزام الهدوء، لم تستطع ساشا إخفاء صدمتها، فبرأيها كان ذلك عملاً متهوّراً وغبياً أن يخون المرأة التي عملت على مساندته هو وأولادهما طوال هذه الأعوام العشرين الماضية. وعرفت من كزافييه بأنّ زوجة ليام امرأةٌ لطيفةٌ ولكنّ ساشا باتت

تشكّ في أنّ ليام ربما ليس رجلاً صالحاً وهذا ما دلّت عليه اعترافاته. ثمّ سألته بنبرةٍ هادئة: "لماذا فعلت ذلك؟".

- "شربنا حتّى الثمالة بينما كانت بيث برفقة الأولاد خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع. أخبرتها عند عودتها، وتصوّرت بأنّ أختها بيكي ستخبرها على أيّ حال. إنهما توأمٌ".

- "توأم متطابق؟" وجدت ساشا القصّة مثيرة للاهتمام وحزينة في آنٍ معاً، وللحال وجدت نفسها تعيش القصة معه بينما يرويها تماماً كما تأثرت بحديثه عن والديه وأخويه. لم تكن واثقةً بعد لماذا أو حتّى إن كان يستحقّ ذلك، ولكنها أحبّته وأرادت مساعدته مع أنّ خيانته لزوجته أخافتها. فبالنسبة لها، تتعلّق الخيانة بنقصٍ في الأخلاق وهذا ما أزعجها للغاية. غير أنّ ملامح البراءة والطفولة التي بدت عليه كانت كفيلةً بأن يودّ المرء مسامحته مهما بلغت فداحة الأعمال التي ارتكبها.

- "ليستا توأمَين متطابقَين، ولكنّهما تتشابهان إلى حدٍّ كبيرٍ. كانت بيكي تلاحقني منذ وقتٍ طويل، وفي اليوم التالي لم أستطع التصديق بأنني قمت بذلك، ولكن ما حصل قد حصل". كان على وشك البكاء، وبكى فعلاً عندما أخبر بيث بالأمر.

- "هل أنت مدمنٌ على الكحول؟" سألته ساشا بنبرةٍ جديّة، صحيحٌ بأنّه شرب الكثير على العشاء ولكنّه لم يبدُ سكيراً بالنسبة لها.

- "لا لست مدمناً، بل غبيّاً. قامت بيننا أنا وبيث خلافاتٌ كثيرةٌ في العام الأخير، أرادتني أن أبحث عن عملٍ، فلقد سئمت من العمل بكدٍّ والتضوّر جوعاً في سبيل الفنّ. واستمرّ والداها بالإصرار عليها لكي تهجرني وتعود إلى المنزل. والدها نجّارٌ ووالدتها مدرّسة، وهما يظنّان أنّ لوحاتي خردةٌ تافهة حتّى إنني بدأت أفكّر مثلهما أنا أيضاً إلى أن قابلتك". ونظر إلى ساشا بامتنان، وكان من الصعب مقاومة جماله. وحتّى بعد سماع اعترافه بالخيانة، صعب عليها أن تشعر بالغضب حياله، فلقد كان محقّاً في ما قاله، فما قام به عمل

طائشٌ وغبيّ. وعلى الرغم من كلّ ذلك، رأت فيه براءةً وجاذبيّة لم تستطع شرحهما بشكلٍ عقلانيّ، وكأنّها وقعت في حبّه كشخصٍ وحتّى كرجلٍ.

ثمّ سألته مستفسرة: "ماذا تعمل بيكي؟".

– "إنّها ساقية في منتجع للتزلّج، وهي تجني الكثير من المال، وتتسكّع مع رجالٍ كثيرين. لطالما رغبت بي، وربما أنا أيضاً أردتها. لم أقم أيّ علاقة قبل زواجي من بيث، ولم أكذب عليها أو أخدعها إلى الآن". ولكنّ حتّى هو كان يعلم بأنّ ما فعله خطأ. وتابع قائلاً لها بصدق: "ليس هنالك من مبرّرٍ لما فعلته، كان كلّ ذلك عملاً فاسداً".

– "هل تعتقد بأنّها ستسامحك؟" أملت ساشا أن يحصل ذلك من أجله، فلقد كان رجلاً بريئاً وطيّباً لم يرتكب سوى هذه الغلطة على مدى عشرين عاماً على الرغم من أنّها كبيرةٌ بما فيه الكفاية. ولكن في المقابل، من الواضح أنّ مساندة العائلة بكاملها لم تكن عملاً سهلاً على بيث.

– "لا أظنّ بأنّها ستسامحني أبداً، لطالما شعرت بالغيرة من بيكي لأنّها كانت تحظى بالرجال دائماً بينما حصلت بيث عليّ أنا مع ثلاثة أولاد والكثير من العمل. ولم أعمل أبداً على تأمين حياة محترمة لها، بينما ساندتني بيث طيلة تلك السنين، وآمنت بي دائماً إلى أن أقمت علاقة مع بيكي. اتّصلت بها وبالأولاد في عيد الميلاد وأخبرتني بأنّها ستتقدّم بدعوى الطلاق. لا أستطيع لومها، فلقد طفح كيلها. في النهاية أستطيع الآن أن أرسل لهم بعض المال فهي تستحقّ ذلك بعد كلّ تلك الأعوام". بدا رجلاً لائقاً، ولكنّه بعيدٌ عن الواقع بطريقةٍ ما ربما لأنّه فنّان. ولم تكن المرّة الأولى التي تسمع فيها ساشا قصصاً مماثلة بل سمعت أسوأ منها. ولكنها شعرت بالحزن من نهاية زواجه المؤلمة لكليهما، كانت خسارة كبيرة فالجميع دفع ثمن غلطته.

– "منذ متى لم ترَ أولادك؟".

– "منذ أن غادرت بيث، فلم أستطع تحمّل نفقات السفر، ولا شكّ بأنّ والديها سيقتلانني، فوالدها مغتاظٌ للغاية".

– "هل أخبرته بيث بما حدث؟".

– "كلا، بيكي أخبرته، هي أيضاً تكرهني، أرادتني أن أهجر بيث وأتزوّجها، قالت إنّها لطالما كانت مغرمةً بي. تحصل أحياناً أمورٌ غريبة مع التوائم، أو على الأقلّ هذا ما جرى معهما. وتعتقد بيث بأنّ بيكي استاءت منها دائماً، فهي امرأةٌ رائعة الجمال ولم يودّ أحد الزواج منها. حملت بطفلٍ عندما كانت في الخامسة عشر من عمرها، ولكنّ والديها أجبراها على وضعه للتبنّي. أظنّ بأنّ ذلك أثّر بها، وحاولت أن تبحث عنه منذ ستة أعوامٍ عندما بلغ ابنها الثامنة عشر من العمر واكتشفت بأنّه توفي قبل عامين من ذلك في حادثٍ. عمّت حياتها الفوضى وأعتقد بأنّها تلوم نفسها ولعلّها تكره بيث لأنّ لديها ثلاثة أولادٍ رائعين. إنّه أمرٌ معقّد".

– "يبدو كذلك، وكأنّك دخلت في نفقٍ معها في حزيران الماضي".

– "أعلم ذلك، فبيث تقول بأنّ بيكي أغوتني. انتظرت عشرين عاماً لتفعل ذلك، وبواسطة ثلاثة زجاجاتٍ من الكحول الرخيصة، رميت ورائي عشرين سنةً من الزواج مع أروع امرأةٍ في العالم".

– "لماذا لا تسافر إلى فرمونت للتحدث معها؟ أستطيع أن أعطيك دفعةً مسبقة، كنت سأفعل ذلك على أيّ حال". بدا كأنّه بحاجةٍ لذلك حتّى قبل أن تعرف بأنّه لم يرَ أولاده منذ ستة أشهر.

– "فات الأوان على ذلك، لقد استأنفت علاقتها بصديقها من المدرسة الثانويّة. سيتزوّجان ما إن تنتهي أوراق الطلاق. توفيت زوجته العام الماضي وتركته مع أربعة أولادٍ. لديه المال، فهو يدير منتجع تزلّج، وسيساعد بيث والأولاد ويعيلهم. برأيي هذا أفضل بالنسبة لها من أن تبقى متزوّجة من فنان معتوه. وهذا ما تعتقده هي أيضاً". بدا تعيساً ولكنّه كان يقول ذلك بعقلانيّة.

– "وهل أنت فنّانٌ معتوه ليام؟" سألته ساشا بلطفٍ، ففي بعض الأحيان كان يبدو كذلك. وفي كلّ الأحوال، بدا غير ناضجٍ، ولكنّه يتمتّع بلطفٍ وطيبة. وكان من المدهش التفكير بأنّ رجلاً بجماله وجاذبيّته لم يقم علاقة في حياته

سوى مع امرأة واحدة باستثناء تلك الليلة الجنونيّة التي أقام فيها علاقة مع أخت زوجته التوأم. ومع ذلك، بدا رجلاً طيباً بالنسبة لها، لقد أكّد كزافييه لها ذلك، كانت تثق به وشعرت بكلّ حواسها بأنّ ليام رجلٌ صالحٌ، ربما مجنونٌ وغير ناضج في بعض الأحيان ولكنّه في العمق طيّبٌ.

- "أشعر بأنني أحياناً فنّانٌ معتوه غريب الأطوار، أودّ أن أكون طفلاً في بعض الأوقات. فهل في ذلك الكثير من الأذى؟".

- "أظنّ بأنّ ذلك يعتمد على الشخص الذي يتأذّى. وفي هذه الحالة كانت الضحيّة بيث والأولاد وربما أنت أيضاً ولكن بيكي هي الملامة".

- "إنّها لا تهتمّ بأحدٍ سوى بنفسها، ولم تهتم أبداً".

- "هذا ما يبدو". وسكتت ساشا وراحت تفكّر بالأمر ثمّ تنبّهت أنّ ليام يراقبها.

- "ماذا عنك؟ يعتبرك كزافييه محور الكون بالنسبة له، هو مولعٌ بك ومن النادر أن يتحدث ابنٌ في سنّه عن والدته بهذا الشكل. ولكنني بعد أن قابلتك أظنّ بأنّه محقّ. إنّه محظوظٌ لحصوله على والدة رائعة". حظي ليام بأمٍّ مثلها أيضاً ولكنّه فقدها باكراً.

- "وأنا مولعة به أيضاً، إنّه ولدٌ مدهش وكذلك أخته، أنا فعلاً امرأةٌ محظوظة". وابتسمت له.

- "ربما ليس كثيراً، علمت بأنّ زوجك توفي العام الماضي". وبدت نبرته مواسية وكأنّه يعزّيها.

فأجابته بهدوءٍ: "نعم، توفي". وامتلأت عيناها بالدموع ممّا أشعرها بالخجل، فلم تكن أحزانها من شأن ليام، ولم ترغب أن تثقل كاهله بمشاكلها أو أن تشاركه ألمها. "توفي منذ خمسة عشر شهراً بعد خمسة وعشرين عاماً من الزواج". وكان الرجل الوحيد في حياتها أيضاً، وهذا ما كان مشتركاً بينهما بالإضافة إلى خسارة والديهما في الطفولة، وكلّ ما رافق ذلك وأثّر بحياتهما.

ونظر إليها بعاطفةٍ بينما أنهيا طبق المعكرونة، ورمقها بعينين رقيقتين قائلاً: "لا بدّ أنّ كونك أرملة أمر صعب عليك".

- "إنّه كذلك، ولكنّ الأمر أفضل مما كان في البداية، وما زلت أشعر به في بعض الأحيان". هزّ برأسه دلالةً على أنّه فهمها. فهو قد خسر بيث بسبب غبائه وخطأ واحد، أمّا هي فقدت أرثر بسبب لعبة القدر. وتابعت: "أعتاد على الأمر مع الوقت، فليس أمامي خيارٌ آخر كما أنّ عملي يساعدني على تخطّي المحنة".

- "لا تستطيعين معانقة لوحاتك في الليل، هل واعدتِ أحداً منذ ذلك الوقت؟" لم يكن ذلك من شأنه، ولكنّها أرادت إجابته على أيّ حالٍ. لم تودّ أن يعرف بمدى ضعفها ووحدتها، وكان عليها أن تبدو قويّةً أمامه لأنّها ستمثّله من الآن فصاعداً.

- "لا، لم أواعد أحداً، ماذا عنك؟" شعرت بالفضول لمعرفة أخباره هو أيضاً. ففي النهاية، قام بإخبارها عن عائلته وزواجه وهذا ما يدلّ على اتصالٍ بينهما أبعد ممّا توقّعت، وبالتأكيد أكثر ممّا أرادت. وللمرّة الأولى تشعر بأنّها منجذبة إلى أحد فنّانيها، ولم تودّ السماح لنفسها أبداً بالانغماس في ذلك. كان باستطاعتهما التحدث أثناء العشاء، فهما شخصان وحيدان وعانيا من خسارةٍ كبيرةٍ في طفولتيهما، وبسبب ذلك خسرا التمتّع بتلك المرحلة، وفقدا من أحبّا في كبرهما، ولكنّها لن تسمح أبداً بأن يتطوّر الأمر إلى أكثر من ذلك. ولم تكن لديها أيّة نيّة بإظهار انجذابها له، فلقد كانت تستطيع كبح مشاعرها ومحاصرتها جيّداً. كما أنّها لم تكن لتسمح له بأن يطلق العنان لمشاعره تجاهها، إن كان يشعر بشيءٍ نحوها؛ وهذا ما استبعدته.

- "خرجتُ مع امرأتين، عرّفني كزافييه بهما". ثمّ ابتسم لوالدة صديقه التي أصبحت الآن وكيلته وبدا التواصل بينهما مسلّياً حتّى بالنسبة له. "لم أستطع الاستمرار بذلك، كانتا صغيرتين، والأهمّ من ذلك أنني كنت لا أزال محبطاً ممّا جرى مع بيث. حدث ذلك في الصيف الماضي بعد أن رحلت ولم

لأخرج مع أحد مذاك. واختلف الأمر الآن بعد أن عرفت بأنّها ستتزوّج، ولكنني لم ألتقِ بالشخص المناسب بعد فمعظم النساء اللواتي يرغبن بالخروج مع فنّانين هنّ معتوهات أيضاً". وضحك بينما قال ذلك وبدا فجأةً أكثر نضجاً. "وماذا عنكِ؟ ماذا تريدين؟".

- "لا شيء، لا أريد أن أكون إحدى تلك النساء المثيرات للشفقة، واليائسات لإيجاد زوجٍ. وأظنّ بأنّ المواعدة لا تناسب سنيّ إنّها مذلّة ومرعبة".

- "ليس إن وجدتِ الرجل المناسب". فهزّت ساشا برأسها.

- "سبق أن وجدت واحداً وقد توفي، هذا يكفيني".

- "إنّه تفكيرٌ غبيّ"، قال بانفعالٍ، "ما زلتِ شابة لتستسلمي بهذه الطريقة. كما أنّكِ جميلةٌ جداً، كم تبلغين من العمر؟" تصوّر أنّها في الخامسة والأربعين من العمر كحدٍّ أقصى لأنّه كان يعلم عمر كزافييه، ولعلّها أصغر بسنتين إن تزوّجت في الثامنة عشر.

- "أنا في الثامنة والأربعين من العمر، وهذا كافٍ لأعتزل الحبّ، ففي النهاية أمضيت خمساً وعشرين سنةً بغاية الروعة".

- "ويمكنكِ أن تعيشي خمسين سنة أخرى، أتودّين أن تقضيها بمفردك؟" بدا خائفاً من الفكرة، أمّا هي فلم تهتمّ لأنّها قبلت بما ظنّته وحدتها المحتّمة.

- "كلا، أردت قضاء بقيّة حياتي معه، وكنت سأفعل ذلك لو بقي حيّاً. ولكنني لا أملك ذلك الخيار الآن، أمّا الخيارات الأخرى فلا تناسبني ولا أعتقد بأنّها ستناسبني يوماً ما. بالنسبة لي، من الأفضل أن أستسلم للوحدة بدل أن أرتمي بين ذراعي رجلٍ لمجرّد الرفقة".

- "لا بدّ أنّه كان رجلاً عظيماً إذ إنكِ أحببته بهذا القدر". وبدا ليام متأثراً بعد أن تكلّم معها على العشاء. كانت امرأة رائعة وللحال شعر بالحبّ والاحترام نحوها.

- "كان رائعاً"، قالت بحزنٍ، "وكنّا مغرمين بجنون، مؤسفٌ أنّه توفي".

- "يبدو ذلك، ولكنّه توفي ساشا، وبقيتِ أنتِ على قيد الحياة، ولو حصل عكس ذلك وتوفيتِ أنتِ لبحثَ عن رفيقةٍ. كلّنا نحتاج إلى وجود شخصٍ نحبّه فالحياة صعبة للغاية لنعيشها وحيدين". كانت الأشهر الستّة الأخيرة جحيماً له من دون بيث والأولاد.

- "لستُ متأكدةً أنّ الحياة ستكون سهلةً مع شخصٍ غير مناسب، مثل بيكي. حصلت على الشخص المناسب في المرّة الأولى ولا أعتقد بأنّ الحظ سيحالفني ثانيةً، فلمَ المخاطرة؟" وكانت نبرتها كئيبة.

- "لأنّكِ قد تكونين محظوظةً مجدداً، أنتِ امرأةٌ طيّبة وتستحقين ذلك. لن يكون الأمر مشابهاً، بل سيكون مختلفاً ولكنّ الاختلاف ليس دائماً سيئاً".

- "لا أستطيع تخيّل نفسي أواعد رجلاً آخر"، قالت بصدقٍ بينما قدّمت لهما النادلة الحلوى وطبقاً من الكعك المحلّي. "فالجزء البسيط الذي رأيته من ذلك يبدو مخيفاً".

- "نعم، هذا ما حصل معي أيضاً". وضحك من الموقف الغريب الذي تواجدا فيه. "أنا أفعل تماماً مثلك، أضيع في عملي، ولم أتوقف عن الرسم منذ رحيلها".

- "نجح هذا بالنسبة لي". وابتسمت ساشا، فمع وجود فنّانين موهوبين مثل ليام، سينجح كل ما تفعله. "أجد صعوبةً في الأمر مع رحيل ولديّ. على الأقلّ في باريس أكون قريبةً من كزافييه وأسافر إلى نيويورك كثيراً. ولكنّ الوحدة تقتلني في الليل". اعترفت بالأمر أخيراً وهزّت برأسها.

- "يحدث ذلك معي أنا أيضاً. اشتقت للأولاد بجنون. أظنّ بأنّهم أفضل حالاً من دوني ولديهم الآن زوج بيث العتيد. أخبرتني بأنّه رجلٌ وأبٌ رائع وربما أفضل منّي. وهم بخيرٍ مع بيث أكثر من بقائهم معي. إنه محترم وتقليديّ وهذا لصالحهم كما تقول بيث. فهو في النهاية ليس معتوهاً وغريب

الأطوار". وظهر ليام متواضعاً ومنهزماً فهو لم يخسر زوجته فحسب بل أولاده أيضاً.

– "ليام أنت والدهم، لا تستطيع التخلّي عنهم ويجدر بك الذهاب لرؤيتهم".

– "نعم، سأفعل". وكانت نبرته لامبالية ولم يبدُ مقتنعاً وهذا ما أزعجها.

كانت ساشا قد اتّصلت بالمطعم قبل الحضور وطلبت منهم عدم إحضار الفاتورة إلى الطاولة لكي لا تسبّب إحراجاً لليام. وبعد أن تناولا الحلوى والكعك المحلّي واحتسيا القهوة، مشيا إلى الخارج وعادا إلى سيّارتها. طلبت من السائق أن يعيدها إلى الفندق ثمّ يقلّ ليام إلى منزله. ولكن عندما وصلوا إلى الفندق، قال لها إنّه يستطيع استدعاء سيارة أجرة من هناك. وسألها إن كانت تودّ تناول كأس شرابٍ، ولم تكن ترغب بذلك حقاً فقد احتسيا الكثير من الشراب في المطعم وقلّما كانت تشرب.

ثمّ التفت نحوها وقال لها مطمئناً: "سأرافقك إلى غرفتك وأنصرف". واستمتعت ساشا برفقته طيلة الأمسية، ووجدت أنّه من اللطيف أن يكون هناك من يصطحبها إلى المنزل. وشعرت بالوحدة تتآكلها وأحسّ هو أيضاً بذات الشعور. فالليالي كانت بمثابة عذابٍ للأشخاص الوحيدين مثلهما تماماً. ابتسمت عندما نظرت إلى حذائه بينما صعدا السلالم ولاحظت من جديد غياب الجوارب. ولم تستطع ممازحته بهذا الخصوص الآن وقد توطّدت علاقتها به قليلاً. وقال لها من دون أن يشعر بالخجل: لم أستطع إيجاد أيّ جوارب، كما أنّني فنّانٌ وليس عليّ ارتداء الجوارب". وكانت نظرته مليئة بالتحدّي فضحكت ساشا.

– "من وضع تلك القوانين؟".

– "أنا وضعتها"، قال بفخرٍ، "فأنا فنّانٌ معتوه غريب الأطوار، وبإمكاني أن أفعل كلّ ما أريد". وبدا أكبر بخمسة أعوام وكان باستطاعتها رؤية الأسى في عينيه. كان شديد الحساسيّة تجاه كلّ أنواع التسلّط والتحكّم وأدرك ذلك أيضاً.

– "كلا، لا تستطيع أن تفعل ما تريد، علينا جميعاً أن نتقيّد بالقوانين

والقواعد". وشعرت بأنّها تلعب دور المعلّمة، أمّا هو فضحك عليها.

– "وهل من قواعد تتعلّق بالجوارب؟".

– "بكلّ تأكيد". وفكّرت بأن ترسل له علبة من الجوارب والقمصان. كان واضحاً أنّه يحتاجها وربّما قد ترسل له شريط حذاءٍ أيضاً. وتساءلت إن كان سيرتديها. لعلّه لن يفعل، فهو يحبّ أن يكون مختلفاً وغير تقليديّ ويضع قوانينه الخاصّة. وتساءلت إن كان يرتدي الملابس الداخليّة أم لا، واحمرّ وجهها عندما فكّرت في ذلك.

رأى تلك النظرة تعلو وجهها وسألها: "بماذا كنتِ تفكّرين؟".

– "لا شيء". وبدت مرتبكة.

– "بلى، أنتِ تتساءلين إن كنت أرتدي الملابس الداخليّة، أليس كذلك؟" خمّن ذلك، فاحمرّت خجلاً من جديد.

– "كلا، لم أفكّر بذلك". وحاولت أن تخفي كذبتها بالقهقهة.

– "بلى، فكّرتِ بذلك. حسناً، أنا أرتديها أو في الواقع نجحت في إيجادها اليوم".

– "هذا مطمئن"، قالت متأثّرةً، وضحك عليها مجدّداً.

– "هل ورد ذلك في العقد الذي وقّعته؟ أيجب أن أرتدي الملابس الداخليّة والجوارب؟ لأنّه لو ورد ذلك فيه، سأمزّقه. لا يمكن لأحدٍ أن يملي عليّ ماذا أرتدي أو كيف أتصرّف". كان ذلك تمرّد مراهق، فلقد عانى ليام مشاكل تتعلّق بالتحكّم بحياته، وقد سبح عكس التيّار طوال الوقت محارباً التقاليد ومتخطّياً القواعد.

– "في الواقع، أظنّ أنّ ذلك ورد في العقد بما أنّك ذكرت الأمر". أرادت إغاظته واستمتعت بذلك كثيراً بينما وصلا أمام باب غرفتها.

– "هذا ليس صحيحاً"، وبدا كولدٍ سيّئ السلوك.

– "بل هو كذلك"، أجابته بصرامة، "ورد في العقد بأنّه يتوجّب عليك ارتداء الملابس الداخليّة والجوارب طيلة الوقت".

فقال بصوتٍ مرتفع: "لا يمكنك إجباري على ذلك!"

– "بلى أستطيع"، وبدت لهجتها مترمّتة وجديّة، فابتسم ملتفتاً نحوها، وفجأة انحنى وقبّلها فسكتت. وكانت تحمل المفتاح في يدها فأوقعته وحقيبة يدها لذهولها بالقبلة. وبعد أن قبّلها، وقفت تنظر إليه وسألته بصوتٍ منخفض: "لماذا فعلتَ ذلك ليام؟" وارتعبت من مجرّد التفكير أنّ قبلته في الواقع أعجبتها كثيراً، كثيراً جدّاً. التقط المفتاح عن الأرض وفتح الباب بهدوء، ووقف يتأمّلها ومن دون أن يتفوّه بأيّة كلمة، دخلت إلى الغرفة وتبعها. ولم تكد تمرّ ثوانٍ، حتّى وجد نفسه يقبّلها من جديد ويقفل الباب برجله. خالجتها مشاعر كثيرة تخبّطت في داخلها.

أرادت أن توقفه، وتمنّت ذلك وكانت لديها النيّة لتفعل ذلك ولكنها لم تستطع. والأسوأ من ذلك أنّها لم ترد التوقّف ولا هو أيضاً. تابع تقبيلها، ثم حملها بين ذراعيه ووضعها برفقٍ على السرير. وكان في الغرفة ضوءٌ خافت فبلغه وأطفأه. لم يقل أيّ شيءٍ لها بل قبّلها ونزع عنها ملابسها وبعد لحظة كانا معاً في السرير يمارسان الحبّ قبل أن تتمكّن من معرفة كيف حدث ذلك. أرادت أن توقفه ولم تستطع. في الحقيقة لم ترغب بإيقافه وأرادت القيام بكلّ ذلك وهذا ما شعر به هو أيضاً. كانا شخصين متعطّشين للحبّ وجد أحدهما الآخر ولم يتمكّنا من ترك الفرصة تضيع منهما، فالانجذاب بينهما قويّ لدرجة لا يمكن مقاومته. وعلى الرغم من اختلاف أسلوب حياتهما ومظهرهما، شعرا بتلاصق روحيهما وكأنّهما توأمين. كان كلٌّ منهما يحتاج للآخر في وحدته، وتمسكا ببعضهما بقوّة إلى أن تمدّدا خائري القوى كلٌّ في ذراع الآخر. تمدّدت بجانبه تنظر إليه في الظلام مذهولة ممّا فعلاه وارتسمت ابتسامة مليئة بالحبّ على شفتيه.

وقال لها بهدوء: "ساشا أظنّ بأنني أحبّكِ"، وشعرت بالدموع تترقرق في عينيها بينما نطق بذلك. فقد خالت أنّها لن تسمع تلك الكلمات مجدّداً، والآن أسمعها إيّاها. لم تكن تعرفه ولا حتّى هو كان يعرفها. ومع ذلك شعرت في صميم قلبها بأنّها تعرفه جيّداً. واستطاعت تحسّس وحدته في طفولته، وضعفه وهشاشته في كبره.

– "هذا مستحيل، أنت لا تعرفني". وانهمرت الدموع من عينيها ببطءٍ على وجنتيها. هي دموعٌ لأرثر ولليام ولها هي أيضاً.

– "بل هذا ممكن، إنني أعرفك وأريد أن أعرفك بشكلٍ أفضل". أخبرها الكثير عنه في تلك الليلة وأراد أن يعلم المزيد عنها.

– "هذا جنونٌ ليام"، وألقت بنفسها على مرفق السرير، ونظرت إليه بينما مسح برفقٍ الدموع عن وجنتيها على ضوء القمر. وكان كلّ ما يفعله رقيقاً ولطيفاً ومليئاً بالحبّ.

– "لعلّه جنونٌ، ولكنّه قد يكون ما نحتاج إليه نحن الاثنان معاً. أعرف بأنني أحتاج لذلك، وأظنّ بأنّك أنتِ أيضاً بحاجةٍ إليه".

– "بحاجةٍ لماذا؟ لممارسة الحبّ؟" بدت وكأنّها تلقّت إهانة، إذ لم ترد أن تكون مغامرة عابرة كما كانت بيكي بالنسبة له. كما كان ذلك سخيفاً، فهي وكيلته الفنيّة وليست حبيبته، وكانا غريبين تماماً إلى أن التقيا في ذلك اليوم، ومع هذا لا يزالان غريبين. ماذا يحصل لها؟ شعرت بأنّها تغرق في بحرٍ مخيف قذفها نحوه تيّارٌ أقوى منها لم تستطع مقاومته.

– "لا يتعلّق ذلك بممارسة الحبّ ساشا وتعلمين هذا جيّداً، مع أنّه كان رائعاً". في الواقع كان مذهلاً على الرغم من عدم معرفتهما العميقة الواحد بالآخر.

– "لا يمكن أن يتعلّق ذلك بالحبّ، نحن لا نعرف بعضنا جيّداً".

– "أتمنّى أن نفعل"، فمع كلّ ذلك، بدا رجلاً طيّباً وجذّاباً بشكلٍ لا يوصف. وكأنّها وقعت في غرامه تلقائياً، وأدركت بأنّه جذبها منذ أن التقته. حاولت أن تتجاهل الأمر ولكنّها لم تستطع.

– "هذا مستحيل ليام"، قالت مجدّداً، "أنا وكيلتك الفنيّة وأنا أكبر منك بتسعة أعوام".

– "وإن يكن؟ هل لديك قوانين بشأن ذلك أيضاً؟" وبدا غير مهتمّ بفارق العمر بينهما.

– "نعم، لديّ قوانين حول هذا، أنا لا أقيم علاقاتٍ مع الفنّانين الذين أتعامل معهم. لم أفعل ذلك من قبل ولا أنوي أن أبدأ الآن". كانت نبرتها صارمة وكأنّها بذلك تذكّر نفسها بالواقع.

– "أظنّكِ قمت بذلك للتوّ. كما أنّك كنت متزوّجةً فيما مضى فيما الأمر مختلف الآن".

– "وهل سأقيم علاقاتٍ إذاً مع الفنّانين من الآن فصاعداً؟" كانت غاضبةً من نفسها وقبل أن تتمكّن من قول المزيد، قبّلها مجدّداً ومرّر يديه بنعومةٍ على جسدها. وارتجف كلّ جزءٍ منها عندما لمسها وشعرت بأنّه يفقدها صوابها. هذه المرّة، لم تحاول حتّى إيقافه، فلقد أرادته أكثر، وبعد ذلك استقرّت بين ذراعيه وبكت. كانت دموع الفرح والراحة. ضمّها إليه بقوّة وعانقها إلى أن توقّفت عن البكاء. أحسّت بأنّ عظامها تكسّرت وتخبّطت المشاعر في داخلها.

– "أحبّك ساشا، لا أعرفك بعد، ولكنّني أحبّك، وأعلم بأنّني سأحبّك أكثر مع الوقت، امنحيني فرصةً". رجاها ورغب بها أكثر ممّا رغب أحد من قبل وحتّى بيث.

– "لا يمكن أن يحدث هذا مجدّداً أبداً". تلاشى وقعُ تلك الكلمات في صدره وابتسم.

– "أعدك بأنّني سأرتدي الجوارب في المرّة المقبلة"، من دون أن يفلتها من بين ذراعيه.

– "أنا أعني ذلك جدّياً ليام"، قالت بلطفٍ بينما اقتربت أكثر لتنام بين ذراعيه.

– "أعلم ذلك ساشا، أعلم بأنّك تعنين هذا، ولكنّني أحبّك على أيّ حال".

وفيما قبّلها، تموّج شعرها وتبعثر على الوسادة، فارتسمت ابتسامة على شفتيه وضمّها إليه واستسلما للنوم. كانت الليلة الجيّدة الأولى التي يحظيان بها منذ أشهر.

الفصل السادس

نفذت أشعّة الشمس إلى غرفة ساشا في فندق كلاريدج وأيقظتها هي وليام في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. نهض ليام أولاً وتمدّد محتضناً إيّاها بذراعيه، وعندما أدركت بأنّه ينظر إليها تحرّكت في السرير. واستطاعت أن تشعر بذراعيه حول جسدها وهو بجانبها، وللوهلة الأولى لم تعرفه ثمّ تذكّرت وأغمضت عينيها في ما يشبه الأنين.

قال لها برقّة: "صباح الخير أيتها الجميلة النائمة". وقرّبها نحوه. تدحرجت على السرير ببطءٍ ونظرت إليه. كاد أنفاهما يتلاصقان، وبدا في الصباح أكثر جمالاً من الأمس. وأحسّت بقلبها يذوب في صدرها بينما تلاقت أعينهما. لم تصدّق ما فعلت، فمجرّد رؤيته هناك بجانبها في السرير بجسمه العاري، ووجهه الوسيم، وشعره الأشقر المتدلّي على كتفيه، وجسده الدافئ الذي يحتضن جسدها، جعلها تشعر بأنّها فقدت عقلها.

أجابته بنبرةٍ صارمة: "لا يمكن أن يحدث ذلك". ولكنّها لم تستطع حمل نفسها على النهوض من السرير أو أن تبتعد عنه. كان كلّ ما فيه يجعلها ترغب به أكثر وأكثر.

– "بلى، حصل ذلك بالفعل". وضحك بينما قال هذا مُظهراً الرضى بنفسه، أمّا هي ففكّرت في أنها لم ترَ أبداً رجلاً بجماله.

– "ليام لا نستطيع فعل ذلك، هذا مستحيل". لن يتغيّر الواقع أبداً. بل سيكون هو دائماً أصغر منها بتسعة أعوام وهذا ما أزعجها بشدّة، فلم تهتمّ بعدم مبالاته للأمر، كما أنّه فنّانٌ تقوم بتمثيله. وحتّى إذا رفضت تمثيله، سيبقى صغيراً عليها في كلّ الأحوال. فكان فارق السنّ بينهما مسألة تتعلّق أكثر

بمستوى تفكيره وتصرّفاته الطفوليّة أكثر مما هو مجرّد تاريخ على الهويّة. ولكنها لم تستطع رفض تمثيله في معرضها بسبب تصرّفها الجنونيّ حتّى أنّها شعرت بفقدان عقلها. فلقد كانت امرأة متعطّشة للحبّ والرفقة والعاطفة ولممارسة الحبّ أيضاً. ولكنّ هذا كلّه ليس عذراً كافياً لما فعلته، أحسّت بالغضب من نفسها وقليلاً منه هو. غير أنّ غضبها لم يكن كافياً ليدفع بها للنهوض من السرير الآن أو في الليلة الماضية.

– "هذا ليس مستحيلاً إلاّ إذا أردتِ أنتِ ذلك. قلت لي هذا ليلة أمس قبل أن نمارس الحبّ مجدّداً".

– "أصبت بالجنون وقتها، بالجنون الموقّت". وتمدّدت على ظهرها متأمّلة السقف لتتجنّب النظر إليه. إنه إحساسٌ جميلٌ أن تجد نفسها بقربه وتشعر بأنّها امرأةٌ من جديد. ولكنّه كان ثمرةً محرّمةً عرفت بأنّها لن تسمح لنفسها بأن تأكل منها مجدّداً. "هل لديك أية فكرة عن مدى عملنا الجنوني؟" ثمّ استدارت لتنظر إليه. كانت عيناه خضراوين وكبيرتين، أمّا وجهه فاقترب من الكمال ولكن ليس بما يكفي ليجعله يبدو رجلاً بحقّ. بدا وكأنّه أحد أبطال فيلم مثيرٍ، وكان بحاجةٍ إلى نجمة شابة تشاركه البطولة وليس إلى امرأة بسنّها. أيقنت هذا الأمر حتّى ولو لم يفعل هو ذلك أو لم يُرد. أيقنته لكليهما.

– "هذا ليس جنوناً ساشا، فأنتِ امرأة وأنا رجل وأحدنا مُعجبٌ بالآخر ونحن وحيدان أيضاً. كما لدينا الاهتمامات ذاتها، فكلانا مولعٌ بالفنّ ونعيش من أجله. فما العيب في ذلك؟".

– "كلّه عيبٌ، فأنا أبدو وأشعر بأنّني كبيرةٌ كفاية لأكون والدتك. أنت صديق ابني وأنا أمثّلك. كيف تجد هذه الأسباب كبداية؟ كما أنّك ما زلت مغرماً بزوجتك". لم تشكّ أبداً في ذلك الليلة الماضية عندما أخبرها عن بيث وعن أختها التوأم الشريرة.

– "لا تبدين كبيرةً بشكلٍ كافٍ لتكوني والدتي، فأنتِ امرأةٌ رائعة الجمال، كما أنّك لا تكبرينني إلاّ بتسعة أعوام، ماذا إذاً؟ كما أنّني لم أعد مغرماً

بزوجتي، ولم تعد زوجتي على أيّ حالٍ، نحن نسعى لنيل الطلاق. أنتِ وأنا شخصان حرّان وغير مرتبطين، ونعاني وحدةً قاتلةً وكلانا بلغ سنّ الرشد. يبدو ذلك ممكناً بالنسبة لي، فما هي مشكلتك؟" بدا من نبرته بأنّه منزعجٌ.

فأجابت ساشا بحزن: "ما زلتُ مغرمةً بزوجي". ولكنّها لم تبكِ هذه المرّة. وانتظر ليام قليلاً قبل أن يجيب، ولمس وجهها برقّةٍ بأصابعه ثمّ قال: "ساشا، لقد رحل، أنتِ على قيد الحياة وهو قد توفي". وقد أثبتت لنفسها وله هذا بقوّة الليلة الماضية. "يحقّ لك أن تسعدي مع أحد، أكان معي أو مع سواي. لا يمكنك أن تخذليني بعد الآن، هذا ظلم".

– "بلى، يمكنني". وأدارت له ظهرها ولم تنهض من الفراش. لم يستطع أن يعرف إن كانت تبكي، ولكنّه لفّها بذراعيه وقرّبها منه.

– "ساشا، أعرف بأنّ هذا يبدو جنوناً لأنني بالكاد أعرفك ولكن أظنّ أنني أحبك، وأشعر بأنني كنت بانتظارك طيلة حياتي".

– "هذا جنون"، همهمت وابتعدت عنه، ولكن بدا شيءٌ مما قاله صحيحاً حتّى بالنسبة لها مع أنّه لم يكن له أيّ معنى. "شربنا كثيراً الليلة الماضية، فليس الحبّ هو السبب بل الشراب". حاولت أن تتخطّى ما حدث، ولكنّها لم تقنعه ولم تقنع نفسها أيضاً.

– "حسناً، مهما يكن ذلك، سمّه ما شئت، فأنا أودّ المزيد منه. لماذا لا تتركين الأمر يحصل بكلّ بساطة، وسنرى إلى أين يقودنا؟" وكأنّه يتوسّلها وكاد ينحني أمامها.

أدارت وجهها نحوه مجدداً، وبدت ملامح الأسى على وجهها بسبب ما فعلاه وقالت: "وماذا بعد؟ كيف يمكن أن ينتهي بنا الأمر؟ تحتاج لامرأةٍ بسنّك، فأنا أكبر منك كما أنني ممثّلتك الفنيّة ووكيلتك. بالإضافة إلى ذلك أنا محافظة وأنت لا، سنكون أضحوكة باريس كلّها". وبخاصةٍ إذا ذهب معها إلى إحدى الحفلات وهو يرتدي قميصاً مطليّاً وينتعل حذاءً بدون جوارب. فهي امرأةٌ محترمة تعيش حياةً لائقة وجديّة ولم يكن ليام كذلك. بل هو بالتحديد ما أخبرها

بـه، فإنّ غريب الأطوار، كما أنّه صديق كزافييه. ولأصيب ولداها بالصدمة والانـزعاج لو علما بالأمر.

– "ساشــا، لا أريد امرأةً في سنّي، أريدك أنتِ". ثمّ توقّف ليفكّر في ذلك ونظر إليها وتابع: "هل أسبّب لكِ الإحراج؟".

فأجابت بصدق: "يمكنك ذلك، ولكنني لن أعطيك الفرصة لتفعل. ليام إن خـرجت معك سأبدو امرأةً متقدمةً في السنّ متعطّشة لإقامة علاقة. لن ينجح ذلك مطلقاً".

– "بلى، سينجح. في النهاية أنتِ محقّة جزئياً، فأنتِ حقّاً متعطّشة للحبّ، ولكنكِ لستِ امرأةً مجنونة".

– "بـل أنــا كذلك"، وبدت كئيبةً فقبّلها لإسكاتها ومواساتها. لم يكن من الـسهل عليها تقبّل المواساة، ولكنّها لم تكن غير مبالية بلمساته. وعلى الرغم مــن إصــرارها بألاّ يحدث ذلك أو يستمرّ، استجابت في الحال لتلك اللمسات. كان الأمر أقوى منها، فلم تختبر أبداً في حياتها شيئاً مماثلاً ولا حتى مع آرثر الــذي أحبّته على مدى فترة تتخطّى نصف عمرها. ولكن، كما أشار ليام، لقد رحــل آرثــر، وهو على قيد الحياة. وخلال دقائق، كان جسداهما متلاصقين مجدّداً، وشعرت بالسعادة عندما بدأا يمارسان الحبّ مجدّداً.

كانت الساعة تكاد تبلغ العاشرة على المنبّه بجانبهما عندما تمدّدا لاهثين يعانق أحدهما الآخر.

– "يــا إلهــي"، صــرخت عندما رأت الساعة، "سيصل كزافييه في أية لحظة، سأتناول الفطور معه". وضحك ليام.

– "من الأفضل أن أغادر إذاً".

ثـمّ أبعد جسمه النحيل عن جسمها، ووقف خارج السرير ينظر إليها. ثمّ أضاف: "لم أرغب بامرأةٍ في حياتي بقدر ما أرغب بكِ. متى أستطيع العودة؟".

– "أبــداً"، أجابت بحزمٍ، "سأغادر إلى المطار بعد الفطور، ليام على هذا

أن يــتوقّف". ولكن كان عليها أن تقنع نفسها بذلك أولاً، فهي لم تشعر أبداً من قــبل بأنّهــا مرتبكة وخارجة عن السيطرة. وأحسّت بأنّها في دوّامة لا تتوقّف تقــودها إلــى الجحيم. وفكّرت في حصول الأسوأ وتخيّلت الأمر، كان محتّماً علــيها وضع حدّ لذلك، وعدم السماح بحدوثه مجدداً، واستعادة السيطرة على نفسها. "لن أسمح لذلك بأن يحصل مرّةً أخرى".

فأجــاب لــيام بحزنٍ: "إذاً أنتِ حقّاً مجنونة، لا أصدّق ذلك، سأتصل بكِ الليلة".

– "لــيام لا تفعل، سأكون ممثّلتك الفنيّة، أنت رسّامٌ رائعٌ وأمامك مستقبلٌ باهرٌ. فلندع الأمور على هذا النحو، دعنا لا نخاطر".

– "هل تقصدين بأنّكِ لن تقومي بتمثيلي في معرضك إن كنّا على علاقةٍ غــراميّة؟ فإن كنتِ حقّاً تعنين ذلك، بئس المعرض والعقد إذاً. أنتِ تعنين أكثر من ذلك بالنسبة لي". بدت كلماته قويّةً، وقصد كلّ حرفٍ فيها.

جلست ساشا على السرير تنظر إليه وقالت: "أنت مجنونٌ".

– "قــد أكــون مجنوناً، فعائلتي على الأقلّ تظنّ ذلك". وارتدى سرواله وقميــصه لأنّه لم يملك الوقت للاستحمام، وعلم بأنّ عليه المغادرة قبل وصول كزافييه، وإلاّ لن تسامحه ساشا أبداً. ثمّ التفت إليها وقال: "أنت تقرّرين ساشا"، بيــنما وقفــت هي بجانب السرير حيث مارسا الحبّ في تلك الليلة التي كانت الأفــضل في حياتها. ولكنّها لا تستطيع اتخاذ قرارٍ مبنيٍّ على العلاقة الجسديّة وحسب. وشعرت بأنّها فقدت عقلها وأيقنت أنّ عليها إيجاده بسرعة.

"لا تتصل بي"، قالت بنبرةٍ تحاول من خلالها أن تبدو جديّة، أرادت فعلاً أن تعني ما قالته بل عرفت أنّ ما تفعله هو الصواب. ومهما كان الذي حصل، علــيه أن يتوقّف قبل أن يبدأ. وأضافت: "سأبقى على اتصالٍ بك في ما يتعلّق بعملك".

فأجابها قائلاً: "يمكننا أن نقوم بالأمرين معاً". وهزّت برأسها بينما قرّبها إلــيه، وقــبّلها قــبلةً واحدة أخيرة. أمّا هي فوقفت عارية أمامه ومتفاجئةً من

شعورها بالراحة معه. فبعد تناول العشاء والتحدث وممارسة الحب، شعرت بأنّها عرفته طيلة حياتها وكانت مرتاحة معه بالكامل.

– "كلا، لا يمكننا ذلك"، قالت بنبرةٍ يائسةٍ، "لن أكون وكيلتك وعشيقتك في آنٍ معاً". كما أنّها لم ترد أن تكون المرأة المسنّة في حياته، فهي لم تفعل ذلك أبداً من قبل ولم ترِد أن تبدأ الآن. قبّلها وغادر من دون أن ينطق بكلمةٍ أخرى، ووقفت تحدّق في الباب لوقتٍ طويلٍ مرتعبةً ممّا قد يحصل، ومصمّمةً على وضع حدٍّ فاصلٍ بينهما. وفي تلك اللحظة، أقنعت نفسها بأنّها وكيلته الفنيّة ولا شيء سوى ذلك. وهرعت لتستحمّ وعندما خرجت كان الهاتف يرنّ، خافت أن يكون ليام ولكن المتصل كان كزافييه. أعلمها بأنّه سيغادر شقّته للتوّ وسيصل لملاقاتها في غضون خمس دقائق. فأجابته بهدوءٍ بينما ارتجفت يداها: "هذا جيّدٌ عزيزي، فأنا أيضاً تأخرت قليلاً. سأراك في الردهة بعد خمس عشرة دقيقة". وسألها كزافييه: "هل أجريت جميع اتصالاتك؟" وبدا في مزاجٍ جيّدٍ ومن المؤكّد أنّه استمتع الليلة الماضية. واقشعرّت عندما فكّرت في ما سيظنّه كزافييه بها إذا علم بما فعلته. وشعرت أنّها امرأةٌ فاسقةٌ.

وأجابته مشتّتة الأفكار وكأنّها فقدت تركيزها: "أي اتصالاتٍ؟ آه نعم... تلك الاتصالات، بالطبع... كلّ ما في الأمر أنني تأخرت في النهوض. أراك بعد دقائق".

ثمّ أقفلت الخطّ وجلست على السرير ترتجف، فما فعلته كان بغاية الجنون. وأصرّت بأنّه سيتوقّف لأنّها امرأةٌ حسّاسة وليام ليس سوى صبيٍ سيّئ السلوك، ولديه تاريخ طويل في عدم النضج والتهوّر. ولتعذيب نفسها أكثر، تذكّرت أنّه قام بخيانة زوجته مع أختها التوأم وهذا ما أضاف نقطةً سوداء على سجلّ أخلاقه وحسن تصرفاته. ولم يكن جماله وجاذبيّته مهمّيْن أمام تصرّفاته كولدٍ غير مسؤولٍ وشعوره بالفخر من ذلك. وقالت في نفسها بأنّ عليها أن تتصرّف كامرأةٍ ناضجةٍ وراشدةٍ لأنّ ليام كان عاجزاً عن ذلك بالتأكيد.

وضعت كلّ ما أحضرته معها إلى لندن في حقيبةٍ وارتدت ملابسها على عجلةٍ، وسرّحت شعرها ووضعت القليل من مساحيق التجميل. وبعد خمس عشرة دقيقة، كانت في الردهة حيث انتظرها ابنها الذي بدا وسيماً وشاباً. وذكّرتها خطاه الواثقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وملابسه بليام، فهما متشابهان في أسلوب حياتهما وتصرّفاتهما وسلوكهما. كانا شابيْن متهوّريْن ليس إلاّ.

قال لها كزافييه مبتسماً: "تبدين سعيدةً، لم أرك من قبل تسدلين شعرك. يبدو جميلاً أمي". فأدركت مرتعبةً بأنّها نسيت أن ترفعه لأنّها كانت على عجلةٍ من أمرها ولم تتنبّه لذلك في المرآة. بدا واضحاً لكزافييه ولها أيضاً وجود شيءٍ مختلفٍ فيها. فقد كانت تترك شعرها منسدلاً في الماضي ولكن الوقت حان لترفعه وتبقيه على هذا النحو.

– "شكراً، كلّ ما في الأمر أنني كنت على عجلةٍ".

– "عليك أن تسرّحيه هكذا غالباً. كيف كان العشاء مع ليام؟".

– "جيداً... مسلياً... لا في الواقع لم يكن كذلك، إنّه مضحكٌ قليلاً أليس كذلك؟ لقد أتى بدون جوارب وشريط حذاءٍ وارتدى قميصاً لوّنه بنفسه". وأحسّت بأنّها إذا جعلته يبدو سيئاً وأضحوكةً بنظر كزافييه سترى بنفسها أيضاً ذلك ومدى الجنون الذي ارتكبته.

ولكن عندما قالت ذلك، شعرت بأنّها خائنة. فهزّ كزافييه بكتفيه قائلاً: "إنّه شابٌ لطيفٌ. بالله عليك أمي، بعض فنانيك الآخرين يبدون أسوأ بكثير". بينما ذكّرت نفسها بأنّها لم تمارس الحبّ مع أيّ منهم، غير أنّ ليام كان مختلفاً عنهم، فلم يجعلها أحدٌ منهم تشعر بنفسها مثل ليام. ومنذ أن التقته، شعرت بانسجامٍ وتقاربٍ بينهما وأقنعت نفسها بأنّها تتوهّم ذلك. وحاولت أن تنكر الأمر ولكنها لم تستطع. وتبيّن في ما بعد أنّه أكثر من مجرّد توهّمٍ وخيالٍ بل أسوأ حتّى، إنّه حقيقيّ.

تناولا الفطور في ردهة الفندق. شربت هي الشاي وراحت تنظر إلى الطعام في طبقها ولم تستطع الأكل لأنّها لم تكن جائعة. أمّا كزافييه فأنهى طبقه

بسرعةٍ ثمّ أكل طبقها إذ كان يتضوّر جوعاً. تحدّثا على مدى ساعةٍ من الوقت، ولكنّهما لم يتكلّما في موضوعٍ محدّد. وبعدها ذهب كزافييه بينما غادرت إلى المطار وهي تتساءل إن كان سيرى ليام في ذلك اليوم وما عساه يقول له. ستقتله إن تفوّه بكلمةٍ لابنها حول ما حدث، ولكنّها تثق بأنّه لن يفعل ذلك. فهو لم يكن سيئاً أو خبيثاً بل عديم المسؤوليّة وصغيراً بالنسبة إلى سنّه. إنّه صغيرٌ جداً في الواقع. وبدا بسنّ كزافييه وليس أكبر منه. في طريقها إلى المطار، أجبرت نفسها على عدم التفكير به وأخرجت أوراقاً من حقيبتها. لم تستطع التركيز على أية كلمةٍ ممّا قرأت، وجلست تتأمّل عقده الذي وقّعه بسرعةٍ في هاريز بار وللحظةٍ فكّرت بتمزيقه. ولكنّها لم تستطع فعل ذلك به. فقد أعطاها النسختين وذكّرت نفسها بإرسال نسخةٍ له من باريس. لقد ترك رقم هاتفه الخلويّ معها، ولكن ما من شيءٍ في العالم سيجعلها تتّصل به. لم تعطه رقمها ولا رقم منزلها. كلّ ما حصل عليه كان رقم المعرض في باريس وطلبت منه ألا يتصل ليتحدّث إليها. فلو فعل ذلك، ستحوّله إلى أحد الموظّفين. سيجعله يتحدّث مع أيّ شخص، أيّاً كان ما عداها هي. لم تودّ أن تسمع صوته مجدداً، أو على الأقلّ ليس قبل وقتٍ طويل. فوقع صوته تميّز بإثارةٍ عميقةٍ وبلطفٍ حرّكها وبثّ فيها الحياة. وقد لاحظت ذلك منذ البداية، وأصبحت الآن تحبّ صوته وتحبّ كلّ شيءٍ آخر فيه ما عدا طريقة سلوكه. وآخر ما أرادته في سنّها هو أن تتورّط مع فنّانٍ يعلن على الملأ بأنّه غريب الأطوار، ويتصرّف كأنّه من الأحداث الجانحين. وكان ما قالته له ذلك الصباح صحيحاً، ففي حال أصبحت على علاقةٍ عاطفيّةٍ علنيّةٍ معه، ستكون أضحوكة باريس ونيويورك وكان لديها سمعة تحافظ عليها بعكس ليام الذي لا يهتمّ بسمعته ولا بسمعتها، ولم يكن أيضاً ليخسر أيّ شيءٍ من ارتباطه معها بعلاقةٍ عاطفيّة. أمّا ساشا فستكون الخاسرة الكبيرة، ستخسر كلّ ما لديها بما في ذلك احترام ولديها وزملائها وأصدقائها. في الواقع، أدركت هذا جيّداً بينما صعدت على متن الطائرة في هيثرو. وفكّرت بما تعرّضت له من تجربةٍ جنونيّةٍ عابرةٍ حيث

فقدت السيطرة حتّى على جسدها. ولم يكن هناك من سبيلٍ لتدع ذلك يحصل مجدداً. أبداً. وفيما أقلعت الطائرة باتجاه باريس، قطعت وعداً على نفسها بأن تسترجع عقلها وتحافظ عليه هذه المرّة.

كانت الساعة تناهز الرابعة عندما دخلت إلى مكتبها في باريس، وعلى الرغم من الطقس المشمس في لندن، كان المطر ينهمر بغزارةٍ في باريس حين وصلت. واجهت صعوبةً في إيجاد سيّارة أجرة في المطار، لذا كانت مبلّلة لدى وصولها إلى المكتب. وكأنّ المطر جعلها تستفيق بعد التجربة المتهوّرة التي مرّت بها في لندن فأعادها إلى رشدها.

وبينما كان برنارد مدير المعرض يرافقها عبر الممرّ قال لها: "يا إلهي ساشا، تبدين بحالةٍ مزريةٍ ومبلّلة بالكامل. عليك الذهاب إلى المنزل لتبديل ملابسك قبل أن تصابي بالمرض".

– "سأذهب خلال دقيقة، عليّ أن أجري بعض الاتصالات أولاً". وابتسمت لبرنارد الذي لاحظ أنّها على الرغم من شعرها الرطب وثيابها المبلّلة، تبدو أفضل حالاً ممّا بدت عليه خلال أشهرٍ. وللمرّة الأولى منذ عامٍ بدت سعيدة ومرتاحة، فمن الواضح أنّ زيارتها لابنها سارت على ما يرام. وتابعت قائلةً: "لدينا فنّانٌ جديدٌ، هو صديقٌ لكزافييه في لندن. وقّع العقد وعلينا إرسال نسخة له، إنّه شابٌ أميركيٌ وعمله رائع".

– "جيّد، أتوق لرؤية لوحاته". وأحبّت ساشا الفنّ المعاصر أكثر ممّا فعل برنارد الذي كان كوالدها أكثر تقليديّة، ولكنّه لطالما حمل الاحترام الكبير لنظرة ساشا للأعمال الفنيّة الجديدة والفنّانين الجدد. فغالباً ما تميّزت بحسٍّ لا يخطئ للّوحات التي تحصد النجاح وتُباع بسرعة.

– "أخبرته أنّنا سنقيم عرضاً افتتاحياً له في نيويورك". فهزّ برنارد برأسه، وذهب كلٌّ منهما إلى مكتبه. وما إن دخلت إلى مكتبها، حتّى دُهشت لما رأت: كانت باقةٌ ضخمةٌ من الورود الحمراء موضوعة على طاولتها، وفرحت بعد أن أدركت أنّ مساعدتها لم تفتح البطاقة. فكون الورود حمراء جعل الأمر

يبدو شخصياً، ولذلك تركت البطاقة مختومةً؛ وهذا ما أسعد ساشا عندما عرفت من أرسلها. ولم تُرد أن يعرف كلّ من في المكتب أنّ لديها حبيباً سرياً لأنّه لم يكن لديها واحدٌ على أيّ حال. كلّ ما في الأمر أنّها اقترفت خطأً وتمّ تصحيحه وستبقى الأمور على هذا النحو.

وقـرأت على البطاقة: "هذا ممكنٌ، أحبّك ساشا. ليام". مزّقتها إلى أجزاء صـغيرة ورمتها في سلّة المهملات وشعرت بالارتباك. لا بدّ أنّ الورود كلّفته ثروةً، وعلمت بأنّه لا يستطيع تحمّل هذه النفقات. تأثّرت بذلك واعترتها الرغبة بالاتـصال بـه، ولكنّها أرغمت نفسها بألاّ تفعل. فلقد قطعت وعداً على نفسها وصمّمت على المحافظة عليه والتقيّد به مهما كلّفها الأمر.

وعوض أن تتصل به لتشكره على الأزهار، كتبت له بضع كلماتٍ مهذّبة يمكـن أن تكتبها أيّ جدّة لحفيدها أو أيّ وكيلة لفنّانٍ تتعامل معه. ولم تضمّنها أيّ معـانٍ شخـصيّة، وأعطتها لمساعدتها مع نسخة من عقده وعنوانه ورقم هاتفـه. كما طلبت منها أن تفتح ملفاً جديداً باسم ليام أليسون الذي أصبح أحد فنّانيها الجدد.

وقالت لها مساعدتها أوجيني: "الورود رائعة"، فما طلبته منها ساشا فسّر وجـودها، لقد أرسلها فنّانٌ جديدٌ في لفتةٍ جميلة، فنّانٌ متعطّشٌ يتضوّر جوعاً، والـورود فـي شـهر كانون الثاني/يناير كانت باهظة الثمن. وللحظةٍ خالت أوجينـي أنّ لساشا حبيباً ولكنّ ذلك لم يكن صحيحاً. كان فنّاناً جديداً وحسب. غيـر أنّـه في نهاية الأمر، بدت السعادة على ساشا التي لم تعرفها منذ وقتٍ طـويل، بعد أن كانت محبطةً وكئيبةً منذ وفاة أرثر. لا بدّ أنها مرحلةٌ كالربيع الجديـد بالنـسبة لها وخصوصاً أنّها وصلت سعيدةً ومرتاحةً بعد رحلتها إلى لندن.

عادت ساشا إلى منـزلها عند السادسة مساءً تلك الليلة مرتاحةً لأنّ ليام لـم يحـاول الاتصال بها. وأعدّت لنفسها فنجاناً من الشاي وبعض الحساء ثمّ أخـذت حمّاماً ساخناً وحاولت عدم التفكير فيه، الأمر الذي لم يكن سهلاً. فقبل

لـيلة، كانـت برفقته يتناولان طعام العشاء في هاريز بار. وكان من الصعب عليها أيضاً ألا تتذكّر ما تبع ذلك عندما عادا إلى الفندق.

وبينما كانت مستغرقةً في أحلامها، فجأة رنّ الهاتف عند منتصف الليل. كانـت تاتيانا المتصلة. أخبرتها بأنّها وجدت عملاً ذلك الصباح في قسم الفنون الـتابع لمجلّة، كما كانت تقوم بالتنسيق مع مصوّرين وتنفيذ كلّ ما يوكَل إليها. بدت سعيدةً ومتحمّسةً، وبعد أن تقاسمت أخبارها مع والدتها، أعارتها اهتمامها وسألتها: "كيف كانت الرحلة إلى لندن".

– "كانـت مـسليّةً، رأيت كزافييه وعدداً من الفنّانين". وأجبرت تفكيرها على طرح ليام بعيداً.

– "وكيف كان صديق كزافييه؟".

– "أيّ صديق؟" وبدت ساشا مرتبكةً لا تعرف بماذا تجيب على ذلك السؤال.

– "ظننت بأنّه أرادك أن تلتقي أحد أصدقائه لرؤية عمله".

– "آه نعم ذلك الصديق"، أجابت ساشا وشعرت بالارتياح، "كان جيّداً، لقد عقدنا اتفاقاً معه".

– "هذا رائعٌ، لا بدّ أنّه جيّدٌ، إنّها فرصةٌ بالنسبة له".

– "بالفعـل إنّه مدهشٌ، سنقوم بعرض أعماله في نيويورك العام المقبل". وحاولت أن تكون جديّةً ومحترفةً بينما قالت ذلك.

– "أراهن بأنّه طار من الفرح". ففي الواقع، كان الفنّانون يتوسّلونها هي أيضاً معظم الوقت لتعرّفهم بوالدتها. وهذا ما أزعجها لأنّها لم تودّ أن تُستعمل كقناةٍ تصلهم بساشا. أمّا كزافييه فبدا أكثر تساهلاً مع الموضوع. "متى ستأتين إلى نيويورك؟".

– "ليس قبل بضعة أسابيع، لديّ الكثير من الأعمال لأنجزها هنا. يمكنك دائماً المجيء متى شئتِ في نهاية الأسبوع". ولطالما أحبّت ساشا رؤية ولديها وقضاء الوقت معهما.

– "أكره باريس عندما يهطل المطر، تحدثت مع صديقٍ لي عاد اليوم وأخبرني بأنّ الطقس محبطٌ وسيّئ".

– "صحيحٌ، ليس جيّداً، فقد كان مشمساً في لندن".

– "من المتوقّع أن يتساقط الثلج هنا غداً، وأظنّ بأنني سأذهب للتزلّج في عطلة نهاية الأسبوع".

– "توخّي الحذر على الطريق. متى ستبدئين عملك الجديد؟" وتثاءبت ساشا، فلقد تأخّر الوقت عندها وكانت الساعة السادسة مساءً في نيويورك.

– "غداً". أجابت تاتيانا وبدت متحمّسة، وللحظة حسدتها ساشا. فحياتها بدأت للتوّ، أمّا ساشا فشعرت بأنّ حياتها تكاد تنتهي. وكانت أفضل السنوات ورائها، الآن وقد رحل أرثر، لم يكن لديها أيّ شيءٍ تتطلّع إليه سوى عملها وحصولها يوماً ما على الأحفاد، ولكن هذا الأمر لم يكن يشكّل اهتماماً خاصاً بالنسبة لها. وشعرت بأنّها امرأةٌ كبيرةٌ في السنّ بعد أن ودّعت ابنتها على الهاتف وتمدّدت على سريرها. وفيما فعلت ذلك، لم تستطع منع نفسها من التفكير بليام. كان لطفاً من قبله أن يبعث لها بالورود، وجنوناً أيضاً. "هذا ممكن"، كتب على البطاقة التي مزّقتها. علمت بأنّ الأمر لم يكن كذلك.

ونامت تلك الليلة متشنّجةً وهي تفكّر فيه وكانت في مكتبها عند التاسعة من صباح اليوم التالي. كانت الساعة الثامنة صباحاً في لندن وتساءلت عمّا يفعله ليام، وإن كان سيحاول الاتصال بها. كان يوم السبت ولم تكن مضطرةً للذهاب إلى العمل ولكن ليس لديها شيء آخر لتفعله. وكانت قد اعتذرت عن تلبية عدّة دعواتٍ لحفلات عشاءٍ وغداءٍ في نهاية الأسبوع. ومع الطقس الرديء، كان من المحبط ملازمة المنزل، ففضّلت العمل على ذلك. اتّصل بها ليام عند الرابعة من بعد الظهر، ولم تردّ على اتصاله وطلبت من المرأة التي تعمل في المعرض أن تقول له بأنّها غادرت، وأن يتّصل يوم الاثنين ببرنارد الذي لم يكن يعمل في نهاية الأسبوع لأنّ لديه زوجة وثلاثة أولاد ومنزلاً في النورماندي يقصدونه في عطلات نهاية الأسبوع. عندما كان

أرثر على قيد الحياة، لم تكن هي أيضاً تعمل في نهاية الأسبوع والآن أصبح العمل كلّ ما لديها لتجعل الوقت يمرّ ولتشغل نفسها. فمنذ وفاة أرثر أصبحت عطلة نهاية الأسبوع قاسيةً بالنسبة إليها.

أقفلوا المعرض عند السادسة مساءً وعادت إلى منزلها في السابعة، حاملةً معها رزمةً من مجلات الفنّ. أضاءت الأنوار، وذكّرت نفسها بينما كانت تُعدّ الشاي أنّها ستمتنع عن التفكير بليام. فالأمر لن يوصلها إلى أيّ مكان بل سيجلب لها التعاسة والجنون. ودقّ جرس الباب فيما كانت تسكب الشاي. دقّ بدون توقّفٍ ممّا جعلها تعرف بأنّ الحارس ليس موجوداً. ركضت عبر الردهة الخارجيّة نحو البوّابة البرونزيّة من دون أدنى فكرةٍ عمّن يمكن أن يكون في الخارج. فلم يقرع أحدٌ بابها في المساء.

نظرت من ثقب الباب فلم ترَ أحداً، ثمّ فتحت جزءاً من الباب البرونزيّ الكبير. لعلّ أحدٌ نسي شيئاً في الداخل. وبينما دفعت الباب لتفتحه، نظرت حولها ورأت ليام يقف أمامها مبلّلاً بالكامل من المطر. كان يحمل حقيبةً صغيرةً ويرتدي قميصاً وسروال جينز وينتعل جزمةً كرعاة البقر، أمّا شعره الأشقر فكان ملتصقاً برأسه بسبب المطر. وقفت تحدّق فيه ولم تنطق بكلمةٍ واحدةٍ بينما نظر إليها ثمّ خطا للأمام ليدخل إلى الردهة ويحتمي من المطر.

قال لها وهو يبتسم: "طلبتِ منّي ألاّ أتصل بك من لندن، فاتصلت بك من باريس. لم أتّصل قبل وصولي إلى هنا، تصوّرت بأنّك ستكونين في المنزل في هذه الساعة".

وبدت مستاءةً أكثر منها غاضبة: "ماذا تفعل هنا ليام؟" وكان جزءٌ في داخلها يشعر بالخوف، فقد يخرج الأمر عن سيطرتهما ويسوء الوضع أكثر.

– "أتيت لرؤيتك"، وبدا كولدٍ عملاقٍ أكثر من قبل، "لم أستطع التفكير إلاّ بك منذ الأمس، ففكّرت بأن آتي لرؤيتك. اشتقت إليك". اشتاقت هي أيضاً إليه، ولكنّه كان بالنسبة لها مخاطرةً لا تقدر على تحمّلها.

فأجابته بتهذيب: "كانت الورود جميلة".

وبدا خائباً فردّ قائلاً: "كانت؟ هل رميتها؟".

– "بالتأكيد لا، إنّها في مكتبي". وكانا لا يزالان يقفان في الردهة يحتميان من المطر. "أخبرت مساعدتي بأنّني تلقّيتها من فنّانٍ جديدٍ".

– "لماذا تدينين لها بالشرح؟ أنت امرأةٌ حرّة".

– "لا أحد حرٌّ ليام، أو على الأقلّ أنا لست كذلك، فلديّ عملٌ وأولادٌ وموظّفون وزبائن ومسؤوليات وواجبات وسمعة. لا أستطيع رمي كلّ ذلك جانباً والتصرّف كمراهقةٍ مغرمة". كانت تقنع نفسها بالأمر أكثر ممّا حاولت إقناعه هو.

– "لمَ لا؟ فمن المؤكّد أنّ إسدال شعرك كان تحوّلاً جيّداً بالنسبة لك". كان هذا تماماً ما قاله ابنها حرفيّاً عندما رآها في لندن مع شعرها المنسدل على كتفيها. ولكن لسببٍ ما، شوّش ليام تفكيرها وشتّته ولم يكن ذلك ما أرادته. فهي لن ترمي بحياتها وتجعل من نفسها مجنونة ومهرّجة، وتقع في غرام ذلك الصبيّ غير الناضج. "أستطيع اصطحابك لتناول العشاء في مكانٍ ما؟" وبينما سألها هذا، تذكّرت عشاءها مع غونزاغ دو سان مالوري في مطعم ألان دوكاس منذ شهرٍ عندما توقّع منها أن تقيم علاقةً معه لتبيعه لوحةً. وتذكّرت كم كان الأمر مهيناً لها. لكن الوضع مختلف مع ليام، لعلّه جنونيّ ولكنّه صادقٌ وليس مهيناً. فلم يكن غونزاغ رجلاً حقيقيّاً أو حتّى رجلاً نبيلاً بل أسوأ حتّى ممّا كان عليه ليام من فنّانٍ غريب الأطوار ومعتزّ بذلك.

"لمَ لا تدخل وسأطهو لك بعض الطعام؟ الطقس رديء للخروج". ومشت أمامه للعودة إلى المنزل وكان الباب لا يزال مفتوحاً. ثمّ سألته بعصبيّةٍ: "أين تقيم؟" فإذا قال بأنّه سيقيم معها، لن تدعه يدخل.

فأجابها: "في فندقٍ للفنّانين في ماراي قرب لا بلاس دي فوغ. نزلت فيه الصيف الفائت". هزّت برأسها وقادته إلى غرفة الجلوس. كان المنزل يعود إلى طراز القرن الثامن عشر وكذلك الأثاث. أمّا اللوحات والأعمال الفنيّة

فكانت كلّها معاصرة وحديثة، وشكّلت خليطاً فنيّاً جميلاً لا يتمكّن الجميع من تحقيقه. ونتج عن ذلك أناقة وجوّ دافئ ومرحٌ. وفي الغرفة أيضاً مدفئة كبيرة أعادت بناءها بواسطة الرخام الأبيض، لم يكن المكان مضاء سوى بمصباح واحد هو كناية عن مشعلٍ فضيٍّ طويلٍ اشترته من البندقيّة منذ أعوام. كما كان في الغرفة أيضاً شمعدانات طويلة تحمل شموعاً موضوعةً في كلّ أرجاء الغرفة. لم تضئها أبداً بل استخدمتها للزينة فقط. ثمّ سارا عبر غرفة الجلوس، وتجاوزا غرفة الطعام، وتوجّها إلى المطبخ الذي كان عبارةً عن غرفةٍ شاسعةٍ مفروشة بأسلوب ريفيّ وفي الوسط طاولة ضخمة من الرخام ولوحاتٍ موقعة من فنّانين جدد على كلّ جدارٍ. وطغت تموّجات اللونين الأصفر والبرتقالي التي أضفت على المكان الشعور بمغيب الشمس. وكانت قد وضعت على الطاولة شمعداناً ضخماً أبيض من البندقيّة، فأضاءته. كانت الغرفة دافئة ومريحة، وحتّى عندما كان أرثر على قيد الحياة، كانا يمضيان معظم الوقت في المطبخ واستعماله أكثر من غرفة الجلوس. وكانت الكراسي مصنوعةً من الجلد البنيّ الناعم. وبعد أن ألقى نظرةً على المكان قال مندهشاً: "يا للروعة ساشا، من قام بكلّ هذا؟" فأجابته مبتسمةً: "أنا بنفسي، إنّه مجموعة من المختارات المندمجة مع بعضها البعض، أمّا باقي المنزل فهو رسميّ أكثر"، كما كان المعرض وجناح المنزل حيث عاش والدها الذي قام بجمع التحف واللوحات الرفيعة الذوق، ولكنّها فضّلت الجزء الخاص بها من المنزل أكثر. وكذلك ليام، فقد أحبّه وشعر بأنّه في منزله.

وضعت له بعض الحساء على الفرن، وقدّمت له البيض المخفوق فأكل ممتناً واعترف بأنّه يتضوّر جوعاً لأنّه لم يتناول أيّ طعامٍ منذ الغداء.

ثمّ اقترح عليها: "أستطيع أن أحضّر المعكرونة إن كان لديك بعضاً منها". فتردّدت ثمّ هزّت برأسها. لم ترد أن يبقى عندها أكثر، كانت ستطعمه وتوبّخه لمجيئه فجأة، ومن ثم ترسله إلى ذلك الفندق في ماراي. وكلّ ما يفعله لاحقاً لا يعنيها، لم تكن ترغب بأن تفكّر في ما يفعله الآن أو لاحقاً.

انشغلا في تحضير الطعام، وبعد نصف ساعة كانا يجلسان جنباً إلى جنب إلى طاولة المطبخ يتحدثان ويتناقشان حول فنّانين تمثّلهما. اعتقد أنّ أحدهما رائعٌ وعمله واعدٌ ويستحقّ كلّ الفرص التي قدّمتها له. أمّا الثاني فلم يرق له لأنّه برأيه لا يملك الموهبة وسيسبّب الإحراج لها. وبحسب ليام، كان أسلوبه سطحيّاً ومقلّداً وزائفاً ومدّعياً. "لا أستطيع الوقوف في صفّه، إنّه بائسٌ أحمق". وتميّز ليام بآراءٍ قويّةٍ حول معظم المواضيع.

سلّمت ساشا: "نعم إنّه كذلك". فهي لم تحبّه أيضاً، "ولكنّ عمله يُباع بكثرةٍ كقطع الحلوى، والمتاحف تحبّه".

– "إنّهم فقط يلاحقونه لأنّ زوجته تملك المال". ثمّ نظر إليها مرتبكاً وضاحكاً بصمتٍ وأضاف: "أعتقد بأنّ الناس سيقولون الشيء نفسه عنّي يوماً ما إذا ارتبطنا معاً". وجعلتها الطريقة التي قال بها هذا ترتجف.

وأجابته بنبرةٍ حزينة: "لا تقلق، لن تقوم بذلك، لن تواجه أبداً تلك المشكلة. كما أن لدينا أسباباً أكثر تمنعنا من الارتباط كما قلت".

"أريد أن أريك شيئاً". ورفع السروال عن أحد ساقيه، ونزع الجزمة التي كان ينتعلها. فلم تلاحظ أيّ شيءٍ غير اعتياديّ. كان يرتدي جوارب بيضاء رياضيّة ثمّ أشار إليها وقال: "أرأيت ذلك، إنّها جوارب، ارتديتها من أجلك، لقد اشتريتها من المطار". ولم يكن ممكناً رؤيتها من خلال جزمته العالية، ولكنّه كان كالطفل الذي فعل شيئاً ليسعد أمّه وأرادها أن تعلم بذلك، واتّسع رصيده لديها بتصرّفه هذا.

فردّت قائلةً وهي تحاول ممازحته: "يا لك من صبيّ صالح". وبدا واضحاً أنّه أراد إرضاءها وحصل على ذلك. ولكنّه بحاجةٍ إلى أكثر من مجرّد جوارب ليصبح ناضجاً في عينيها ولم يكن كذلك حتّى الساعة. فكلّ ما فيه دلّ على أنّه مراهقٌ غير ناضج، وفنّانٌ غريب الأطوار. وكما سبق وقال لها، ما من أحد سيتحكّم به أبداً. فقد حاول والده ذلك وأخواه أيضاً، ولكنّ ليام تحدّاهم جميعاً. غير أنّ ساشا لم ترغب بذلك، أرادت منه أن يضبط نفسه ويتصرّف

كراشد. ومع أنّ مجيئه إلى باريس كان لفتةً لطيفةً منه، إلاّ أنّه ما زال جامحاً ومندفعاً، ولم يحترم ما طلبته منه بأن يبقى بعيداً عنها، وأن ينسى لحظة الجنون التي مرّا بها في لندن.

ثمّ سألها باهتمامٍ بينما أنهيا عشاءهما: "ماذا كنت ستفعلين الليلة قبل أن أصل؟" وكانت مشاركتهما في تحضير العشاء مثمرةً فالطعام كان لذيذاً كونهما طبّاخين ماهرين.

– "لا شيء معيّن، أقرأ ثمّ أخلد للنوم. أنا لا أخرج كثيراً".

– "لم لا؟" وعبس وهو ينظر إليها.

– "لأسباب واضحة. الحزن والوحدة. ويحبطني أن أذهب إلى الحفلات بمفردي. وغالباً ما أشعر بأنني دخيلة ووحيدة، وكأنني النوع الفردي الوحيد من الأجناس الحيّة على سفينة نوح. أمّا أصدقائي فيشعرون بالأسف على حالتي، ويشفقون عليّ وهذا ما يحبطني أكثر. أخرج فقط عندما أكون مجبرة على تلبية دعوات الزبائن".

ثمّ قال وكأنّه قد عيّن نفسه مستشاراً لحياتها الاجتماعيّة: "عليك أن تخرجي أكثر، فأنت بحاجةٍ للمزيد من التسلية في حياتك، لا يمكنك الجلوس في منزلٍ فارغٍ تقرئين وتسمعين صوت المطر في الخارج. بالله عليك، لو فعلت أنا هذا لكنت انتحرت". لم تخبره بأنّها فكّرت في ذلك عدّة مرّاتٍ منذ وفاة آرثر والأمر الوحيد الذي منعها هو ولداها، فلم تستطع فعل ذلك بهما، وإلاّ لما ردعها أيّ رادع. ولكنّه شعر بذلك بشكلٍ غريزيّ نظراً للحياة التي تعيشها والوحدة التي فرضتها على نفسها، ولم يستطع لومها. وكان المعرض وزيارات ولديها في المناسبات هي كلّ ما تبقّى لها. "غداً سأصطحبك لحضور فيلم. أيعرضون في باريس أفلام الساموراي؟" سألها باهتمامٍ بينما ساعدها على رفع الأطباق عن الطاولة. وضحكت للسؤال.

– "ليس لديّ أدنى فكرة، فلم أشاهدها أبداً من قبل". كان يدخل المرح إلى حياتها، ويجعلها تضحك كما لم تفعل منذ أعوام، أو حتّى كما لم تفعل أبداً من قبل.

– "عليك أن تشاهدي تلك الأفلام، إنّها رائعة وجيّدة للروح. وليس عليك أن تقرئي الترجمة على الشاشة، يمكنك سماع الأصوات فقط، فهم يتحاربون ويصدرون الكثير من الأصوات والضجيج. إنّها تجربة نفسيّة عميقة، حتّى كزافييه يحبّها".

– "لم يخبرني أبداً بذلك"، وابتسمت ملتفتةً إليه.

– "ربما يشعر بالإحراج، فهو يعتبر نفسه مثقفاً جدياً. ولا تحمل أفلام الساموراي أي معانٍ ثقافيّة. أمّا أنا فأكره الأفلام التي يشاهدها، لطالما غفوت خلال العرض".

وضحكت قائلةً: "أنا أيضاً، فهو يحبّ تلك الأفلام البولنديّة، والتشيكيّة، والسلوفاكيّة الطويلة ولهذا لا أرافقه أبداً إليها".

– "جيّد، ستأتين معي إذاً، سأصطحبك إلى أفلام كوميديّة إن شئت. منذ متى لم تذهبي إلى السينما؟" فكّرت في ذلك لبرهةٍ وأدركت بأنّه الجواب نفسه لكلّ سؤال آخر يُطرح عليها.

– "منذ وفاة آرثر". هزّ برأسه ولم يعلّق، والتفت إلى ثلاّجتها الأميركيّة الحديثة التي كان من النادر رؤية مثلها في باريس. وكان آرثر قد أصرّ على جلبها بعد أن غيّرت ساشا أثاث المنزل. كما كان لديها حمّامات كبيرة أميركيّة الصنع وهي من أساليب الرفاهيّة النادرة في باريس.

– "ألديك المثلّجات؟ أنا مدمنٌ عليها". وأدركت أنّ هنالك أموراً أخرى تستحقّ أن يحبّها المرء ويدمن عليها. أمورٌ أخرى، مثله هو على سبيل المثال. ولاحظت بأنّه لم يشرب الشراب على العشاء على الرغم من أنّها قدّمت له كأساً.

"في الواقع..." وفتحت الثلاجة ووقفت تتأمّل في داخلها. لم تكن تحتوي إلاّ على الثلج، فهي لا تأكل الحلوى أو المثلّجات، وكان كلّ ما لديها في البرّاد ممّا تتركه لها مدبّرة المنزل للعشاء: بعض السلطة والخضار والحساء، وأحياناً بعض الجبن أو الدجاج أو اللحم. لم تكن تأكل كثيراً، أمّا ليام فيأكل

كشابٍ قويّ مليءٍ بالحيويّة. التفتت إليه محرجةً وقالت: "ليس لديّ أيّ مثلّجات، أنا آسفة". لم تستطع التذكّر متى كانت المرّة الأخيرة التي أحضرت فيها المثلّجات إلى المنزل أو أكلتها.

– "إنّها مشكلةٌ حقيقيّة". وبدا قلقاً.

– "سأذكر ذلك في المرّة القادمة". وكأنّه سيكون هنالك من مرّةٍ قادمة، وهذا ما صمّمت على عدم حصوله. ثمّ تراءت لها فكرة. فهي لم تذهب إلى ذلك المكان منذ أعوامٍ أي منذ طفولة ولديها. والآن لديها ولدٌ آخر في حياتها، إنّه ليام. قالت له فجأةً بعد أن وقفت تنظر إليه: "إرتدِ سترتك، سوف نخرج".

– "إلى أين؟" سألها بينما ارتدت معطفها، وحملت حقيبة يدها. وكانت لا تزال ترتدي البذلة السوداء التي ارتدتها إلى المكتب ذلك اليوم. وبعد قليلٍ، كانا في الخارج، قادته إلى المرآب وركبا سيّارتها الصغيرة التي بالكاد استطاع الجلوس فيها بسبب ساقيه الطويلتين وصغر حجم السيّارة، ولكنّها كانت ملائمةً لساشا.

قادت متوجّهةً إلى إيل سان لويس حيث وجدت موقفاً لسيّارتها، وتأبّطت ذراعه فيما مشيا تحت المظلّة. توقّفا أمام متجر يحمل اسم "برتيلون"، ثمّ نظرت بفخرٍ إلى ليام وقالت: "إنّه يصنع أفضل المثلّجات في باريس". وشرحت له كيفيّة شراء المثلّجات منه ومن أيّ نوعٍ يريد وفي أيّ قرنٍ تُوضع. أخذ منها على طعم الإجاص والمشمش والحامض في قرنٍ مع السكر، واشتريا ثلاث علبٍ من المثلّجات بطعم الشوكولاته والفانيليا والقهوة، وأخذت هي كرةً واحدة من المثلّجات بنكهة جوز الهند. وعادا إلى السيارة يتحدّثان بسعادة. قادته في جولةٍ صغيرةٍ قبل الوصول إلى المنزل، فهو يعرف باريس ولكن ليس الأجزاء التي تقصدها. كما توقّفا لاحتساء القهوة في كافي دو فلور الذي كان من أقدم المقاهي في باريس. واجتازا جادة دو ماغو في طريقهما إلى السيّارة وكانت الساعة العاشرة عندما عادا إلى المنزل مجدداً. وقرّر أن يتذوّق نكهات المثلّجات الأخرى التي اشترياها، وجلسا هذه المرّة في غرفة الجلوس

وأضاءا الشموع. وتحولت الأمسية إلى وقتٍ ممتعٍ لم يكن لأي منهما أن يحظى بمثلها بمفرده. فالذهاب إلى برتيلون بمفردها كان ليحبطها، وكذلك القيادة في شوارع باريس، واحتساء القهوة في كافي دو فلور. ولكن مع ليام، كان الأمر مختلفاً تماماً، فلقد استمتعا ومرحا معاً، وتبادلا الأحاديث عن السياسة، وتناقشا في مواضيع الفنّ، وتشاركا في الآراء، وأخبرا قصصاً مضحكةً ونكاتاً. كما أنّ حماسة ليام وحيويّته وحبّه للحياة أضفت السعادة والبهجة على اللقاء وأفرحتهما. لعلّه ولد في تصرفاته ولكنّه كان ذكيّاً ومسليّاً. وبدأت تتساءل إن كانا يستطيعان أن يصبحا صديقين، وكانت الساعة تناهز الواحدة فجراً عندما توقّفا عن التحدّث وتثاءبت.

طلب منها استعمال الهاتف للاتصال بفندق الفنّانين الذي سينزل فيه. أراد مهاتفتهم من المطار ولكنّه لم يفعل، وعاد بعد دقائق وقد بدت عليه ملامح الارتباك. وقال بخجلٍ: "هذا سخيفٌ". حتّى أنّه لم يقبّلها ولو حتّى قبلةً واحدة تلك الليلة وكانت ممتنّةً لذلك. فلو فعل ذلك، لطلبت منه المغادرة، هذا ما وعدت نفسها به قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة.

– "ماذا حدث؟" سألته وهي تطفئ الشموع. كان سيغادر بعد قليلٍ، وجرت الأمسية على ما يرام وبسهولةٍ تامةٍ، فقط لو أنّها تتخطّى انجذابها القويّ إليه، لكان كل شيءٍ كاملاً.

– "لم أتصل بهم باكراً، ليس لديهم غرف شاغرة، ربما يمكنني أن أجد فندقاً في مكانٍ ما". ونظر إليها وفي عينيه سؤالٌ صامتٌ لم يطرحه عليها وفجأة بدت قلقةً.

– "هل تسألني إن كنتَ تستطيع البقاء هنا؟" سألته مباشرةً ومتسائلةً إذا كان الأمر مناورةً منه أو أنّ فندق الفنّانين في ماراي ممتلئ حقّاً. ولكنّه لم يبدُ مهتمّاً بالأمر، فهو ليس منظّماً ولم يكن يوماً هكذا. وقد أخبرها بنفسه أنّ بيث فعلت كلّ شيء من أجله منذ أن بلغ التاسعة عشر إلى أن رحلت. وفي البداية، لم يكن يتدبّر أموره من دونها ولكنّه بدأ يتعلّم.

– "لم أكن لأطلب منك ذلك"، قال بصدقٍ، "لم أرغب بأن أحرجك، يمكنني النوم في المطار إن اقتضى الأمر أو في محطّة القطار، فعلتها من قبل، ليس ذلك بالأمر المهمّ".

أجابته: "هذا سخيفٌ"، ثمّ أخذت نفساً عميقاً. "تستطيع النوم في غرفة كزافييه، ولكن ليام، لن أنام معك، فلن أقلب حياتي ولا حياتك رأساً على عقب. إن استمرارنا بفعل ما قمنا به الليلة الماضية، سيكون مربكاً فحسب". ولكنّه لم يتذكّر إن كان أحدهما قد شعر بالارتباك بالأمس، فلم يقل شيئاً وهزّ برأسه.

– "سأتصرّف جيداً، أعدك".

علم بأنّ هذا سيكون صعباً عليها أيضاً، فلقد عاشت في هذا المكان مع زوجها وولديها، ولم يكن المنزل لها وحدها كما كانت غرفة الفندق في لندن. لم يُرد أن يزعجها أو يخيفها وعلم بأنّه سيفعل إن خطى هنا باتجاهها.

تبعها باحترامٍ فيما أرته غرفة كزافييه. وكانت غرفته فوقها مباشرةً وهي تنمّ عن غرفة شابٍ أنيقٍ مع ديكورٍ بسيطٍ باللون الأزرق البحريّ، ومع لوحةٍ أهدته إيّاها قبل سنواتٍ بمناسبة عيد الميلاد وتجسّد امرأةً وصبيّاً صغيراً. أحبّها وقتها ولا زالت معلّقةً في غرفته لتذكّرها بطفولته. أمّا نوافذ الغرفة فهي دائريّة الشكل وتطلّ على الحديقة. فرح ليام لأنّه كان بقربها تلك الليلة، وحين قبّلته على خدّيه متمنّيةً له ليلةً سعيدةً، واجه صعوبةً في مقاومتها. لم يكن مستعجلاً، فما يشعر به حيالها يمكنه أن ينتظر إن كان ذلك ضروريّاً. تمدّد على السرير في تلك الليلة وهو يفكّر بها وهكذا فعلت هي أيضاً. وأراد بشدّةٍ النزول إليها ولكنّه لم يفعل، ولم يرها حتّى التقيا في المطبخ صباح اليوم التالي.

أعدّت له البيض مع اللحم المقدّد وتناقشا في ما سيفعلانه ذلك اليوم. فبعد أن بقي مهذّباً ومطيعاً في غرفة كزافييه من دون أن يجادلها في ذلك أو أن يتجاوز حدوده، لم تكن قلقةً ومتلهّفةً لأن يغادر. كانت السماء رماديّةً ولكنّ الطقس بدا أفضل من الأمس، فقرّرا السير على ضفاف نهر السين. شاهدا باتو موش ودلّته على مواقع جديدة، واشترى لها كتاباً فنيّاً. ثمّ ابتاعا الشطائر من

بائعٍ متجول، ومرّا أمام واجهات محلاّت بيع الحيوانات وضحكا على صغار الدجاج. أراد ليام الدخول والاستفسار عن كلبٍ يشبه الكلب الذي حظي به عندما كان طفلاً وأحبّه، ولكنّه مات في العام نفسه الذي توفيت فيه والدته. أمّا بقيّة الوقت، فقام بإضحاكها وإخبارها النكات والدعابات وقصصاً مسليّة. وسألته عن أولاده وحدثته عن ولديها هي أيضاً. كان أحد تلك الأيام المريحة والممتعة حيث تشاركا الثقة والصداقة والحبّ الذي كان غير معلن ولكن كلاهما شعرا به بقوّة مهما كانت هنالك من المقاومة. وقدّم لها ما افتقدته خلال الخمسة عشر شهراً الماضية من رفقةٍ، ورفيق تتحدث معه. فملأ وحدتها كما تملأ الرغوة حتى يطفح الكوب.

كانا واقفين أمام المتجر الأخير من متاجر بيع الحيوانات على الرصيف، حين لمحا كلباً صغيراً. أخبرهما الرجل في المتجر بأنّه أصغر كلبٍ من هذا النوع، وقالت ساشا بأنّه يملك أكثر عينين حزينتين رأتهما على الإطلاق.

فقال لها ليام بدون تردّدٍ: "عليك أن تمتلكي كلباً، سيؤمّن لك الرفقة". كان قد فكّر بالأمر نفسه من أجله هو، ولكنّه وجد فيه تعقيداً في لندن.

– "أسافر باستمرارٍ وسيكون عليّ تركه هنا أو اصطحابه معي من طائرةٍ إلى أخرى، وهذا لا يبدو عادلاً بالنسبة لي".

– "أنتِ تقومين بذلك، فلمَ لا يستطيع الكلب هذا أيضاً؟".

– "لم أحظَ بواحدٍ منذ أن كان الولدان صغيرين، فهو يتطلّب الكثير من الاهتمام، وسيتبوّل في كلّ زاويةٍ من المعرض، سيقتلني برنارد وكذلك كارن في نيويورك".

– "لا يمكنك ترك الآخرين يتّخذون القرارات عنك". ولكنّها لطالما فعلت ذلك. وهذا ما فعلته حتّى بشأنه هو، فكانت خائفةً ممّا سيعتقده الآخرون إن ارتبطت بعلاقةٍ معه، كما أنّه لم يكن مطلّقاً بعد.

أخرجا الجرو الصغير من القفص، فبدا وكأنّ الحياة عادت إليه للحال بين يديّ ليام الذي راح يلاعبه. وقفت ساشا بعيداً تنظر إليه فيما الجرو يلعق وجهه

وتركه ليام يفعل ذلك. كانت أنثى ولونها أسود وأبيض ورأسها جميلٌ وأرجلها سوداء وأقدامها في الأسفل بيضاء. وأخبرها ليام أنّ كلبه كان من النوع ذاته ولكنّه كان ذكراً. فقالت له مشجّعة: "ربما عليك شراؤها واصطحابها إلى المنزل معك". وبدا واضحاً أنّه أغرم بذلك الجرو الصغير، وحزن عندما أعاده إلى القفص ثانية بينما راح الكلب ينبح عندما غادرا. فنظر ليام إليه وأرسل له قبلةً من بعيد ولوّح له بيده.

وشرح لساشا: "لا أستطيع اصطحابه معي إلى لندن، فالبريطانيون معقّدون للغاية، وقد وضعوا قوانين تحتّم الحصول على أوراق وإجراء معاملاتٍ لإدخال أيّ حيوانٍ من بلدٍ آخر". وقد نظر إلى ساشا بشكلٍ صبيانيّ قائلاً: "لست مسؤولاً بما فيه الكفاية لأحظى بكلبٍ، أنسى كلّ شيءٍ عندما أرسم، أنا بحاجةٍ لزوجة لكي أربّي كلباً آخر".

فأجابته قائلة: "هذا اعترافٌ خطير". وهو يؤكّد كلّ مخاوفها منه، ولكنّه لم يبدُ مخيفاً هذه المرة، بل كان وصفاً دقيقاً لحالته. فلقد كان ليام يدرك جيّداً ما هو عليه وأدركت هي أيضاً ذلك. إنّه صبيٌّ جذّابٌ عديم المسؤوليّة.

ذهبا إلى برثيلون مجدّداً وأوصلته تلك الليلة إلى المطار. جلس يتأمّلها مطوّلاً قبل أن يفكّر بالخروج من السيّارة الصغيرة.

ثمّ همس: "قضيت وقتاً رائعاً برفقتك ساشا". لم يمارسا الحبّ خلال هذين اليومين، ولم يقوما بأيّ أمرٍ جنوني. بل خرجا سويّاً، وتناولا المثلّجات، وتحدثا، وقاما بنزهاتٍ طويلة، واشتريا كتاباً فنيّاً، وجلسا في المقاهي، ولعبا مع جرو. فعلا كلّ ما افتقدته من تسليةٍ وكان مختلفاً عمّا قامت به من قبل، فمع أرثر حظيت بحياةٍ ناضجة حيث كانا شريكين مسؤولين يتقاسمان الأمور الجديّة. ولكن ليام كان شاباً وسيماً ومسليّاً، لم يصبح رجلاً ناضجاً بعد وهو مستعدٌ لأن يكون حبيبها إذا سمحت له. كما أنّه كان في بعض الأحيان بالنسبة لها يشبه ولداً متبنّى بسبب أساليبه الشابة والمسليّة.

ابتسمت ساشا له قائلةً: "وأنا أيضاً قضيت وقتاً رائعاً، شكراً لأنك فاجأتني، فلو سألتني، لما كنت تركتك تأتي".

وأضاف قائلاً: "لهذا السبب لم أسألك". وانحنى صوبها وقبّلها. كانت ممتنّةً لأنّه احترم رغباتها إلى ذلك الحين، وفيما قبّلها، شعرت بكلّ ما سبق وشعرت به تجاهه في لندن، وهذا ما نجحت في مقاومته طيلة نهاية الأسبوع. لكان مستحيلاً بالنسبة لها أن تنجح في ذلك إن قبّلها قبل نهاية الأسبوع، ومستحيلاً حتّى بالنسبة له. جلسا يتبادلان القبل لوقت طويلٍ ثمّ أخذ كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر. فمن المستحيل أن يحدث ما هو أكثر بينهما، وتمنّت لو أنّ الأمور مختلفة ولكنّها علمت أنّها ليست كذلك وما باليد حيلة، ولم تقل له ذلك هذه المرّة، فلم يكن من داعٍ للأمر وقد عرف بماذا تفكّر. وقبل أن يخرج من السيّارة قال لها: "أريد أن آتي مجدّداً لرؤيتك، هل ستسمحين لي بذلك ساشا؟".

– "لا أدري، سوف نرى، عليّ التفكير بالأمر. سيكون علينا مواجهة القدر إن حاولنا ذلك مجدّداً، فنحن سنكذب على أنفسنا إن اعتقدنا بأنّنا نستطيع وضع حدودٍ بيننا، فمن الصعب مقاومتك". قبّلها مجدّداً وأثبت لها ذلك، وبالكاد تمكّنت من التنفّس عندما توقّف عن تقبيلها، أرادته بشدّةٍ ولم ترغب بأيّ شيءٍ أكثر من اصطحابه معها إلى المنزل. ولكنّها لم تقم بذلك. عرفت بأنّها لا تستطيع. ترجّلت من السيارة وضحكت لمشاهدته يخرج بصعوبةٍ مع ساقيه الطويلتين.

– "أنتِ وكيلتي بحقّ السماء، ومع كلّ المال الذي ستجنينه منّي، ألا يمكنك شراء سيّارةٍ أكبر؟ سأصاب بوجع في ظهري من هذه السيّارة كلّما صعدت إليها وترجّلت منها. ربّما عليّ أن أعطيك دفعةً مسبقة". فضحكت ورافقته إلى داخل المطار. وكان يرتدي جزمته العالية كرعاة البقر، وسرواله الجينز، وقميصاً اشتراه من إيرلندا، ويعتمر قبّعة بايسبول أرسلها له ابنه من الولايات المتحدة. وبدا طويل القامة وشاباً ينبض بالحياة. كان كلّ ما فيه جذّاباً وبخاصةٍ هيئة الطفل البادية عليه، والتي كانت تخيفها كثيراً.

تبعته بصمتٍ إلى البوّابة وكان المسافر الأخير على متن الطائرة. جزءٌ منها أراده أن يفوّت الطائرة ويبقى معها، أمّا الجزء الثاني فأراده أن يرحل وألا يعود أبداً لرؤيتها، فبدأ الصراع المستمرّ بين الجزأين في داخلها.

همس في أذنها: "سأفتقدك".

– "وأنا أيضاً"، قالت بصدقٍ، فلطالما كانت صادقةً معه، وشعرت بأنها تستطيع البوح له بكلّ ما تفكّر فيه.

قبّلها بقوّةٍ بينما بدأ الموظفون يقفلون البوابة المؤدية إلى الطائرة. فهتفت بهدوء: "هيا، اذهب، سوف تفوّت الرحلة". فركض مسرعاً، والتفت إليها للمرة الأخيرة ملوّحاً، وصعد إلى الطائرة. لم يكن لديها أيّة فكرةٍ متى ستراه مجدّداً.

حين جلس في مقعده، أخذ يفكّر فيها وبكثرة التناقضات التي تتكوّن منها. فلقد كانت قاسيةً ورقيقةً، ضعيفةً وقويّةً في آنٍ معاً. فتارة تكون جديّةً وحزينةً عندما تتكلّم عن أهلها وزوجها المرحوم، وتصبح تارةً أخرى مرحةً وسعيدةً حين تتحدّث عن فنّانيها أو عن ولديها أو عن نظرتها للحياة. تميّزت ببساطتها في ما تتوقّعه من الحياة، وبصلابة أفكارها حول كيفيّة التصرّف في المجتمع، وأرادت أن يلاحظها الآخرون. كما أنّها تتصرّف كسيّدة وقورة للحظة، وتمتلئ بالنزوات في اللحظة التالية. وعلم من كزافييه أنّها أمّ رائعةٌ ومذهلةٌ واستطاع بنفسه أن يشعر بأنّها صديقةٌ عظيمةٌ. وكانت في الوقت نفسه مسؤولةً ومدركةً ومتمكّنةً ولامعةً في عملها، في المقابل هي امرأةٌ صغيرةٌ ووحيدةٌ تحتاج لرجلٍ يحبّها ويعتني بها. ومهما بلغ إصرارها على محاربته ومقاومته، أراد ليام أن يكون هو ذلك الرجل مهما لزمه من الوقت.

الفصل السابع

فـي اليوم التالي، كانت ساشا حالمةً وصامتةً في مكتبها. فجلست لوقتٍ طويلٍ إلى طاولتها تحاول قراءة ورقةٍ ما ولكن من دون أن ترى أيّة كلمةٍ منها إذ كانت شاردة في أفكارها. فكّرت بليام وبالأوقات المرحة التي أمضتها برفقته في نهاية الأسبوع، وبالسخافة التامة التي جعلتها تسمح لنفسها بأن تكون معه. فإذا استمرت في الأمر، ما من شكٍّ بأنّه سيؤدّي في النهاية إلى إيذاء أحدٍ منهما والأرجح هي أو ربما هو، ولكنّها كانت الأضعف.

كانـت تقـف إلى جانب النافذة تفكّر في ذلك عندما دخلت أوجيني إلى الغـرفة وقالـت متردّدة: "ساشا، وصل طردٌ لك، لست واثقةً أين تريدينني أن أضعه". استنتجت ساشا بأنّه يحتوي على لوحاتٍ أرسلها أحد فنّانيها. فلقد كان الفنّانون فـي أوروبـا يرسلون لها أعمالهم إلى المعرض في باريس، والذي يرسلها بدوره إلى نيويورك في حال كان العرض هناك.

فأجابـت ساشا وقد بدا عليها التشتّت وعدم التركيز: "ضعيه مع الأعمال التـي وصـلت في الأسبوع الماضي وحسب، سنشحنها كلّها إلى نيويورك في الأوّل من شباط/فبراير. تحقّقي من اللائحة وتأكّدي من أنّه ليس ضمن الأعمال التي نودّ عرضها هنا".

وأضافت أوجيني مرتبكة: "لا أظنّ بأنّك تودّين شحن هذا إلى نيويورك". وكانـت ساشـا تخيفها في بعض الأحيان وخاصة مؤخّراً، فلم تكن واثقةً كيف تتصرّف مع هذا الطرد بالتحديد.

– "بحقّ السماء، أوجيني توقّفي عن هذا الغموض، ماذا هنالك؟".

– "هل أحضره إلى هنا؟".

– "ليس إن كان عليك فتحه، فلا أريد نشر الفوضى في المكتب، افتحيه في غرفة الشحن، سأراه لاحقاً".

وقفت أوجيني تنظر إليها بارتباك وكأنّها لا تدري ماذا تفعل، فيما بدأت ساشا تشعر بالإستياء منها فأضافت: "حسناً، أحضريه، سننظّف الفوضى في ما بعد". وبدا من الواضح أنّ أوجيني شعرت بوجوب إحضاره مباشرةً إلى ساشا التي بدأت تشكّ في أنّ مشكلةً ما ستقع في مكتبها.

فتوارت مساعدتها سريعاً عن الأنظار وعادت بلمح البصر حاملةً صندوقاً تحتضنه بين يديها، ثمّ قرّبته إلى ساشا التي وقفت مذهولةً عندما رأته. كان الجرو الصغير الذي لعبت معه هي وليام في متجر بيع الحيوانات بالأمس. وبدا الجرو خائفاً، وكذلك أوجيني ارتعبت منه أكثر، فلم تعلم كيف ستتصرّف ساشا حيال ذلك. ولكنّها تفاجأت عندما رأت مديرتها تقف مذهولةً ثم بدأت الابتسامة ترتسم على وجهها.

وقالت بتأثّر: "يا إلهي... ماذا سأفعل به؟".

وأجابت أوجيني بتردّد: "الرجل من المتجر قال بأنّك تعرفين من أرسله".

– "نعم أعرف، إنّه ليام أليسون، الفنّان الجديد لدينا". فما من شيءٍ يدفعها لإخفاء ذلك، وعاجلاً أم آجلاً سيعرف الجميع من أرسله. ولكن لحسن الحظّ لن يعلم أحدٌ السبب الذي دفعه لذلك. اقتربت أوجيني منها، وناولتها الجرو الصغير الذي بدأ يلمس وجه ساشا كما فعل بالأمس مع ليام. "يا إلهي... لا أصدّق ذلك". وحملت الجرو قليلاً ثمّ وضعته أرضاً، فجلس قرب رجليّ ساشا وتبول على السجّادة. غير أنّ الضرر كان محدوداً. "إنّه مجنونٌ"، قالت ساشا وابتسمت أكثر، وفرحت أوجيني عندما رأت أنها لم تستاء ممّا حصل للسجّادة.

– "إنّه جروٌ لطيفٌ"، وابتسمت أوجيني لها، بينما راح الجرو يشمّ الأثاث ويركض في أرجاء الغرفة، ثمّ يعود مندفعاً نحو ساشا التي نظرت إلى أرجله السوداء وأطرافها البيضاء وسألت: "هل سيحمل اسماً؟" وتردّدت لبرهةٍ وأضافت مبتسمة: "أظنّ أنّه سيحظى باسم، سأدعوه سوكس".

فمع أقدامه البيضاء التي تبدو كالجوارب (وهي تعريب كلمة سوكس)، استحقّ اسمه الذي يذكّرها بليام أيضاً. "هل أحضروا له الطعام؟" فلم تعرف ماذا ستطعمه.

وأجابتها أوجيني: "قال الرجل إنّهم أحضروا كلّ ما تحتاجينه بما في ذلك صندوق للسفر عندما تصطحبينه إلى نيويورك. كما لديه أيضاً كنزة زهريّة اللون وطوق ورسن يتماشيان معها". لقد فكّر ليام بكلّ شيءٍ، وكانت تعلم بمدى حاجته للمال، ومع أمله بما سيجنيه من معرض سوفيري، أنفق أكثر من قدرته. ولا بدّ أنّ الجرو وكلّ ما معه من طعامٍ وحاجيّاتٍ كلّفه ثروة. أحبّت ساشا كرمه ولطفه، فلقد كانت لفتة جميلة منه أن يرسل لها ذلك الجرو مع كلّ ما أراد أن يعنيه لها. ومع كلّ طرقه الصبيانيّة الغريبة، امتلك قلباً طيّباً. وما إن غادرت أوجيني الغرفة، حتّى رفعت ساشا سمّاعة الهاتف واتّصلت به على هاتفه الخليوي في محترفه.

– "لا أصدّق بأنّك فعلت ذلك، أنت مجنونٌ بالكامل. كما أنّك أنفقت ثروةً ليام. ماذا سأفعل بكلب؟".

– "تحتاجين إلى أحد يؤمّن لك الرفقة، أو على الأقلّ عندما أكون في لندن. هل هو بخير؟" وتجاهل تعليقها عمّا أنفقه، فهذا ليس من شأنها، أراد تدليلها فهي تستحقّ ذلك وأكثر بالنسبة له.

– "إنّه رائعٌ ليام، إنّه أجمل ما فعله أحدٌ من أجلي".

– "أنا سعيدٌ لسماع ذلك". وبدا مرتاحاً وراضياً بعد أن شعر بالقلق من أن تغضب منه، ولكن لم يحدث أيّ من هذا. وكانت لا تزال تحت تأثير الصدمة. "ماذا ستسمّينه؟".

– "سوكس"، أجابته ساشا، بينما ضحك ليام عالياً.

– "هذا رائعٌ، فلن يكون عليّ ارتداء جواربي من الآن فصاعداً، يكفي أنّ الجرو يلبس جواربه الخاصة". وتذكّر أقدامه البيضاء التي تشبه الجوارب.

– "يا لك من صبيّ كسول وفوضويّ، إن هذا هو أكثر الأمور جنوناً التي فعلها أيّ أحد من قبل في حياتي".

– "جيّد، تحتاجين لبعض الفوضى في حياتك، ولبعض المفاجآت الجميلة، وللتخفيف من السيطرة على الأمور". وفيما قال هذا، نظر سوكس إلى سيّدته الجديدة باهتمام وجلس القرفصاء ثمّ تبوّل مجدّداً على السجّادة. وبدا واضحاً لساشا بأنّها ستفقد السيطرة على الأمور، على نفسها وعليه وبالتأكيد على الجرو أيضاً الذي كان يبلغ من العمر ثمانية أسابيع، ولن يتعلّم كيفيّة التصرّف قبل بضعة أشهرٍ، فكان عليها أن تزيل السجّادات من كلّ المنزل.

– "كانت مفاجأة رائعةً ليام، ما زلت مندهشة حتى الآن". ولم تكن متأكّدة كيف تتصرف، أو لماذا قام بذلك، ولكنّها قدّرت له تلك اللفتة اللطيفة.

– "كنت أتساءل إن كان بإمكاني المجيء ورؤية الجرو خلال نهاية الأسبوع. لا تغضبي، فلن آتي لرؤيتك أنتِ بل الجرو". تردّدت ساشا وساد الصمت من ناحيتها. فهو لم يرسل الجرو للضغط عليها، وهذا كلّه كان بمثابة دفق من الحبّ عليها. وبعد أن قام بزيارتها في باريس، أدرك كم أنّها وحيدة. كما جعله الصمت والوحدة اللذان يلفّان منزلها يشعر بالحزن عليها، واعتقد بأنّ الجرو الصغير سيساعدها ولو قليلاً. وإذا سمحت له بذلك، سيساعدها هو أيضاً فقد أراد هذا بشدّة.

وأجابته بصدقٍ: "لا أعرف، ليام أنا خائفة، فسيكون الأمر جنونيّاً إذا ربطتنا علاقة. أظنّ بأننا سنندم على ذلك في نهاية المطاف". وبالأخصّ هي، في حال وجد امرأةً قريبةً من سنّه بعد أن يكون قد قُضي الأمر ووقعت هي بغرامه كليّاً. واستطاعت بسهولةٍ تخيّله يواعد امرأةً في الخامسة والعشرين أو في الثلاثين من العمر أكثر ممّا تستطيع تخيله مع امرأةٍ بمثل سنّها. ومن شأن علاقةٍ عاطفيّة بينهما أن تؤدّي من وجهة نظرها إلى عواقب وخيمة في النهاية.

– "ليس على الأمور أن تحدث على هذا النحو ساشا، توقّفي عن التفكير بهاجس العمر".

– "ليس هذا وحده السبب، بل كلّ شيءٍ أيضاً. فأنا أمثّلك وفي حال لم ينجح الأمر فسيؤثّر سلباً على علاقتنا المهنيّة أيضاً. كما أنّك لم تطلّق زوجتك بعد ومن المحتمل أن تعود إلى استئناف علاقتك بها يوماً ما. أنا أكبرك بتسعة أعوام وعليك أن تكون برفقة امرأةٍ تبلغ نصف سنّي. بالإضافة إلى ذلك، أنت تودّ أن تكون فنّاناً غريب الأطوار، أمّا أنا فحياتي محافظة ومملّة، وسيقودك ذلك إلى الجنون". فهذا ما جعلها مؤخراً تشعر بالملل. كما أنّها لا تستطيع اصطحابه معها إلى أيّ مكانٍ من دون أن تشعر بأنّها مجنونة، كما أنها لا تملك أدنى فكرة كيف سيتصرّف، ولكنّها لم تقل له هذا. وتابعت قائلةً: "هذا كلّه بدون معنى".

فسألها بنبرةٍ خائبة: "أعلى الحبّ دائماً أن يكون ذا معنىً؟" وكانت كمن تضع نقاطاً على لائحة مخاوفها في عقدٍ ترفض توقيعه. ولكن هذا هو النحو الذي جرت عليه كلّ حياتها، وهكذا كانت تراها.

وأجابته: "عليه أن يكون ذا معنى. العلاقات صعبة بما فيه الكفاية، فكيف إذا جمعت شخصين متناقضين مثلنا يحاولان إنجاحها؟ لا أعتقد بأننا نستطيع ذلك. كما أنّ هذا ليس حبّاً، بل انجذاباً جسديّاً. هو نوعٌ من الكيمياء الجنونيّة التي تفقدني صوابي عندما تكون بجانبي".

فقال بفخر: "لم تفقدي عقلك في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أتمنّى أن تفعلي، ولكن ذلك لم يحصل. أعتقد بأنّنا تصرّفنا جيّداً".

– "وكم سيطول ذلك برأيك؟".

– "ليس لوقتٍ طويلٍ كما آمل". وضحك فأحبّت وقع صوته. ثمّ ابتسمت بينما استمعت إليه، ونظرت إلى الجرو. وتابع قائلاً: "كان عليّ أن آخذ حمّاماً بارداً طوال الليل عندما عدت إلى لندن".

– "هذه وجهة نظري، فإذا بقينا سوياً سيفقد أحدنا أو كلانا عقله وسنقوم بشيءٍ نندم عليه لاحقاً". وكان الانجذاب الذي تشعر به نحوه أشبه بإشعال عود ثقابٍ قربَ كومةٍ من المتفجّرات. وقد أثبتا ذلك ليلة الجمعة بعد العشاء في هاريز بار.

– "ماذا سنفعل إذاً؟" سألها كمن فقد الحماسة، فهو لم يرد إقناعها لأنّ ساشا كانت عنيدةً مثله أو أكثر.

– "أصبحتُ وكيلتك الفنيّة المحترمة، وأنت تصرّفت كولدٍ صالحٍ".

– "أكره الأمر عندما يملي عليّ الآخرون ماذا سأفعل، لست طفلاً"، وبدا من نبرته أنّه مستاء.

قالت بإحساسٍ: "أحياناً لا يملك المرء خياراً إلاّ بأن يفعل الصواب، فمن الجميل أن تفعل ما تريد ولكنّك عندما تقوم بذلك، يتأذّى من حولك". ولم تودّ تذكيره بنزوته مع شقيقة زوجته التي كلّفته زواجه.

– "أريد رؤيتك ساشا"، قال بإصرارٍ، "أريد المجيء إلى باريس في عطلة نهاية الأسبوع". ثمّ أضاف بعد أن فكّر لبرهة: "أعتقد بأنّ عليّ المجيء لرؤية الجرو، ففي النهاية أنا والده".

– "لا، لن تأتي"، أجابته ساشا بحزم، "إنّه جروٌ يتيم الأب، وعليه أن يكبر هكذا، أعجبك ذلك أو لا. يمكنك أن تكون عرّابه إن أردت".

– "حسناً، حسناً سأكون عرّابه. ولكنّني سآتي إلى باريس في عطلة نهاية الأسبوع لرؤيتكما معاً".

– "لن أسمح لك بالدخول"، أجابته بصرامة.

– "لماذا؟ ماذا ستفعلين وحدك، هل ستجلسين في منزلٍ مظلم فارغٍ وتعملين بكدّ؟ بالله عليك ساشا، اسمحي لنفسك بأن تسعدي ولو لمرّة، أنتِ تستحقّين ذلك، وأنا أيضاً".

– "لا، أنت لا تستحقّ ذلك ولا أنا أيضاً إن كنّا سنجعل من أنفسنا أو منّي أضحوكة. أنت تنغمس في لذّاتك وتطلق العنان لنفسك، ولن أدعك تفعل ذلك على حسابي". قصدت كلّ كلمةٍ من ذلك. فالمخاطرة كانت كبيرةً عليها، ولكن ليام لم يكن لديه ما يخسره سوى قلبه.

– "هذا ليس عدلاً"، قال لها وقد بدا مجروحاً.

– "بل هو كذلك، إنّه الصدق. أنا أكبرك بعشرة أعوام، كما أنك تودّ أن تتصرّف كما تريد، ولا ترغب بأن تكون محترماً ومحافظاً. وليس لديك أية نيّة بالتكيّف مع حياتي، بل تودّ اللعب والتسلية والقيام بدور الفنّان الغريب الأطوار. وإن قمت بذلك في حياتي ليام، ستقلب كلّ عالمي رأساً على عقب ولن أدعك تفعل هذا".

– "تصرّفت جيّداً في هاريز بار، باستثناء القميص والجوارب. فلو علمت بأنّ ذلك مهمٌّ بالنسبة لك لكنت اشتريت قميصاً وجوارب جديدين إن كان ذلك يهمّك إلى هذه الدرجة، بالله عليك". وبدأت نبرته تعلو وكأنّه يصرخ.

– "لا يتعلّق الأمر بالقميص والجوارب بل بك أنت، وبالطريقة التي تعيش بها حياتك. فأنت تستمرّ بالقول مراراً بأنّ لا أحد يستطيع التحكّم بك أو أن يملي عليك ما تفعله. تريد أن تكون حرّاً وطليق الروح ليام ولديك كامل الحقّ لفعل ذلك. ولكنّك لا تستطيع فعل ذلك بحياتي وكلانا نعلم بأنّه عندما تحركك الروح، تودّ القيام بكلّ ما يخطر ببالك. تظنّ أنّ ذلك مسلياً ولكنّ الأمر ليس كذلك، وسواء أعجبك هذا أو لم يعجبك، فأنا كبيرة عليك، فأنت صديقٌ مقرّبٌ لابني وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وأنا أبلغ ثمانية وأربعين عاماً".

وكانت تصرّفاته والقوانين التي وضعها لنفسه أكثر ملائمةً لحياة ابنها ولكن ليس لحياتها هي. أحبّ ليام الحياة على هذا النحو، ولطالما قاوم أن يصبح ناضجاً طيلة حياته باسم الفنّ والاستقلاليّة.

– "أنا في التاسعة والثلاثين، وأنا أقرب إلى سنّك منه"، قال باكتئابٍ.

– "ولكنك لا تريد أن تتصرّف على هذا الأساس، وهنا تكمن المشكلة. أنت تودّ أن تتظاهر بأنّك في الخامسة والعشرين من العمر. ولو أردت الحصول على ابنٍ آخر لكنت تبنّيت واحداً. ليست هذه العلاقة التي أريد خوضها معك". ورفعت صوتها أيضاً كأنّها تجيب على صراخه.

- "أيّ علاقة تريدينها معي؟ اعتقدت بأنّ الأمور جرت على ما يرام ليلة الجمعة الماضية، ولم نفعل أيّ شيءٍ سيئ هذا الأسبوع أيضاً. ساشا لا أودّ أن آوي معك إلى الفراش فقط، بل أحبّ التحدث إليك أيضاً".

- "وأنا كذلك، ولكنك ترفٌ كبيرٌ لا أستطيع تحمله".

- "أنت أكثر امرأة عناداً عرفتها في حياتي. سأكون عندك مساء الجمعة سواء أعجبك ذلك أو لا. يمكننا أن نناقش الأمر في نهاية الأسبوع".

- "لا أريد رؤيتك"، قالت مرعوبة، فمشاعرها تجاهه تجعلها تشعر بأنّها فقدت السيطرة على نفسها.

- "أريد رؤيتك، ولو لمرّةٍ أخيرة لمناقشة الأمر وجهاً لوجه، لا تستطيع التحدث في هذا عبر الهاتف".

- "ما من شيءٍ نناقشه، هذا مستحيل ليام، علينا تقبّل الأمر، ليس بيدنا خيار آخر".

- "أنتِ من يريد جعل الأمر مستحيلاً، هو مستحيل إذا أردتِ ذلك". وبدا محبطاً فلم يستطع التعبير عن ذلك بالكلمات.

- "إذاً فلنقل أنني أريد ذلك".

- "هذا أسخف شيءٍ سمعته".

- "هذا ما تبدو عليه الأمور الصحيحة أحياناً، ولكن في هذه الحالة، هذا ما سنفعله". ولم تقل له بأنّه لو فعل الصواب مع بيكي، لكان بقي مع عائلته وأولاده. وعوضاً عن ذلك، أطلق العنان لنفسه وكان يحاول أن يقوم بالأمر ذاته مجدداً ولكن معها هذه المرّة.

- "سأتصل بك غداً"، قال متأثراً ومكتئباً. أمّا هي فبدت صارمةً أكثر في تصميمها على عدم التورّط معه في علاقة رغم الجرو الذي كان لفتةً لطيفةً منه، غير أنّه لم يقنعها بعد بأنّه الرجل المناسب لها.

- "لا تتصل بي إلاّ إذا تعلّق الأمر بالعمل في المعرض، فلا أودّ أن

أناقش ذلك معك مجدداً. وكلّ ما نفعله هو دفع بعضنا البعض إلى الجنون". ولكنّه كان يقودها للجنون أكثر عندما تكون بقربه، فلم تنجذب جسدياً لأحدٍ في حياتها بالشكل الذي انجذبت فيه إليه. وبدا من الصعب عليها تفهّم ذلك وحتّى مقاومته.

- "سأتصل بك هذا الأسبوع"، ولكنّه لم يفعل ممّا أراح ساشا. فقد أوحى إليها بأنّه سيقوم بذلك، ولكنّها ظنّت في النهاية بأنّها نجحت في إقناعه بترك الأمور على حالها. ومهما رغبت بأن تكون معه مجدداً، إلاّ أنها عرفت بأنّها لا تستطيع.

كان الجرو الذي أرسله إليها ليام عزاءها وسعادتها الوحيدين ذلك الأسبوع. كان سوكس لطيفاً، وعلى الرغم من بعض الحوادث المتكرّرة على سجّاداتها، أُغرمت ساشا به. وشكّل أفضل هديّةٍ يمكن أن تتلقّاها بالإضافة إلى الهديّة الأخرى بأنّه تركها وشأنها.

كان الطقس رديئاً في باريس مجدداً في نهاية الأسبوع، وتلبّدت السماء بالغيوم وهطل المطر طوال الأيام وبدا ذلك محبطاً. كانت الأيام تمرّ بصباحٍ كثيف الضباب، وليالٍ ممطرة، وبعد ظهرٍ كئيب تتسرّب فيه الرياح إلى العظام. يوم الجمعة عملت لوقتٍ متأخرٍ ثم أوت إلى الفراش. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي كانت في مكتبها في المعرض مع الجرو الذي حظي بحبّ الجميع وحتّى برنارد.

عملت ساشا طيلة نهار السبت في المعرض، وفي المساء جلست بمفردها في المنزل مع الجرو. لم يتّصل بها ليام منذ يوم الاثنين، وبطريقةٍ ما كانت مرتاحةً لذلك. ولكنّها في المقابل شعرت بالحزن أيضاً. كانت مجنونةً بحبّه، ولكنّه ثمرةٌ محرّمة عليها في شتّى الأحوال. هو ثمرةٌ صمّمت على عدم لمسها أو أكلها مجدداً مهما كلّفها الأمر. وكان في ذلك تضحيةٌ عليها القيام بها.

كانت الساعة تناهز التاسعة مساءً من يوم السبت عندما سمعت باب منزلها يُقرع. لم تكن البوّابة الخارجيّة بل الباب الداخليّ للمنزل.

وافترضت بأنّه البوّاب لأنها لم تسمع جرس البوّابة البرونزيّة الكبيرة. وعندما فتحت الباب كانت تحمل الجرو وتلبس ثياب النوم. فلقد توقّعت أن ترى وجه مدام باربوتيه، ولكنّها وجدت نفسها تنظر إلى ليام الواقف أمامها؛ فقد أتى في النهاية.

وسألته غاضبةً لرؤيته: "ماذا تفعل هنا؟" وشعرت بقلبها يقفز من صدرها، وبرجليها ترتجفان. ولكن لم يبدُ ذلك على وجهها، ولم تستقبله بالترحاب لأنّها طلبت منه عدم المجيء.

- "أتيت لرؤية ابني بالتبنّي"، وكانت ساشا تحمله بين ذراعيها، فنظر إليه وابتسم. "يبدو بحالةٍ جيّدة". وهو أيضاً بدا كذلك بعكس ساشا التي بدت مستاءةً ومتعبة. فقد عانت طوال الأسبوع لأن محافظتها على تصميمها بالابتعاد عنه كانت صعبة للغاية. وها هو الآن على عتبة منزلها يبدو أكثر وسامةً من قبل، وكان كلّ ما أرادته وجلّ ما تمنّته، ولكنّها لا تستطيع السماح لنفسها بالحصول عليه، ولذلك كانت تقاومه بشتّى الطرق، وبكلّ ما أوتيت من قوّة.

- "طلبت منك عدم المجيء إلى هنا"، قالت له ببرودة وكانت على وشك البكاء.

- "أريد التحدث إليك ساشا"، أجابها بجديّة. واستطاعت أن تعرف من عينيه بأنّه حزينٌ أيضاً. "لماذا لا نقوم بذلك لفترة ونرى ماذا يحدث؟ ربما لن يكون ذلك بالأمر المهمّ في النهاية".

- "وإذا تبيّن العكس؟ ماذا سيحصل؟ سيُجنّ ولداي، وسيظنّ الفنّانون الذين أتعامل معهم بأنني سلعة رخيصة. ونصبح حديث باريس ونيويورك". لم ترسم مشهداً جميلاً لذلك، ولكن يمكن لهذا كلّه أن يصبح حقيقيّاً بسهولةٍ، وهو أيضاً يعلم ذلك جيّداً.

- "هل فكّرت يوماً بشيءٍ آخر غير الكارثة، أو بما قد يظنّه الآخرون؟" سألها وهو لا يزال واقفاً عند بابها حاملاً حقيبته. "ماذا لو جرى الأمر على ما يرام؟ وماذا لو لم يهتمّ الآخرون بما نفعله ولم يعيرونا أيّ اهتمام؟ ماذا لو لم

يعلّق فنّانوك على الأمر، وأرادك ولداك أن تكوني سعيدةً حتّى إن كنتِ مع شابٍ أصغر منك سنّاً؟ قد لا يشكّل هذا أمراً مهمّاً أو كارثةً في نهاية المطاف".

- "أتريد منّي الاستمرار بذلك إلى أن تلتقي فتاةً بمثل سنّك أو أصغر وتقع في غرامها؟ لا أريد أن أمرّ بهذا أيضاً".

- "ماذا لو متُّ أو متِّ أنتِ؟ وماذا إن صعقنا البرق في إحدى الليالي بينما نمارس الحبّ؟ ماذا عن الأمراض كالكوليرا أو داء الخناق أو الحصبة؟ ماذا إن اندلعت حربٌ عالميّة؟".

- "أفضّل الحرب على أن أجعل من نفسي أضحوكةً برفقتك. أنا فقط لا أودّ خوض هذا، ليام أفضّل أن أبقى وحيدة".

- "لا تكوني سخيفة. لقد وقعت في الغرام مرّتين في حياتي، المرّة الأولى كانت مع بيث واستمرّت لعشرين عاماً، والآن معك أنتِ. لم أعبّر عن حبّي لأحدٍ أبداً إلاّ لكما أنتما الاثنتين".

- "أنت تريدني لأنّك لا تستطيع الحصول عليّ". قالت له ساشا بحزنٍ بينما ترتجف من البرد وكذلك الجرو.

- "هل أستطيع على الأقلّ الدخول لدقيقة؟ قدت لساعاتٍ لأنّهم ألغوا الرحلة التي حجزت على متنها، فاضطررت للمجيء بالسيّارة". ووقفت جانباً متمنّيةً لو امتلكت الشجاعة الكافية لكي لا تسمح له بالدخول ولكنّها لم تفعل. وكما كان الحال منذ أن التقته، لم تتحلَّ مطلقاً بالقوّة اللازمة لمقاومته فيما مشى ودخل إلى غرفة الجلوس. كانت الأنوار مطفأة والغرفة باردة إذ كانت قد خطّطت قبل مجيئه أن تخلد للنوم. "حسناً، أستسلم. دعيني أمضي الليلة هنا، أعدك بأنني لن ألمسك، سأغادر غداً قبل أن تستفيقي، أشعر بالتعب الشديد وأحتاج للراحة قبل أن أتمكّن من القيادة مجدداً في طريق العودة". نظرت إليه لوقتٍ طويل، ثمّ هزّت برأسها. فهو يستطيع أن ينام في غرفة كزافييه مرّة أخرى. وكانت ستوصد باب غرفتها لإبقاء نفسها بعيدة عنه. وسألته بتهذيب وهي تضع الجرو من يديها: "أتريد أن تأكل شيئاً؟".

– "ألديك بعض المثلجات؟".

– "أعتقد ذلك، فلقد اشترينا الكثير الأسبوع الماضي وأنا لا أتناول منها".

– "يجدر بك ذلك، ستجعلك أفضل حالاً". واعتقد بأنّها نحيلة للغاية، وبدت بأنّها قد فقدت بعض الوزن خلال الأسبوع، وتمنّى أن يكون حزنها عليه هو السبّب.

تبعها إلى المطبخ وكذلك سار سوكس وراءهما، ثمّ تبوّل على أرض المطبخ. نظّف ليام الفوضى بينما كانت ساشا تسكب له المثلّجات بنكهة الشوكولاته والقهوة. وسألته: "أتريد شيئاً آخر؟" فهزّ برأسه وجلس إلى طاولة المطبخ ولم يتفوّه بكلمة. لم يبقَ بينهما أيّ كلام يقولانه، فقد قالا كلّ شيء. ولم تمرّ هي بتجربةٍ محبطة كما يحصل الآن باستثناء وفاة زوجها منذ ستّة عشر شهراً. وجلست ساشا بصمتٍ تشاهده يأكل، وعندما انتهى نهضت قائلةً: "سأخلد للنوم، يمكنك البقاء في غرفة الجلوس إن أردت، وتعرف أين هي غرفة كزافييه".

– "شكراً، أنا متعبٌ، سأصعد إلى الغرفة". وتبعها، ثمّ تركته يصعد السلالم واستطاعت أن تسمع وقع خطواته وهو يتّجه إلى الطابق العلويّ ويقفل باب غرفة نوم كزافييه.

دخلت لتستحمّ وأخذت الجرو معها، لم تقفل باب غرفتها لأنّها عرفت أنّها ليست بحاجةٍ لذلك. فقد فهم ليام في النهاية، وسيغادر مع طلوع الفجر، وستُسدل الستارة على كامل مشهد البؤس المليء بالرغبات والتهوّر والعذاب. وبالكاد استطاعت انتظار رحيله نهائيّاً.

كانت تقف في الحمّام تغسل أسنانها وهي مرتدية ثياب النوم عندما نظرت في المرآة ورأت ليام. لم تسمعه يدخل أمّا الجرو فبدا سعيداً ومتحمّساً عندما رآه بعكس ساشا التي ظهر الحزن على وجهها.

– "أعرف ساشا، أريد فقط أن أمضي الليلة معك. ليلة أخيرة واحدة، أريد أن أضمّك بين ذراعيّ، أعدك بأنني لن أقوم بأيّ عملٍ لا تريدينه". ولكن

المشكلة أنّها كانت ترغب به أكثر ممّا أرادها هو، وهنا تكمن كلّ المشكلة منذ البداية. بدأت تهزّ رأسها والتقت عيناهما في المرآة وبدت الدموع في عينيه وعينيها هي أيضاً. وبدون أيّ صوت، تركت فرشاة الأسنان من يدها وفتحت ذراعيها لتضمّه. أرادت أن تقضي ليلةً أخيرةً معه هي أيضاً، أرادت أن تعانقه وتشعر به قريباً منها قبل أن ينفصلا لخيرهما معاً. لن تأتي هذه اللحظات مجدّداً وعلم كلاهما هذا. هزّت رأسها بصمتٍ بينما تساقطت الدموع على خدّيها، فهمس ليام قائلاً: "لا بأس حبيبتي، لا بأس... سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام... أعدك..".

– "لا لن تكون الأمور كذلك"، علما ذلك منذ البداية، ولكن مجرّد التواجد معه أشعرها بالسعادة. وبعد لحظاتٍ، تعانقا في السرير في الغرفة الباردة بينما كان الجرو ينام في السرير المخصّص له في حمّام ساشا. أطفأ ليام النور، وضمّ كلّ منهما الآخر بدون أن يتكلّما. كانت ترتدي ثياب النوم أمّا ليام فكان يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً رياضيّاً وجوارب، فقد اشترى زوجاً آخر من أجلها.

– "أحبّك"، همس في أذنيها وهو يحتضنها.

– "وأنا أيضاً"، قالت بحزنٍ، "أتمنّى لو أنّ الأمور كانت مختلفة". تمنّت لو أنّها أصغر سنّاً، أو شخصاً آخر لتتمكّن من الشعور بالارتياح معه. لم تحبّه كما أحبّت آرثر، ولكنّها انجذبت إليه بشدّة وشعرت بأنّها متعلّقة به. كان هذا مختلفاً عن كلّ ما اختبرته في حياتها. لعلّه أكثر من الحبّ، إنّه الشغف. غير أنّه يشكّل خطراً عليها مهما كانت تسميته، ومقاومته تسبّب لها ألماً.

– "هذا كلّ ما نحتاجه الآن"، قال لها بهمسٍ ممتنّاً لوجوده قريباً منها يضمّها بين ذراعيه في سريرها. كان هذا أكثر ممّا كان يتمنّى عندما قاد سيارته من لندن متّجهاً إلى باريس. إذ شعر حينها بالخوف من ألاّ تفتح له الباب، ولكنّه فرح عندما فعلت. "كيف سأعيش من دونك ساشا؟" لم تجب عن سؤاله ولكنّها فكّرت في الأمر نفسه. نجحا في ذلك حتّى الآن، وعليهما أن

يتحمّلا فيما بعد، وكانت تلك الليلة كلّ ما يملكان. كان يتوق لممارسة الحبّ معها، ولكنّه لم يرد القيام بما يفسد تلك اللحظة. فضمّها قوياً إلى أن غفت.

أحسّت به في الصباح يتحرك بجانبها وكانت مستيقظة. علمت بأنّه سيغادر عندما يستفيق من النوم ولم يتحرك لوقتٍ طويلٍ مع دخول أشعّة الشمس الأولى إلى الغرفة.

– سألها "هل أنتِ مستيقظة؟" فهزّت برأسها، "أتريدين منّي أن أغادر الآن؟" كان كلّ جزءٍ منها يريده أن يبقى، ولكن عليها أن تتركه يذهب.

– "بعد دقيقة"، همست ثمّ اقتربت منه وضمّته بقوّةٍ إليها لدرجةٍ صعب عليها التنفّس، فقد كان التواجد معه يشبه الثمالة. وفيما احتضنته وتلاصق جسداهما شعرت بإثارته، وفجأةً بدأا يتبادلان القبل. وحصل الباقي تلقائياً بدون أن يفكّرا، أمّا هو فخشي أن يتوقّفا لأنّه عرف هذه المرّة بأنّها لن تسامحه أبداً ولن يراها مجدداً. فلقد نكس بوعده لها فلم يستطع منع نفسه من الرغبة بها أكثر. "أحبّك"، قالت بلطف، ثمّ ابتعدت عنه لتنظر إليه. كان وجهاهما ملتصقين بالوسادة، ولم يرَ في حياته امرأة تضاهيها جمالاً مهما بلغ سنّها. وأضافت قائلة: "ماذا سنفعل؟".

– "أنتِ قولي لي" والتقط أنفاسه.

– "لا أعرف... لا أريد أن أخسرك... لقد خسرت ما يكفي في حياتي". لم تستطع أن تجبر نفسها على تركه يرحل، أو على الأقلّ ليس الآن.

– "هل يمكنني البقاء بعد؟" فهزّت برأسها بينما عانقها وبعد قليلٍ كانا يمارسان الحبّ مجدداً. أمضيا طيلة اليوم في السرير ينامان لفترةٍ ثمّ يتعانقان ويمارسان الحبّ. وفي النهاية، أحضر الطعام للجرو وبعض المثلّجات لهما.

– "هل أصبحتُ مجنونة؟" سألته فيما أكلت المثلّجات بنكهة الشوكولاته وهي ممدّدة على السرير معه. كان هذا كلّ ما أرادته، أن تكون هناك معه يتناولان المثلّجات التي تسيل على ذقنها فيمسحها لها.

– "لم أكن يوماً سليم العقل أكثر من الآن، ولكنني لا أستطيع قول ذلك عنك".

– "وكأنني في حلم".

– "إن كان حلماً، فهو أجمل حلم رأيته أبداً". وابتسم لها بينما كان يقبّلها. أمضيا نهار الأحد بكامله في السرير، ثم استحمّا معاً واستعجلا في النزول إلى المطبخ لتناول العشاء. وعادا بعدها مسرعين إلى الغرفة كطفلين يهربان من أهلهما. ولكن لم يكن هناك من أحدٍ يهربان منه ولا من مكانٍ يختبئان فيه. وفي بعض الأحيان خلال العطلة، كانت ساشا ترتمي بين ذراعيه، فلم تكن تعلم ماذا سيفعلان الآن. كلّ ما كانت تعرفه أنّها تريد أن تكون معه مهما طال الأمر.

قاما بتحضير العشاء معاً، ثمّ تناولا الطعام، وضحكا، وتكلّما بسهولة، ولعبا مع الجرو، ونظّفا الأطباق، وهرعا إلى السرير مجدداً لممارسة الحبّ.

وبعد أن تمكّنت من التقاط أنفاسها، قالت له: "إنني كبيرةٌ على هذا".

– "وأنا أيضاً"، قال ضاحكاً، "أنت تفقدينني صوابي". فنظرت إليه قلقة.

– "متى ستعود؟".

– "ما رأيك بكلمة "أبداً"؟" أراد ممازحتها وسرّ كلاهما بالأمر. "ماذا لو أمضيت الأسبوع هنا؟" سيشكّل هذا تجربةً جيّدة لاختبار كيف سيتصرّفان في الحياة اليوميّة". لم تتوقّع منه ساشا أن يطلب هذا، ولكنّها أحبّت الفكرة.

– "أستطيع أن أقول للجميع في المعرض بأنّك أتيت لمقابلتهم، وستقيم معي كضيفٍ". علم بأنّ عليها أن تشرح الأمور للجميع، ولم يهتمّ لذلك ما دام الموضوع يلائمه.

– "تبدو الحجّة جيّدة، أو يمكنك ببساطة أن تقولي لهم بأنّني حبيبك وسنمضي طوال الأسبوع معاً". غضبت حين قال هذا فقبّلها وأضاف: "لا تقلقي، لن أقول أيّ شيءٍ يسبّب لك الإحراج".

– "من الأفضل ألا تفعل". أجابته بنبرةٍ محذّرة.

– "أعدك بذلك".

تمدّدا تلك الليلة جنباً إلى جنب على السرير وتعانقا. وشعرت ساشا بالحماسة لفكرة تمضية أسبوع معه. ففي الأمس فقط قطعت وعداً على نفسها بأن تتركه، ولكنّها خلال نهاية أسبوعٍ واحدةٍ قرّرت وضع حياتها على المحكّ والمخاطرة معه. لم تملك أيّ خيارٍ آخر الآن، أكان ذلك مستحيلاً أم لا. سيكتشفان هذا قريباً.

الفصل الثامن

بدت ساشا محترمةً أكثر من العادة عندما سارت برفقة ليام والجرو سوكس عبر الردهة المؤديّة إلى مكتبها صباح الاثنين. كان المعرض مقفلاً نهار الاثنين، غير أنّ المكاتب تفتح أبوابها ليتسنّى للجميع أن ينكبّوا على الأعمال الإداريّة. ارتدت ساشا سروالاً وقميصاً أسودَين، بينما أطلّ ليام بأسلوبه المعهود. فقد انتعل الجزمة العالية على غرار رعاة البقر، وارتدى سترةً من الجلد، وقميصاً أبيض، وسروال جينز، واعتمر قبّعة بايسبول. وكانا قد خطّطا للخروج بعد الظهر لابتياع بعض القمصان والملابس الداخليّة له لأنّه لم يحضر ما يكفيه للبقاء أسبوعاً كاملاً، إذ اعتقد بأنّه سيقضي عطلة نهاية الأسبوع وحسب.

عرّفته ساشا بجميع العاملين في المعرض. وبدا مرتاحاً ومرحاً واستمتع الجميع بلقائه. وكان قد أرسل لهم رقائق عرض عن لوحاته قبل أسبوع، وقال برنارد إنّهم كانوا يتوقون لعرض عمله، ثم تحدّثوا عن عرضه المنفرد الذي سيُقام في نيويورك مع نهاية العام. وفي هذه الأثناء، سيعرض فرعا باريس ونيويورك أعماله ممّا سيشكّل فرصةً ذهبيّةً له. أمّا أوجيني فكاد يُغمى عليها عندما رأته، وأخبرت ساشا فيما بعد بأنّها لم ترَ أبداً رجلاً بهذه الوسامة في حياتها. وهذا ما شعرت به ساشا، وكان ذلك أحد أسباب المشكلة التي تعيشها.

وفي تلك الليلة، وبعد أن مارسا الحب، تمدّد ليام على السرير مثل الأسد وأخذا يتحدّثان عن المعرض. فسألته: "إذاً ما رأيك؟" كانت مهتمّةً لمعرفة رأيه من وجهة نظره كفنّانٍ. وهي لا تحظى دائماً بفرصة الحصول على معلوماتٍ من فنّانٍ يقيّم المعرض. وكان هذا الأمر مهمّاً لعملها كوكيلة فنيّة، كما كانت

تحترم رأيه ورأيها الخاص أيضاً. فلطالما كانت نظرتها للأمور صائبة في ما يختصّ بالمعرض وبالفنّانين الذين تتعامل معهم.

– "ما رأيي؟" أجابها متعجّباً فيما لا يزال يلتقط أنفاسه ممّا فعلاه للتوّ، واندهش لأنّها تفكّر في الأعمال. "حسناً، لنرَ... كان هذا أفضل من الليلة الماضية... ولكنّه ليس بجودة هذا الصباح... ربما أنا متعبٌ... أعتقد بأنّ أفضل مرّةٍ كانت بعد ظهر الأحد عندما أخذنا حمّاماً معاً..." واستمرّ في فهرسة نشاطهما الجنسيّ. عندها قهقهت ساشا وقالت: "ليام توقّف! كنت أسألك عن المعرض والعاملين فيه".

أجابها: "هذا رائع لقد أحببتُ الجميع". وكان يفضّل ممارسة الحبّ معها على التحدّث في أمور العمل.

– "كن جدّياً ولو لمرّة"، قالت موبّخة، فلقد أحبّت مشاركة شؤونها المهنيّة معه، كما كانت تفعل مع آرثر.

– "جدّياً؟ بربّك، إذا استمرّت ممارسة الحب على هذا المنوال، سأنهار يوماً ما بين يديك وسيكون عليك إعادة إحيائي من جديد. فأنا أكبر ممّا أبدو عليه".

– "وأنا أيضاً"، قالت بنبرة نادمة.

– "لم أقم بذلك أبداً في حياتي بهذه الكثرة، بدأت أشعر وكأنّني أداة للجنس"، قال قلقاً، "فلنفكّر لبرهة في هذا، لعلّني أصبحت كذلك، أهذا ما أنا عليه برأيك؟" وبدا عليه الغضب للحظة.

– "لا تكن سخيفاً"، أجابته ساشا وهي مستلقية على الوسادة. ولكن كان عليها الاعتراف بأنّها تقضي أوقاتاً مسليّةً معه، أوقاتاً مسليّةً حقّاً.

– "أشعر بأنّني عبدٌ يُستخدم للجنس في جادة سانت أونوري، ربما عليّ الاتصال بالطوارئ لنجدتي".

– "أعتقد بأنّك تصبح إدماناً بالنسبة لي"، سلّمت أخيراً بالأمر، غير أنّها

كانت تعيش معه أوقاتاً مسليّةً ومرحةً لتفكّر الآن بقلقها، فقد وضعت كلّ مخاوفها جانباً في ذلك الأسبوع، واستمتعت بوجوده إلى جانبها يومياً.

– "ربما علينا الذهاب إلى مجموعةٍ للنشاطات الجنسيّة. ولكن لِمَ نفسد متعتنا بحقّ السماء؟" هتف ضاحكاً.

– "بالضبط، أنت محقّ"، وانحنت عليه تقبّله. لم يستطع أحدٌ منهما تصديق ذلك، ولكنّهما مارسا الحبّ مجدّداً قبل أن يخلدا للنوم، وهكذا فعلاً في صباح اليوم التالي قبل التوجّه إلى المكتب. وشعرت بأنّها فتاةٌ غير ناضجة ومتهوّرة، وحاولت عدم إظهار ذلك عندما دخلت إلى العمل.

وصل ليام بعدها بفترةٍ وجيزة، واستمتع برؤية المعرض مفتوحاً. وفرحت ساشا عندما علمت بأنّ برنارد دعا ليام لتناول الغداء، وبدا بأنّ الجميع يحبّه وهذا يعني الكثير في النهاية. فلقد كانت تشعر بالقلق من ألاّ يتكيّف مع جوّ حياتها، ولكنّه نجح في ذلك حتّى الآن.

وأمضى ليام بقيّة الأسبوع متجوّلاً في باريس يلتقي بعض الفنّانين أصدقائه في ماراي، وبذلت ساشا ما بوسعها للتخفيف من أعباء عملها لتستطيع قضاء المزيد من الوقت معه. ولكنّها أجبرت في بعض الأحيان على لقاء الزبائن الذين توقّعوا رؤيتها، وابتياع اللوحات من المعرض. وفي نهاية الأسبوع، دخل ليام إلى أحد تلك الاجتماعات، وكان كالعادة يرتدي قميصاً وسترةً جلديّة وسروال جينز وقبّعة، بالإضافة إلى الجزمة العالية والجوارب والملابس الداخليّة التي لم يعرف أحدٌ بشأنها سوى ساشا. فقد قرّر أن يكون لائقاً ومتحضّراً خلال هذا الأسبوع. وعندما دخل نظر إليها، فعرّفته بالزبائن الذين تجتمع بهم. ولم يتردّد في مقاطعتها الأمر الذي أزعجها. فتجهّم وجهها وشعرت ببعض الغضب عندما انحنى وقبّلها على شفتيها ممّا أثار غيظها. وكان زبائنها في العقد السابع، الزوجة أميرةٌ إيطاليّة والزوج مدير مصرف فرنسيٌ عريق. ولم يبدُ الزبونان أكثر تحفّظاً وتقليدية منها، فقد ارتدت ساشا بزّةً من تصميم شانيل ووضعت عقداً من اللؤلؤ، وبدت توازيهما احتراماً

ووقاراً في مظهرها. أمّا ليام فكان يشبه جايمس دين أحد ممثّلي هوليوود بشعره الأشقر الطويل. قدّمته ساشا لهما على أنّه أحد فنّاني المعرض، ثمّ أثار عصبيّتها عندما جلس من دون أيّ دعوة لتناول الشاي معهم، وبعدها بدّل رأيه، وسكب لنفسه كأساً وكأنّه تماماً في منزله أمام الزبونين اللذين لاحظا ذلك. وبدت الأميرة مصدومة وزوجها المصرفيّ منزعجاً. وكلّ ما أملته ساشا أن يعتقدا بأنّه فنّانٌ غريب الأطوار على الرغم من أنّ قيامه بتقبيلها على شفتيها أثار حفيظتهما وكان أمراً يصعب تبريره. كما أنّهما أرادا اهتمام ساشا الكامل بهما، فقد ابتاعا لوحتين تبلغ قيمة كلّ منهما نصف مليون دولار. ووقف ليام غير آبهٍ باللوحتين الموضوعتين على دعائم خشبيّة، وعلّق بأنّهما جميلتان ولكن ليستا مثيرتين. أرادت ساشا أن تقتله عندما قال هذا، وما إن رحلا حتّى استدارت نحوه مغتاظةً وقالت: "بماذا كنت تفكّر بحقّ السماء لتتفوّه بهذه السخافات؟ إنّها الطريقة التي أكسب بها عيشي، وهذان الشخصان اشتريا للتوّ لوحتين بمليون دولار نقداً، فلا يهتمّ أحدٌ إن كنت تعتقد بأنّ ما اشترياه مثيراً أو لا. كان بإمكانك على الأقلّ أن تتظاهر بأنّهما تعجبانك. ثمّ كيف تسمح لنفسك بالدخول هكذا وسط الإجتماع؟ هذا مكان عملي وليس غرفة نومي، هل فقدت عقلك؟" قام بالأمر الذي لطالما خشيت حدوثه، أحرجها أمام زبائن مهمّين، ولم يبدُ عليه في النهاية بأنّه ينوي الاعتذار. ويتعلّق هذا كلّه بقصّة التحكّم تلك، فهو لا يريد أن يملي أحدٌ عليه ما يفعل أو كيف يتصرّف، ولا وجود للحواجز والقواعد بالنسبة له.

أجابها غير مرتبك فيما نهض عن الأريكة في مكتبها: "لا أكذب أبداً في ما يخصّ الفنّ، ولديّ ما يخوّلني فعل هذا، كما أنني كنت مهذّباً، قلت لهما وحسب بأنّ اللوحتين ليستا مثيرتين. في الواقع، تبدوان خردةً بالنسبة لي وتعودان إلى حقبةٍ فظيعة من تاريخ ذلك الفنّان، فقد قام بأعمالٍ أفضل من قبل".

- "أنا أدرك ذلك تماماً ليام، ولكنّهما أرادا هاتين اللوحتين تحديداً فقمت

ببيعهما لهما. لقد استغرقني الأمر ثمانية أشهر للحصول عليهما من وكيلٍ فنيّ في هولندا، وكدت تفسد الصفقة. كما أنّك لا تستطيع الدخول هكذا، ثم تسكب لنفسك كأساً من الشراب بينما أجتمع بالزبائن. عليك إظهار بعض الاحترام".

- "وأنتِ أيضاً"، أجابها منزعجاً، "تظنّين بأنّك تتحكّمين بالعالم هنا، فهما ليسا أفضل منّي. ولا يمكنك إخفائي تحت السجّادة كالغبار لأنّ أحداً يحمل دفتر شيكاتٍ ضخم دخل للتوّ من الباب".

- "بل أستطيع ذلك، هكذا أكسب لقمة عيشي أنا وولداي. وإن كان عليك التواجد هنا بينما ألتقي بهؤلاء الزبائن، إذاً يجب عليك أن تجاريهم في كلّ شيءٍ كما أفعل".

- "فليذهبوا إلى الجحيم، لست لعبتك الصغيرة ساشا، ولا أعمل هنا. فإن كنت الرجل في حياتك، فعليك إظهار بعض الاحترام لي".

- "إذاً تحلَّ أنت أيضاً ببعض الاحترام، لقد بدوتَ غريباً لتدخل بهذه الطريقة إلى هنا، وتسكب لنفسك كأساً بينما هما يحتسيان الشاي".

- "هذا هراءٌ وأنتِ تعرفين ذلك، كلّ ما كان عليك إخبارهما به أنّني أحد فنّانيك، وهذا كلّ ما يجدر بهما معرفته. لست مستعداً للاستعراض هنا مرتدياً بزّةً رسميّةً، كما لست مستعداً لتناول الشاي لأنّك تبيعين لوحتين بغيضتين لا يجدر بك بيعهما بأيّ حال. وإن كان هذا ما أراداه، فثقّفيهما وجدي لهما لوحات أفضل، وليدفعا أكثر. ولكنّ هاتين اللوحتين خردة وتعرفين ذلك. أمّا بالنسبة لمظهري، فأنا أرتدي الجوارب والملابس الداخليّة ومن شأن هذا أن يكفيك. ولن أتجوّل هنا كقردٍ استعراضيّ مرتدياً زيّاً من أجلك".

- "لم يطلب أحدٌ منك أن تفعل هذا، أطلب منك وحسب، أن تكون مهذّباً مع زبائني، وأن تتصرّف بلباقةٍ واحترام. كان يمكنك أن تنتظر لتتناول الكأس بعد أن يرحلا. وليس من شأنك الدخول هكذا ومقاطعة الاجتماع، فلا أهتمّ بمدى استقلاليّتك، ولكنني لن أتساهل بهذا الخصوص".

– "مــن تظنّين نفسك؟" صرخ في وجهها، "أنتِ لستِ والدتي، ويمكنني فعـل ما أشاء، لا تستطيعين إملاء أوامرك عليّ. أحبّكِ ولكنّكِ لن تتحكّمي بي ساشا. لست أحد موظّفيك أو أولادك. في الواقع، لست واثقاً حتّى ما أنا بالنسبة لـك". كـان يتأجّج غضباً، بينما تكلّمت هي بهدوءٍ لأنّها لم تودّ أن تدخل في حربٍ معه. فهي تعلم بأنّ ذلك لن يقودهما سوى إلى الهزيمة. ولكنّها لن تسمح له بالتصرّف على هواه. وكان الفنّان غريب الأطوار في حالة تقلّبٍ تامة.

– "ليام، لقد قبّلتني، على شفتيّ أمام الزبائن، هذا غير لائقٍ على الإطلاق وتعلم ذلك"، قالت هذا بينما رمقها بنظراته عبر الغرفة.

– "لا تقولي لي ما هو الملائم!" صرخ مجدّداً في وجهها، "أنا أحبّك، كما أنّها لـم تكن سوى قبلة صغيرة ليس إلاّ. ماذا أعني لك، هل أنا لعبةٌ تريدين اللهـو بهـا؟ وإبقاءهـا في الخزانة؟" سألها وكأنّه قد تلقّى إهانةً. فلقد جرحت مـشاعره مـن خـلال انـتقاده وعرفت ذلك. غير أنّه يجب عليه تعلّم كيفيّة التصرّف، ولن يكون ذلك بالأمر السهل، تماماً كما خشيت. أحبّت التواجد معه بمفـردها، ولكنّها كانت تغضب من رؤيته يتجول في أرجاء المعرض يفعل ما يـشاء ويقـول مـا يخطر بباله. لم يكن يفكّر في بعض الأحيان، بل بدا من الواضح أنّه يعاني حساسيّة تجاه كلّ أنواع القواعد.

– "أنـتَ كبيـرٌ بمـا فـيه الكفاية لتكون لعبة"، أجابته متظاهرةً بتبسيط الأمور. وأراد قول شيء لها، وبدا الغضب عليه ثمّ انفجر ضاحكاً.

– "أنـتِ محقّة، أظنّ بأنني كبيرٌ بالنسبة لذلك، ولكنني أشعر أحياناً بأنني لعبة. كما أنّكِ رسميّةٌ وجدّيّة للغاية عندما تلتقين الزبائن. لمَ لا تسترخين؟ لعلّهم يفضّلون هذا".

– "ليسوا هذا النوع من الزبائن. أمّا الذين يشترون أعمال الفنّانين الجدد فهـم مخـتلفون لـيام. ولكن هؤلاء يتوقّعون منك أن تتصرّف بجدّيّة ورسميّة معهـم، وإذا فعلت العكس سيقصدون أحداً آخر للشراء. صدّقني، أنا أعمل في هذا المجال منذ ثلاثة وعشرين عاماً، كما رأيت والدي يقوم بذلك مذ كنتُ طفلةً

صغيرةً. أعرف تماماً ما أفعل، فهناك بعض القواعد المحدّدة لهذا الأمر".

– "أنـتِ وقـواعدك الـسخيفة"، همهم ولكنّه تخطّى الأمر بسرعة على عكسها هي. فقد أغضبها بدخوله عند اجتماعها مع الزبائن. وعرفت في قرارة نفـسها بأنّ هذا ليس بإشارةٍ جيّدةٍ للمستقبل. وعلى الرغم من انـزعاجها ذلك اليوم، اصطحبته تلك الليلة للعشاء في لو فولتير. الذي أصبح مطعمه المفضّل هـو أيـضاً لأنّـه لـم يكن من داعٍ للتأنّق في الملابس للذهاب إليه. فلقد كان باسـتطاعته ارتداء سرواله الجينـز، وسترته الجلديّة، وجزمته العالية مع أنّ بعـض الشخـصيّات الباريسيّة المهمّة تقصده أيضاً. وبعد احتساء زجاجةٍ من الـشراب الجيّد، شعر بحالٍ أفضل، ولكنّها كانت لا تزال متوتّرةً بسبب الجدال الذي دار بينهما ذلك الصباح. فقد شعر بقلّة الاحترام، أما هي فلقد انـزعجت مـن تصرّفه السيّئ فيما كانت تعمل. وأحسّت بأنّ عليه تعلّم القواعد الأساسيّة في حياتها سريعاً. وتوجّب على أحدهما التنازل وكان هو المعنيّ بالأمر، وإلا سيؤدّي بهما الأمر إلى الانفصال سريعاً. استغرقت طوال الأمسية لتهدأ، ومع طلوع النهار كانت مرتاحةً أكثر.

جرى كلّ شيءٍ بهدوءٍ بينهما بقيّة الأسبوع. وعلّق برنارد أمام ساشا أنّه يـبدو بأنّ ليام سيبقى لفترةٍ أطول في باريس، ولكنّها لم تظنّ بأنّه يشكّ في أيّ شـيءٍ. وأخبـرته بـأنّ ليام لا يستطيع تحمّل تكاليف الإقامة في فندقٍ، وهو يستعمل غرفة كزافييه الأمر الذي أقنع برنارد. ولكنها عرفت أنّه في حال بقي لوقتٍ أطول معها، عاجلاً أم آجلاً سيكتشف سرّهما.

أمـضيا نهاية أسبوعٍ مرحة ومسليّة. فذهبا إلى السينما وتناولا الغداء في براسـري ليب نهار الأحد، ثمّ احتسيا القهوة في دو ماغو. وحاولت اصطحابه إلـى ملهى الريتز، ولكنّها عرفت بأنّهم لن يسمحوا له بالدخول مرتدياً سرواله الجينـز، إلاّ إن كان ينـزل في الفندق الأمر الذي كان سخيفاً بالنسبة لليام. إذ كان لديهم قواعد بهذا الشأن خلافاً لليام الذي لم تتعلّق قواعده سوى بأن يكون محتـرماً ولطيفاً ومحبّاً، وليس بالتصرّف وكيفيّة السلوك بلباقةٍ. كان يظهر لها

الكثير من الحبّ، ولم تشكّ للحظة بأنّها تحبّه، ولكنّها كانت دائماً قلقة من أن يقوم بما يُظهر وضعهما للعلن، ولم تكن مستعدّةً لذلك بعد. وقد شكّل سماحها له بالإقامة معها في باريس لمدّة أسبوعٍ، والتجوّل قرب مكتبها خطوةً كبيرةً بالنسبة لها. ولم ترد الذهاب إلى أبعد من ذلك، على الأقلّ الآن أو ربما إلى الأبد.

كانا مستلقيين في السرير ليلة الأحد عندما سألها ليام عمّ ستفعله في اليوم التالي. وشكّل هذا أوّل إشارة بأنّه لا يخطّط للمغادرة حسب الموعد المتّفق عليه. لم تهتمّ للأمر لأنّها أحبّت التواجد بقربه، غير أنّها كانت تدرك بأنّ بقاءه معها لفترةٍ أطول سيستوجب المزيد من التبرير في المعرض إن لم يكن في مكانٍ آخر. فموظفوها كانوا الوحيدين الذين يعرفون بأمر إقامته معها. واقترح بأن يتناولا العشاء في اليوم التالي مع بعض أصدقائه في ماراي.

– "أهذا يعني بأنّك ستبقى؟".

فهزّ برأسه وابتسم لها قائلاً: "نعم، إن كان ذلك يناسبك".

تردّدت لبرهةٍ وفكّرت في حجم المخاطرة بذلك، ثمّ ابتسمت له. فقد أحبّت سكنه معها وستجد تفسيراً لهذا. "نعم، يناسبني ذلك".

ولكنّها تردّدت بشأن لقاء أصدقائه الفنّانين، وتخوّفت من أن يعرفها أحدٌ منهم، ثمّ تذكّرت بأنّ لديها ارتباطات أخرى. وعندما أخبرته شعر ببعض الخيبة وجُرحت مشاعره. فقبّلته وشرحت له بأنّها ستذهب إلى عشاءٍ رسميٍّ يقيمه زبائن مهمّون اشتروا منها لوحةً لمونيه في الصيف الفائت، وبأنّها قد قبلت تلبية الدعوة قبل عدّة أسابيع. ولم تكن مستعدّةً لخوض تجربة اصطحابه معها إلى عشاءٍ رسميٍّ في منزل أحد أهمّ الزبائن، فقال بأنّه يتفهّم ذلك مع أنّه أظهر بعض الانزعاج. كلّ ما قالته بأنّه لم يكن مسموحاً لها اصطحاب ضيفٍ معها.

فقال لها بنبرةٍ عالية تجاهلتها كليّاً: "إذاً قولي لهم بأنّك لن تذهبي".

– "ليام لا أستطيع فعل ذلك، إنّهم أهمّ زبائني". وكانت جدّيةً بهذا الشأن.

– "وما أنا؟".

– "أنت الرجل الذي أحبّ، ولكن لا تجعل من ذلك مسرحيّةً، إننا نتكلّم هنا عن عملي".

– "وهل كنتِ لتصطحبي أرثر لو كان حيّاً؟" سألها بفظاظةٍ. كلاهما يعلم بأنّها كانت ستفعل، ولكن الوضع مختلفٌ الآن، فأرثر استطاع الذهاب إلى أيّ مكانٍ وقام بذلك. غير أنّ ليام لا يمكنه ولم يُرد الانخراط في اللعبة. كان أرثر يتصرّف كرجلٍ راشدٍ وناضجٍ بخلاف ليام.

– "هذا ليس عدلاً"، قالت والحزن بادٍ في عينيها، "كنّا متزوّجين، وكان أرثر لائقاً وتقليديّاً تماماً كزبائني. كان مصرفيّاً بحقّ السماء".

– "وأنا شابٌ تافهٌ أليس كذلك؟" وأضاف شيئاً من الغضب على نبرته.

– "كلا"، قالت بهدوء، "أنت فنّانٌ غريب الأطوار أتذكر؟ هذا ما قلته لي. كما أنّك لا تريد أن يتحكّم بك أحدٌ. إن كان بإمكانك ارتداء بزّة رسميّة وأن تكون لائقاً وتتصرّف كمصرفيٍّ محترم، تستطيع مرافقتي إلى أيّ مكانٍ تريده".

سيشكّل هذا الأمر تنازلاً كبيراً من جانبه، ولكنّه لم يكن يريد تقديم أيّ تنازلات، بل أراد الحريّة والتصرّف كما يريد وأينما وُجد، معها أو من دونها.

أجاب بغضب: "عليهم تقبّلي كما أنا، وأنتِ أيضاً".

– "أنا أفعل ذلك، ولكن ليس هم. وإن أردتَ مرافقتي إلى هذه الأمكنة، عليك أن تلعب لعبتهم، فهذا ما أفعله أنا. إنّها قواعدي الأساسيّة لتلبية هذه الدعوات. غير أنّني لا أستطيع اصطحابك معي هذه المرّة لأنّ الدعوة محدّدة. ولكن إن كنتَ جديّاً بهذا الخصوص، يمكننا شراء بزّة رسميّة لك، ويمكنك مرافقتي في المرّة المقبلة إلى عشاءٍ آخر، هذا إن أردتَ التصرّف وفق قواعدهم. هذا هو الاتفاق".

– "تبّاً لهم"، قال فجأةً بغضبٍ شديدٍ، "من يظنّون أنفسهم؟ أنا أفضل منهم. سمعت ذلك الهراء من والدي عندما كنت صغيراً، ولن أشترك بهذه اللعبة من أجل أحدٍ وليس حتّى من أجلك أنتِ ساشا".

- "لست مضطراً لذلك"، ردّت بهدوءٍ، "ليس عليك الذهاب إلى أيٍّ من تلك المناسبات الرسميّة التي أقوم بها، ولكن إن أردتَ ذلك، عليك التقيّد بالقواعد، هكذا تسير الأمور".

- "ومن وضع تلك القواعد؟ أهو أحد المغرورين المتباهين الذين يرتدون بزّاتٍ رسميّة؟ لمَ عليّ التصرّف والارتداء مثله؟ لماذا لا يمكنني أن أكون على طبيعتي؟".

- "لأنّ هؤلاء المغرورين المتعجرفين يملكون كلّ المال والسلطة، وهم الذين يضعون القواعد. فمن لديه الذهب يحكم. وإن أردتَ الخروج إلى هذا العالم، عليك أن تكون متحضّراً ومتقيّداً بقواعدهم".

- "إن كنتِ تحبّينني فعلاً وتفتخرين بي، لكنتِ اصطحبتني معك في كلّ الأحوال". كان طفلاً مليئاً بالتمرّد، أمّا هي فشعرت بقلبها يخفق بقوّة، فلقد كانت خائفةً من أن تبلغ الأمور هذا الحدّ وحدث ذلك بسرعة. وشكّل هذا الخلاف الثاني الذي يمرّان به في أقلّ من أسبوع، وأثبت مخاوفها بأنّ علاقتهما لن تنجح. أحبّت فيه بعض الأمور كلطفه، ودفئه، وعاطفته تجاهها، وحسّه الفكاهي، وذكائه، وموهبته، ومدى إثارته في الحبّ. ولكن طبعه الحاد وعدم نضجه لم يكونا بالتأكيد على هذه اللائحة.

- "أحبّك فعلاً، وأنا فخورةٌ بك، ولكنني لن أصطحبك معي إلى هذا العالم إن كنتَ ستجعل منّي أو من نفسك أضحوكة. لأنك إن أردتَ التصرّف كما يحلو لك ستجعل منّا أضحوكة الجميع".

- "ما الأهمّ بالنسبة لك ساشا؟ أنا أم هم؟".

- "كلاكما مهمّين بالنسبة لي. فأنا أحبّك، ولكنني أعيش في هذا العالم، وهذا ما أنا عليه ولقد قلت لك ذلك منذ أن التقينا. وهذا هو الحاجز الذي سيفصل بيننا دائماً إلاّ إن أردتَ التخلّي عن كونك فنّاناً غريب الأطوار، والانخراط في عالمي كرجلٍ محترم. أمّا إذا رغبتَ بالاستمرار بلعب دور الفنّان هذا، أو دور الشاب المتهوّر الذي لا يمكن ترويضه أو التحكّم به، فعليك

أن تتركني أذهب إلى ذلك العالم بمفردي. هذا سهلٌ للغاية. الخيار بيدك".

- "هذا أنا، ولن أبدّل أيّ شيءٍ أو أتوسّل الآخرين من أجلهم أو من أجلك أنتِ أيضاً".

- "لديك كلّ الحقّ في اتخاذ هذا القرار، ولكنّك لا تملك الحقّ في إجبارهم على تقبّلك إن لم تُرد التصرّف بحسب قوانينهم أو قوانيني".

- "أنتِ تفكّرين بنفسك فقط أليس كذلك؟ لا يتعلّق الأمر بهم، تريدين منّي أن أتظاهر بأنني أرثر. حسناً أنا لست أرثر بل أنا نفسي".

- "لا يتعلّق الأمر بأرثر أبداً"، قالت له وهي تطبق على أسنانها بشدّة، "لمَ لا تخرج غداً لتناول العشاء مع أصدقائك؟ سأذهب إلى العشاء الرسميّ وأغادر باكراً لأوافيك في ماراي".

- "ماذا، وتأتين إلى حيّ الفقراء؟ ستترك الليديّ عالمها الفخم وتلاقي حبيبها في الأحياء الفقيرة؟ لست جيّداً بما يكفي لتصطحبيني معك، إذاً سأعود إلى لندن غداً". كانت هذه خطّته في الأساس؛ بأن يغادر، وقد شكّل عرضه بالبقاء لمزيدٍ من الوقت مفاجأةً لها.

- "يعود هذا لك"، قالت بهدوءٍ، "أنا أقوم بما في وسعي ليام. سيسبّب هذا الألم لكلينا، لقد عرفنا منذ البداية".

- "نعم هذا صحيح، ولكنني لم أدرك بأنني سأكون المتضرّر. كم من الإذلال تتوقّعين منّي أن أتحمّل؟ فأنت تملين عليّ كيف أتصرّف في المعرض، وما لا يجدر بي فعله لئلا أزعج الزبائن، كما عليّ الاختباء دوماً، وعدم تقبيلك وعدم تناول الشراب. وتريدينني أن أرتدي البزّة الرسميّة وأن أتصرّف كلورد أو أمير من عائلةٍ عريقة في حال أردت مرافقتك إلى أيّة دعوة. أنا فنّانٌ ساشا، لست قرداً استعراضيّاً أو مصرفيّاً ولن أسمح لك بإخراجي من محيطي".

- "لا أحاول إخراجك من محيطك، بل نحن نعيش في عالمَين مختلفَين وهذا مقدّر حصوله. سيكون علينا التعامل مع الأمر ببعض التفهّم والمرونة إذا أردنا إنجاح علاقتنا". لم يكن أيٌّ منهما يعلم إن كانت ستنجح، ولكن بدا الأمر

يصبح صعباً وخاصة إن أراد الإصرار على لعب دور الفنّان الغريب الأطوار باستمرار، والذهاب معها حيثما كان. كلّ ما في الأمر بأنّهما لا ينسجمان وهذا ما حذّرته منه منذ البداية، والآن وصلا إلى حائطٍ مسدود.

- "قلت لك إنّني لن أسمح لك بالتحكّم بحياتي، سأعود غداً إلى لندن، وعندما تتوضّح أولويّاتك اتصلي بي". أرادت أن تصرخ وهي تسمعه يقول ذلك.

- "لا يتعلّق الأمر بالأولويّات ليام"، أجابته بنبرةٍ يائسة وهي تحاول ألا تفقد رباطة جاشها، فقد أحبطها تفكيره على طريقته كولدٍ مدلّلٍ غاضب. "يتعلّق الأمر بالتقيّد بالقواعد، والعيش في عالمَين مختلفين. الأمر أشبه بالدخول إلى النادي، فإذا أردت الانضمام إليه عليك اتّباع قواعده".

- "لن أفعل ذلك مطلقاً ساشا. أبداً. فلو أردتُ ذلك لكنتُ ما زلت أعيش في كاليفورنيا مع والدي، ولكنت حصلت على ما قد يتركه لي. لن آخذ أيّ شيء من أحدٍ بعد الآن وبالتأكيد ليس منك. إن أردتني أن أكون في حياتك، خذيني ولكن لا تقولي لي كيف أتصرّف وفقاً للقوانين. إن كنت تحبّينني فعلاً، فليس هناك من قواعد، ولا يجدر بها أن تكون بيننا".

- "القواعد موجودةٌ دائماً"، قالت بحزنٍ، "وعليّ اللعب وفقاً لهذه القواعد أنا أيضاً ولا أستطيع التصرّف كما أريد، فلا يمكنني أن أرتدي سروال جينز أزرق غداً، أو انتعال جزمة كرعاة البقر، أو وضع قبّعة رياضيّة. عليّ أن أرتدي وفق أسلوبهم مع شعرٍ مرفوع وثوب رسميّ. عليّ أن أبدو لائقة مثلهم وأنا كذلك في الأساس لأنني أؤمن بقواعدهم، فهذا ما يُبقي الأمور متحضّرة".

- "لا أريد أن أكون متحضّراً بحقّ السماء! أريد أن أكون أنا. أريد أن ألقى الاحترام والقبول بسبب شخصيّتي كيفما أردت التصرّف، وليس لأنني أتظاهر بأنني إنسانٌ آخر لأسعى وراءهم. لن أسعى وراء أحدٍ أبداً مجدداً". كان من الواضح أنّ نقاشهما يقوم بإحياء ذكرياتٍ من طفولته، فحتّى هي لاحظت بأنّ غضبه منها قد تخطّى كلّ الحدود. ولم يستمع لأحدٍ إلاّ لنفسه بينما

كان يصرخ، ولم يكن أيّ مما تقوله يعني له شيئاً أو يجعله يهدأ، بل كان يزيده غضباً وحدّةً أكثر. وشعرت باليأس التام فيما استمعت إليه وكأنّه قد فقد كليّاً السيطرة على نفسه.

- "لا أطلب منك أن تسعى وراء أحدٍ ليام، ولا أن تشارك في المبارزة والبقاء في عالمك الخاص أو في عالمنا الصغير الخصوصيّ الذي أرتاح فيه أنا أيضاً. غير أنّك إذا رغبت بتخطّي حدود عالمك والذهاب معي إلى عالم الجهة الأخرى، فعليك التقيّد بقواعدهم".

- "فليذهبوا إلى الجحيم هم وقواعدهم. وأنت أيضاً ساشا. إن لم تكوني فخورةً بي، وإن كنتِ تخجلين لأنني أصغر منك سنّاً، ولا تحترمينني لشخصي إذا فلا أريد أن أكون معك. ولا أريد التواجد هنا، سأعود غداً إلى منزلي. يمكنك الاتصال بي عندما تعودين إلى رشدك".

- "بأيّ خصوص؟ حول أيّ أمرٍ يجب أن أعود إلى رشدي؟ ماذا تريد منّي؟".

وشعرت بالدوران لأنّ بعضاً ممّا قاله لم يكن عقلانيّاً ولم يكن ذا معنى. كما أنّه لم يأتِ بأيّ جديدٍ بهذا الشأن، فلقد علم منذ البداية من هي وما هو موقعها. وشكّل هذا الأمر أحد مخاوفها الأساسيّة إلى جانب هاجس العمر الذي لم يكن بخطورة عامل تصرّفه غير الناضج وافتقاره لأيّ حدودٍ. فلقد كان يتصرّف كطفلٍ في الخامسة من عمره.

- "إمّا أن تصطحبيني معك إلى ذلك العالم كما أنا ولا تحاولي تركي في المنزل كما لو كنت أداةً أو لعبة استأجرتها لليل فقط، أو سأخرج من هنا في الحال. لن أسمح بأن أُترك في المنزل كالخردة أو النفايات. ولن أسمح لأحدٍ بأن يقول لي كيف أتصرّف". وراح يصرخ بغضبٍ وعنفٍ في وجهها، وهي تحبس الدموع في عينيها. أرادته أن يكون أفضل مما هو عليه، ورغبت بأن تنجح علاقتهما، ولكن يبدو بأنّ ذلك مستحيل مع كلّ هذا.

فأجابته فجأةً بغضبٍ شديدٍ يضاهي غضبه: "إذاً اتّخذ أنت القرار بنفسك،

وتوقّف عن التصرّف كطفلٍ لا يريد الاستحمام أو ارتداء الثياب، ويرمي بطعامه على الأرض كلّما أراد. إن أردت النزول إلى غرفة الطعام وتناول العشاء مع الراشدين، فكن واحداً منهم، هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر بالله عليك. لا يمكنك لعب دور الفنّان غريب الأطوار إلى الأبد إلاّ إذا أردت التسكّع مع أولادٍ سيئي التصرّف مثلك. إن كان هذا ما تريد فعله فلا تتحبب لأنني لن أصطحبك أبداً معي. كنت أودّ ذلك بحقّ السماء، أريده بشدّة، ولكنني لن أعرّض نفسي للإحراج بينما تتصرّف بلامبالاة، وتحاول أن تثبت مدى سوء سلوكك. إن كنت تحبّني بهذا القدر ليام، إذاً انضج وتعلّم كيفيّة التصرّف لأنني لن أصطحب ولداً مدلّلاً وسيّئ السلوك معي. فكّر في الأمر، وعد إلى رشدك لأنني سبق وفعلت ذلك وأنا هنا معك الآن، فلتقرّر إمّا أن تستمرّ باتّفاقنا حتّى النهاية أو أن تذهب في سبيلك. يتطلّب الأمر أكثر من الحبّ والإثارة للدخول إلى العالم. وفي مرحلةٍ ما علينا جميعاً أن ننضج سواء أعجبك ذلك أم لا. وربما هذا هو الوقت الملائم لتفعل ذلك، ولكي تقرّر. عُد إلى لندن إذا أردت، ومتى قرّرت أن تصبح ناضجاً اتّصل بي".

لم يتفوّها بأيّ كلامٍ آخر تلك الليلة. وللمرّة الأولى منذ قدومه إليها، نام كلٌّ منهما على جانبٍ من السرير، وتركا فسحةً واسعةً بينهما. شعر ليام بأنّه قد جُرح من قلّة وفائها ومن كلّ ما قالته. أمّا هي فكانت غاضبة من التمرّد الذي تصرّف به كولدٍ سيّئ السلوك. في الصباح استيقظ كلّ منهما بهدوءٍ، فاستحمّ ليام، وحلق ذقنه، وارتدى ملابسه، وقبل أن تغادر إلى مكتبها وضّب حقيبته، ووقف ينظر إليها في المدخل.

– "أحبك ساشا، ولكنني لن أدعك تتحكّمين بحياتي أو أن تملي عليّ ماذا أفعل. لديّ عزّة نفسٍ كبيرة ولن أسمح بهذا".

– "وأنا أيضاً أحبّك وأحترمك حقّاً"، قالت له بصدقٍ، "كفنّانٍ وكرجلٍ". مع أنّها لم تكن واثقةً إن كان يستحقّ الاحترام كوالدٍ، فلم تعرفه بما يكفي للحكم عليه بهذا الخصوص، كما أنّها لم تره أبداً مع أولاده. ولكنّها أحبّت أموراً كثيرةً فيه، وكانت تقع في غرامه أكثر فأكثر كلّ يومٍ. ولكن ليس بما يكفي لجعلها ترمي بكلّ حياتها من أجله، فقد كانت كبيرةً لفعل ذلك، كما أنّها أحبّت حياتها كما هي. "لا يتعلّق الأمر بالتحكّم بل بالاحترام المتبادل، إن كنت تكنّ لي الاحترام، ادخل إذاً إلى عالمي، وتصرّف وفق قواعده وكن رجلاً لائقاً. وإن لم ترغب بالقيام بذلك، فهذا من حقّك، لذا لا تتذمّر إذا قُمت بزيارة أناسٍ ينتمون إلى عالمي. لا يمكنك الحصول على الأمرين معاً، ولا يمكنك أن تردّد جملتك الشهيرة [أريد أن أفعل ما أشاء] في العالم الراقي ليام. أنت كبيرٌ كفاية على هذا فحتّى الأولاد لا يتصرّفون على هذا النحو".

– "لن أكون يوماً غير ما أنا عليه، ولو كنتِ تحبّينني لقبلتِ بي كما أنا، ولاصطحبتني معك أينما كان وكيفما كنت".

– "لا أستطيع، لا أستطيع فعل ذلك بنفسي، أو بأولادي، أو بسمعتي التي قضيت أعواماً في بنائها وتطويرها. لا يمكنني أن أدعك تجعل منّي أضحوكة أمام الناس ليام". وكانت تعلم أنّه سيفعل، فقد سمعت الكثير عن مغامراته المشهورة من كزافييه مع أنّها لم تره بنفسها يتصرّف هكذا. غير أنّ مشهد دخوله إلى اجتماعها مع الزبائن في المعرض كان كافياً بالنسبة لها، بالإضافة إلى الشجار العنيف اليوم. وبدأت تشعر بقلقٍ كبيرٍ. ثمّ تابعت قائلةً: "من الصعب بما فيه الكفاية أن أكبرك بعشرة أعوامٍ تقريباً، أعلم بأنّ هذا ليس كثيراً، ولكنّه كذلك بالنسبة لي مع تصرّفاتك وأفكارك. هذا صعبٌ للغاية وسيولّد الكثير من الأقاويل، فلا تطلب منّي أن أقودك إلى أرفع الأماكن، وأدعك تلعب دور الفنّان الغريب الأطوار علناً لكي تستطيع أن تثبت وجهة نظرك. لا يتعلّق الأمر بمدى الحبّ أو الاحترام أو بمن أكون. كنت تعلم منذ البداية ما أنا عليه وكيف أعيش، وقلت لي بأنّك تستطيع القيام بذلك بشكلٍ صحيحٍ وصدّقتك. ولكنّك الآن لا تريد منحي ذلك بل تودّ فعل ما تريد في عالمي ولا يمكنك هذا. كما لا يمكنني أنا أيضاً فعل الشيء نفسه في عالمك، لا أحد منّا يستطيع ذلك. علينا التصرّف جيّداً وبلوغ الهدف. أتمنّى أن تعود

لرشدك لأنني أحبك، وأريد أن أكون معك، وما تقوم به ليس عادلاً بالنسبة لي".
في الواقع، كانت خائفةً ممّا هو الأمر عليه سواء أكان حديثاً أو جدالاً. من هو هذا الرجل؟ ولماذا يشكّل هاجس الحريّة أمراً جوهرياً بالنسبة له على حسابها؟

– "أنا المُحتجَز هنا والذي لا يلقى الاحترام"، قال بنبرة استياء، "تريدين أن تسدّدي كلّ الرميات وتفوزي بها".

– "الرمية الوحيدة التي أريد تسديدها والفوز بها هي أن أراك تنضج، فإمّا أن تكون متحضراً أو تدعني أفعل ما يتوجّب عليّ فعله بينما تلعب مع أصدقائك. يمكنك أن تتمرّد قدر ما تشاء، ولكن إن كان هذا ما تريده، فلا تتوقّع منّي أن آخذك معي لتستعرض. إذا أردت التمرّد والغضب، لازم المنزل معي وقم بذلك هنا وليس في العلن".

– "لن أكون سرك القذر الصغير ساشا. إن كان هذا ما تريدينه، قومي إذاً بإيجاد رجلٍ آخر. فإمّا أن تصطحبيني معك وتظهري علاقتنا للعلن أو ينتهي كلّ ما بيننا".

– "أعتقد بأنّ الأمر انتهى إذاً الآن على الأقلّ. فكّر في ذلك ليام، أتمنّى أن تعود إلى رشدك عندما تغادر إلى لندن. وإن بدأت تفكّر على نحو صائب، اتّصل بي عندها". نظر إليها، ثمّ هزّ برأسه ولم يتوقّف عن تقبيلها أبداً. وحمل حقيبته ومشى مبتعداً عنها ثم أغلق الباب بقوّة.

وبعد أن رحل، جلست ساشا وفكّرت بكلّ ما جرى. كانت تحبّه ولكن ليس بالقدر الكافي لتقلب حياتها رأساً على عقب من أجله، ولكي تنسى من تكون. لعلّ الوقت تأخّر لكي تفعل ذلك من أجل أيٍّ كان وحتّى من أجل ليام. علمت بأنّها مغرمة به، ولكن ربما ليس بشكلٍ كافٍ.

الفصل التاسع

بعد رحيل ليام، بدت الأيام طويلةً. فلقد اعتادت على رفقته في الفترة القصيرة التي أمضاها معها، واعتادت أن تكون معه، وتأكل معه، وتمارس الحبّ معه. حتّى برنارد علّق على الأمر عندما غادر ليام وسألها إن كان لا يزال في الجوار. فقالت له ساشا بأنّه عاد إلى لندن.

وأضاف قائلاً: "إنّه فتى طيّب، ولكن لا بدّ أنّه كان من الصعب عليك استقباله لديك كلّ هذه المدّة".

أقام ليام معها لعشرة أيام، وأحبّت كلّ ما حصل بينهما خلال تلك الفترة باستثناء الأيام القليلة الأخيرة عندما بدأ يجادلها. كما انزعجت لسماع برنارد يدعوه "بالفتى"، فهذا أصل المشكلة التي تعيشها مع ليام. كان ولداً وليس رجلاً ناضجاً، كما أنّه تصرّف على هذا الأساس. ففي بعض الأحيان تصرّف بشيءٍ من اللياقة، وفي أوقاتٍ كثيرة بدا مراهقاً متمرّداً. لقد توقّعت منه أكثر من ذلك نسبةً إلى عمره الذي يناهز الأربعين، غير أنّه كان فعلاً يشبه بيتر بان. اعتقدت في البداية أنّ برنارد كان متهكّماً في تعليقاته، ثمّ أدركت بأنّه محقٌ في ما قاله عن ضيفها. لقد فكّر برنارد بأنّ ساشا متحرّرة جداً إلى حدّ أنّها سمحت له بالإقامة معها طوال تلك المدّة. وبدا بأنّ سرّهما الصغير ما زال بأمانٍ، ولم يخطر ببال برنارد أبداً أن تكون ساشا متورّطة في علاقةٍ مع ليام. وعلى كلّ حالٍ، يبدو بأنّ العلاقة انتهت الآن. جلست وانتظرت أن يرنّ الهاتف بعد أن غادر ليام إلى لندن، ولكنّه لم يرنّ أبداً. فليام لم يتّصل بها ولم تفعل هي أيضاً. وصلا إلى نفقٍ مسدودٍ بسبب طلباته السخيفة، وتصرّفاته الصبيانيّة. فهي لم تتوقّع أن تدوم علاقتهما إلى الأبد، ولكنّها أملت بأن تستمرّ لفترة أطول. ولم

تجد أيّ مبرّرٍ للاتصال به بعد أن أوضح كلّ الأمور بينهما. فإمّا أن تصطحبه معها إلى المناسبات في العالم الذي تنتمي إليه مهما كان مظهره وكيفما تصرّف أو ينتهي كلّ شيءٍ بينهما.

أمّا الشروط التي وضعها فكانت مستحيلةً بالنسبة إليها سواء أحبّته أو لا. ولم يكن لديها أيّ تنازلاتٍ تقدّمها من أجله غير ما قالته له قبل مغادرته باريس. ومع نهاية الشهر، لم تعد تنتظر الهاتف لكي يرنّ، فقد علمت بأنّه قد رحل إلى الأبد. وفكّر هو بالشيء نفسه بينما جلس في لندن ينتظر سماع أخبارٍ منها. دامت علاقتهما بضعة أسابيع بدلاً من أن تدوم لأعوام، ولكنّهما علما بأنّ سبيليهما متباعدان، وكانت محقّة منذ أن التقيا، هذا مستحيل. وذكّرت نفسها بأنّه من الأفضل أن تواجه الأمر عاجلاً أم آجلاً. وبينما انتظرت الاتصال الذي لم يردها أبداً، كانت تعيسةً، فعلى الرغم من الجانب الصبيانيّ فيه، رأت فيه شيئاً يجذبها، وشعرت بأنّها تفتقده بشدّة.

استغرقها الأمر شهرين لتعتاد على ابتعاده رغم أنّها ما زالت حزينة لاختفائه من حياتها. ولكنّها لم تستطع إخبار أحدٍ بذلك ليشاركها تعاستها. فلم يعرف أحدٌ بالأمر، ولم تجد حولها من يقدّم لها النصح أو يواسيها. ولم تستطع البكاء عليه أمام الآخرين أو التحدّث عنه أمامهم. عرفت بأنّ ذلك لن ينجح بأيّ حالٍ، فهو غير ناضجٍ ويصعب التعامل معه، ويتميّز بتفكيرٍ غير عقلانيّ، كما أنّه مصمّمٌ على عدم النضج أبداً. وأثبت لها كلّ ذلك عندما قام بثورة التمرّد تلك واختفى بعدها.

سافرت ساشا إلى نيويورك في شباط/فبراير، وآذار/مارس وكانت في الرحلتين تصادف عاصفةً ثلجيّة هناك. وكانت تاتيانا تحبّ عملها الجديد، كما كانت أعمال المعرض تسير على ما يرام. وخطّطت ساشا لزيارة كزافييه في لندن خلال نيسان/أبريل، ولكنّها كانت تستجمع قواها لمعرفتها بأنّ ليام سيكون قريباً في مكانٍ ما. وأملت ألاّ تراه مع كزافييه لأنها لا تستطيع إخبار كزافييه بأنّها تتجنّبه، وإلاّ سينكشف سرّهما.

وقبل أن تغادر ساشا إلى لندن بوقتٍ قليل، أخبرتها أوجيني بأنّهم استلموا بريداً الكترونيّاً من ليام يقول فيه إنّه أنهى عدداً من اللوحات الجديدة، وفكّر بأن تأتي ساشا لرؤيتها. واقترح بأن يرسل لها رقاقات العرض كالعادة، ولكنّه أراد من وكيلته المجيء لرؤيتها بالكامل. وأشار في البريد بأنّها أفضل أعماله على الإطلاق.

ثمّ تذكّرت أوجيني وهي تخبر ساشا عن البريد الالكتروني في نهاية يوم عملٍ طويل: "كما أنّه يرسل لك الأفضل، ويتمنّى أن تكوني على ما يرام". في الواقع، كانت ساشا على ما يرام بالفعل، فبعد شهرين من غياب أيّ خبرٍ عنه، شعرت بحالٍ أفضل ممّا كانت عليه في شباط/فبراير ولكنّها ما زالت غاضبة منه. وبدا لها من السخافة أن يرسل لها "الأفضل". أفضل ماذا؟ فلقد سبق وأظهر لها الأفضل والأسوأ فيه. ومع أنّها اعتقدت لوهلة بأنها قد تكون واقعةً بحبّه، غير أنّ طريقة سلوكه جعلتها غير واثقة من الأمر بعد أن قام بتلك التصرّفات الصبيانيّة أمامها. فلقد تعبت من الفنّانين المتساهلين مع أنفسهم، والمتحرّرين الذين لم يكونوا صغاراً في السنّ ولكنّهم يتظاهرون بذلك ويستمرّون بالتصرّف كالمراهقين. وبرأيها، مع بلوغه سنّ التاسعة والثلاثين، كان كبيراً بما يكفي ليتصرّف كما فعل عندما غادر باريس. ومع ذلك، شعرت بالحزن من عدم سماع أيّ أخبارٍ عنه منذ ذلك الحين، كما منعتها عزّة نفسها من الاتصال به.

أخبرت أوجيني بأنّها ذاهبةٌ إلى حفلة عشاءٍ في تلك الليلة. وبينما كانت ترتدي ملابسها، تذكّرت شجارها مع ليام. وكانت ستغادر إلى لندن في صباح اليوم التالي لرؤية كزافييه. ولم تعرف ماذا ستفعل بشأن ليام وبشأن رؤية عمله الجديد، فهي تمثّله، ولكنّها لم تكن على عجلة للقائه مجدداً، وخاصّةً أنّه سبّب لها وضعاً مربكاً بل في الواقع لهما معاً. وشعرت بالسعادة لأنّها لم تدخله إلى عالمها وإلاّ لكان غيابه الآن صعب التبرير.

وفي تلك الليلة، كانت ستذهب إلى حفل عشاء يقيمه السفير الأميركي في

باريس. وكان قد دعا إليه عدداً من الفنّانين والوكلاء الفنيّين المهمّين بالإضافة إلى كاتب أميركيّ كان في زيارة إلى باريس، كما أخبرها أحدهم بأنّ ممثّلاً مشهوراً سيلبّي الدعوة أيضاً. وكان هذا بمثابة جمعٍ متعدّد الألوان بالنسبة إليها، ولم تكن في مزاجٍ جيّدٍ لذلك. ولأسبابٍ لا يعرف أحدٌ بها غيرها وليام، بدت سريعة الغضب ومعكّرة المزاج مع الجميع خلال الشهرين الماضيين على الرغم من أنّها أصبحت أفضل مؤخراً.

ارتدت ثوباً أسود إلى حفلة العشاء في مقرّ السفير، أمّا شعرها فكان مرفوعاً كالعادة، وانتعلت حذاءً جديداً مثيراً مع أنّها تساءلت معظم الوقت لماذا تزعج نفسها بالتأنّق. فهي لم تواعد أحداً ولم تُرِد ذلك منذ قصّتها الموجزة والمشؤومة مع ليام. فلقد علمت منذ البداية أنّ علاقتهما جنونيّة، وشعرت بأنّها غبيّة لأنّها تركته يقنعها بالمحاولة. غير أنّها في بعض الأحيان كانت تفكّر في قرارة نفسها بأنّها أرادت ذلك، وأملت في أعماقها أن ينجح الأمر. ومن سوء الحظّ بأنّ ذلك لم يحدث، فعلى الرغم من أنّ ليام فنّانٌ موهوبٌ، إلاّ أنّه رجلٌ غير ناضج. ولم تتفاجأ لأنّ بيث تخلّت عنه، وأخذت الأولاد معها. فلا بدّ أنّ الزواج منه لعشرين عاماً كان بمثابة الكابوس بالنسبة إليها.

لقد أجبرت نفسها على إزالته من تفكيرها كما فعلت على مدى الشهرين الأخيرين، ومشت نحو مقرّ السفير في تلك الليلة. وباستثناء مغنّي الروك وممثّلين، كانت ساشا تعرف جميع الحاضرين، فباريس أصبحت بدون شكّ بلدة صغيرة على طريقتها الخاصة، وكذلك العالم كلّه هذه الأيام.

وعلى طاولة العشاء، جلست ساشا إلى جانب أحد الممثّلين الذي لم يهتمّ سوى بنفسه، ولم يكن لديه أيّ شيءٍ ليحدثها به. وكان مهتمّاً أكثر بالمرأة الجالسة إلى يمينه وهي متزوّجة من منتج أفلام في هوليوود، فانشغل في لفت انتباهها لمدّة ساعة. عندها التفتت ساشا بتهذيب إلى الرجل على يسارها. كانت متأكّدة بأنّها رأته في مكانٍ ما، ثمّ تذكّرت من هو. فقد كان يُلقّب بساحر بورصة وول ستريت وكان قد تقاعد الآن. ولقد عرّفها آرثر به في حفلةٍ أقامها

في منزلهما في هامبتونز. وذُهشت حين علمت بأنّه ما زال يذكرها.

وقالت له متأثّرة: "مضت حوالى عشرة أعوامٍ منذ أن التقينا". وكان تقريباً في سنّ آرثر الذي كان ليبلغ التاسعة والخمسين حالياً لو لم يمضِ على وفاته سنة ونصف.

- "تأثّرت جدّاً عندما التقينا، وزرت معرضك مرّات عديدة". ثم ابتسم لها ولاحظت بأنّه رجلٌ جذّابٌ، ولم تعد تتذكر إن كان أرملاً أو مطلّقاً، ولكن لا بدّ بأنّه تزوّج مجدّداً في هذه الحالة.

- "المعرض في نيويورك؟" سألته لمواصلة الحديث. فهي لم تكن مهتمّةً به ولكن بدا من السهل تبادل الحديث معه، على الأقلّ أكثر من الممثّل الجالس إلى يمينها، والذي تجاهلها بالكامل فلم يكن لديها ما تقدّمه له.

- "أتكلّم عن المعرض الموجود هنا"، شرح لها الرجل، "أنا أقيم هنا الآن". كان اسمه فيليب هينشاو وتساءلت ما الذي أتى به إلى باريس بعد أن تقاعد في سنٍّ مبكرة تماماً كما أراد آرثر. "ابنتاي تزوّجتا من رجلين فرنسيّين فانتقلت للعيش هنا. عندما توفيت زوجتي، قرّرت أخذ عطلة من نيويورك. وأنا أعيش هنا منذ خمسة أعوامٍ ويروقني هذا". ولاحظت ساشا لكنته الجنوبيّة، وبعد برهةٍ أخبرها بأنّه ولد في لويزيانا، وبأنّه قصد والسفير الجامعة ذاتها في فرجينيا. أمّا زوجة السفير فكانت من جورجيا. وتابع فيليب الكلام وأخبرها بأنّ لديه منزلاً في بروفينس وشقّة في لندن، وبأنّه يقصدهما مرّةً كلّ شهر.

- "أنا ذاهبة إلى لندن غداً لرؤية ابني وبعض الفنّانين"، قالت مبتسمةً.

- "وأنا أيضاً سأغادر إلى لندن"، وابتسم لها أيضاً ثمّ عبّر لها عن أسفه لسماعه بوفاة آرثر. "ليس من السهل أن تجدي نفسك بمفردك في هذا السنّ، وخاصة إن كان زواجك سعيداً".

وأثّر بها قوله فأجابته: "ولهذا السبب انتقلت مجدّداً إلى باريس لأنّ البقاء في نيويورك كان محبطاً بعد وفاة آرثر".

- "أما زلت تحتفظين بالمنزل في هامبتونز؟" وتذكّر هذا أيضاً.

فهزّت برأسها وقالت: "لم أعد أذهب أبداً إلى هناك، فمن الصعب التواجد في كل تلك الأماكن التي أحببناها". وتحدثنا عن نيويورك لبعض الوقت، واكتشفا أنهما يعرفان أشخاصاً مشتركين. وأزال التحدث معه عن حياتها الماضية من رأسها ليام الذي قام بإلهائها باستمرار على مدى الشهرين الماضيين. وشعرت بالغضب والخيبة من كيفيّة سير الأمور، ومن الطريقة التي انتهت بها علاقتهما بصمتٍ. والأسوأ من ذلك أنّه عليها الآن تخطّي المسألة، ولعب دور وكيلته وحسب. وتبيّن أنّ مجرّد التورّط معه أمر جنونيّ أكثر ممّا ظنّت. ولكنّها لم تكن محبطة كما عندما فقدت آرثر، بل أحسّت بالخيبة والحزن وبعض الفلسفة فحسب.

وفيما همّت بمغادرة مقرّ السفير، دُهشت عندما سألها فيليب هينشاو أن تتناول معه العشاء مساء اليوم التالي في لندن، وقالت في نفسها إنّها ربما تتمكّن من بيعه بعض اللوحات لمنازله.

وأجابته ساشا: "سيكون ذلك لطيفاً". واقترح عليها ماركس كلوب، وهو مطعمٌ أحبّته هي وآرثر، وكان يملكه الرجل نفسه الذي يملك حانة أنابيلز، وهاريز بار. ثمّ عرض عليها فيليب إيصالها إلى المنزل، ولكنها شكرته وقالت إنّها أتت برفقة السائق. فلم تكن تحبّ القيادة وحدها في الليل عندما كانت تتأنّق للذهاب إلى الحفلات. رافقها إلى سيّارتها، واتفقا على أن يقلّها من فندق كلاريدج عند السابعة من مساء اليوم التالي. فكّرت فيه في طريق العودة، لم يكن فيه ما يعجبها، ولكنّه على الأقلّ كان ذكيّاً ومهذّباً ومرحاً، واعتقدت أنّه من الجيّد تناول العشاء مع صديقٍ في لندن. ولم تعرف بخطط كزافييه، غير أنّها خطّطت لأن تمضي بعد الظهر برفقته، ولتناول العشاء معه في الليلة التالية إن كان غير مرتبطٍ بمواعيد أخرى. وكانت لا تزال تفكّر في ما ستفعله بشأن رؤية ليام. ربما لن تفعل شيئاً، أو لعلّها ستطلب من برنارد السفر إلى لندن للقائه مع أنّ مدير المعرض سيجد من الغرابة ألا تراه ساشا بنفسها، وخاصةً أنّه أمضى بضعة أيامٍ لديها عندما أتى إلى باريس. سيكون تبرير

الأمر مربكاً، ككلّ شيءٍ في وضعهما بفضل ليام.

استقلّت رحلة الساعة التاسعة في مطار لو بورجيه صباح اليوم التالي، ومع فارق التوقيت والرحلة القصيرة، وصلت إلى لندن بالتوقيت نفسه الذي غادرت فيه باريس، عند التاسعة صباحاً. وعند العاشرة والنصف، كانت ترتاح في جناحها المعتاد في فندق كلاريدج. كما اتّصلت بكزافييه واتفقا على اللقاء لتناول الغداء، ونظّمت مواعيدها لتلتقي اثنين من فنّانيها.

وصلت في تمام الساعة الواحدة لتناول الغداء مع ابنها في المطعم الذي اختاره. وفيما سارت إلى الباحة الخارجيّة حيث كان ينتظرها، فوجئت بأنّه أحضر ليام معه. غير أنّها شعرت بالراحة عندما رأت بأنّه يشعر بالارتباك مثلها أيضاً. وعلمت لاحقاً بأنّ ليام كان في محترف كزافييه طيلة فترة الصباح، ولم يجد ابنها أيّ عذرٍ لعدم اصطحابه معه لأنّ ساشا كانت وكيلته. كما أنّ كزافييه رغم حبّه لليام إلاّ أنّه أسف لعدم تمكّنه من قضاء بعض الوقت بمفرده مع أمّه، إذ كان يحبّ التحدّث إليها.

"مرحباً ليام"، قالت بحذرٍ بينما وقف لإلقاء التحيّة عليها. وشعرت ساشا بأنّ إرغامها على تناول الغداء معه كان بمثابة كابوسٍ. وكانت المرّة الأولى التي تلتقيه فيها بعد الشجار الحاد الذي جرى بينهما في منزلها في باريس. كان يرتدي كالعادة لباسه الغريب ولكن المثير، المؤلّف من القميص، والسترة الجلديّة، والقبّعة الرياضيّة، وهذه المرّة كان يرتدي سروالاً مبقّعاً بالألوان، وينتعل حذاءً رياضيّاً أحمر. وعلى الرغم من غضب ساشا منه، إلاّ أنّ عليها الاعتراف بأنّه يبدو وسيماً للغاية. ولاحظت أنّ شعره الأشقر كان أطول.

ثمّ التفت إليها وسألها مرتبكاً: "كيف حالك ساشا؟" فحتّى ذلك الحين، كان كزافييه يدير الحديث متعجّباً لوجود بعض الفتور بينهما، فقد اعتقد قبلاً بأنّهما صديقان وعلى علاقةٍ طيّبة مع أنّه تذكّر فجأةً بأنّ ليام لم يتكلّم عنها مؤخراً.

وسأل كزافييه في النهاية مبتسماً: "هل جرى تباعدٌ في وجهات النظر الفنيّة بينكما؟" فهو يعرفهما جيّداً، ويعرف مدى قوّة آرائهما وعنادهما. ولكن

الجوّ بينهما كان متوتّراً للغاية، ويصعب تطريته بواسطة الكلام.

– "نعم"، أجاب ليام وبدا عليه الغضب والحزن.

– وفي الوقت ذاته، قالت ساشا بتهذيب: "كلا، على الإطلاق".

فسألهما كزافييه: "حسناً، أيّ إجابة يجدر بي أن آخذ نعم أو لا؟" وضحك بينما تحرّك ليام مرتبكاً في مقعده، وبدت والدته باردة كالجليد.

– "لم تقبل باصطحابي معها إلى حفلةٍ في باريس عندما كنت أقيم عندها. واعتقد بأنّ هذا بغاية الفظاظة لأنني كنت ضيفها". كانت هذه الطريقة الوحيدة لشرح الأمـر، أمّا ساشا فأخذت تراقبه بصمتٍ إذ كان آخر ما أرادته هو أن يعلق كزافييه في الوسط بينهما، وخاصةً أنّه لا يعرف سوى نصف القصّة ولم تكن تنوي إخباره بالتتمّة. وفرحت لأن ليام على ما يبدو لم يخبر كزافييه أيضاً بمـا حصل بينهما، لأنّه من الواضح أنّ ابنها لا يعلم بالأمر بل كان في ظلام تام.

– "مـاذا كنتَ ترتدي عندما رفضت اصطحابك إلى الحفلة معها؟" سأله كـزافييه مـرتاحاً بيـنما رمق كلّ من الفنّان والوكيلة – أو الحبيبَين سابقاً – بعضهما بالنظرات. وبدا من الواضح أنّ ليام لا يزال ثائراً عليها.

– "لا أدري... ما أرتديه عادةً... وما الذي يحدث فرقاً في هذا؟" صرخ ليام في وجه كزافييه فيما نظرت ساشا إليهما بهدوءٍ.

– "يشكّل فـرقاً كبيـراً مع نوع الحفلات التي تذهب إليها. وإن أردت رأيي، لهذا السبب لم تصطحبك معها". وتحدث كزافييه كما لو كانت أمّه غير موجودة، في حين أنّ ساشا لم تتفوّه بكلمة. ثمّ تابع قائلاً: "لن تأخذني معها أنا أيضاً، فالأشخاص الذين تعرفهم متعجرفون ومملّون للغاية، آسف أمّي". ونظر إليها كمن يعتذر، فهزّت برأسها. قالت لليام الشيء نفسه منذ البداية.

– "هذا ما أخبرته به"، قالت ساشا مقاطعةً، "قلت له بأنّه لا يستطيع لعب دور الفـنّان الغـريب الأطوار أمام هؤلاء الأشخاص بالذات، فقال لي إنّني لا أستطيع التحكّم به".

– "لعلّـك لا تستطيعين"، أجاب كزافييه برقّةٍ ونظر إلى ليام. "وماذا عن الفنّان الغريب الأطوار؟ إذا أردت فعل ذلك، فلمَ تودّ الذهاب إلى تلك الحفلات؟ شخصياً، قد أدفع لها المال لئلاّ أذهب معها إلى هناك، أنا أكره تلك الأمكنة".

– "وأنا أيضاً، ولكنني لا أريد أن أُترك في المنـزل كولدٍ صغير، أو أن يملي أحدٌ عليّ كيف أتصرّف هناك".

– "وما همّك إن رفضت اصطحابك ليام؟ أنت أحد فنّانيها ولست زوجها. حتّـى والدي لم يحبّ الذهاب إلى تلك الحفلات، وكان يقول بأنّ معظم زبائن أمّي يُشعرونه بالملل الشديد إلى حدّ أنّه يرغب بالبكاء. وكان يتهرّب من تلبية هـذه الدعوات كلّما سنحت له الفرصة". وابتسمت ساشا لتعليق كزافييه، وبدا ليام شارداً. ومازحه كزافييه قائلاً: "تبدو كحبيبٍ يشعر بالغيرة". ولم يكن يفهم ما الذي حدث بينهما، الأمر الذي كانت ساشا ممتنّة له.

– "أو كطفـلٍ مدلّل"، أضافت ساشا. "قلت له لا تستطيع التصرّف على هـواك إن أردت الذهاب إلى تلك الحفلات. فأجابني بأنّه سيتصرّف كما يشاء. انتهى الأمر". وانتهت قصّة الحبّ. ولكن حمداً لله بأنّ كزافييه لم يعرف شيئاً. وممّـا قاله ليام، شعرت ساشا بالارتياح لأنّ ابنها لم يشكّ بما حدث، فلم يجل بخاطره ولو لثانيةٍ أنّ صديقه أقام علاقةً مع والدته. ثمّ التفتت إلى ليام وذكّرته بمـا قالتـه لـه منذ شهرين: "متى أردت ارتداء الملابس المناسبة والتصرّف كالناضـجين، أرحّـب بك لترافقني إلى أيّ مكان". وفي هذه الأثناء، انخفض صوتها بينما نظر ليام نحوها وقال: "تتكلّمين كوالدي". وبدا غاضباً ومستاءً ممّا فاجـأ كزافييه، فوالدته كانت على حقّ. تصرّف ليام بصبيانيّة كولدٍ مدلّل، ولم يقف كزافييه دائماً إلى جانب أمّه ولكنّه شعر بأنّ عليه ذلك هذه المرّة، وذكّره قـائلاً: "كنتَ طفلاً في ما مضى، ولكنّك الآن رجلٌ ناضجٌ. لقد بلغت الأربعين من العمر، هذا سخيف بحقّ السماء..." ثمّ نظر إلى ساشا واعتذر عن العبارات التي قالها.

وأجـاب لـيام: "لا هـذا ليس سخيفاً أبداً، بل يبدو من غير الطبيعيّ ألا

تتشاجر بشأن حفلة. لم يصطحبني والدي وإخوتي معهم أبداً إلى أيّ مكان. وكان والدي يدعوني بالأخرق وإخوتي بالغريب. لطالما كنت خارج السرب ومنبوذاً ولهذا غادرت سان فرانسيسكو. لقد سئمت من ذلك، لن أسمح لأحدٍ مطلقاً بأن يعاملني بهذه الطريقة مجدداً".

- "لعلّك كنت غريباً في الماضي"، قال كزافييه ضاحكاً. أمّا ساشا فالتفتت إلى ليام ونظرت في عينيه، وشعرت فجأةً بالأسى عليه. لا بدّ أنّها فتحت جروحاً حادّةً من طفولته، فهو لم يحظَ بوالدةٍ تحميه من قساوة والده ومن وحشيّة إخوته. نظرت إليه وأرادت أن تحيطه بذراعيها ولكنّها لم تستطع. وأضاف كزافييه: "وما زلتَ غريباً في بعض الأحيان"، فابتسم ليام. "ماذا تتوقّع يا رجل؟ فأنت فنّانٌ وأنا أيضاً غريبٌ، إنّها إشارة على العظمة والموهبة. وأنا أحبّ أن أكون غريب الأطوار، وأنت كذلك ولا تستطيع جعلي أذهب إلى تلك الحفلات حتّى ولو دفعت لي المال".

- "أنا أشعر بأنني تُركت وحيداً فحسب. كان ذلك كالماضي عندما كنت طفلاً، وأعتقد بأنّ هذا آلمني. قيل لي بأنني لا أستطيع الذهاب إلى مكانٍ ما إن لم أتصرّف خلافاً لما أنا عليه. ربما هي ذكرياتٌ قديمة في رأسي، وهذا ما جعلني أفقد أعصابي وليست والدتك هي السبب". ورمق ساشا بنظرةٍ يائسة، فلقد أراد الاعتذار منها، ولكنّه لم يتمكّن. والتقت أعينهما لفترةٍ طويلة، ولحسن الحظّ أنّ كزافييه لم يتنبّه للأمر وأضاف قائلاً: "بربّك يا رجل، لم تكن سوى ضيفاً لديها، لعلّها لم تستطع اصطحابك معها على أيّ حال".

- "لا لم أستطع"، أجابت ساشا، "دار النقاش أكثر حول النظريّات وحريّة التصرّف".

- "والتحكّم"، أضاف ليام، "فعندما يهينني الآخرون بهذا الشكل، أفقد صوابي. لطالما تُركت وحيداً عندما كنت طفلاً، وكأنني منبوذٌ ولست جيّداً لأصبح فرداً من ذلك المجتمع. ولطالما حاولوا التحكّم بي وإجباري على التصرّف كما يريدون ولم أستطع فعل ذلك". أدركت ساشا بأنّ ذلك أعمق ممّا

تصوّرت، ويتعلّق بفقدانه حماية والدته، وحبّها اللامحدود وهو في السابعة من عمره. وعرفت بأنّها في تلك الليلة تعاملت مع ذلك الولد الصغير الذي فقد والدته. وفهمت أشياء كثيرة، وكذلك سبب تصرّفه الصبيانيّ غير الناضج أمامها في باريس. وشعرت بأنّ قلبها رقّ له بينما جلست تستمع إليه.

- "حسناً، هل سوّيَ الأمر الآن؟" قال كزافييه ونظر إلى ليام، "لا بدّ أنّك تذكّرت أموراً ماضية من طفولتك أو ما شابه. أمّا أمّي فهي تذهب إلى حفلاتٍ يقيمها أكثر الناس مللاً على الأرض، ولا أعتقد بأنّ أحداً لديه عقل سليم يودّ أن يحضر هذا النوع من المناسبات. وأنت فنّانٌ غريب الأطوار ولا يجدر بك الذهاب إلى تلك الأمكنة، والتواجد مع نوع الأشخاص الذين تعرفهم. أمّي بخير ولكنّ الأشخاص الذين تلتقيهم ليسوا كذلك. يحتاج الأشخاص مثلنا إلى البقاء سويّاً والتسكّع معاً، وليس مع أولئك الذين تعرفهم أو تبيعهم اللوحات وإلّا سوف نفسد موهبتنا الفنيّة. ابقَ معي وحسب، وانسَ كلّ تلك التفاهات، صدّقني سوف تكرهها. والآن أنستطيع الاسترخاء وتناول الغداء بسلام؟ أنا ذاهبٌ إلى الحمّام. هيّا تعانقا وتصالحا لتبيع أمّي لوحاتك ولا تغضب منك، وعندما أعود سنقضي وقتاً ممتعاً كما المرّة السابقة. اتفقنا أيها الولدان؟" وابتسما له. فقد كسر كزافييه الجليد بينهما مع أنّه لا يعرف القصّة كاملةً، وهذا ما لم يستطيعا القيام به لشهرين. "شكراً". ونهض متجهاً إلى الحمّام ثمّ اختفى في الداخل بينما نظر ليام إليها. لا يزال يحبّها وبفضل كزافييه لم يعد غاضباً منها. وبعد أن فكّر في الأمر، لم يكن غاضباً منها هي. بل استرجع ذكرياتٍ مريرة قديمة تتعلّق بوالده وإخوته وليس بها. كلّ ما فعلته أنّها اقتربت من نقطة خطرة في سجلّ حياته، وجعلته يفقد السيطرة على نفسه، بحيث لم يتمكّن من الاستماع للعقل إلى أن أوضح لهما كزافييه الأمر بعد شهرين.

- "أنا آسف ساشا"، قال ليام برقّة، "اشتقت إليك إلى حدّ الجنون. أنتِ المرأة الأكثر عناداً على الأرض، حتّى أنّك لم تتصلي بي أبداً".

- "وأنت لم تتصل بي أيضاً. وأنا اشتقت إليك، أنا آسفة للغاية. لم أفهم

حقّـاً ماذا يعني لك الأمر أو لماذا، ولكنني أدركت هذا الآن. لم أقصد أبداً أن أجرحك". ثمّ بلغت يده وأمسكتها فيما قالت هذا.

– "لم تفعلي، هم السبب وأنا وضعتك في صفّهم لدقيقة". في الواقع كانت دقيقة طويلة. وقد دامت أكثر من شهرين منذ أن غادر باريس. "فلنتناول شراباً فـي مكانٍ ما معاً قبل أن تغادري لندن". وهزّت برأسها فيما عاد كزافييه إلى الطاولة.

– "هل الجميع سعداء من جديد؟".

– "للغايـة"، قالت ساشا مبتسمةً. "أنت وسيطٌ رائعٌ وعليّ الاستعانة أكثر بخدماتك". وعندما التفتت لتنظر إلى ابنها، لاحظت بأن ليام كان يبتسم لها.

طلـبوا الغداء، وأخذ الرجلان يتحدثان عن أعمالهما بينما استمعت ساشا إلـيهما. وكانت تشعر بسعادةٍ كبيرة حين تتحدث مع فنّانين، وبخاصة مع هذين الإثنين تحديداً. وبعد الغداء، ذهبوا إلى محترف ليام لرؤية عمله الجديد. كانت اللوحات أفضل من المرّة الماضية، فابتسمت له بسعادةٍ عندما تأمّلت اللوحات.

– "يا إلهي ليام، إنّها رائعة". واستطاعت القول بأنّه أظهر أعماق روحه من خلال هذه الرسوم وكأنّه حفر إلى عمق أعماقه.

– "تقوم بعملٍ رائعٍ عندما تكون غاضباً"، قال له كزافييه ممازحاً.

– "أحـياناً"، أجـاب ليام بنظرةٍ حزينة رأتها ساشا. وضغطت على يده عـندما مرّت بقربه. "إنني أقوم بأفضل أعمالي عندما أكون غاضباً. ويحزنني بـأنّ الأمر صحيحٌ، لطالما كان كذلك". وبدت عليه علامات الإرهاق والتعب فيما كان يحدق إلى لوحاته. فقد أمضى من دون ساشا شهرين طويلين.

– "هذا صحيحٌ بالنسبة لي أنا أيضاً"، اعترف كزافييه.

– "أتمنّـى لو أستطيع قول الشيء نفسه عن نفسي". أضافت ساشا، فبعد أن أمضت الشهرين الأخيرين بتعاسةٍ من دونه، تمنّت لو تستطيع قضاء بعض الـوقت معـه بمفردها، ولكن كان عليها رؤية فنّانٍ آخر. وكانت سعيدة على

الرغم من كلّ شيءٍ لأنها رأت عمل ليام، ولعلّه الآن من الأفضل لهما معاً بأن تنحصر علاقتهما بفنّانٍ ووكيلته فحسب. فلا بدّ أن علاقتهما العاطفيّة القصيرة كانت كارثةً، وعلى الأقلّ بفضل كزافييه انتهت الحرب بينهما.

سألهما ليام بينما كانت ساشا تهمّ بالرحيل على عجلةٍ: "ما هي مشاريعكما لهذه الليلة؟".

فأجابت ساشا بسرعةٍ: "أنا مشغولة"، وقال كزافييه بأنّ لديه موعداً.

وأضاف ليام بنبرةٍ من المزاح: "أهي إحدى حفلاتك المملّة؟".

– "لا إنّـه عشاءٌ مع زبونٍ محتمل". على الرغم من أنّها لا تدين له بأيّ تبريـر، إلاّ أن الحـرب بيـنهما قد انتهت وكذلك قصتهما الرومنسيّة. وهما محظوظان لأنّهما سيصبحان صديقين الآن.

– "مـاذا عن ليلة الغد؟" أصرّ ليام فقد أراد رؤيتها مجدداً قبل أن تغادر إلى باريس، وكان الأمر مريحاً لهما مع وجود كزافييه.

– "أنا حرّ"، وافق كزافييه.

– "وأنـا أيضاً"، قالت ساشا مع أنّها أرادت قضاء بعض الوقت بمفردها مع ابنها، وسيختلف الأمر لو انضمّ ليام إليهما.

اقتـرح عليهما العشاء في حانته المفضلة ووافقه كزافييه الرأي بسرعة وفعلـت ساشا ذلك على مضض، ولكن بعد كلّ ما قاله أثناء الغداء، لم تودّ أن تكـون فظّـةً معه. وستتمكّن بهذا أن تتناول الفطور مع كزافييه بمفردهما في الصباح التالي قبل عودتها إلى باريس.

واتّفقـت معهمـا على أن يقلّهما سائقها في المساء التالي بسيّارتها، رغم أنّها لم تكن تحبّ قضاء أمسياتها في حانةٍ مكتظّة. ولكنّها وافقت على ذلك من أجلهمـا وربمـا أكثر من أجل ليام. وعندما غادرت شعرت بالحبّ والحماية نحوه.

انـشغلت بقـيّة فتـرة بعد الظهر، وقامت ببعض الأعمال في نيو بوند

ستريت قبل أن تعود إلى الفندق. وبالكاد تبقّى لها ما يكفي من الوقت لتبديل ملابسها قبل أن يصل فيليب ليقلّها للعشاء. وكانت تسرّح شعرها وترفعه كالعادة عندما اتّصل بها ليام.

– "سررت لأننا التقينا اليوم"، قال بحزنٍ، "قدّم لنا كزافييه خدمةً كبيرة، أو على الأقلّ لي. وأنا آسفٌ حقّاً لأنني تصرّفت بجنونٍ في باريس".

– "لا بأس"، أجابته ساشا وهي ترفع شعرها بيدٍ وتحمل سمّاعة الهاتف باليد الأخرى. "هذه الأمور تحدث، وشعرت بالحزن اليوم عندما شرحت هذا الأمر". سبق وأخبرها عن والده، ولكنّها لم تربط ذلك بتصرّفاته. وكان ليام يحتاج إلى والدة أكثر من أيّ شيءٍ آخر، ولكنّها لم تودّ أن تكون كذلك بالنسبة له لأنّها حظيت بولدين. لعلّه يحتاج إلى عاطفة الأمومة أكثر من الرومنسيّة. ومع فارق السنّ بينهما، شعرت بأنّها كبيرةٌ أكثر من السابق. وربما إن كانت وكيلته وليس حبيبته، تستطيع أن تمنحه ما يحتاج إليه.

لقد كان معظم فنّانيها بحاجةٍ إلى أمّهاتٍ، وتوقّعوا منها أن تلعب هي ذلك الدور. وجزءٌ من دورها معهم كان تقديم الرعاية لهم. لم تنزعج من فعل هذا على الأقلّ مع ليام. فلعلّها الآن تساعده في ذلك من دون مقابلٍ سوى العمولة التي تأخذها من بيع لوحاته. وكانت لا تزال منجذبة إليه وتشعر بتلك الشحنة الكهربائية كلّما نظرت إليه، ولكن ما تشعر به الآن تجاهه كان مختلفاً. فمشاعرها الآن بدت أكثر عمقاً بطريقةٍ ما. كانت تحبّه ولكنها تمكّنت من النظر إليه الآن من دون أن تتآكلها الرغبة في نزع ملابسه عن جسمه. حولت شعورها إليه خلال الشهرين الماضيين إلى شعورٍ سامٍ، وأحسّت بالعطف والحنان تجاهه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. وكان هذا أفضل وأصحّ لها من الجنون الذي قادها نحوه في ذلك الشتاء عندما التقيا. ومع أنّها اشتاقت إلى ما تشاركا به، إلاّ أنها شعرت بأنّ أحاسيسها تجاهه أصبحت ناضجة، وتحوّلت بطريقةٍ ما منذ أن رأته آخر مرّة. وفرحت بأن تكون وكيلته وصديقته ولا شيء سوى ذلك.

– "هل أنتِ سعيدة؟" سألها، فضحكت لسؤاله.

– "إن كنت تسألني إن كان هنالك من أحدٍ في حياتي الآن، فالجواب هو كلا. يتطلّب منّي الأمر فترةً لأتخطّى ما حصل، فقد شعرت بخيبة كبيرة عندما غادرتَ باريس". وكان من الصعب عليها أن تخسره بعد أن فقدت آرثر. "عليّ تخطّي ذلك، فهذه الأمور تحدث ولم أعتقد أبداً بأنّ العلاقة ستنجح بيننا، وشعرت بالأسف لمعرفة أنني كنت محقّة وبأنّها لا يمكن أن تنجح".

– "كان يمكنها ذلك إن لم أفقد أعصابي". وبدت نبرته مرتبكة.

– "لا، أنت لم تفعل، لعلك محقٌّ، فمن القساوة تركك لوحدك ومعاملتك دائماً كسرٍّ صغير. ولكنني لم أعرف طريقةً أخرى لفعل ذلك".

– "وأنا أيضاً، لا يبدو الأمر مهمّاً الآن، ولكنّه كان كذلك في السابق".

– "وهذا ما أظنّه أنا أيضاً، وأنا سعيدة لأنّ كزافييه حلّ المسألة".

– "إنّه ولدٌ رائعٌ ساشا".

– "أعرف، أنا محظوظةٌ للغاية". ثمّ نظرت إلى ساعتها، وعرفت أنّ فيليب سيصل خلال عشر دقائق وما زال عليها تسريح شعرها ووضع مساحيق التجميل. "أكره أن أقول هذا، ولكن عليّ الذهاب، فسيأتون لاصطحابي خلال عشر دقائق".

– "لماذا أشعر بأنّك ستتناولين العشاء مع رجلٍ في موعدٍ وليس مع زبون؟" في الواقع، كان الأمران صحيحين، ولكن لم يكن ذلك من شأن ليام ولن يكون مجدّداً.

– "لعلّك تشعر بالإحباط"، قالت ممازحةً، "هيا اذهب وارسم شيئاً، سأراك غداً".

– "استمتعي الليلة بوقتك"، قال لها ولوهلة شعرت بالإثارة كالسابق، ولكنّها الآن تستطيع مقاومته. فقد مرّ وقتٌ كافٍ واستعادت عقلها.

– "شكراً ليام".

وأسرعت لإنهاء استعدادها في الدقائق العشر المتبقيّة محاولةً عدم التفكير به. وعندما اتّصل بها فيليب من الردهة، كانت جاهزة. وذُهشت للأمسية الجيّدة التي حظيا بها، وكان كلّ شيءٍ كاملاً تماماً كما يجب أن يكون بالنسبة للموعد الأول: مهـذّب، ولائـق، ومثير للاهتمام، وذكيّ، ومرح. كما كان رجلاً طيّباً ورفـيقاً جـيّداً. حصل على عملٍ مهمّ وأحبّ السفر وحظي بأصدقاءٍ في عدّة أمـاكن. كما أنّه يمارس الرياضات ككرة المضرب والغولف، ويحبّ المطالعة كثيـراً، ويهتمّ بالفنّ. ويبدو بأنّه متعلّقٌ بأولاده وأحفاده إلى حدٍّ كبير. لم تشعر ساشـا بانجذابٍ حقيقيٍّ نحوه، ولكنّها استمتعت بالأمسية ووجدتها مناسبةً لعدم التفكير بما حدث مع ليام. واختبرت الهدوء والسلام في موعدها مع فيليب ولم تهتمّ مطلقاً ببيعه أيّة لوحة.

تـناولا العشاء في ماركس كلوب ثمّ اصطحبها إلى أنابيلز. وعادت بعد منتـصف الليل بقليلٍ. وأخبرها فيليب بأنّه ذاهبٌ إلى هولندا في اليوم التالي لـرؤية قـارب إبحـارٍ طلبه، وسيتصل بها ما إن يعود إلى باريس. شعرت بالـسعادة للتواجد مع شخصٍ ذكيٍّ ومرحٍ مثله، فلم تختبر معه أيّ من لحظات الإثارة أو العذاب التي عاشتها مع ليام.

نامـت بـسلامٍ فـي تلك الليلة، وفي الصباح قامت بزيارة أحد الفنّانين ومعرضـين، ثـمّ ذهـبت للتسوّق. عادت إلى الفندق في الوقت المحدّد لتبديل ملابـسها وارتداء سروال جينـز للقاء كزافييه وليام. وأحسّت بأنّها تخرج مع ولـديها. وكانت الحانة التي اختارها ليام كثيرة الضجيج، ومكتظّة كما خشيتْ. وبالكـاد اسـتطاعوا سماع بعضهم البعض وراحوا يصرخون بينما يتناولون العـشاء. وبعـد ذلـك، ذهبوا إلى المشرب حيث راح كزافييه يلهو مع بعض الفتـيات، وحاول ليام أن يحظى بحديثٍ مع ساشا التي انتظرت انتهاء الأمسية بفارغ الصبر والتي بدت طويلةً إلى ما لا نهاية. وكان من الغرابة بالنسبة لها الـتواجد هناك مع ليام، فلقد كانت النساء اللواتي يتجمّعن حولهم ويتوقون إليه علناً في العشرينيات من العمر. وعرفت ساشا من مجرّد النظر إليهنّ وإلى ليام

بأنّهـا لا تريد أن تكون في ذلك المكان. وبعد عشر دقائق، أخبرت ساشا ليام وكزافييه بأنّها تعاني من صداعٍ مؤلم، وتركتهما سعيدين يشربان. لم يكن أحدٌ منهما ثمـلاً عـندما غادرت، ولكنّها شكّت في أنّهما سيشربان حتى يثملان. وكانـت أمسيتها معهما مختلفة تماماً عن موعدها مع فيليب في الليلة الماضية. فبقدر ما كان العشاء معه مهذّباً وحضارياً، بقدر ما كان الخروج معهما صاخباً وفوضـوياً ومكـتظاً. وبينما كانت تقود عائدةً إلى الفندق، أدركت بأنّ الأمسية والمكـان الـذي قصدوه أشعراها بالتعاسة وبأنّها قديمة الطراز. لم تعلم لماذا، ولكن أحبطتها رؤية ليام. وكان هذا الثمن الذي كان عليها دفعه بسبب جنونها في التورّط معه. والآن، وفي كلّ مرّةٍ تراه فيها ستتذكّر ما حدث بينهما، ولماذا انتهى. ولأنّ ليام لم يكن أبداً خياراً بالنسبة لها، لذا ما كان الأمر لينجح مطلقاً.

كانـت مـرتاحةً للعـودة إلى الفندق وخلع ملابسها. فارتدت ثياب النوم وأوت إلى الفراش تستمتع بالهدوء وتفكّر فيه. وشعرت أنّه من الغرابة التفكير الآن بأنّـه كـان مرّةً ملكها، فيما هو حالياً متوفّرٌ لكلّ أولئك الفتيات الشابات المتحمّـسات والمثيرات. وأدركت تماماً منذ البداية بأنّ عليه التواجد مع نساء قريباتٍ من سنّه وأصغر منها. أمّا الأمر الوحيد الذي لم تعرفه ولن تعرفه أبداً ربمـا فهـو إلـى من تنتمي هي. ربما ليس لأحد. وأحسّت بأنّها غريبةٌ تغرّد خارج السرب وحيدة في عالم ليام وفي عالمها هي أيضاً.

أطفأت الأضواء عند الحادية عشرة واستسلمت للنوم. عندما رنّ الهاتف، لم تعرف لوهلةٍ أين هي ثمّ تذكّرت. كان الصوت عبر الهاتف عميقاً ومألوفاً.

قال الصوت لها: "أنا في الردهة في الأسفل".

- "من هذا؟".
- "أنا ليام".
- "كنت نائمة".
- "كيف حال صداعك الآن؟".

– "أعتقد بأنني أفضل حالاً". ولم توَدّ إخباره بأنّها لم تكن تعاني أيّ صداع.

– "عليّ التحدّث معك"، قال لها بنبرةٍ قلقة.

– "سأتصل بك غداً". ولم تكن تريد أن تراه، فسيشعرها ذلك بحزنٍ أكبر بعد أن تركته تلك الليلة في المكان الذي ينتمي إليه؛ في الحانة مع كلّ النساء الشابات من حوله.

– "لا أريد الانتظار للغد. أرجوك ساشا... دعيني أصعد لأراك".

– "لا أعتقد بأنّها فكرةً جيّدة". واستفاقت حينها تماماً. "لقد أعدنا كلّ شيءٍ إلى مكانه، ونحن أصدقاء من جديد. دعنا لا نفسد هذا من خلال مناقشة ما جرى من خطأ ولماذا. أنت سعيدٌ وأنا أيضاً ولسنا بحاجةٍ لخوض ذلك مجدّداً".

– "لا أودّ خوض أيّ شيء، بل أودّ فقط أن أراك".

– "ما زلت كما أنا منذ أن رأيتني قبل ساعتين، ولكنّني ارتديت ثياب النوم عوضاً عن الجينز الأزرق".

– "أرجوك... أعلم بأنّك ستغادرين صباحاً". وبدا حزيناً.

– فأجابته بحزم: "سأتصل بك من باريس".

– "لا أريد التحدّث معك في باريس، أنت هنا الآن، أريد رؤيتك".

– "هل أنت ثمل"، سألته بقلق.

– "لا ولكنني سأثمل إن لم تسمحي لي برؤيتك". وضحك بينما قال هذا.

سكتت وفكّرت في الأمر. فلم تكن تملك أيّ سببٍ جيّدٍ لرؤيته، بل أسباباً سيئة كثيرة لعدم رؤيته. كانت لا تزال منجذبةً إليه، ولم ترِد أن يحدث أيّ أمرٍ جنونيّ.

– "حسناً... حسناً... اصعد، ولكنّك إن قمت بأيّ عملٍ متهوّر، سأستدعي رجال الأمن وأجعلهم يرمونك خارجاً".

– "لن أقوم بأيّ شيءٍ جنونيّ، أعدك".

نهضت من الفراش، ووضعت رداءً عليها، ومشت إلى غرفة الجلوس في جناحها في الفندق. وصل ليام قبل أن تنتهي حتّى من ربط شريط الرداء، وقرع الباب مرّةً واحدة. ففتحته، ونظرت إليه. بدا طويل القامة وهزيلاً ووسيماً ومثيراً أيضاً، ولكنّها هذه المرّة لم تبالِ بأيّ شيءٍ. خطت إلى وراء الباب ولوّحت له وكان النعاس واضحاً على وجهها.

– "أنا آسفٌ... لا أعلم لماذا ساشا... ولكن كان عليّ رؤيتك".

– "حسناً، لقد رأيتني الآن".

وابتسمت له ثمّ جلست على كرسيٍّ بينما مشى نحوها، وركع أمامها وطوّقها بذراعيه.

– "آسف، فقد كنت غبياً في السابق، خلتُ بأنّك تحطّين من شأني وهذا ما جعلني أفقد عقلي. أردت مرافقتك تلك الليلة وأردتك أن تفخري بي، ولكنّني لم أعرف كيف أعبّر عن هذا".

– "وأنا أيضاً لم أتعامل جيّداً مع الأمر. هذه الأمور تحدث أحياناً. فكلّما فقدت أعصابك أكثر كلّما غضبتُ وأصبحتُ أكثر عناداً. قلت لك إنّ هذا مستحيل، لم تكن الأمور لتنجح بيننا أبداً".

– "ما زال ذلك ممكناً إن أردتِ، لقد فكّرتُ كثيراً في الأمر".

– "لا تبدأ من جديد، لا أريد أن أتجادل معك، ولن أقوم بأيّ عملٍ غبيّ".

ثمّ كتفت يديها على صدرها ممّا استوجب مجهوداً منها. فما أرادته فعلاً هو أن تضمّه وتلفّه بذراعيها، ولكنّها لن تدع هذا يحصل. فهي لا تزال تكنّ له المشاعر، أما هو فكان ثملاً بعض الشيء ممّا يشكّل وضعاً حرجاً.

– "كيف كان موعدك بالأمس؟".

– "ساحراً، ذكياً، محترماً، ومملاً بشكلٍ لا يُصدّق"، أجابته من دون تفكيرٍ، ثمّ نظرت إليه وأضافت: "لا أصدّق أنني قلت هذا، فلقد أمضيت وقتاً رائعاً مع شخصٍ متّزن ومحترم، لا أعلم لماذا قلت هذا". وشعرت بالانزعاج

ممّا صدر عنها، ولكنّ الكلمات خرجت من فمها بعفويّة وصدق.

– "ربما لأنّ ذلك صحيحٌ. ساشا، أحبّك"، قال لها بنظرة يائسة، "ولا أهتمّ مطلقاً إن أبقينا الأمر سرّاً، أدرك الآن بأنّ عليه أن يبقى هكذا. ولا أهتمّ مطلقاً إن رافقتك إلى الحفلات، أريد أن أكون معك وحسب، وأن أحصل على ما تشاركنا فيه قبل أن أدمّر كلّ هذا في باريس".

– "لم تدمّر أيّ شيء"، قالت له بلطفٍ، "كلانا فعل. لم يكن مقدّرٌ لهذه العلاقة أن تدوم، قلت لك ليام إن هذا مستحيل. إلى أيّ مدى سنكون غبيّين؟ نحن محظوظان، فلقد آذى أحدنا الآخر، ولكننا لم نسبّب الكثير من الأضرار. يمكن أن نقوم بذلك في المرّة المقبلة، ويمكن أن ينتهي الأمر سيئاً جدّاً، دعنا ننفصل منذ الآن، وقبل أن يحصل ذلك. سأكون وكيلتك الفنيّة وأنت الفنان".
وفيما تابعت كلامها، وقف أمامها ثمّ انحنى وقبّلها، فتجاوبت معه وأجابت: "حسناً، أحبّك. لن يغيّر هذا من مسار الأمور. لن أفعل ذلك، هذا مستحيل. مستحيل. كم مرّة عليّ أن أردّد هذا؟" وقبّلها مجدّداً، وعندما توقّف هذه المرّة كانت تلهث وقالت بصعوبة: "ليام... لا تفعل... أرجوك... سيقود كلّ منّا الآخر إلى الجنون مجدّداً..." ولكنّه لم يستطع التوقّف عن تقبيلها ولم تستطع هي أيضاً التوقّف.

– "أنا مجنونٌ"، قال بتعاسةٍ، "كنت كذلك منذ أن تصرّفت بغباءٍ كافٍ لتركك في باريس".

– "لا لم تكن غبيّاً... ولا أريدك أن تكون سرّاً في حياتي. كنتَ محقّاً، تستحقّ أفضل من هذا ولا أستطيع تقديمه لك. فلست مستعدّةً بعد لأقول للعلن بأنّ لديّ عشيق أو حبيب أو مهما تكن وهو يصغرني بعشرة أعوام. يجعلني ذلك أبدو امرأةً مسنّة مثيرة للشفقة".

– "تسعة"، قال لها بين القبلة والأخرى.

– "تسعة ماذا؟" واختلط عليها الأمر بين ما يفعله وبين ما تفكّر فيه.

– "إنّها تسعة أعوام، وليست عشرة، لا تبالغي".

– "حسناً تسعة، ولكنّني ما زلت غير مستعدّة لأخبر الناس بذلك، وأنت تستحقّ أفضل من كونك سرّاً".

– "أفضّل أن أكون سرّك الصغير، على ألاّ أكون شيئاً في حياتك".

– "أنا وكيلتك".

– "أريدك أن تكوني امرأتي". وجلّ ما أرادته فيما كان يقبّلها هو أن تكون امرأته. ولكنّها ما إن تفعل ذلك مجدّداً، حتى يتحوّل كلّ عالمها إلى جنونٍ وارتباكٍ كما حصل في باريس. "وأريد أن أكون فنّانك الخاص غريب الأطوار". وضحكت حين قال هذا.

– "حسناً، أنت كذلك في كلّ الأحوال، حتّى ولو كنتُ وكيلتك الفنيّة وحسب".

– "ساشا، امنحيني فرصةً بعد... أرجوك، من أجلنا معاً. أنا أحبّك فعلاً".

– "أنا أحبّك أيضاً. أنا فقط لا أريد أن نقود بعضنا إلى الجنون، وهذا ما سيحصل وتعلم ذلك. وقد أقوم بشيءٍ يزعجك، أو قد أهينك من دون أن أقصد. أو ستدخل إلى أحد اجتماعاتي مرتدياً زيّك الغريب المعهود".

– "زيّي الغريب المعهود؟" رجع خطوة إلى الوراء وأضاف: "لا هذا غير صحيح، أنا لا أرتدي زيّاً كهذا، ولا أملك واحداً مثله".

– "إذاً قم بشراء واحدٍ"، قالت مبتسمة ممازحةً، "فعلى كلّ فنّانٍ غريب الأطوار أن يحصل على هذا الزيّ الغريب وعليك ارتداؤه إلى الحفلات التي أصطحبك إليها".

– "ماذا عن ثوبٍ رومانيّ فضفاض؟ يمكنني ارتداؤه إلى أحد الاجتماعات، أو إلى إحدى مناسبات العشاء الرسمية". وضحك.

– "هذا بغاية السهولة"، قالت له بين القبلات. وللحال أصبحت بين ذراعيه، وحملها إلى غرفة النوم، ووضعها على السرير حيث مارسا الحبّ للمرّة الأولى. ثمّ توقّف ونظر إليها بينما تمدّدت على السرير والتفتت إليه.

– "لن أرغمك على فعل شيءٍ لا تريدين فعله"، قال لها بلطف.

– "آمل ألا تفعل"، أجابته بنظرة يبدو فيها البريق. "يا إلهي، ليام... ماذا نفعل؟" كانت تحبّه ولكنّها شعرت بالخوف.

– "نبدأ من حيث توقّفنا في المرّة الماضية، ولكن أفضل بقليلٍ"، هتف باقتناع.

– "كيف تعلم بأنّ ذلك سيكون أفضل؟ ربما سيكون أسوأ".

– "أعلم لأنني أحبّك أكثر ممّا أحببتك منذ شهرين، ولأنني أريد أن ينجح ذلك. وأريد أن أثبت لك بأنّ هذا ممكنٌ، وبأنّك كنت مخطئة عندما قلت بأنّه مستحيل. أريدك أن تكوني مخطئة".

– "وأنا أيضاً"، همست في أذنه بينما ضمّها قريباً إليه. فكّ رداءها ونزع ملابسه. أرادت أن تصدّق بأنّ علاقتهما ممكنة، وأرادت إنجاح الأمر معه. رغبت بأن تكون كلّ شيءٍ يريده، وأرادته أن يكون أحلامها. وفيما مارسا الحبّ، وجد كلّ منهما ما فقده وتاق إليه خلال الشهرين الماضيين.

وبعد برهة، نظرت إليه وابتسمت، ثمّ بدأت تضحك عالياً.

– "لا أصدّق بأننا نفعل ذلك مجدداً، يا لنا من مجنونين ليام". وعلى الرغم منها، بدت مرتاحةً وراضيةً.

– "أنت مجنونة"، أجابها مبتسماً، "أنا فنّانٌ غريب الأطوار وحسب". وشعر بالسعادة وكأنّه عاد إلى المنزل من جديد.

الفصل العاشر

في الصباح، مارسا الحبّ أيضاً قبل أن يغادر. ثمّ استحمّا معاً وضحكا على العمل المجنون الذي يقومان به مجدداً. وتميّزت علاقتهما الآن بحسّ الفكاهة والمزاح، وبعض الدهشة والراحة والوديّة وهذا ما لم يختبراه في باريس قبل انتهاء العلاقة. وأرادت ساشا بقوّة أن تفكّر بأنّ هذا ممكنٌ. ولكن مع الفارق في أسلوب حياتهما وسنّهما، ما زالت خائفة ممّا ستؤول إليه الأمور. ويعتمد ذلك على مدى تساهلهما الواحد تجاه الآخر. وبرأيها، يكمن مفتاح نجاحهما في قدرة كلّ منهما على السماح للآخر بأن يكون على ما هو عليه. ولم يكن لديها أدنى فكرة إذا كانا قادرين على هذا. وسيتطلّب منهما إنجاح ما بينهما المهارة والحظّ والسحر معاً.

قبّلها قبل أن يخرج من الباب، فيما وقفت هي في الممرّ مرتديةً رداء الحمّام وشاهدته يسير مبتعداً. كانت خائفة لأنّ الأمر لا يزال مستحيلاً ولكنّها عاجزةٌ عن مقاومته. التفت إليها مبتسماً وحين التقت أعينهما تأجّجت مشاعرها داخل صدرها. فقد أحبّته أكثر من السابق وهذه المرّة أحبّته كما هو.

كانت الابتسامة العريضة تعلو وجهها عندما التقت كزافييه في ردهة الفندق لتناول الفطور بعد نصف ساعة. ووعدها ليام برؤيتها في باريس خلال نهاية الأسبوع، وكان لديها فكرة أخرى له أيضاً. فلقد خطّطت للسفر إلى إيطاليا لرؤية فنّانين جدد في شهر أيار/مايو. وأرادته أن يرافقها وستطلب منه ذلك في نهاية الأسبوع.

– "تبدين كالهرّ الذي ابتلع العصفور ويشعر بالرضى والفرح"، علّق كزافييه مبتسماً، "ماذا هنالك أمّي؟" وتساءل عن موعدها في الليلة التي أتت

فيها إلى لندن وسألها عن ذلك. "أهو شخصٌ مميّز؟".

- "كلا، إنّه لطيفٌ ولكن مملّ". لقد أحبّت فيليب هينشاو على الرغم من أنّها لم تشعر بالانجذاب نحوه. ولكن الآن وقد عاد ليام، طار فيليب من النافذة بالنسبة لها وتبخّر. عرفت بأنّ ما تقوم به مع ليام أمرٌ جنونيّ، غير أنّها أرادت المحاولة ولو على مضضٍ. وذكّرت نفسها بأنّ تكرار العمل نفسه مراراً وتكراراً وتوقّع نتائج أخرى هو الجنون بحدّ ذاته. ولكنّها لم تجد من سبيلٍ لمقاومته ولم ترِد ذلك. وشعرت بسعادةٍ تغمرها لأنّه عاد إلى حياتها وبالكاد استطاعت انتظار نهاية الأسبوع لرؤيته. وكانت قد تحدّثت مع ليام عن مجيئها إلى لندن في بعض العطلات لرؤيته غير أنّها شعرت بالخوف من أن يراهما كزافييه معاً. فهي لم تكن مستعدّةً بعد لإخبار ولديها. إذ عليهما أولاً أن يريا إن كانت العلاقة ستنجح، وكان كلٌّ منهما يراهن على هذا الأمر.

اصطحبها سائقها إلى المطار، وعندما وصلت إلى باريس لم تفارق الابتسامة وجهها. ولاحظ كلٌّ من برنارد وأوجيني ذلك من لحظة دخولها إلى المعرض.

"تبدين بمزاجٍ جيّد"، علّق برنارد مبتسماً.

وفيما عادت إلى المنزل تلك الليلة، فرحت لرؤية سوكس، وأيّ أحدٍ آخر الآن مع عودة ليام، وشعرت بأنّها مختلفة وأفضل حالاً مع وجوده في حياتها.

حظيت بأسبوعٍ حافلٍ بالأعمال في المعرض، وعندما أتى ليام مساء الجمعة، كانت بانتظاره. أعدّت له طبقاً من الدجاج قال إنّه أحبّه، إضافة إلى المعكرونة والسلطة، وأحضرت له الفطائر المحلاة من فوشون. تناولا العشاء في غرفة الطعام، ووضعا الموسيقى الهادئة وأضاءا الشموع. وبدا الأمر وكأنّهما في شهر العسل. ويوم الأحد، دعته لمرافقتها إلى إيطاليا في أيار لثلاثة أسابيع. غمرته السعادة وتحمّس كثيراً للفكرة، وجرى كلّ شيءٍ بشكلٍ أفضل من السابق لكليهما.

وكان يأتي إلى باريس في كلّ نهاية أسبوعٍ من بقيّة شهر نيسان/أبريل. وفي إحدى هذه العطلات قصدا دوفيل، وأقاما في فندقٍ قديم، وسارا على الشاطئ متشابكي الأيدي ومتعانقين. والغريب أنّ أحداً في حياتها لم يعرف ماذا يحدث، فقد كان ليام يصل ليل الجمعة ويتسكّع نهار السبت ثمّ يتنزهان يوم الأحد أو يتجوّلان بالسيارة في أنحاء المدينة. وكانا يحضران القدّاس في كنيسة القلب الأقدس، ويزوران كاتدرائيّة نوتردام، ويتمشّيان في حدائق لوكسمبورغ. لم يلتقيا أبداً بأحد من معارفها. وكانت تعتذر عن تلبية كلّ الدعوات خلال نهاية الأسبوع، ليس لأنّها أرادت أن تخبّئه بل لأنّها رغبت بالتمتع بكلّ لحظةٍ تقضيها معه. وتناولا العشاء مرّة أو اثنتين في ماراي برفقة أصدقائه الفنّانين الذين كاد يُغمى عليهم عندما أدركوا من هي. بلغ معظمهم نصف سنّها، ممّا جعلها ترتبك وتشعر بعدم الراحة، ولكنّها تعرف بأنّ التواجد معهم هو أمرٌ تساهلت به من أجله. أخبراهم بأنّهما صديقان ليس إلاّ، وذلك لأنّه كان بحاجة لرؤية أصدقائه بما أنّها ترى أصدقاءها والزبائن الذين تقابلهم خلال الأسبوع عندما يكون في لندن. وعلما بأن الأمر سيكون معقّداً إن بقي معها الأسبوع بكامله في باريس فبذلك ينكشف سرّهما، بسبب وجود منزلها والمعرض في المبنى نفسه. واتّفقا هذه المرّة أن يُبقيا علاقتهما سريّة حتّى يشعرا بالأمان مجدّداً.

سافرا إلى إيطاليا في أوّل أيار/مايو، وبدأت رحلتهما في البندقيّة بالاستمتاع والتسلية، كما أمضيا أربعة أيام كشهر العسل في فندق دانيالي. وكان ليام قد حضر من لندن، فيما جاءت هي من باريس، والتقيا هناك، ثمّ قاما بكلّ ما يفعله السيّاح. فتنزّها في قارب الجندول تحت جسر دي سوسبيري حيث قال لهما قائد القارب بأنّ هذا سيوحّدهما إلى الأبد حسب التقاليد. كما خرجا عدّة مرّاتٍ لتناول العشاء وكانت كلّها مدهشة، وذهبا للتسوّق وزارا دور العبادة والمتاحف وجلسا في المقاهي. وكانت تلك الأيام من أجمل الفترات التي تشاركاها.

وفي البندقيّة، استأجرا سيّارة، وقادا إلى فلورنسا حيث ارتبطت بمواعيد مع أربعة فنّانين. وقاما بكلّ ما فعلاه في البندقيّة مجدداً، وكانا يلبّيان دعوات الغداء والعشاء مع الفنّانين بين نشاط وآخر. أحبّت اثنين من الفنّانين كثيراً، واعتقدت بأنّ عملهما مناسبٌ للمعرض. وكانت غير واثقة في ما يتعلّق بالثالث وقالت بأنّ عليها التفكير بالأمر لأنّ أعماله كانت عبارةً عن منحوتاتٍ كبيرة وغير اعتياديّة، قد لا تناسب المعرض. ولقد كان الفنان الثالث جذّاباً، ولكنّها لم تحبّ عمله منذ البداية وأخبرته بأنّها لا تستطيع أن تستقبل عمله في المعرض لأنّه غير جديرٍ بلوحاته، فلطالما أحبّت ألا تحبط عزيمة أحد. ووجدت بأنه لا نفع من جرح مشاعر الآخرين أو تحطيمهم من خلال الرفض القاسي. بينما جلس ليام مراقباً إيّاها، ومعجباً بكيفيّة قيامها بالأمور، فهي إنسانةٌ طيّبة وامرأةٌ لطيفة وأحبّ مشاركتها في ما تفعله.

ثم قصدا بولونيا وأريزو وقضيا أسبوعاً في أومبريا يجولان في أرجاء البلاد، ويقيمان في الفنادق الصغيرة المتواضعة، وبعد ذلك ذهبا إلى روما حيث أمضيا بضعة أيّامٍ أيضاً. كما زارا فنّاناً على الشاطئ الأدرياتيكي قرب باري، وأقاما آخر أيّام الرحلة في نابولي حيث قاما بزيارة فنّانة أخبرته ساشا مسبقاً بأنّها مجنونة بعض الشيء، ولكنّها رائعة ولديها ستّة أولادٍ. حضّرت الفنانة لهما عشاءً مميّزاً، وأحبّت ساشا عملها بشدّة وكذلك ليام. ولكنّ اللوحات التي كانت ترسمها كبيرةٍ، وذات ألوانٍ صارخة وستكون صعبة الشحن إلى المعرض. ولكن عندما غادرا منزلها، شعرا بأنّهما أحبّا الجميع بما فيهم حبيب الفنّانة الصينيّ منذ عشرين عاماً وهو أب الأولاد الستّة أيضاً. كانوا أولاداً رائعين، وكانت الرحلة مدهشة ومثمرة لساشا ولليام.

أمضيا عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة من رحلتهما في كابري في فندقٍ رومنسيّ صغير. وشعرا بالحزن لقرب انتهاء رحلتهما، ومن التفكير بالعودة إلى الحياة الواقعيّة وإلى عالميهما. فلقد أحبّت أن تستيقظ معه في الصباح، وأن تخلد للنوم بين ذراعيه في الليل، وأحياناً التنزه معه وحسب في الجوار بينما

يتشاركان قصصاً من حياتهما ويضحكان. إذ حظي كلٌّ منهما بطفولةٍ صعبة ووحيدة، هو بسبب كونه فنّاناً موهوباً لم يتكيّف مع عائلته المحافظة والتقليدية، وهي لأنّ والدها كان صلباً وجدّياً في العمل معظم الوقت مع أنّه أحبّها للغاية. ولم يبدأ باحترامها واحترام آرائها إلاّ عندما بلغت سنّ الرشد. أمّا عائلة ليام فلم تحترمه أبداً، وما زال يدفع الثمن غالياً لما تعرّض له من سخريةٍ ورفضٍ على أيدي عائلته. وعانى كلاهما النقص من غياب والدتيهما عندما كبرا. وتذكّر ليام والدته على أنّها كانت امرأة حنونة ورائعة أحبّته كثيراً، وكان بنظرها لا يُقدم على الخطأ أبداً. وما زال حتّى الآن يبحث عن الحبّ اللامشروط الذي منحته إيّاه، ولم يحصل عليه أبداً من أيّ أحدٍ سواها، حتّى أنّ ساشا شعرت في بعض الأحيان بأنّه يتوقّع منها أن تكون كوالدته. ولكن هذا الحبّ اللامشروط والذي لا يتبع أيّ قيودٍ كان شيئاً كبيراً ليتوقّعه من شخصٍ دخل حياته مؤخّراً. فالحبّ بين الراشدين والعشّاق يخضع للقيود أحياناً ويفتقر للتوقّعات، وخاصة عندما لا تتلاقى كلّ الحاجات المتبادلة بين الطرفين. وكذلك احتفظت ساشا بنفس الذكريات عن والدتها، وكانت تتساءل أحياناً إن كان الناس حقّاً يؤمنون بأنّ الذين ماتوا منحوا حبّاً غير مشروط. لعلّهم لا يصدّقون ولن يصدّقوا ذلك في وقتٍ لاحقٍ أيضاً. غير أنّ ذكرياتها عن والدتها تميّزت بالرقّة والحنان نفسهما اللتين تحدثت عنهما ليام أيضاً عند استرجاعه ذكرياته. وكانت تتساءل في بعض الأحيان عمّا سيكون الوضع عليه إن كانت والدتها حيّة الآن على الرغم من أنّها ستكون متقدّمة في السنّ، أي ستبلغ الثامنة والثمانين من العمر. وفي أثناء رحلتهما هذه بلغت ساشا التاسعة والأربعين من عمرها، فأيقظها ليام في ذلك الصباح، وغنّى لها عيد ميلادٍ سعيد. ثم قدّم لها سواراً بسيطاً من الذهب اشتراه لها من فلورنسا، ولم تنزعه أبداً من معصمها منذ أن وضعته، وعرفت بأنّها لن تنزعه مطلقاً. أما هي فتأوّهت عندما فكرت بأنها بلغت التاسعة والأربعين من عمرها.

وكان فارق السنّ بينهما لا يزال يزعجها أحياناً، ولم يكن بوسعها فعل

أيّ شيءٍ حيال الأمر. وبدا أنّ لديهما نقاطاً مشتركة أكثر ممّا اعتقدت، فكلاهما خسر والدته وكلاهما شغوفٌ بالفنّ، كما أنهما يحبّان القيام بنفس الأشياء في أوقات الراحة والفراغ من زيارة المعارض والمتاحف ودور العبادة والأسواق. وكانا يمرحان ويستمتعان عندما يخرجان من جوّ العمل الضاغط، ويحبّان السفر معاً واكتشاف الحياة بفضول. ولكنهما كانا ينجذبان إلى أنواع مختلفة من الأشخاص، فلطالما أحبّت ساشا الاختلاط مع الأشخاص الأكبر سنّاً والأكثر وقاراً ربما لأنّهم يشبهون والدها ولأنّها لم تلتقِ إلاّ بهذا النوع من الأشخاص معه. كما كانت تتأثّر أيضاً بالسمعة الجيّدة والثقافة والموهبة. أمّا ليام فاسترعت اهتمامه الأشياء المختلفة تماماً، أي كلّ ما هو جديد وغير اعتياديّ وغريبٍ وشبابيّ. أما ساشا فلقد أحبّت الابتكار والغرابة في الفنّ ولكن ليس في الأشخاص. وعندما يجلسان في المقاهي، كانت تراقب الرجال المتقدّمين في السن بينما يذهب ليام بنظره نحو الشباب وفي غضون دقائق، يكون قد رأى كلّ من في المكان من شباب. كان ليام يشعر بالراحة أكثر مع الأشخاص الذين يكونون في العقد الثاني أو الثالث من العمر، فيما فضّلت هي الذين في مثل سنّها أو أكبر ممّا يُنشئ هوّة تبلغ عقوداً عدّة بينهما وبين الأشخاص الذين يلتقونهم. ولكن الجميل في الاختلاف بينهما هو أنّهما تعلّما الاحترام والتساهل، الأمر الذي لم يكن بغاية السهولة. وكانت تشعر بالملل من التواجد برفقة الطلاب المسافرين وحتى الفنّانين الشباب. وإذ إنها تحسّ بأنّها لا تملك شيئاً لتقوله لهم، فلم تكن مهتمّة بأفكارهم الصبيانيّة بعكس ليام الذي اعتقد بأنّ المرء يستطيع تعلّم الكثير من خلال الشباب، وكان يعتبر نفسه واحداً منهم إلى حدٍّ كبير. وأحسّت ساشا عندما كانت تراقبه معهم بأنّه ينتمي إليهم وشعر هو أيضاً بذلك. كما أخبرها بأنّ التحدث مع الأشخاص الذين تهتمّ بهم يجعله يريد النوم. وهذا ما شكّل بالتأكيد حجر عثرة بينهما. غير أنّ سفرهما معاً، والابتعاد عن حياتهما المعتادة أتاحا لهما اكتشاف عالمٍ جديدٍ في كلّ مرّة.

– "ماذا تفعل مع امرأةٍ في سنّي؟" سألته ساشا ذات يوم فيما غادرا دار

عبادة يعود إلى القرن الرابع عشر، وتوقفا لشراء المثلجات على جانب الطريق. إذ بدا ليام كالطفل الكبير بينما كان يأكل من المثلجات التي سالت في كلّ مكان. أمّا هي فحملت مثلّجاتها في منديلٍ اشترته من متجر هيرميس، وشعرت بأنّها كوالدته بل أسوأ أحياناً كجدّته. وتابعت قائلةً: "ستتعب يوماً ما وتملّ من التواجد مع امرأةٍ كبيرة في السنّ".

شكّل هذا أكثر مخاوفها على الإطلاق، فلطالما لاحظته يحدّق إلى نساءٍ شابات. ولكنّه حتّى الآن، وعلى حدّ علمها، لم يقم بأيّ شيءٍ حيال الأمر بل كان ينظر وحسب. وبقيت متيقّظة في مراقبته وشعرت بالغيرة أكثر ممّا اعتقدت بأنّها ستفعل يوماً. فمهما كانت جذّابة وجميلة، إلاّ أنّ الأجسام الشابة كانت بدون شكّ أكثر جاذبيّةً وإغراءً منها.

– "أحبّ النظر إلى الشابات الحسناوات أحياناً، بل في غالبيّة الأحيان في الواقع"، اعترف لها فوراً، "ولكنّني أحبّ التحدث معك والتواجد برفقتك. أنت الوحيدة التي تثيرني من بين كلّ النساء اللواتي عرفتهنّ. ولا أهتمّ مطلقاً بسنّك".

ابتسمت له ورمت ما تبقّى من المثلجات، بينما كان ما يزال يأكل، وعندما انتهى مسح يديه بسرواله مما أحدث فوضى أكبر. جلست تنظر إليه بكآبة، فأسلوبه الصبيانيّ هو الذي كان يُشعرها أحياناً بتقدّم السنّ، وليس فارق العمر بحدّ ذاته. وأضاف قائلاً: "أحبّك ساشا، أنتِ امرأةٌ جميلة. وحسناً، أنتِ لستِ في الثانية والعشرين من العمر، من يبالي؟ فامرأةٌ في العشرينيات من العمر لا تهمّني ولا تفهمني، ولكن أنتِ تفعلين". ولم تخبره بأنّها ليست متأكدة أحياناً بأنّها تفهمه، غير أنّها تعرف ماذا يعني وماذا يتوقّع منها من تساهلٍ ورعايةٍ وتفهّم فوق كلّ شيء. وكان في بعض الأوقات يحتاج للعطف والحبّ إذ يتمحور تفكيره حول نفسه كالأولاد، وكان يحبّ الطريقة التي ترعاه فيها، فكانت تنجح دائماً عندما تعامله كالولد. ولكنّه في أحيانٍ أخرى، كان يرغب بنيل الاحترام، ويعبّر عن نفسه بأسلوبٍ لافت. وكانا يبدوان متساويَين أحياناً،

ومتناقضين أحياناً أخرى. ولكن في الواقع، لم يكونا متساويين أبداً، فهي تكبره سناً، وأكثر نجاحاً في حياتها، وأكثر خبرةً وقوّةً في عالم الفنّ، وكانت شخصيّةً مهمّةً ومحترمةً وحظيت بالمال الكثير. وكان هو أذكى وأكثر موهبةً وحسب، إذ إنه استطاع إظهار نفسه وإثبات شخصيّته في عالمها. ولكن حتّى الساعة، لم يخاطرا بالدخول سوياً إلى عالمها، وعندما يقومان بذلك، سيبقى الفنّان الشاب بنظر الجميع وهي أحد أهمّ الوكلاء الفنيّين وأكثرهم احتراماً. وأنشأ هذا اختلافاً كبيراً بينهما، فالآخرون سيولونها اهتماماً أكثر، وهذا ما سيزعجه برأيها لأنّ ليام يحبّ أن يكون موضع الاهتمام. ولطالما كان كذلك مع الشابات. أمّا الأشخاص في سنّها فيتوقّعون منه أكثر من تقديم اللوحات الرائعة والمظهر الجيّد والشعر الأشقر، إذ يتوقّعون أن يبدو إنساناً جدّياً وهذا ما لم يكن عليه أحياناً. ولكن هي أيضاً لم تكن جدّيةً برفقته وأحبّت هذا خلال الأوقات التي أمضياها معاً، وكذلك الطريقة المسليّة التي كانت تتصرّف بها. وكانا أحياناً يضحكان كثيراً على القصص التي يخبرانها لبعضهما لدرجة أن تنهمر الدموع من أعينهما من شدّة الضحك. فما من أحد جعلها تضحك في حياتها كما يفعل ليام أو مارس الحبّ معها بنفس الطريقة.

قدّم أحدهما للآخر فوائد كثيرة من علاقتهما، ولكن مع الكثير من المخاطرة أيضاً.

وعندما ذهبا إلى روما، قصدا وكيلاً فنيّاً أعجبت به ساشا وتعاملت معه وهو رجلٌ في أواخر العقد السادس من عمره، ولطالما احترمت أفكاره. وعندما قابلاه، كان ليام في مزاجٍ سيّئ، وتصرّف كتلميذٍ يشعر بالملل حين جلسا في مكتبه. وبدا ليام مستاءً إذ راح يحرك رجليه، ويضرب بهما الطاولة إلى أن التفتت ساشا إليه بهدوءٍ وطلبت منه أن يتوقّف. انزعج للغاية من التأنيب وثار غاضباً. أمّا زميلها فرفع حاجبيه متعجّباً ولكنّه لم يعلّق. ونتيجةً لتصرّف ليام، كان عليها رفض دعوة الغداء مع الوكيل الفنيّ.

وبعد ذلك، جرى نقاشٌ طويلٌ بينهما حول ما جرى ومدى سوء تصرّفه

بنظرها. وكانت هذه اللحظة المتشنّجة الوحيدة أثناء الرحلة. واعتذر ليام منها لاحقاً بعد أن مارسا الحبّ في تلك الليلة، وأخبرها بأنّه شعر بالملل والتعب ولم يعجبه كيف كان الرجل ينظر إلى ساشا فشعر بالغيرة. غير أنّ الأوان كان قد فات لإقناع الوكيل الفنّي في روما بأنّ الرجل الذي أحضرته معها هو راشدٌ ذكيٌ ومتحضّرٌ. وخشيت أنّ هذه الحادثة لا تنذر بالخير للمستقبل، فغالباً ما يتوجّب عليها حضور اجتماعاتٍ مثل هذا في حياتها، وأحياناً لم يكن ليام مؤهلاً لمرافقتها. في الواقع، نادراً ما كان كذلك. إذ عندما يشعر بالملل، أو بأنّه مُهملٌ، أو لا يلقى الاهتمام اللازم، يبدأ بالتصرّف بعصبيّة وبصبيانيّة كالأطفال، إلى حدّ أنّه يصعب تصديق بأنّه بلغ سنّ الأربعين. وبدا في بعض الأحيان بأنّه في العشرينيات من العمر وهذا ما يشكّل جزءاً من مظهره الجذّاب وروعة دخوله إلى حياة ساشا. وما زال عليهما العمل بجهدٍ لإنجاح الأمر، ولكن تميّزت رحلتهما إلى إيطاليا إجمالاً بالنجاح الكبير.

اتصلت ساشا بوالديها عدّة مراتٍ أثناء سفرها مع ليام. وكان كلٌّ من كزافييه وتاتيانا يحظيان بعناوينها وأرقامها أينما كانت، ولكنّهما نادراً ما كانا يتصلان بها. وكانت ساشا تتصل بهما غالباً لأنّه كان من الصعب إيجادها، ولطالما أقفلت هاتفها الخلويّ. وتسجّلت هي وليام في الفنادق تحت اسم ليام أليسون وساشا بوردمان ممّا شكّل موضوع مزاحٍ بالنسبة لليام الذي قال بأنّ الاسم يبدو كشركة محاماةِ أليسون وبوردمان أو كمحاسبي الضرائب. وكانت بعض الفنادق أحياناً تخطئ بالاسم، وتسجّلهما كشخصٍ واحدٍ أليسون بوردمان ولكنّهما لم يمانعا. وضحكت تاتيانا من الأمر عندما اتّصلت بوالدتها في فلورنسا، وأخبرتها بأنّها سألت عن ساشا بوردمان، فقالوا لها بأنّ لديهم شخصاً واحداً مسجّلاً تحت اسم أليسون بوردمان، فخمّنت بأنّه الشخص المطلوب مع خطأ في الاسم الأول. ولم يعنِ الأمر شيئاً بالنسبة لتاتيانا. فلو حدث هذا مع كزافييه لكان تنبّه فوراً، إلاّ أنّ تاتيانا لم تعرف أيّ رابطٍ بين والدتها وليام سوى أنّها وكيلته الفنيّة. وبهذا لم تشك للحظةٍ بأنّه كان يرافقها. وضحكت ساشا

مع ابنتها على سخافة الموظّفين في الفنادق وحتّى الفخمة منها بحيث يخطئون بتسجيل اسمها.

ولم تتنبّه ساشا للأمر في حينها، ولكن الشيء نفسه حصل مع برنارد عندما اتصل بها من المعرض في باريس. فقد صحّح الخطأ في الاسم الأوّل غير أنّ عاملة الهاتف أصرّت ثمّ صحّحت الاسم بنفسها إلى السيد أليسون والسيدة بوردمان ممّا أثار دهشة برنارد ولكنّه لم يقل شيئاً لساشا حول الموضوع إلاّ عندما عادت إلى المنزل.

كان اليوم الأوّل من عودتها حافلاً بالأعمال، فحاولت شقّ طريقها في المكتب عبر كومة الأوراق والرسائل ورقائق العرض التي وصلتها من فنانين جدد. تراكمت كلّها على مكتبها خلال الأسابيع الثلاثة من غيابها. كان هذا كثيراً، ولكنّه الثمن الذي عليها أن تدفعه لقاء رحلتها.

توقّف برنارد في مكتبها لبرهة، ثمّ جلس قبالتها ونظر إليها بترقّب وتساءل إن كان الوقت مناسباً لفتح الموضوع، وما إذا كان عليه أن يفعل ذلك حتّى. ولكنّه لطالما قلق بشأنها واهتمّ بها كأخٍ كبير، وهو أيضاً مثلها، تلقّى التدريب على يد والدها، وعمل في المعرض لأكثر من عشرين عاماً. فلقد بدأ قبل أن تنتقل إلى نيويورك وتفتتح المعرض الآخر هناك. وكان يكبر ساشا بعشرة أعوام، ولكنّها بطريقةٍ ما شعرت بأنّهما تربّيا وكبرا معاً في عالم الفنّ.

جلس ينظر إليها عبر المكتب لوقتٍ طويلٍ فيما كانت ترى بعض رقائق العرض عن الرسوم. وكانت قد أخبرته عن كلّ الفنانين الذين قامت بزيارتهم، وبخاصةٍ تلك الفنّانة التي أعجبتها في نابولي وأحبّت أعمالها وشخصيّتها أيضاً.

– "هل أُخطئ في الظنّ بأنّ مستشاراً فنياً ما رافقك في الرحلة؟" سألها برنارد بلطفٍ ثمّ أضاف بسرعة: "ليس عليك إخباري إن كنت لا تريدين هذا ساشا. هذا ليس من شأني". وللحال توقّفت عن عملها ونظرت إليه مفكّرةً ثمّ هزّت برأسها.

– "كيف عرفت؟".

– "سجّلكما الفندق في روما تحت اسم أليسون بوردمان وعندما صحّحت الاسم أخبروني بأنّه السيد أليسون والسيدة بوردمان".

– "حصل الأمر نفسه مع تاتيانا عندما اتصلت بي في فلورنسا، لحسن الحظّ بأنّهم لم يخبروها بالجزء الأخير المتعلّق بالسيد والسيدة".

– "هل كلّ شيءٍ على ما يرام ساشا؟" وبدا القلق على وجهه، إذ لطالما اهتمّ بها وقلق بشأنها. فمنذ وفاة آرثر، لم يعد هنالك من يهتمّ بها، أمّا هي فكانت تهتمّ بالجميع وحتّى به هو أيضاً. وكانت رئيسة العمل المثاليّة، وصديقة كلّ من يعمل معها تماماً كما فعل والدها قبلها. وشعر برنارد بالولاء الكبير لكليهما، ولم يثق بأحدٍ ما عداهما وزوجته.

– "أعتقد بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام"، أجابت ساشا بهدوءٍ وابتسمت له. "ليس هذا ما توقّعت بأنني سأفعله في حياتي ومن الغرابة القول بأنّه آخر ما توقّعته". ولا زالت تشعر بالإحراج والارتباك من فارق السنّ بينهما، وتساءلت إن كانت ستستمرّ بهذا الإحساس.

– "شككت بالأمر عندما أقام لديك عشرة أيام، فهذا كرمٌ كبيرٌ من جهتك تجاه أيّ شخص، وحتّى تجاه فنّان جيّد. أعندها بدأ الأمر؟" وكان يشعر بالفضول بالإضافة إلى القلق.

– "لا، كان هذا سبب مجيئه. بدأ الأمر في كانون الثاني/يناير في لندن عندما سافرت لرؤية كزافييه. في الواقع، حدث هذا في اليوم نفسه، بدأت العلاقة بيننا وتوقّفت عدّة مرّات. ولا أعرف بصراحة ماذا أفعل حيال الأمر. نحن مختلفان جداً وهو يصغرني بتسعة أعوامٍ ممّا يشعرني بالغرابة والارتباك. و... ما عساي أن أقول أيضاً... إنّه فنّان... وتعرف ما يعني هذا". عرف كلاهما ماذا يعني ذلك وضحك لكلامها.

– "وهكذا كان بيكاسو"، قال برنارد مبتسماً، "وأحبّه الناس، لنام فتىً طيّب". فلقد أحبّه برنارد واحترم عمله، مع أنّه فضّل الرسامين الأكثر تقليديّة.

– "هنا تكمن المشكلة"، أجابت ساشا بصدقٍ، وشعرت بالراحة لوجود من تخبره بالأمر، وكان برنارد صديقاً ورجلاً حسّاساً. "إنّه صغيرٌ بالنسبة لسنّه، ففي بعض الأوقات يبدو ولداً، وفي أوقاتٍ أخرى يكون راشداً". بدا حديثها فلسفياً، ولكنّهما أيقنا بأنّه مع الحياة المعقّدة التي تعيشها، تحتاج لرجلٍ وليس لولدٍ غير ناضجٍ ليكون شريكها.

– "كلّنا أولادٌ في بعض الأحيان، حتّى أنّ زوجتي ما زالت تعاملني كولدٍ في الثانية عشرة من عمره، وأنا أبلغ التاسعة والخمسين. ولأقول الصدق، أحبّ ذلك، فهذا يشعرني بالراحة والأمان والحبّ". أخبرها ذلك بصراحةٍ كلّيّة بينما نظرت إليه ساشا بعينين شاردتين مفكّرتين.

– "أعتقد بأنّ ليام يشعر بالأمر نفسه، فقد توفيت والدته عندما كان في السابعة من عمره. أحبّ أن أهتمّ بالرجال في حياتي وبكلّ من حولي في الواقع، ولكنّني لا أريد أن ألعب دور الأمّ طوال الوقت مع أنّني قد أُجبر على ذلك أحياناً، كما لا أريد أن أبدو كوالدته وأخشى في بعض الأحيان أن يصحّ ذلك".

– "كلا، هذا ليس صحيحاً، تسعة أعوامٍ ليست بالفارق الكبير ساشا". ولم يكن معترضاً على العلاقة بينهما، ولم يكن حتّى من شأنه أن يفعل. بل كان قلقاً عليها فحسب، وأرادها أن تكون سعيدةً، فقد علم مدى شعورها بالوحدة منذ وفاة آرثر، كان قلبه يتألّم من أجلها. ولم يعد باستطاعة أحد منهم مدّ يد المساعدة لها أكثر، ولعلّ ليام يقدر على ذلك.

– "هذا صحيحٌ، ولكن مع ليام يبدو فارق السنّ كبيراً للغاية. فهو يتسكّع مع فنّانين في العشرينيات والثلاثينيات من العمر، أمّا أنا فأشعر بأنّني أبلغ مئة عامٍ عندما أكون برفقتهم".

– "هذه مشكلة"، أقرّ برنارد، ثمّ تنهّد وتابع: "ليس عليك اتخاذ أي قراراتٍ كبيرةٍ، هذا ما آمله في النهاية". ولم يُردها أن تخاطر وتتزوّجه في نزوةٍ عابرةٍ، ولكنّه عرف بأنّ ساشا لن تقدم على هذا الأمر. فهي امرأةٌ

حكيمة وحسّاسة وحذرة مع أنّ العلاقة مع ليام ليست عاديّةً بالنسبة لها، وأظهرت من خلالها جانباً لم تختبره من شخصيّتها.

– "لا تقلق، لن أقوم بأيّ أمرٍ متهوّرٍ، ولم أخطّط لأيّ شيءٍ، بل أودّ الاستمتاع بوقتنا معاً قدر ما يستمرّ". وما زالت تؤمن بأن علاقتهما ستدوم لفترةٍ أطول، غير أنّها لم تحمل الكثير من الآمال للمستقبل. وارتاح برنارد لسماع ذلك واعتقد بأنّ علاقةً عابرةً مع ليام هي أمرٌ جيّدٌ، ولكن قضاء العمر معه هو أمرٌ آخر.

– "هل يعلم الولدان بهذا؟".

– "كلا، لا يعرفان شيئاً. قد تقتلني تاتيانا ولست واثقةً من ردّ فعل كزافييه وشعوره، فهو وليام صديقان ومن الصعب توقّع ما سيحدث. لست على عجلةٍ لإخبارهما ولن أفعل إن لم أكن مجبرة. من يعلم إلى أين ستصل علاقتنا، فوقتنا معاً تميّز بالغرابة، وبعد أن توقّفنا عن رؤية بعضنا من شباط حتّى نيسان، عاودنا العلاقة قبل الرحلة التي كانت رائعةً. سنرى ما الذي سيجري بعد ذلك". وبدا حديثها فلسفياً للغاية ولم تشعر بالضغط.

– "أبقيني على اطّلاع"، قال برنارد بينما كان يقف، كان سعيداً لأنّه سألها، وأحسّ بأنّه سرٌّ يستوجب الحذر والكتمان.

كان هذا كلّ ما أراد معرفته، وبدت ساشا سعيدةً مع ليام. "أخبرني إن كان هناك ما بوسعي فعله للمساعدة". وكان هذا كافٍ بالنسبة له الآن.

– "لقد ساعدتني للتوّ، لا تخبر أحداً بالأمر فحسب، لأنّني لم أخطّط بعد لإخبار أيّ شخص قبل أن نرى كيف ستسير العلاقة". ووافق برنارد على هذا. ساعدها كثيراً التكلّم معه، وأراحها بعد أن شعرت بالقلق من أن يرتعب من حولها لدى معرفتهم بالخبر لدرجة أن يقعوا عن كراسيهم من شدّة الصدمة والرفض. ولكنّ برنارد بدا مرتاحاً للأمر وهذا ما حسّن من حالة ساشا. ولم تنوِ إخبار أوجيني في ذلك الوقت أو أي أحد آخر في المكتب، مع أنّ أوجيني كانت تجيب على اتصالاته في المرّات القليلة التي يتّصل فيها بالمعرض.

فمعظم الأوقات كان يتّصل بها على هاتفها الخلويّ. كما لم تنوِ إخبار ولديها لوقتٍ طويل، وهذا ما اتّفقت عليه مع ليام، واعتقدا بأنّه قرارٌ حكيمٌ. فمن شأن إخبار الولدين أن يعقّد الأمور، وظنّا أنّه من الأفضل التعامل مع الأمر برويّة. غير أنّ العلاقة هذه المرّة كانت تسير جيّداً حتّى الآن على الأقلّ.

أتى ليام إلى باريس في نهاية الأسبوعين التاليين. كان الطقس جميلاً، وأمضيا وقتاً ممتعاً معاً، وكانا في مزاجٍ جيّدٍ. وكانا سويّةً طيلة الوقت ولم يقابلا أيّاً من أصدقائهما. أرادا البقاء بمفردهما وكان عليهما القيام بالكثير من الأمور معاً في الوقت القليل المتسنّى لهما، فلم يرغبا بمشاركته مع الآخرين سواء كانوا أصدقاءه أو أصدقاءها. وكان يعمل جاهداً خلال الأسبوع للتحضير لمعرضه في كانون الأول/ديسمبر في نيويورك. أمّا هي فكانت متحمّسةً لكي يرى الجميع لوحاته، وبالكاد استطاع انتظار حلول الوقت بينما كان عمله في محترفه في لندن يسير جيّداً.

وفيما تنزها معاً في بوا دو بولون برفقة سوكس، سألته كعادتها عن أولاده في فرمونت. فلطالما شجّعته للتحدث عنهم، فقد علمت كم يفتقدهم، إذ لم يرهم منذ عامٍ. وكانت معاملات الطلاق تتمّ على ما يرام وستنتهي بحلول عيد الميلاد. وأخبرته بيث بأنّها ستتزوّج ما إن تحصل على الطلاق. وكان هو مرتاحاً، بعد أن تخطّى الموضوع واقتنعت ساشا بهذا. فكلاهما تخطّيا موضوع الانفصال، غير أنّ الأولاد برأيها ما زالوا بحاجةٍ إليه، وهو أيضاً بحاجةٍ إليهم ربما أكثر ممّا اعتقد أو أراد الاعتراف به. وبرأي ساشا، يبدو أسهل بالنسبة له ترك بيث تتولّى أمورهم فيما يبقى هو بعيداً.

– "لماذا لا تذهب لرؤيتهم في الصيف ليام؟" سألته مشجّعةً بينما رمى قضيباً صغيراً "لسوكس" الذي أخذ يطارده للإمساك به. كان قد علّم الجرو بضع حيلٍ وألعابٍ، وتبيّن بأنّه كلبٌ لطيفٌ رائعٌ. وكانت ساشا مولعةً به أكثر لأنّه هديّة من ليام ليس إلاّ. "عليّ أن أقضي بعض الوقت مع ولديّ في آب/أغسطس". إذ كانوا جميعاً يملكون الوقت حينها، وكانت تحبّ التمتّع بكل

لحظة تسنح لها معهما، كما تحبّ أن تسافر معهما في العطلات، الأمر الذي أصبح نادراً مع تقدّمهما في السنّ وتمتّعهما بحياتهما الخاصة الصاخبة والمليئة بالعمل. وعلمت بأنّه سيحين الوقت ويصبح لديهما اهتمامات أخرى، لذا كانت ترى في هذه العطلات الفرصة لرؤيتهما مع أنّ كلّ عامٍ يبدو الأخير بالنسبة لهما للقيام بتلك الرحلة. "ربما نستطيع السفر معاً إلى مكانٍ ما بعد أن تمضي بعض الوقت كلٌّ مع أولاده". وكانت دائماً تنظّم له أموره مما أزعجه حيناً، وأسعده حيناً آخر وقد علم أنّ هذا ما تفعله للجميع. فقد كانت أشبه بالأمّ الحنون التقليديّة التي تخاف على أطفالها، وهذا ما أحبّه فيها أيضاً وبخاصةٍ عندما تهتمّ به، وترعاه.

– "لا أعلم إن كانوا يودّون رؤيتي"، أجاب ليام بصدقٍ. وأخبرها بأنّهم دائماً غاضبون منه لأنّه ابتعد عنهم طوال هذه المدّة وهذا ما أخاف ساشا. فهو نادراً ما كان يتّصل بهم وعندما يفعل، يكون الحديث صعباً ومرتبكاً. وكان أولاده يلقون اللوم عليه ويتّهمونه علناً بأنّه السبب بانهيار زواجه من والدتهما. فقد أخبرتهم بيث بما يكفي للغضب منه من دون ذكر خيانته والتفاصيل الشنيعة، ولكن لم يسامحه أحدٌ منهم. وأدّى هذا الأمر إلى صعوبة الاتصال بينهم، كما لعب البُعد دوره. وشعرت ساشا بالقلق من أنّه لو انتظر أكثر لرؤيتهم، فسيصبح الضرر كبيراً إلى درجة لن يتمكن بعدها من تصحيحه وإن خلال سنواتٍ. وحذّرته من هذا أيضاً. فبعد عامٍ واحدٍ فقط، لا يزال هناك متّسع من الوقت للتغلّب على الفتور بينهم، فأولاده ما زالوا صغاراً ممّا قد يسهّل الموضوع. وكان ابنه البكر في الثامنة عشر من عمره وسيدخل الجامعة في أيلول/سبتمبر، أما ابنه الثاني فيبلغ اثني عشر عاماً، وابنته بلغت للتوّ سنّ السادسة. كانوا صغاراً في السنّ بحيث يمكن إعادة بناء علاقة لهم مع والدهم إن بذل جهداً، خاصة وأنّ ساشا قد عرفت مدى حبّه لهم. وغالباً ما بدت الدموع في عينيه عندما يتكلّم عنهم، ولطالما أخبرها بأنّه يفتقدهم بشدّة. غير أنّه بدأ يشعر بأنّهم أصبحوا أولاد بيث الآن أكثر ممّا هم أولاده، فهي تراهم كلّ يومٍ خلافاً له.

– "لماذا لا تسألهم؟" اقترحت ساشا، "هل تعتقد بأنّ بيث ستتركك تأخذهم إلى مكانٍ ما في العطلة؟" وفكّرت في عرض منزلها في هامبتونز عليه ولكنّها لم تودّ التدخّل، وكذلك لم تكن تعرف إن كانت تاتيانا قد خطّطت لاستعماله. وظنّت بأنّها ستفعل لأنّ ولديها أحبّا ذلك المنزل والذكريات التي عاشاها فيه في طفولتهما. وهي أيضاً احتفظت ببعض الذكريات فيه عنهما وعن أرثر.

– "لست واثقاً إن كانت ستسمح لي باصطحاب الأولاد. فهي ليست على وفاقٍ معي هذه الأيّام". وعلى حدّ ما علمت ساشا منه، كانت المساعدة التي أرسلها إليها خلال العام الماضي ضئيلة وكانت بيث تتلقّى الدعم المادي من زوجها العتيد ممّا أحرج ليام وعقّد الأمور أكثر. أعطته ساشا دفعةً مسبقةً، ولكن عليه العيش وشراء أدوات الرسم والألوان ولم يستطع تحمّل إرسال الكثير لها. وأملاً بأن تتحسّن الحالة بعد عرضه الافتتاحيّ. غير أنّ وضعه المادي في الوقت الراهن كان صعباً، وكذلك وضع بيث التي كانت تتعامل مع هذا الأمر ومعه خلال عشرين عاماً إلى أن ضاقت ذرعاً في النهاية. ولم يُلقِ ليام اللوم عليها أبداً، فستكون أفضل حالاً مع زوجها الجديد وكان سعيداً لأجلها. كما كان هو أيضاً سعيداً مع ساشا، وأكثر ما يفتقده الآن في حياته هم أولاده.

عرضت عليه ساشا: "لماذا لا تتصل بها وبالأولاد؟" ووعد بأنّه سيفعل خلال الأسبوع. وبعد أن تحدّث معهم، اتّصل بساشا وأخبرها عمّا جرى وعن الحديث مع بيث. بدا مرتاحاً وشكر ساشا لأنّها شجّعته على ذلك.

– "لا تريدني أن أصطحب الأولاد بعيداً، ولا أستطيع تحمّل تكاليف هذا أيضاً. ولكنّها قالت إنّه يمكنني زيارتهم وأخذهم لبضعة أيّام إن أردتُ. فيملك أهلها كوخاً صغيراً على البحيرة بقرب المكان الذي يعيشون فيه وبإمكاني استعماله. أمّا الأولاد فيحبّونه ويستمتع الصبيّان بالذهاب للصيد هناك". وبدا ذلك الحلّ الأفضل للجميع، فلقد أرادته بيث أن يذهب هذا الشهر لأنّها كانت

منشغلةً بقيّة الصيف إذ خطّطت لزيارة حمويها المستقبليين في كاليفورنيا، والذهاب في رحلة عبر غران كاين.

– "يبدو هذا رائعاً"، قالت ساشا مرتاحة، "كنت سأحدّثك عن هذا على أيّ حالٍ. عليّ أن أسافر إلى نيويورك في شهر حزيران/يونيو وأنوي قضاء بضعة أسابيع هناك وأردت أن أسألك إن كنت تودّ مرافقتي. وبما أنّنا نُبقي العلاقة سريّة، بوسعك البقاء في الشقّة معي". فابنتها تاتيانا كانت كثيرة الانشغال بحياتها الخاصة، ونادراً ما ترى والدتها عندما تكون هناك ولا تأتي إلى الشقّة بشكلٍ مفاجئ أبداً، كما أنها لا تقيم هناك الآن لأنّها تملك منزلها الخاص في تريبيكا. وسيكون وجود ليام سهل الإخفاء.

– "ربما لا يجدر بي أخذ استراحةٍ حالياً وبخاصةٍ مع اقتراب العرض، ولكن يا إلهي ساشا، أودّ ذلك". وبدا هذا مناسباً لكليهما، إذ اشتاق أحدهما للآخر أكثر من أيّ وقتٍ مضى بعد رحلتهما إلى إيطاليا في أيار/مايو. وافتقدت ساشا العيش معه وكان عليهما القيام بأمورٍ عدّة في نيويورك. وسألها مستفسراً: "متى ستسافرين؟".

– "خلال عشرة أيامٍ، كنت سأخبرك عن هذا خلال عطلة نهاية الأسبوع".

– "اعتمدي عليّ، سأذهب معك". وشعر بالحماس الشديد.

– "إن استطعت إيجاد بعض الوقت، ربما يمكننا تمضية بضعة أيامٍ من الشهر هناك"، اقترحت ساشا. وارتسمت السعادة على وجهيهما لأنّهما أحبّا وقع هذا، وخاصة لأنّ رحلتهما إلى إيطاليا معاً تكلّلت بالنجاح، وعسى أن تكون هذه الرحلة كذلك أيضاً مع فارقٍ بسيط، لأنّه يتوجّب على ساشا أن تعمل. "يمكننا تمضية الرابع من تموز/يوليو في نيويورك ثمّ العودة إلى أوروبا".

وخطّطت للعمل في معرض باريس في تموز/يوليو، والسفر بعدها مع الولدين في عطلةٍ في شهر آب/أغسطس. وسيذهبون هذا العام إلى سان تروبيز وهو مكانٌ لطالما أحبّه الولدان، ولقد استأجرت مركباً لهذا الغرض لتدليلهما.

وخطّط كلٌّ منهما لدعوة أصدقائه الأمر الذي لم يزعجها. غير أنّ الجزء الوحيد الذي كرهته في كلّ هذا هو أنّها ستترك ليام لثلاثة أسابيع. وفكّرت في ما إذا كانت ستتمكّن ربما من دعوته لقضاء نهاية أسبوعٍ على متن المركب بصفته "فنّانٌ زائر"، ولكنّها لم تكن واثقة إذا كان بوسعها التعامل مع الأمر، خاصّة مع فضول تاتيانا. أمّا كزافييه فيعرف ليام جيّداً. وفي أقصى الحالات، فكّرت في الطلب من كزافييه أن يدعوه، ولكنّها لم تُرد مواجهة القدر. وبذلك، ازدادت الاحتمالات بأنّها ستضطرّ إلى الابتعاد عن ليام لثلاثة أسابيع، غير أنّهما سيحظيان في النهاية ببقيّة حزيران في نيويورك معاً.

تحمّسا عندما تكلّما عن تلك الرحلة في نهاية الأسبوع. وكان لليام أصدقاءٌ كثر في نيويورك وتشيلسي وتريبيكا وسوهو. أمّا ساشا فأرادت اصطحابه إلى بعض الأماكن والمناسبات. ولم يلمّحا في حديثهما كثيراً عن تصرفاته كفنّانٍ غريب الأطوار منذ أن عاودا علاقتهما، وشعرت ساشا بالاطمئنان للخروج معه، وبخاصةٍ في نيويورك حيث كانت حياتها أقلّ انشغالاً ورسميّةً ممّا هي عليه في باريس. واعتقدت بأنّه سيتكيّف بشكلٍ أفضل في نيويورك، ولذلك انتظرا الرحلة بفارغ الصبر.

وفيما كانا صباح الأحد متمدّدين على السرير، همست قائلة: "ربما يمكننا قضاء بضعة أيام في منزل هامبتونز. إنّه مكانٌ رائعٌ ولطالما أحببته". وبعد وفاة آرثر منذ عشرين شهراً كان الذهاب إلى هناك صعباً عليها، ولعلّه سيختلف الآن.

- "أحبّ منطقة هامبتونز"، أجابها ليام بعفويّة، ثمّ أكملا الحديث عن عطلته مع أولاده على ضفاف البحيرة. أحياناً، لم يكن يستمع، وكان يتصرّف كالأطفال. كما أراد في بعض الأحيان أن يشكّل محور كلّ الأمور ولا أحد سواه. وأدركت ساشا بأنّ الأمر ليس شخصيّاً أو علامةً على عدم حبّه لها. لقد فهمت هذا الآن، فهمت بأنّ هذه طريقته في التصرّف إذ لم يُعره أحدٌ أيّ اهتمامٍ في طفولته. ولديه ساشا الآن لتسمع كلّ كلمةٍ يقولها. وأحبّ هذه الناحية لديها.

وتابع قائلاً: "أتمنّى لو ترافقينني إلى فرمونت"، فيما اقترب منها، ونظر إليها وجهاً لوجهٍ على السرير. وكان قد مارسا الحبّ قبل ذلك بوقتٍ قليل، وبدا أنّ حبّهما يصبح أقوى مع الوقت مع أنّها وجدت صعوبةً في تصديق هذا الأمر لأنّ العلاقة الحميمة بينهما كانت رائعةً منذ البداية.

- "عليك أن تمضي الوقت بمفردك مع الأولاد، وذلك لإعادة لمّ الشمل بينك وبينهم"، قالت بعطفٍ وتفهّم. وأدرك بأنّها محقّة، وتملّكه بعض الخوف لرؤيتهم إذ عرف بأنّ ابنيه كانا شديدي الغضب منه لابتعاده عنهم طوال تلك المدّة. أمّا ابنته شارلوت التي تبلغ السادسة من العمر، فكانت متحمّسةً لرؤية "البابا". وتحدّث معهم قبل أيّام عبر الهاتف بعد أن انقطعت الاتصالات بينهم لأشهر، إذ كان ذلك يغيب عن تفكيره في بعض الأحيان. ولطالما اختلقت بيث له الأعذار وغطّت أخطاءه كوالدٍ غير أنّها لم تكن تنوي الاستمرار بذلك. كما عانى من مقارنته بخطيبها الذي كان حاضراً دائماً معهم، وشديد الاهتمام بهم. ونتيجةً لذلك، تلقّى ليام ضربةً بسبب غيابه لمدّة عام. وتوجّب عليه الآن إصلاح الأمور معهم، وأدرك صعوبة الأمر مع أنّه أراد بشدّة القيام بهذه الخطوة. وتملّكته الحماسة لقضاء بقيّة حزيران في نيويورك برفقة ساشا.

ثمّ سألها بينما تمدّد على ظهره ملتفتاً نحو السقف مبتسماً: "هل ترافقينني إلى مباراة اليانكيز ساشا؟" وبدا كالولد الذي بالكاد يستطيع انتظار أن يحين وقت الذهاب إلى المخيّم الصيفي.

- "قد أفعل أيّ شيءٍ تريده ضمن حدود العقل. ولكن عليّ أن أعمل أيضاً. غير أنّني أعتقد أنّه بإمكاننا تدبّر الأمرين معاً؛ العمل والمرح. وأودّ أن ترى المحيط الذي ستقدّم عرضك فيه".

- "حسناً"، أجابها مبتسماً، "تجعلينني أشعر كأنّني ملك".

- "هذا جيّد". ونظرت إليه ضاحكةً، ثم اقتربت منه واحتضنته. فهو أيضاً يُشعرها كالملكة أحياناً، وكالوالدة أحياناً أخرى.

الفصل الحادي عشر

سافر ليام إلى باريس مساء يوم جمعةٍ، واستقلاّ الطائرة معاً باتجاه نيويورك صباح الأحد. قدّمت له ساشا تذكرة السفر، وجلسا في الدرجة الأولى جنباً إلى جنبٍ. وبدا ليام فرحاً كولدٍ في العيد وأخذ كلّ ما قُدّم له على متن الطائرة من كافيار وشراب، كما تناول غداءه وقسماً من طبق ساشا أيضاً ثمّ أرجع مقعده إلى الوراء واستلقى لينام وغطّى نفسه حتّى أنّه ارتدى ثياب النوم، وأظهر بذلك إشارات واضحة على سلوكه الغريب الجامح. شاهد فيلمين وتناول الحلوى واستخدم كلّ ما في خزانة المرحاض ودعا ساشا للانضمام إليه هناك. فابتسمت ساشا بعد أن رفضت عرضه وقالت: "أعتقد بأنّهم سيطلبون منك أن تلتزم الهدوء في الرحلة القادمة، فلقد فعلوا هذا مرّةً مع كزافييه بعد أن أُصيب بالغثيان في الطائرة وخرج عن السيطرة كمحركٍ نفّاثٍ بعد أن تسبّب له الدواء بمفعولٍ عكسيّ فراح يتقيّأ ولم أرَ في حياتي ولداً بهذه الحركة والانفعال، وتركوه يُنهي ذلك على متن الطائرة إلى أن استعاد صحّته". ولكنّ ساشا لم ترَ أبداً شخصاً يستمتع في الطائرة ويستلذّ في الرحلة كما فعل ليام الذي لم يتوقّف عن شكرها من ساعة الإقلاع إلى الهبوط.

وبينما أرجع مقعده إلى الوراء ثانيةً ومدّ رجليه، قال لها بسعادة: "لطالما اعتقدت أنّه من الطبيعيّ أن أجلس في الطائرة في مقعدٍ ضيّقٍ حيث لا أستطيع مدّ رجليّ فيه، وحيث كلّما تحركت أشعر بمرفق من بجانبي يصطدم بي. إنّ الجلوس في الدرجة الأولى أفضل بكثير".

وبدا أنّه يتمتّع بمزاجٍ جيّدٍ ومرحٍ عندما هبطت الطائرة وتوجّها إلى الجمارك في نيويورك، فكان يمزح مع كلّ من يلتقي بهم. وكالعادة تعرّف بكلّ

الركاب الذين كانت ساشا تعرف معظمهم من رحلاتٍ سابقة. ودعا رئيس الجمارك باسمه، وتحدث عن البايسبول مع المسؤول عن الطاقم فيما كانت ساشا تبحث عن سيّارتها والسائق. وحتّى عبارة "زاخر بالحيويّة" لم تكن تعبّر بما فيه الكفاية عن سعادته وحماسته لوجوده هناك معها. وعلى الرغم من تصرّفه الحيويّ والحركيّ، أحبّت ساشا رفقته.

وهدأ في النهاية عندما وصلا إلى شقّتها، وتأثّر بمدى أناقة الأثاث وأعجبته التحف الموجودة فيها، واللوحات المميّزة لأشهر الفنّانين كمونيه ورينوار ودوغاس، وسلسلة من رسوم دافنشي التي لا تُقدّر بثمن، وعدد آخر من اللوحات التي لم يسبق أن رأى مثلها في حياته. بدت شقّتها في نيويورك رسميّة الأسلوب أكثر من جناح منزلها في باريس الذي أبقته بسيطاً وعصريّاً عندما أعادت ترميمه. أمّا شقّتها الأميركيّة فجمعت العديد من لوحات أهمّ الفنّانين والتي اشترى والدها معظمها ثمّ قدّمها لها.

"يا للروعة ساشا... إنّها لوحاتٌ ثمينة..." ووقف مندهشاً أمام لوحةٍ داكنة الألوان لآل غريكو لم تحبّها أبداً، ولكنّها أبقتها في الممرّ. فسحبته من يده وقادته لتريه غرفة نومها. وشعرت بالتردّد لوهلةٍ قبل الدخول إلى الغرفة لأنّها لم تتشارك فيها مع أحدٍ غير أرثر، ولكنّ الوقت حان الآن وكانت مستعدّةً لفتح باب غرفتها وأبواب قلبها وحياتها لليام.

طلبت منه أن يضع أغراضه في غرفة الضيوف في حال أتى أحد ولديها فجأةً إلى الشقّة، كما لم تُرد أن تصدم الخادمة التي كانت تأتي للتنظيف يوميّاً كما اعتادت أن تفعل منذ أن انتقلت ساشا للعيش في نيويورك مع عائلتها. ولم يبدُ ليام منزعجاً من طلبها، فترك حقيبته في غرفة الضيوف ثمّ تحوّل إلى غرفتها ممسكاً بصحن مثلّجات. وشعر أنّه في منزله، فجلس مرتاحاً على كرسيّ أرثر المفضّلة، وراح يقلّب المحطّات على التلفزيون حتى وجد مباراة بايسبول، فالتفت نحوها تعلو وجهه الابتسامة الصبيانيّة نفسها التي تجعل قلبها يخفق بقوّةٍ وانفجر ضاحكاً.

- "هذا رائعٌ ساشا، أشعر بأنّني متُّ وذهبت إلى الجنّة". وكان وضعه المالي قد تحسّن، ربّما ليس بقدرٍ كبير، ولكنّ عائلته حظيت بثروةٍ لا بأس بها. غير أنّ الفارق الوحيد بينهما هو أنّه لطالما عامله أفراد عائلته كغريبٍ منبوذٍ يغرّد خارج السرب لأنّه تميّز بحسٍّ فنّي وكان مختلفاً عنهم. وأحسّ بالراحة كلّيّاً، وبأنّه مرحّب به في شقّتها وفي حياتها أيضاً، وهذا ما شكّل كلّ الفارق في العالم بالنسبة له ولساشا أيضاً الآن. وكان كلّ منهما بمزاجٍ جيّدٍ واستمتعا بالعلاقة التي تشاركا فيها.

واقترحت أن يذهبا تلك الليلة لتناول العشاء في مطعمٍ قريب، واتّصلت بتاتيانا قبل أن يخرجا. وكما توقّعت، كانت ابنتها منشغلةً مع أصدقائها وكان لديها مئة مخطّط لذلك الأسبوع فأخبرت والدتها بأنّها ستمرّ عليها في المعرض لرؤيتها عندما تسنح لها الفرصة، ربّما في استراحة الغداء. وشعرت ساشا بالطمأنينة الكاملة عندما أوت إلى الفراش بجانب ليام تلك الليلة، فلم تكن الخادمة ستأتي قبل الظهر وعندها سيكونان قد غادرا، هي إلى المعرض وليام لرؤية أصدقائه في سوهو. وبدا أنّ سرّهما بأمانٍ هنا وفي حال اكتشف أحدٌ ما الموضوع، فستقول بأنّ ليام ليس سوى ضيف لديها.

وكسب ليام قلبها للأبد عندما طوّقها بذراعيه تلك الليلة في السرير وقرّبها إليه. وعلى الرغم من حماسته لوجوده عندها، تذكّر ملامح وجهها في ذلك اليوم عندما أدخلته إلى غرفتها. وشعر بأنّه من الصعب عليها أن يكون هنا، فهذا ما يُعيد إليها ذكرياتٍ من الماضي.

- "ألستِ بخير؟" همس في أذنها بينما تمدّد بجانبها. وللحال عرفت بأنّه فهم وهزّت برأسها.

- "نعم عزيزي، أنا بخير... شكراً لسؤالك".

- "لا أريد القيام بما يزعجك هنا. إن رغبتِ، سأنام في الغرفة الأخرى". فنظرت إليه وابتسمت له.

- "سأشتاق إليك للغاية، ابقَ بجانبي فأنت بخيرٍ هنا"، ثمّ قبّلته قبلةً لطيفة

أوحت بالبراءة وبأنّها لا تريد منه أيّ شيءٍ أكثر غير التفهّم الذي قدّمه لها. قبّلها بدوره وضمّها قريباً إلى صدره وتعانقا طوال الليل.

اصطحبته إلى المعرض في اليوم التالي، وتأثّر بالمكان الشاسع، وبكيفيّة استخدامه، وبتنظيم الديكور فيه. كما أحبّ أعمال الفنّانين التي عرضوها، وأخذ يحدّق فيها مسترسلاً في تخيّل كيف سيبدو عمله هو في المعرض. بدا ذلك كاملاً، وكوّن فكرةً أفضل عن عدد اللوحات التي سيحتاج إليها وعن قياساتها وأحجامها. وكان مجرّد وجوده هناك يُلهمه. عرّفته بكلّ موظّفيها، وكادت مساعدتها مارسي تفقد وعيها عندما دخل، ونظرت إلى ساشا مذهلةً من وراء ظهره.

– "يا إلهي، يبدو كأحد نجوم السينما"، شهقت متأثّرةً بينما ضحكت ساشا. وكرهت الاعتراف بذلك، ولكنه كان يبدو هكذا أحياناً. وفضّلته أكثر عندما يكونان في المنزل، فيرتدي الثياب القديمة ويكون شعره مرخيّ على كتفيه غير مرتّب. وكانت أحياناً تشعر بالإحباط عندما تخرج برفقته لأنّ ذلك يُشعرها بالتقدّم في السنّ.

– "إنّه شابٌّ لطيفٌ وفنّانٌ رائع"، أجابت ساشا بنبرة عاديّة. "سُررت لوجودنا هنا في نيويورك في الوقت نفسه. أعتقد بأنّه في طريقه إلى فرمونت لرؤية أولاده". وهزّت مارسي برأسها وكانت لا تزال متأثّرةً بجاذبيّته ووسامته. لم يكن وسيماً بنظرها وحسب بل أباً جيّداً أيضاً، فقد جعلته مثاليّاً بعد خمس دقائق من معرفتها به. أمّا ساشا التي عرفته أفضل من مارسي، فكانت أقلّ انبهاراً به، ولكنّها أحبّته وأحبّت كلّ ما فيه وهو أيضاً أحبّها.

أمضى فترة الصباح معها في المعرض يلتقي كلّ الأشخاص ويتسكّع في الجوار. شاهد اللوحات في المخزن، وصعد إلى الطابق العلويّ لرؤية الأعمال الكلاسيكيّة، ثمّ غادر إلى سوهو للقاء أصدقائه بعد أن همس في أذن ساشا بأنّه سيراها في الشقّة لاحقاً وهزّت برأسها.

وللصدفة، أتت تاتيانا بعد مغادرته بخمس دقائق. كانت في طريقها

لإحضار بعض الصوَر من أحد المصوّرين، وتوقّفت لرؤية والدتها. بدت سعيدةً وفاتنةً كالعادة ونظرت ساشا إليها الآن بعينين شابتين. وكانت بنظرها تبلغ سنّ النساء اللواتي لطالما انجذب إليهنّ ليام، فقد بلغت الرابعة والعشرين من العمر. وشعرت ساشا بأنّها قديمة الطراز عندما نظرت إليها، وعرفت بأنّ عليها تخطّي هذا الشعور بعقدة فارق السنّ إن أرادت إنجاح الأمر مع ليام. لم يسبق لها أن فكّرت بسنّها من قبل، أمّا الآن فأصبحت مهووسةً به لأنّها كانت ترى الجميع في سنّ الشباب بينما هي متقدّمة في السنّ.

– "مرحباً أمي، كم من الوقت ستبقين هنا؟" سألتها تاتيانا بينما أخذت قطعة شوكولاته من طبقٍ على مكتب ساشا، وقبّلت والدتها.

– "شهراً على ما أعتقد". وكالعادة شعرت ساشا بالفرح لرؤية ابنتها.

– "هذه مدّةٌ طويلة"، قالت تاتيانا متفاجئةً لسماع هذا لأنّ والدتها لم تبقَ في نيويورك طويلاً خلال الأشهر الأخيرة. فقد كانت الشقّة التي أقامت فيها مع آرثر تحبطها، ولطالما قالت بأنّها تشعر بغيابه أكثر هنا.

– "سنقيم عرضاً خلال هذا الشهر، وعليّ أن أقوم بتنظيمه ولهذا عليّ البقاء هنا لفترة. كيف حالك أنتِ؟".

– "بحالةٍ ممتازة، حصلت على ترقية، ورئيسة التحرير المسؤولة تكرهني، وأنا أريد الحلول مكانها". وبدت تاتيانا وكأنّها على قمّة العالم، وابتسمت بينما نظرت إلى والدتها فلقد كانت سعيدةً لرؤيتها.

– "كلّ هذا يبدو طبيعياً بالنسبة لي". وضحكت والدتها.

– "أراك قريباً، عليّ الذهاب الآن، لقد تأخّرت. أردتُ فقط أن ألقي التحيّة".

أخذت بيدها بعض الشوكولاته بدلاً من وجبة الغداء، وقبّلت ساشا على عجلة لأنّ سيارة الأجرة كانت بانتظارها، التي ما لبثت أن انطلقت ما إن جلست بداخلها.

تميّز يوم ساشا في المعرض بالأعمال الحافلة وهي تعمل على العرض الجديد، فلطالما أحبّت تنسيق عروض الفنّانين بنفسها. وكان عليها أن تنتهي من العمل لملاقاة ليام في الشقّة عند الساعة السادسة. عندما دخلت كان ليام في المطبخ يأكل المثلّجات والبيتزا، فقبّلته.

- "هذا لذيذٌ ما هو؟ مثلّجات بالكريما؟".

- "إنّها بالشوكولاته والبندق"، صحّح لها. "كنت قد نسيت مدى جودة المثلّجات ولذّتها في الولايات المتحدة، ففي بريطانيا، طعمها سيئ للغاية".

- "إنّها أسوأ حتّى في فرنسا"، وابتسمت له، "أمّا المثلّجات فهي جيّدة..".

وجلست إلى طاولة المطبخ ونظرت إليه، وشعرت بالفرح لوجوده قربها بعد يوم طويلٍ متعب. وتصرّف كأنّه في منزله.

- "المثلّجات للأولاد، هذه المثلّجات هي الحقيقيّة. تناولي قطعة بيتزا، سنخرج". ولم تُرد أن تقول له بأنّها متعبةٌ بعد يوم شاقٍ في العمل فيما كان هو يبدو بغاية الحيويّة بعد أن أمضى يوماً رائعاً مع أصدقائه.

- "إلى أين تصطحبني؟ هل عليّ أن أبدّل ملابسي؟" وكلّ ما أرادته هو الاستحمام بالماء الساخن والاسترخاء قبل الذهاب إلى النوم. فلقد كانت متعبة بعد يوم قضته في نقل اللوحات وتعليقها.

- "نعم، ارتدي سروال جينز أزرق"، أجابها بينما نظّف الطبق، ووضعه في آلة غسل الصحون. وكان يتقن هذه الأعمال عندما يكون برفقتها، أمّا شقّته هو فكانت في فوضى عارمة، فلقد أقام في محترفٍ صغيرٍ بعد أن غادرت بيث والأولاد، واعتاد على النوم في كيسٍ للتخييم. وشكّلت الإقامة في منزلها ترفاً كبيراً بالنسبة له. "لقد حصلت على بطاقات لحضور مباراة بايسبول لفريق اليانكيز"، أضاف بلهجةٍ منتصرة، "اشتريتها من أحد الأصدقاء". ثمّ نظر إلى ساعته وتابع: "علينا المغادرة خلال عشر دقائق فالمباراة تبدأ عند السابعة والنصف وربّما تأخّرنا بسبب الازدحام". لقد سبق له أن عاش في نيويورك منذ سنواتٍ لمدّة عامٍ تقريباً، وغالباً ما ينسى كم يحبّ السفر إليها

حتّى يقصدها مجدّداً، ولقد أحبّ الحماسة والحياة الصاخبة فيها، وفوق كلّ شيءٍ فريق اليانكيز.

حاولت ساشا أن تبدو متحمّسةً من أجله، فذهبت لتبديل ملابسها بينما كانت تتساءل بين الحين والآخر عن سبب وجودها مع رجلٍ بمثل سنّه يتصرّف كأنّه يبلغ نصف ذلك العمر. ولم تتناول البيتزا التي قدّمها لها بل غسلت وجهها، وسرّحت شعرها، وارتدت سروال جينز أزرق، وقميصاً أبيض، وانتعلت صندلاً مريحاً ثم أخذت وشاحاً من أحد رفوف الخزانة وعادت بعد عشر دقائق إلى المطبخ حيث كان ليام بانتظارها. وكان مستعدّاً للخروج معتمراً قبّعة لفريق اليانكيز أحضرها معه من لندن.

- "هل أنت جاهزة؟" وابتسم لها بحماسة. تبادل أطراف الحديث مع رجل المصعد في المبنى في طريق نزولهما، وأخبره بأنّهما يذهبان لحضور المباراة التي كانت ضمن دوري البطولة وقال له بأنّها ستكون مباراةً رائعةً، فقد كان اليانكيز يحقّقون نتائج جيدة خلال الأونة الأخيرة.

وفيما وصلا إلى ملعب اليانكيز، شعرت ساشا بتحسّنٍ، وتراجع إحساسها بالتعب. اشترى لها ليام شطيرةً وشراباً، وأخبرها عن كلٍّ من الفريقين وعن أفضل اللاعبين. كان مهووساً بهذه الرياضة وأحبّت ساشا هذا الأمر واعتبرته جميلاً ومختلفاً جداً عن حفلات العشاء التي لم تصطحبه إليها في باريس. وفي الواقع، فضّلت هذا الجوّ أكثر، فهي لم تحضر أيّ مباراة بايسبول في حياتها وكان كلّ هذا جديداً بالنسبة لها.

وفيما انتظرا بدء المباراة، أخبرته بأنّها رأت تاتيانا لوقتٍ قصيرٍ خلال النهار، وقال لها إنّه يتوق للتعرّف إليها. ولم تنفكّ ساشا تتساءل كيف ستستمرّ علاقتهما وأملت أن ينجحا. فسيشكّل إخبار الولدين فارقاً كبيراً في علاقتهما وخاصّة إن وافقا عليه. وعرفت بأنّ كزافييه سيفعل لأنّه صديقه، غير أنّها لم تعلم بما سيشعر حيال العلاقة. وكانت تاتيانا أكبر مخاوفها لأنّ ردّ فعلها غير متوقّع تجاه الآخرين سواء أحبّتهم أو لا. ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأنّها

تتميّز بآراءٍ قويّة وناقدة أكثر من شقيقها البسيط في هذه الأمور.

شرح ليام لها كلّ ما جرى خلال المباراة وفاز اليانكيز ستة صفر، وكاد ليام يطير من الفرح وأخذ يحدثها بحماسة في طريقهما إلى سيّارة الأجرة. خلدا إلى النوم حين وصلا، وهذه الليلة أيضاً لم يمارسا الحبّ ونامت ساشا كطفلٍ خائر القوى. وكان ليام سيغادر في صباح اليوم التالي إلى فرمونت لرؤية أولاده، وأخبرها بأنّه سيعود بعد أربعة أيامٍ وسيتصل بها من فرمونت. أوصلته إلى محطّة القطار وذهبت إلى المعرض. وشعرت بالسخافة ولكنّها بدأت تفتقده ما إن غادر. ووعدها بأن يعود في نهاية الأسبوع، وفكّرت باصطحابه إلى هامبتونز ولكنّها سترى أولاً كيف سيكون شعورها. فلقد استغرقت بعض الوقت للتكيّف مع وجوده بجانبها في السرير الذي كانت قد تشاركته مع أرثر في الشقّة، وكان ليام حسّاساً ومتفهّماً حيال ذلك. وكانت على ثقةٍ بأنّه سيتفهّمها أيضاً في هامبتونز، ولكنّها لم تكن تعلم بماذا ستشعر هي إذ في غرفتها في منزل هامبتونز رأت أرثر للمرّة الأخيرة. وكان هذا المكان بالنسبة لها مكاناً مقدّساً. احتاجت لأن تفكّر في الأمر ولم تكن على عجلة لاتخاذ أي قرار.

حفل أسبوعها بالأعمال أكثر ممّا توقّعت، فلبّت عدداً من دعوات الكوكتيل، وتناولت الغداء مع ألانا التي كانت سعيدةً بزواجها الجديد، وتتمتّع بكلّ فلسٍ من ثروة زوجها. كما رأت تاتيانا على العشاء. وكان ليام يتصل بها مراراً ليخبرها كيف تجري الأمور مع أولاده. كان اللقاء صعباً في البداية مع ابنه البكر توم الذي ألقى اللوم على والده بالكامل لتسبّبه بالطلاق. فلقد أخبرته بيث في النهاية عمّا حصل بين والده وخالته بيكي، وشعر ليام بالكآبة عندما اتصل بساشا التي حثّته على الهدوء وتمالك أعصابه، واستخدام المرونة مع ابنه. وتحسّن الوضع في نهاية الأسبوع بعد أن أمضى ليام وابنه طيلة الليل يتكلّمان عن الموضوع حتّى شعرا بتحسّنٍ في صباح اليوم التالي. أمّا ابنه الثاني جورج الذي يبلغ إثنا عشر عاماً فكان سعيداً لرؤيته غير أنّه تعرّض لأزمة عصبيّة خلال العام وكان يتناول الأدوية التي اعتقد ليام بأنّها ليست

ضروريّة وقال بأنّه لن يعطيه إيّاها. وتكلّم مع بيث عن الأمر ولكنّها هدّدته بأخذ الأولاد من الكوخ إن لم يعطه الدواء فرضخ لطلبها. وكانت شارلوت ابنته الصغرى فرحةً ومتحمّسةً للقاء أبيها، وجرى كلّ شيءٍ على ما يرام معها باستثناء وقوعها عن الدراجة وجرحها لركبتها. واعتبَرت عطلته هذه مع أولاده العطلة المثالية خاصةً لأنهم لم يروه منذ عام. ولم تتفاجأ ساشا بأيٍّ من هذا على الرغم من أنّ بعضاً ممّا جرى معهم صدم ليام الذي نسي نتائج غيابه طيلة العام. فلقد أيقظته رؤيتهم مجدّداً وأنعشت فيه حسّ المسؤوليّة من جديد.

وكان قد أخبر ساشا في إحدى الليالي عندما اتصل بها: "من الصعب أن أدخل إلى حياتهم بعد عامٍ من الانقطاع وأعاود العلاقة معهم من حيث انتهت"، وتذمّر قائلاً: "تغيّر كلّ شيء، جميعهم مختلفون". ولكنّهم ما زالوا أولاداً، لذلك أسدت إليه ساشا النصائح كلّما اتصل بها. وشعر بالامتنان لدعمها وبدا مرهقاً وسعيداً عندما وصل إلى شقّتها مساء الجمعة آتياً بالقطار وشعر بالسعادة لرؤيتها. كان يعتمر قبّعة البايسبول، أمّا سرواله فكان ممزّقاً على ركبتيه، وذقنه طويلة لأنّه لم يحلقها منذ أسبوعٍ، وباستثناء اللحية بدا كالولد الذي وصل للتوّ من المخيّم.

حضّرت له حمّاماً ساخناً، وأعدّت له الطعام، وقدّمت له المثلّجات، ثم تمدّد على السرير ينظر إليها كملاكٍ نزل من الجنّة.

– "كان ذلك صعباً ساشا"، اعترف لها بينما كان يتناول المثلّجات.

– "عرفت بأنّ الوضع سيكون كذلك"، أجابته بهدوءٍ وكانت سعيدةً لعودته.

– "لم أتوقّع ذلك، خلت بأنّ العطلة معهم ستكون كالأيام الخوالي، ولكنّها كانت مختلفةً. فقد تغيّروا وشعرت في البداية بأنّنا غرباء لأنّهم كانوا غاضبين منّي". وشكّل الأمر مفاجأةً غير متوقّعة بالنسبة له حين رأى ردّ فعلهم. ولكنّه بدأ خلال العطلة بإصلاح العلاقة معهم نحو الأفضل وأمضى معهم أوقاتاً ممتعةً.

– "عليك أن تذهب لرؤيتهم دائماً فمن غير العدل ألا تفعل". وعرضت عليه تقديم تذكرة سفر كلّما اقتضى الأمر. غير أنّها عرفت بأنّه فهم ذلك بشكلٍ أفضل الآن بعد أن رآهم، وعلم بأنّهم يحتاجون لوجوده في حياتهم. ففي النهاية هو والدهم ورغم أن زوج بيث العتيد بإمكانه تأمين ما هو الأفضل لهم، إلاّ أنهم سيظلون بحاجةٍ لليام ولحبّه، وقد رأى ذلك في أعينهم وشعر بالحزن لتركهم بعد أربعة أيام أمضاها معهم.

دلّكت ظهره عندما أويا إلى الفراش، ثمّ مارسا الحبّ لأوّل مرّة في ذلك السرير الذي لم يعد ملكها وأرثر الآن بل أصبح لها ولليام. وما إن توقفا حتّى غطّ في نومٍ عميقٍ، فأخذت تنظر إليه وبدا ولداً كبيراً وسيماً ممدّداً إلى جانبها. مرّرت يدها على شعره الأشقر الطويل على الوسادة، ثم قبّلته في ضوء القمر النافذ إلى غرفتها.

الفصل الثاني عشر

بعد أن استيقظ ليام صباح السبت إثر عودته من فرمونت، اقترحت عليه ساشا أن يذهبا إلى هامبتونز في نهاية الأسبوع. كانت قد فكّرت بذلك طيلة الأسبوع، ولكنّها لم تذكر له الأمر لأنها أرادت التأكّد إن كانت تستطيع القيام بهذا. غير أنّها وبينما كانت تعدّ له الفطور، اعتقدت بأنّها فكرة جيّدة، أمّا ليام فكان شديد الحماسة. وكان الطقس حاراً فلم يفكّر بشيءٍ آخر سوى الذهاب إلى البحر.

غادرا الشقة في نيويورك قرابة الحادية عشرة ووصلا إلى هناك عند الواحدة والنصف ظهراً. كانت ساشا صامتة طيلة الرحلة بينما قاد ليام وبدا مرتاحاً فيما تبادلا أطراف الحديث بين الحين والآخر وبخاصةٍ عن أولاده وعن الوقت الذي أمضاه برفقتهم في فرمونت. وكان لا يزال يشعر بالقلق حيال ابنه البكر توم بعد أن اكتشف بأنّه منذ أن رآه للمرة الأخيرة قبل عامٍ ها هو الآن قد أصبح شاباً حانقاً وغاضباً. وسيرتاد جامعة بنسلفانيا في الخريف بعد أن نال منحةً وبمساعدة من زوج أمّه المستقبليّ في النفقات. وأشار توم لوالده مرّاتٍ عديدة بأنّ خطيب أمّه فعل خلال الأشهر الستّة الأخيرة من أجله أكثر ممّا فعل هو طيلة حياته.

وشرح ليام لابنه بأنّه كان رسّاماً فقيراً، ولكن توم قال بأنّه لا يأبه للأمر، ونعت والده بالمعتوه والقذر. كما عيّره توم بنزوته تلك الليلة مع شقيقة والدته التوأم. وكان ليام لا يزال غاضباً لأن بيث أخبرته.

– "هذا غير عادلٍ"، قالت ساشا عابسة، "ما كان يجدر بزوجتك السابقة إخباره". فهذا ما جعل ليام يبدو زوجاً مريعاً في نظر أولاده، وشعرت ساشا

بالحزن من أجله على الرغم من أنّ ما فعله كان بغاية الغباء. ولكن الناس يرتكبون الأخطاء ويندمون عليها في ما بعد، وكان واضحاً بأنّ ليام ندم. وأحسّت ساشا بأنّ خيانته لزواجه كانت يجب أن تبقى بينه وبين بيث.

- "ولم تكتفِ بذلك وحسب". فقد قامت بيث بإخبار توم عن كافة خطايا والده فأخبرته عن خيانته، وعدم مسؤوليته المالية خلال عشرين عاماً.

- "كيف كانت عندما رأيتها؟" سألته ساشا متسائلةً عنها.

- "لم أرها، كانت خارجاً عندما مررت لأقلّ الأولاد. كانت جدّتهم هناك ولم تتفوّه بكلمة معي. وكانت بيكي في المنزل مع زوج بيث العتيد عندما عدنا. أتمنّى ألا تغريه مثلما فعلت معي. لعلّه أكثر ذكاءً منّي فلا يقع في شباكها". ثمّ التفت إليها وتابع: "يبدو رجلاً صالحاً ويحبّه الأولاد حقّاً". وفيما استمعت إليه، استطاعت أن ترى بأنّه يشعر كمن تمّ التخلّي عنه، وإبعاده خارجاً. ولكنّه على الأقلّ ذهب لرؤية أولاده وفتح أقنية الحوار والتواصل معهم من جديد حتّى ولو كان الأمر صعباً مع توم في البداية. وأخبرها ليام في الليلة الماضية بأنّ توم هدأ أخيراً، ولكنّه أراد أن يفجّر غضبه أولاً وفعل ذلك. ولا زالت ساشا تعتقد بأنّ بيث ارتكبت خطأً بإخبار الأولاد بمعصية والدهم الكبرى. إذ مهما تكن نتائج هذا الأمر، فهي تظن بأنّه كان من الأفضل أن يبقى الموضوع بين الراشدين فقط. فبرأيها، ليس الأولاد بحاجة لمعرفة أخطاء أهلهم وهذا ما قالته لليام.

"أعتقد بأنّها ما زالت مكتئبة ممّا حدث، هذا ما يبدو. فلطالما شعرت هي وبيكي بالغيرة إحداهما من الأخرى". ولم يتفوّه بكلمة مع شقيقة زوجته السابقة عندما أوصل الأولاد، بل هزّ برأسه وغادر. وبيكي أيضاً لم تقل شيئاً.

وعندها وصل ليام وساشا إلى المنزل في هامبتونز. كان منزلاً أبيض يعود طرازه إلى العصر الفيكتوري، وكان يذكّرها هي وأرثر عندما اشترياه منذ عشرين سنةً بانكلترا. بدا كالمنازل التي شاهداها في مارثاز فينيارد ونانتوكيت، وكانت الشرفات تحيط به من كلّ الجوانب. ولطالما أحبّت

وأرثر الجلوس خارجاً في الليالي الصافية الدافئة، وبعض الأحيان خلال الشتاء وارتشاف شراب الشوكولاته الساخن. حاولت التخلّص من الذكريات بينما فتحت الباب لليام. غالباً ما كانت تدخل من باب المطبخ، ولكنّها قرّرت هذه المرّة أن تدخل من الباب الرئيسي وبذلك سيكون الأمر مختلفاً.

- "إنّه منزلٌ رائعٌ ساشا"، قال ليام بينما نظر من حوله. فقد أبقت المنزل ريفيّاً وبسيطاً ولكنّه بدا مريحاً ودافئاً وخالياً من التكلّف. ولم يكن هناك من وجودٍ للفنّ الثمين بل اكتفت بوضع بعض الأشياء الجميلة، وكراسي الجلد الكبيرة، وأريكتين مشغولتين بقماش التطريز. ثمّ رأى لوحةً لأندرو وايث فوق المدفأة، وكانت لوحةً متصلّبة وجميلة وإحدى أشهر رسومه، وكانت تجسّد البحر في يومٍ ممطرٍ عاصف، وعلى الأرض كان هناك بضع ندف من الثلج بحيث يشعر الناظر بشيءٍ من النسيم يخرج منها ويحلّ على القماش. وكانت بدون شكٍّ عمل فنّانٍ عظيم.

- "يا للروعة!" هتف ليام فيما وقف مذهولاً أمام اللوحة، فلقد أعجب بوايث طيلة حياته. "قد أعطي أي شيء مقابل امتلاكي لوحةً له". ثمّ صفّر وابتسم فيما ضحكت ساشا.

- "لقد قدّمها لنا أبي في زواجنا". وضمّ المنزل أشياءً ثمينةً كثيرةً كهذه وتذكارات وأشياء صنعها الولدان بالإضافة إلى أثاثٍ أميركيٍّ قديم أحضرته مع أرثر من سفرهما في أرجاء إنكلترا في بداية زواجهما، أو عندما دخلت تاتيانا الجامعة وكانا يذهبان لرؤيتها. ووضعا في غرفة الطعام طاولةً قديمة أحضرتها ساشا من فرنسا. وأينما نظر ليام كان يرى أشياءً عرف للحال بأنّها ثمينة بالنسبة لها وعزيزة على قلبها. وكان للمنزل معنىً عميقاً بالنسبة لها وأدرك بأنّها قامت بمجهودٍ كبيرٍ لإحضاره إلى هنا معها أكثر ممّا فعلت في شقّتها في نيويورك. أكثر بكثير. فلقد كان هذا المنزل أكثر أهميّةً وخصوصيّةً بالنسبة لها.

- "أظنّ بأنّني كنت لأنتقل فوراً إلى هنا لو كنت أملك منزلاً كهذا"، قال

ليام مندهشاً بينما جلس على الأريكة ونـزع قبّعته ملتفتاً حوله.

– "اعتدنا على قضاء الصيف هنا عندما كان الولدان صغيرين. ما زالا يحبّان هذا المكان مع أنّهما لا يأتيان إليه إلاّ نادراً. أعتقد بأنّه يُشعرنا جميعاً بالكآبة لأنّه كان الأحبّ إلى قلب أرثر وقلبي أنا أيضاً".

– "والآن؟" سألها وهو ينظر إليها بعطف. وشكّل ذلك ناحيةً أخرى منها أراد اكتشافها، فهي تتمتّع بعدّة جوانب تماماً كالماسة اللامعة والبرّاقة على الرغم من أنّه استطاع رؤية الحزن في عينيها.

– "جئت إلى هنا مرةً بعد أن توفي ولكنني لم أبقَ طويلاً، لم أستطع. وهذا الصباح عرفت بأنّني أريد المجيء إلى هنا معك". شعر بالإطراء لقولها، فوقف ومشى نحوها ثمّ وضع ذراعيه حولها وعانقها. وكانت بذلك تدخله إلى عالمها الخاص وأدرك بأنّها أفضل هديّة يمكن أن تقدّمها له على الإطلاق. "ربما عليّ القيام ببعض التغييرات وإضافة التعديلات. يبدو كلّ شيء قديماً". والتفتت من حولها في المكان الذي بدا فيما رأته من خلال عينيّ ليام أسوأ ممّا تذكّر.

– "أحبّه هكذا، فهو يجعلك تشعرين بالراحة وكأنّك تريدين المكوث فيه وعدم المغادرة". وابتسمت له. فهذا ما شعرت به دائماً وما زالت في بعض الأحيان. وكان العنصر الوحيد المفقود هو أرثر ولكن ليام موجودٌ الآن بجانبها.

– "هل أنت جائع؟" سألته فيما فتحت الستائر والنوافذ، فدخلت أشعة الشمس إلى الغرفة واستطاعا رؤية المحيط والشاطئ من مكانهما. وكانت ساشا قد أحضرت معها كيساً كبيراً من البقالة من المدينة لإعداد طعام الغداء والفطور له. وفكّرت بأنّه سيكون من الممتع أن تصطحبه إلى أحد المطاعم المحليّة للعشاء.

– "أنا بخير، أستطيع أن أحضّر لك ما تأكلينه". قال هذا ثمّ جرّ حقيبة الأغراض إلى المطبخ ووضعها هناك. كان المطبخ كبيراً وذا طرازٍ ريفيّ، مع

طاولة ضخمة في الوسط ومقاعد خشبيّة قديمة. وبدا المنزل مستعملاً بشدّة لقد أحبّت ساشا المنزل لأنّه كذلك.

أعدّ ليام لهما شطائر الديك الرومي، وفتح زجاجتين من الشراب، شرب هو من الزجاجة في حين صبّت ساشا الشراب في كوب. وما إن انتهيا من الأكل، حتّى اقترح ليام بأن يقوما بنزهةٍ على الشاطئ. لم يصعدا إلى غرفتها بعد، وشعر بأنّ ذلك سيكون صعباً عليها بما أنّ المنزل كان مليئاً بالذكريات عن شبح زوجها المحبوب. وأراد ليام أن يخطو هنا بحذرٍ وفكّر بأنّ تنشّق الهواء العليل سوف يفيدها.

مشيا على الشاطئ لساعةٍ تقريباً يمسك أحدهما بيد الآخر معظم الوقت في صمتٍ مريح. وكان يتوقّف بين الحين والآخر لالتقاط الأصداف. ثمّ جلسا عند نهاية الشاطئ يتأمّلان السماء الزرقاء الصافية والشمس الساطعة. أمّا الرمال فكانت دافئة تحتهما.

– "إنّه المنزل المفضّل عندي من بين كلّ منازلك"، قال لها بينما تمدّدا على الشاطئ، ووضع يداً على كتفها. "أحبّ هذا المكان"، واستطاعت رؤية ذلك بوضوحٍ من تعابير وجهه. "أتمنّى لو يتمكّن أولادي من رؤية هذا يوماً ما، فهم يعشقون البحر". وهو أيضاً.

– "لعلّهم سيتمكّنون من ذلك يوماً ما"، أجابته بهدوءٍ والتفتت إليه بابتسامةٍ حنونة. لطالما بدا وسيماً كلّما نظرت إليه وخاصة هنا على الشاطئ بشعره الأشقر الذي يتلاعب به النسيم ويجعله يتطاير. بينما سرّحت هي شعرها في جديلة طويلة كعادتها عندما تكون على البحر.

– "هل تسبحين هنا؟" سألها بحماسة.

– "لا تزال المياه باردة للغاية في هذا الوقت من العام، ولا أتشجّع للسباحة هنا إلاّ بعد الرابع من تموز/يوليو ومع ذلك حتّى في تلك الفترة تكون المياه باردة، ولا تصبح جيّدة للسباحة حقّاً إلا في شهر آب/أغسطس". ولكن عندئذٍ ستكون برفقة الولدين في سان تروبيز. وأرادت أن ينضمّ إليهم ليام على

الأقلّ في نهاية الأسبوع الأخير من العطلة، واقترحت ذلك عليه مراراً غير أنّهما لم يخطّطا للأمر بعد.

- "هل لديكِ بزّة سباحة في المنـزل؟".
- "أعتقد بأنّ كزافييه ترك واحدة هنا".
- "ربما سأسبح بعد الظهر، أتريدين الانضمام إليّ؟".

فضحكتْ وأجابته: "لستُ بهذا الجنون، من الواضح أنّك سائح"، ومازحته في طريق العودة إلى المنـزل.

وجـد بزّة السباحة في المرآب بينما أفرغت الحقائب في الطابق العلوي، وبـدت شـاحبةً عندما نـزلت. ففي كلّ مرّة تدخل إلى غرفتها وترى السرير العـريض، تتذكّـر آخر لقاء لها مع أرثر عندما أخبرها بأنّه يحبّها وذلك في صـباح عودتها إلى باريس قبل أن يتوفّى في اليوم التالي. ولكنّها لم تخبر ليام بالأمر، فكان هذا حملها الخاص الذي عليها أن تتحمّله، ولم تُرد كذلك أن تفسد العطلة على ليام أو أن تجعله ينـزعج في سريرها.

وعـندما نـزلت من الطابق العلوي، كان قد ارتدى بزّة السباحة. بدا طويل القامة، وأشبه بفقمةٍ شقراء بعد أن ربط شعره. "سأذهب للسباحة. أتودّين مـشاهدتي؟" وذكّـرها ذلك بكزافييه حين كان صغيراً، إذ كان كلّما فعل شيئاً يصرخ لها: "انظري إليّ أمي!".

"حـسناً". قالت له وتبعته إلى الشاطئ حيث جلست تراقبه بينما دخل في الـمياه. علـى الأقلّ كانت برودة الماء أكثر احتمالاً مع بزّة السباحة، وعلمت بأنّهـا ستكون قارسة من دونها. سبح لدقائق قليلة ثمّ خرج من الماء وهو ينثر قطرات ماء المحيط الأطلسي من حوله.

- "يا إلهي، المياه باردة حتّى مع بزّة السباحة". قال مرتعشاً وابتسم لها.
- "سبق وحذّرتك". ولكنّه بدا سعيداً ومستمتعاً.

سارا نحو المنـزل وأخذته إلى غرفتها. وضبّت أغراضه ووضعتها في

الخـزانة بجانـب ثـيابها. وكانت قد وضعت قفلاً على خزانة أرثر قبل عام وتـركت كـلّ حاجاته مكانها ولم تقم بإخراجها بعد، ولم تعلم إن كانت ستفعل ذلـك قـريباً أو أبداً. فهذا منـزله هو أيضاً حتّى الآن وسيكون دائماً منـزله بطـريقةٍ مـا. أمّا ليام فكان ضيفاً هنا وأدرك ذلك جيّداً بينما نظر في أرجاء الغرفة. وشعر بالتأثير الذكوريّ في الديكور الذي ضمّ لوحاتٍ تجسّد العصافير والأسـماك، ولـوحة ضخمة فوق السرير لسفينةٍ تبحر في عرض البحر. ولم تحـضر ساشا أيّاً من أعمالها المعاصرة إلى هذا المنـزل فقد تركت معظمها في باريس. شكّلت هذه حياةً أخرى مختلفة. وحتّى ليام استطاع الشعور بوجود أرثر في المنـزل مع أنّه لم يتعرّف عليه أبداً.

أخـذ لـيام حمّاماً ساخناً بعد السباحة ثمّ احتسيا الشراب فيما جلسا على الـشرفة. وقامـت ساشا تلك الليلة بحجز طاولةٍ لهما في مطعم سمكٍ صغيرٍ. وذهبا بالسيارة عند الساعة السابعة وطلبا الكركند واحتسيا المزيد من الشراب. وفيما كان يتحادثان على العشاء، استطاع ليام رؤية ساشا مرتاحة.

جلسا على الشرفة مجدداً عندما عادا وتكلّما تحت ضوء القمر، وعند منتصف الليل صعدا إلى الغرفة. وعرف بأنّه مكانٌ مقدّس آخر بالنسبة لها فلم يمارسـا الحـبّ في تلك الليلة، بل تمدّدا على السرير وتعانقا. ولم تخبره في الصباح بأنّها حلمت بأرثر في الليل. كان حلماً سلمياً وقد رأته يبتعد عنها على الـشاطئ ولم تستطع الإمساك به، وعندما التفت إليها ابتسم ولوّح لها سعيداً ثمّ اختفى.

حـضّرت لـه البـيض المخفـوق والكعك بواسطة أداة تحميص الكعك الحديديّـة الموجـودة لديها. بينما أعدّ ليام القهوة. مشيا على الشاطئ ثم عادا وتمدّدا على الشرفة ثمّ أخذ ليام قيلولة على الأرجوحة. وبعد الظهر، حين بدأت الـشمس تغيب في الأفق قرّرا أن يمضيا ليلةً أخرى هناك. فقد كانت عطلتهما معاً رائعة، وأمضيا أوقاتاً طيّبة كان كلاهما بحاجةٍ ماسّة لها.

قاما بإعداد العشاء معاً، وأويا إلى الفراش بسلام، وعادا إلى المدينة بعد

ظهر الاثنين. لم تزعج نفسها بالذهاب إلى المكتب، وفي تلك الليلة ذهبا للعشاء مع أصدقائه في سوهو.

التقوا في مطعمٍ إيطاليّ، كانوا أربعة رسّامين ونحّاتين. تكلّموا عن المعارض والعروض وعن أعمالهم. وبدوا أصغر سنّاً من ليام وخمّنت بأنّ معظمهم في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات. وقدّمها ليام على أنّها "ساشا" فقط. وراحت تستمع إلى إحداهم وهي تذكر معرضها فيما يتناولون الحلوى. كانت رسّامة شابة قالت بأنها ستضع بعض رقاقات العرض في المعرض في اليوم التالي، فالتفتت ساشا إلى ليام الذي ابتسم لها. فهو لم يشرح لهم من هي ساشا، وفي طريق العودة سألته في سيّارة الأجرة إن كانت أعمال الفتاة جيّدة.

– "ستكون كذلك، ليست مستعدّة لك بعد". وكان ممتعاً لها أن تكون غير معروفة في وسطهم، والمضحك هو أنّهم لم يلاحظوا من كانت فعلاً. أحبّت شيئاً من ذلك اللقاء على الرغم من أنها شعرت بأنّها مخادعة فيما استمعت إليهم يتحدّثون عن المعارض المتنافسة وحين تطرّقوا إلى معرضها. وتكرّر اسمها مرّاتٍ عديدة أثناء الحديث كشخصيّةٍ أسطوريّة.

– "ماذا ستفعل غداً؟" سألته وهي تتثاءب فيما أوت إلى الفراش إلى جانبه وكانت تفتقد الشاطئ.

– "سأذهب لحضور مباراةٍ لفريق اليانكيز"، أجابها بسعادة.

كانا يعيشان حياةً ممتعة، بين الشاطئ والأصدقاء، والفنانين ومباريات البايسبول. وبدا الأمر سحرياً وسهلاً لهما، وشعرت ساشا بالامتنان لوجوده قربها. فلقد غيّر حياتها من دون أن يدرك، وأضاف إليها نكهةً لم تعرفها من قبل. هي نكهة الشباب والحيويّة التي افتقدتها عندما تزوّجت باكراً ورُزقت بأولاد. وحتّى قبل ذلك، كانت منشغلة في التعلّم من والدها والعمل معه. ولم تحظَ أبداً بالحياة المرحة وغير التقليديّة التي ما زال ليام يتمتّع بها في سنّ الأربعين. قلائل هم الذين تزوّجوا، وكان لديهم أولاد مثلها ومثل ليام. وبدا أنّهم بعيدون عن المسؤوليّات، فمع أنّ ليام كان لديه مسؤوليّة إلاّ أنّه

ترك أحداً سواه يتولاّها، زوجته السابقة وزوجها العتيد. ربما سيأتي اليوم الذي سيتحمّل فيه بعض المسؤوليّة، ولكن حتّى ذلك الحين ما زال يبدو كالولد بالنسبة لها.

انشغلت ساشا بالمعرض خلال الأسبوع وهي تحضّر للافتتاح في الأسبوع المقبل. وكانت تهتمّ شخصياً بكلّ العروض حتّى أنّها كانت تحمل اللوحات الضخمة، وتعلّقها بدون مساعدة أحدٍ، وتبقى أحياناً تعمل لوقتٍ متأخرٍ في الليل.

وعندما حلّ يوم الجمعة، كانت منهكة القوى ومستعدّةً لعطلة أخرى على الشاطئ. غادرا هذه المرّة مساء الجمعة كما كانا يفعلان هي وآرثر. وصلا إلى المنزل عند التاسعة وجلسا على الشرفة قليلاً، ثم أويا باكراً إلى الفراش. ومارسا الحبّ هذه المرّة بحذرٍ شديد. وسار كلّ شيءٍ على ما يرام، وبدأت تعتاد على وجود ليام في عالمها الخاص. وشكّل ذلك خطوةً كبيرة بالنسبة لها أكثر ممّا كانت بالنسبة لليام.

وبينما كانا يوم السبت يتنزهان على الشاطئ، أخبرته بأنّها مدعوّة إلى حفلة، وسألته إن كان يودّ مرافقتها. وكانت المُضيفة ممثّلة هوليووديّة معروفة. واكتشف فريق الفيلم الذي تمثّل فيه منطقة هامبتونز مؤخراً، وكانت ساشا قد التقت بالممثّلة قبل عامين من خلال أصدقاء مشتركين. وتلقّت الدعوة منذ شهرٍ وذكّرتها مارسي بها يوم الجمعة قبل أن تغادر. يبدو بأنّها ستكون ممتعة لأنّه من المتوقّع أن يكون العشاء من ثمار البحر مع تسليةٍ وفرقةٍ موسيقيّة. وعندما أخبرت ليام بشأن الدعوة، تفاجأ إذ إنّها لم تقم بدعوته لمرافقتها من قبل وعرف بأنّها كانت حينها مجبرة.

– "أتريدين منّي مرافقتك حقّاً؟" سألها وهو يشعر بالإطراء لأنّها لم تصطحبه إلى المناسبات الاجتماعيّة أبداً، وكانت هذه المرّة الأولى.

– "نعم"، أجابته وبدون أن تضيف أيّ تفسيرٍ. أمّا هو فلم يسألها المزيد.

بدأت الحفلة في تمام السابعة ووصلا في الثامنة. وكان قد كُتب على

الدعوة بأنّ الشباب غير رسميّة، غير أنّ ساشا عرفت بأنّ بعض النساء سيرتدين بأناقة وتكلّف. فارتدت سروالاً واسعاً أبيض، وقميصاً حريريّاً أبيض، ووضعت عقداً من اللؤلؤ، ورفعت شعرها كالعادة. أمّا ليام فارتدى قميصاً رياضيّاً وسترةً اشترتها له من دون أن تقول له السبب بحيث تتلاءم مع حذاءٍ اختارته له من بين حاجياته في خزانته.

– "ليس عليك ارتداء الجوارب"، قالت ممازحة، "فهنا يُعتبر ذلك أكثر أناقةً".

– "إذاً ربما عليّ أن أرتديها لأنني أكره أن أبدأ باتّباع الموضة الآن". ولطالما شعر بسعادةٍ ومتعةٍ بالسباحة عكس التيّار طوال حياته.

وفي النهاية، لم يرتدِ الجوارب، وشعرا بأنّ مظهرهما يتماشى مع المناسبة. وشكّلا زوجاً ملفتاً للنظر، وهمس ليام لها بأنّه تأثّر لرؤية الممثّلة المشهورة وأصدقائها المعروفين. وكان هنالك على الأقلّ عشرات الوجوه التي من شأن أيّ أحدٍ أن يعرفها من النظرة الأولى.

– "أتمنّى لو أستطيع إخبار أحدٍ بذلك"، قال لها. ولكنّها كانت الشخص الوحيد الذي يمكنه إخباره.

– "لطالما تأثّرت أنا أيضاً بلقاء أشخاصٍ كهؤلاء"، اعترفت له ساشا.

بقيا في الحفلة حتّى الواحدة فجراً، ورقصا على أنغام الفرقة التي أتت من لوس أنجلس خصيّصاً. وبدت السعادة على وجهيهما عندما عادا متعبَين إلى المنزل. فقد تصرّف كرجلٍ لبقٍ طوال الليل وشعرت بالراحة التامة معه. وكانت معظم النساء في الحفلة برفقة شبّانٍ أصغر منه سنّاً، ومع فارق عمرٍ كبيرٍ أكثر من الفارق بينها وليام. فلقد كان رائجاً في هوليوود أن تواعد النساء المسنّات شبّاناً يصغرونهنّ سنّاً، وأخبرت ليام بذلك عندما أويا إلى الفراش.

– "أخبرتك بأنّني لا أحبّ أن أكون تقليديّاً"، قال لها غير مهتمّ. أمضى وقتاً ممتعاً وشعر بالفخر من الخروج معها علناً. "كما أنّ تسعة أعوام ليست بالأمر المهمّ".

– "ربما ليس بالنسبة لك"، أجابته ضاحكةً بينما اقتربت منه وأطفأت النور. "لست واثقةً إن كان ولداي سيفكّران بالطريقة نفسها". وكذلك هي في بعض الأوقات.

– "متى سأتعرّف بتاتيانا؟" سألها في الظلمة.

– "ربما في الافتتاح هذا الأسبوع، هي لا تأتي غالباً، ولكنّها قالت بأنّها ستفعل هذه المرّة".

– "أتعتقدين بأنّها ستحبّني؟".

– "ربما. من الصعب التوقّع بذلك وخصوصاً مع تاتيانا لأنّها متقلّبة المزاج، ولديها أفكار قويّة. فهي تُقدم على حبّ أشخاصٍ وتكره آخرين، ومن الأفضل ألا تعرف بأنّك على علاقةٍ بي". ولم تكن تنوي إخبار أيّ من ولديها بذلك، على الأقلّ حالياً. فلم يكن هذا الأمر من شأنهما، فما زالت هي وليام يأخذان علاقتهما برويّة، ولم يقرّرا شيئاً آخر بعد. غير أنّهما كانا يبليان حسناً، واعترفت بهذا الإنجاز مع أنّها شكّت بإمكانيّته في البداية. جرى كلّ شيءٍ على ما يرام حتّى الآن.

الفصل الثالث عشر

كان ليام متحمساً للعرض هذا الأسبوع في معرضها، فسيعطيه ذلك فكرة عمّا سيقيمونه له خلال عرضه الخاص بعد ستة أشهرٍ. كما أحبّ الفنّان صاحب الأعمال، والذي كان شاباً من مينيسوتا تعرّفت به ساشا في معرضٍ فنّي في شيكاغو قبل عامٍ. وكان يقوم بأعمالٍ قويّةٍ وجريئةٍ. أمّا ساشا فبقيت في المعرض من الصباح حتّى الثانية من فجر اليوم التالي الذي سبق العرض وهي تعلّق اللوحات ثمّ تتراجع لتراها من بعيدٍ، وتنقلها مجدّداً في كلّ الاتجاهات إلى أن تعجبها في النهاية. فلقد كانت تحبّ الكمال في كلّ شيءٍ.

وبقي ليام في المعرض حتّى منتصف الليل يراقبها وهي تعمل. وكانت ضائعةً بين التفكير والتركيز وبالكاد تحدّثت معه، فغادر وكان يغطّ في نومٍ عميقٍ في سريرها عندما وصلت إلى المنزل.

في اليوم التالي، كانت ساشا في المعرض طيلة اليوم حتّى أنّها استحمّت وبدّلت ملابسها هناك، وبدأت باستقبال الضيوف عندما دخل ليام إلى الحفلة عند السادسة. بدت جميلةً في بزّةٍ من الكتّان الأبيض التي تبرز شعرها الأسود، وعينيها الداكنتين وسمرتها الصيفيّة. وكانت عيناها بلون الرمال البنيّة وتبدوان أحياناً سوداوين. ابتسمت له ما إن رأته يدخل. قدّمته إلى الفنّان وإلى أشخاصٍ آخرين، ثمّ تركته يلقي التحيّة على الموجودين. ارتدى سروالاً أسود وقميصاً أبيض وحذاءً بدون جوارب ولم يرتدِ سترة أو ربطة عنقٍ. ولكن في المجال الفنّيّ، بدا هندامه ملائماً ولم يكن بارزاً أو مختلفاً. فكان فنّانوها يرتدون كافة أنواع الملابس وزبائنها يرتدون البزّات الرسميّة وربطات العنق. ضمّت الحفلة عارضاتٍ شهيرات، ومصوّراً فوتوغرافيّاً معروفاً لطالما اشترى من

لـوحاتها، بالإضافة إلى كتّاب ومؤلّفين مسرحيين وناقدين فنّيين وأشخاص من المـتاحف وآخرين ممّن أتوا فقط للتسلية واحتساء الشراب. كان افتتاحاً مثالياً فـي نيويورك، بل أفضل حتّى لأنّه جرى في معرض سوفيري الذي يفوق كلّ المعارض مرتبةً.

وصـلت تاتيانا في تمام الثامنة، وكانت الحشود تتناقص حينها ولكن كان لا يـزال عـددٌ من الأشخاص في صالة العرض. كانت على موعد عشاءٍ في مكـانٍ مـا، ولكـنّها أتت لأنّها وعدت ساشا بأنّها ستمرّ قليلاً مع أنّ حفلات الافتتاح التي تقيمها والدتها كانت قديمة الطراز بالنسبة لها. ارتدت ثوباً أزرق فيـروزيّاً من الحرير، وانتعلت صندلاً مثيراً عالياً وفضيّ اللون، وبدت فاتنةً عندما دخلت. ومع شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين الواسعتين، لم تكن تشبه سـاشـا أبداً. ورآها ليام تتوقّف لتتحدّث مع ساشا وتساءل من تكون، ثمّ شاهدها تقبّل والدتها وتعانقها بحرارة. فعرف حينها بأنّها ابنتها، ولكن ما من شيءٍ في مظهـرهما أو أسلوبهما يوحي بأنّ علاقة تربطهما. كانت تاتيانا نحيلةً وجذّابة وكـان كـلّ مـا فيها بارداً، أمّا ساشا فكانت أكثر دفئاً وحيويّة، تعرّف الناس بعضهم ببعضٍ وتبتسم وتتكلّم. تميّزت ساشا بالدفء والضيافة، فيما بدت تاتيانا بـاردة بالنسبة لليام. وكانت ساشا قد أخبرته بأنّ تاتيانا خجولة بعض الشيء، فوقفت بعيدةً عن الجميع لبرهةٍ وجالت بنظرها في أرجاء الصالة. وأدرك من النظر إليها بأنّها معتادة على أن يُعجب بها الرجال. وفي الرابعة والعشرين من عمـرها، كانت تتألّق جمالاً وشباباً وبدت في قمّة اللعبة. وكانت والدتها أكثر تواضـعاً علـى الرغم من جمالها هي أيضاً، وكان تغافلها عن جمالها هو ما يُضفي عليها جاذبيّةً وسحراً كبيرين. ووجد ليام بأنّ تاتيانا مخيفة بمجرّد النظر إلـيها من بعيدٍ. وأبقى عينيه عليها فيما اقترب الناس منها للتكلّم معها، وفجأةً وكأنّها شعرت بنظراته، إذ التفتت إليه والتقت أعينهم. وشعر ليام بأنّها لم تحبّه حتّى من خلال النظر إليه من بعيد.

انتظر قليلاً قبل أن يذهب للتحدّث إليها حتى لا تشكّ بشيءٍ. ولم يُرد أن

يبدو قلقاً، أو أن يتصرّف كمن يلاحقها.

وكـاد يرتطم بها عندما سار نحوها، واستطاع أن يهرب من أمام صينيّة شـرابٍ تمرّ أمامه. وكانت تقف لامبالية فيما التفّ ثلاثة شبّانٍ من حولها، وقد حملت كأس شرابٍ بيدها ترتشف منه جرعةً جرعة. وقرّر ليام الانضمام إلى المجموعة.

- "مرحباً"، قال بهدوءٍ، "أنا ليام أليسون. إنّه عرضٌ جميلٌ أليس كذلك؟" نظـرت إلـيه وكأنّـه قال شيئاً فظّاً. وكان كلّ ما في تصرّفها ينبّهه من عدم الدخول في محيطها خلافاً لساشا التي كانت محبّةً ومضيافةً مع الجميع وكانت مثال الأمّ الكاملة.

- "نعـم، إنّه كذلك"، أجابته تاتيانا بعدم مبالاة وبرودة، "هل أنت رسّام؟" فقـد بـدا كالفنّانين، ككلّ الموجودين هناك تقريباً، وقد قابلت الكثير منهم في حياتها، ولكنّها لم تكن سهلة الطباع ويصعب التأثير عليها.

- "نعم، سيُقام لي عرضٌ هنا في كانون الأول/ديسمبر".

- "ما هو نوع عملك؟" فشرح لها نظريّاته وشكّ بأنّها لم تستمع لكلمة ممّا قالـه، فلقد سمعت هذا كلّه مراراً. وبدت تفتقر لبراءة والدتها وحيويّتها وحبّها للناس والحياة. وفضّل ليام ساشا أكثر بكثيرٍ من ابنتها بغضّ النظر عن علاقته بـوالدتها، فلـم يتمكّن أبداً من التفكير بأنّه قد يلاحق تلك الفتاة يوماً ما. كانت بـاردةً ومتعجرفةً بالنسبة له، كما أنّه كبيرٌ وغريب المظهر بالنسبة لها. وهي اعتادت على الخروج مع شبّانٍ تقليديّين يعمل معظمهم في البورصة. واعتقدت بـأنّ الفنّانـين الذين تلتقيهم في المناسبات الفنيّة وحتّى في معرض والدتها هم أغبـياء معتوهون. وهذا بالضبط ما فكّرت فيه عندما رأته، فمع بضع كلمات تبادلاها، لم يحبّ أحدهما الآخر فوراً. وفي مجهودٍ لتصحيح الأمور قليلاً، ومن أجـل ساشـا وحدها، ذكر لتاتيانا بأنّه يعرف شقيقها، فهزّت برأسها وتجاهلت الأمـر. وأدركت عندئذٍ بأنّها سمعت باسمه من قبل، ولكنّ كزافييه حظي دائماً بأصدقاءٍ مجانين وسيّئي التصرّف على عكسها هي.

وبعد دقائق قليلة، انضمّت ساشا إليهما بعد أن رأتهما معاً وانتابها القلق. بدت تاتيانا منـزعجة وهذا ليس بالعلامة الجيّدة، أمّا ليام فبدا فضولياً نحوها، وخشيت ساشا أن يرتكب أيّة هفوةٍ إن قام بطرح الكثير من الأسئلة عليها، أو تصرّف بمودّةٍ مبالغ فيها معها. ولكن تاتيانا لم تشكّ بشيء، بل إنّها لم تُرد التعرّف به أكثر فحسب، ولم يكن هنالك من سببٍ يدفعها لذلك.

– "أرى بأنّكما التقيتما؟" قالت ساشا بعفويّة بينما عانقت ابنتها ووقفت بعيدة عن ليام، فبدت كوكيلةٍ فنيّة وأمّ، ولم يوحِ تصرّفها بأكثر من ذلك، وبالتأكيد ليس بأنّها امرأته.

– "نعم تعارفنا"، أجابها ليام وابتسم لها بدفءٍ غير أنّها أزاحت عينيها عنه.

– "ليام هو أحد الفنّانين لدينا وصديقاً لكزافييه من لندن وهناك التقيته، فقد اكتشفه شقيقك لنا، وسنقيم له عرضاً في كانون الأول/ديسمبر. ماذا ستفعلين الليلة؟" سألت ابنتها التي بدت جميلةً بدون شكّ ولكنّ ساشا لم تكن تحبّ أن يرى الجميع جسد ابنتها من خلال الثوب الفاضح الذي كانت ترتديه. غير أنّها لا تختلف كثيراً عن الشابات الأخريات اللواتي أتين إلى الحفلة. ففي هذه الأيام ترتدي جميع الشابات في سنّها هذا النوع من الملابس. ولطالما أغضب الأمر ساشا التي لم تتفوّه بكلمة لأنّ تاتيانا كانت ناضجة بما يكفي لترتدي وتفعل ما تريد.

– "سأتناول العشاء مع بعض الأصدقاء في مطعم باستيس"، أجابت تاتيانا بشكلٍ مبهم ثمّ نظرت إلى ساعتها الماسيّة التي كانت هديّةً من والدها في عيد الميلاد الأخير معه.

– "لطفٌ منك أن تأتي إلى ضواحي المدينة لهذا عزيزتي"، قالت ساشا مبتسمةً لابنتها بحنانٍ. فهي تعلم بأنّ تاتيانا لا تقصد غالباً هذه الجهة من المدينة إلاّ من أجل العمل، وبالنسبة للشباب في سنّها، كانت الحياة الصاخبة في وسط المدينة.

– "وعدتك بأنّني سآتي." والتفتت نحو والدتها وابتسمت. وبدا من الواضح بأنّ المرأتين مقرّبتان على الرغم من الاختلاف بينهما. ولطالما احترمتها تاتيانا بشدّة مع أنّها كانت تكره اللقاء بالفنّانين الذين تتعامل معهم. وكانت تشعر بالفخر ممّا تنجزه والدتها، وتأثّرت بأنّ أمها تعمل على توسيع الإمبراطوريّة الفنيّة التي بناها جدّها. ولا تزال تاتيانا تحتفظ ببعض الذكريات عنه، فلطالما أخافها عندما كانت صغيرةً وكانوا يقيمون في باريس، فيما أحبّه كزافييه أكثر.

– "سنقصد نحن مطعم لاغولو للعشاء"، قالت ساشا بنبرةٍ طبيعيّة. وكان أحد مطاعمها المفضّلة ولم يفاجئ ذلك تاتيانا فالمطعم قريبٌ من المعرض، ويقدّم طعاماً لذيذاً كما أنّه مليءٌ بالحيويّة والجوّ المرح والأشخاص المشهورين. وكان قد سبق لساشا أن اصطحبت ليام إليه وأحبّه هو أيضاً بشدّة.

غادرت تاتيانا بعد قليلٍ، وعادت بعدها ساشا للتحدّث مع ليام.

– "إذاً هل كان الجوّ فاتراً بينكما؟" سألته بقلقٍ ظاهرٍ، وخاصة بعد أن رأتهما يتحدّثان ويبدوان كخصمين لدودين يحاول أحدهما النيل من الآخر إلى أن غادرت تاتيانا.

– "إنها جميلة"، قال ليام بصدقٍ فلا يمكن لأحدٍ إنكار الأمر، "هي مخيفة بعض الشيء وأظنّ بأنّها لم تحبّني".

– "لا تغضب فهذا أسلوبها. يقترب الرجال منها دائماً ويلاحقونها ولهذا تُبقي معها الأسلحة للدفاع عن نفسها". والمخالب أيضاً بنظر ليام، ولكنّه لم يقل ذلك لساشا، ولم يخبرها أيضاً بأنّ تاتيانا لم ترق له منذ البداية، وبأنها بدت له كطفلةٍ مدلّلة ليس إلاّ. أمّا كزافييه فكان مختلفاً عنها للغاية، ولكن حتّى رغم أنه أخبرها بأنّه صديق شقيقها، لم تكترث للأمر ولم يؤثّر فيها. وعرف ليام بأنّ ما من شيءٍ سيفعل ذلك أبداً.

غادروا المعرض لتناول العشاء، وكانت ساشا قد دعت عدداً من الأشخاص الذين اعتقدت بأنّه سيفرح برفقتهم، إضافة إلى الفنّان الذي كان عرضه الليلة. كانوا أربعة عشر شخصاً فجلسوا إلى طاولة كبيرة في المطعم

حيث قاموا بهرجٍ ومرجٍ والتفّ الجميع حولهم وحول ساشا. وأبقت ساشا عيناً ساهرةً علـى الجميع، واهتمّت بضيوفها وبكلّ التفاصيل وحظي الكلّ بوقتٍ ممتعٍ. وشكّل اهتمامها وحنانها كلّ ما أحبّه ليام فيها، وكانت تستمع للجميع وتهتمّ بهم وترعاهم كالوالدة. وفكّر ليام بأنّ الفتيات كابنتها يهتممن فقط بأنفسهنّ، وهنّ غير مباليات بالآخرين. وبذلت ساشا جهداً كبيراً لجعل ليام يشعر بالارتياح والأهميّة، وبأنّه موضع ترحيبٍ وهذا ما أحبّه فيها لأنّ هذا ما كان بأمسّ الحاجة إليه ولقد قدّمته إليه.

لم يصدر عنها أيّ تصرّفٍ في تلك الليلة يوحي بأنّهما على علاقةٍ. ولم تقم بأيّ فعلٍ يدلّ على ذلك، ولا حتّى نظرة أو لمسة يد أو أي كلماتٍ. وكان من الواضح بأنّه فنّانٌ مهمٌّ بالنسبة لها ولا شيء سوى ذلك، وبرهنت بأنّها وكيلة فنيّة محبّة ومضيافة. وتصرّفت على هذا الأساس مع جميع الحاضرين. ومدحها على عملها تلك الليلة في طريق عودتهما إلى شقّتها حيث شعر تماماً بالراحة وكأنّه الآن في منزله. ولكانت تاتيانا أصيبت بنوبة لو رأته يدخّن السيجار في كرسيّ والدها المفضّل في غرفة النوم، ولكن لحسن الحظّ لم تتمكّن من رؤية المشهد. فبالنسبة لتاتيانا، كان كلّ ما يخصّ والدها مقدّساً بما في ذلك والدتها. ولطالما عبّرت عن سعادتها بأنّها لم ترَ أمّها تواعد أيّ رجلٍ منذ وفاة والدها، وأملت ألا تفعل أبداً. أمّا شقيقها، فكان أكثر واقعيّةً حيال ذلك وكلّ ما أراده هو سعادة والدته مهما كلّف الأمر ومع أيّ شخصٍ كان.

– "ساشا أنتِ مذهلة"، قال لها ليام فيما نظر إليها عبر الدخان المتصاعد من سيجاره. حتّى أنّها سمحت له بالتدخين هناك وقالت بأنّها تحبّ الرائحة، فلطالما فضّل أرثر تدخين السيجار الكوبيّ من بين كلّ الأنواع. "كان الافتتاح رائعاً، واستطعت أن تجعلي الجميع يشعرون بالأهميّة، حتّى أنا. هوتشكيس أيضاً أحبّ ذلك". وهوتشكيس هو الفنّان الذي تمّ عرض أعماله تلك الليلة. "لقد شعر بأنّه مات وذهب إلى الجنّة". ولم ينفكّ يقول لي كم أنا محظوظٌ لأنّك تمثّلينني، ولم يعرف كامل القصّة بعد". وضحكا سويّاً.

أجابته بارتياحٍ وسرورٍ "أنا سعيدة لأنّك استمتعت". تميّزت ساشا بعملها المتقن وبخاصةٍ معه، وكان هذا أسلوبها بأن تكون قريبة من فنّانيها وزبائنها، وأحبّت ما تقوم به ولمعت في مجالها.

– "من لم يستمتع به؟" هتف لها فيما كان يراقبها وهي ترتدي لباس النوم. وكانت مرتاحةً معه وشعرت بأنّها تعيش معه منذ أعوام. ثمّ اعترف قائلاً بينما أنهى سيجاره وأوت ساشا إلى الفراش تنظر إليه: "تاتيانا تخيفني".

– "لا تكن غبيّاً، إنّها مجرّد طفلة، هذا أسلوبها في التصرّف، فهي عفويّة ولا مباليّة. لطالما كانت متعلّقة بوالدها وتتصرّف بتملّكٍ معي. قلت لك بأنّها حازمة، فإنّما ترى الأبيض أو الأسود. ولكن نظرتها أسوأ من لسعتها، على الأرجح ظنّت بأنّك أحد الفنّانين الوصوليّين الذين يلاحقونها. تمنّيت ألا ترتدي ثيابها بهذا الشكل، فلا عجب إن كان الرجال يحومون حولها".

– "مظهرها فاضحٌ"، أقرّ ليام ولكنّه لم يُعجب بها بقدر ساشا، فمن الواضح أنّ والدتها تعرفها بشكلٍ أفضل. "إنّها مختلفة عن كزافييه، فهو يستطيع التكلّم مع مشرّدٍ ويجعله يشعر بأنّه ملكٌ. وشعرت بأنّني كالقذارة عندما نظرت إليّ". كان كلام ليام مبالغاً فيه ولكن ليس كثيراً، وحزنت ساشا لسماع هذا.

– "إنّها مدلّلة قليلاً بسبب كلّ الاهتمام الذي تناله. بدت جذّابة الليلة".

– "إنّها فعلاً جميلة"، ولكنّ أسلوبها البارد أبعده عنها. وكانت ساشا نوراً مضيئاً مقارنةً بها، وبدت تاتيانا كجبلٍ جليديّ في نظره.

– "إنها تشبه والدي إلى حدّ ما. فهو أيضاً كان مخيفاً قليلاً، ولكنّني أظنّ بأنّك كنت لتحبّه". كما عرفت بأنّ والدها ما كان ليهتمّ أبداً بعمل ليام الفنّي. فهو لم يُعجب بالفنّانين الجدد منذ البداية، فعلى الرغم من أنّه أحبّ ما أغدقه عليهم عملها من مالٍ إلاّ أنّه لم يهتمّ بهذا النوع من الأعمال أو يفهمه.

– "ماذا سنفعل غداً؟" سألها ليام فيما صعد إلى السرير إلى جانبها. ولم

يزعجها بأنّه جال بنظره على جسدها، وقد أصبح سريرها لهما معاً الآن.

– "أظـنّ بأننا سنقصد منـزل هامبتونـز"، أجابته ساشا فيما جذبها إليه وضمّها بذراعيه.

– "يبدو هذا جيّداً بالنسبة لي"، ثمّ قبّلها في الظلام.

– "وأنـا أيضاً"، همست في أذنه وقبّلته بدورها ونسيت كلّ ما من حولها سواه.

فـي اليوم التالي ذهبت إلى المعرض وسُرّت بأصداء العرض، وغادرا إلـى هامبتونـز بعد العشاء مباشرةً. توقّفا لشراء بعض البقالة والحاجيّات في طريقهما، ووصلا إلى هناك في الساعة العاشرة ليلاً. جلسا لبعض الوقت على الشرفة وتحدّثا بينما تناول ليام المثلّجات، ولم يتكلّما في موضوعٍ محدّد. ثم أويا باكـراً إلـى الفراش ومارسا الحبّ. وحين استيقظا في الصباح تنـزّها على الـشاطئ. كانت الحياة التي يعيشانها سهلةً ومريحةً. وبعد الظهر، جلسا على الشاطئ مجدّداً، وأخبرها بأنّه ربّما في الخريف ينوي نقل محترفه إلى باريس. وسيكون ذلك أسهل من أن يأتي كلّ نهاية أسبوعٍ من لندن لرؤيتها لأنّ هذا كان متعباً ومكلفاً. كما أراد أن يكون بقربها خلال الأسبوع.

وأدركـا بأنّــه عــاجلاً أم آجلاً سينكشف أمرهما للعلن. فسبق وأن علم بـرنارد بعلاقـتهما. غير أنّ ليام لم يحاول أبداً أن يقتحم حياتها عمداً ويُظهر نفسه للجميع. وسلّم بأنّ حياتهما وأسلوبهما مختلفان، وشكّل ما تشاركا به حتّى الآن أمراً رائعاً بنظره. وكانت علاقتهما ممكنة حتّى الساعة، فاعتقد ليام بأنّها رائعــة وبدأت ساشا من جهتها تقتنع بها ولو ببطءٍ وحذرٍ. وأخذت تفكّر عكس ما ظنّته في البداية بأنّه أمر مستحيل، بل أدركت بأنّه ممكنٌ كليّاً.

ذهـبا لمشاهدة فيلمٍ سينمائي تلك الليلة في هامبتونـز، وأويا إلى الفراش بعد أن عادا. كانا يتحدّثان ويتعانقان عندما سمعا فجأةً صوتاً. بدا وكأنّ هنالك أحداً في الأسفل وظنّا بأنّه لصّ ما.

– "هل لديكِ زرّاً للإنذار في مكانٍ ما؟" همس لها، فهزّت برأسها.

– "لا أدري، لديّ شيء ولكنني لا أعرف أين؟" أجابته بصوتٍ منخفضٍ. واسـتطاعا سـماع خطواتٍ تتقدّم وتصعد السلالم. التفت ليام من حوله قرب السرير، وحمل مسعراً يُستخدم لإضرام النار في المدفأة، وفتح باب الغرفة فيما سـمعا وقع الخطوات تقترب. وحين فتح الباب، أضاء النور ووقف في الممرّ عارياً يحمـل المـسعر في يده. وتفاجأ لرؤية نفسه مباشرةً أمام تاتيانا التي حملقـت فـيه وقد علت وجهها علامات الدهشة. ورأى رجلاً يقف خلفها على الـسلالم. صرخت ما إن رأت ليام وكذلك فعل هو أيضاً. كان مشهداً لا يمكن وصفه. وتقدّم الرجل الذي برفقتها منه بينما وثبت ساشا خارج السرير ووقفت مباشرةً خلف ليام. كانت هي أيضاً عارية، وصُدمت لرؤية ابنتها. فلم تقل لها تاتيانا شيئاً حول استعمال المنـزل في نهاية الأسبوع، إذ ظنّت بأنّ والدتها لم تعـد تقصده أبداً. ولم تخبرها ساشا برحلاتها الأخيرة إلى هامبتونـز لأنّها لم ترد أن تشرح وجود ليام في حياتها لأحد.

– "يا إلهي أمّي، ماذا تفعلين؟" وانفجرت باكيةً فيما اتّجه الرجل الذي أتى معهـا نحـو الأسـفل بهدوء، ففي الحال فهم ما حدث، وقرّر إبعاد نفسه عن المـشهد في قرارٍ حكيمٍ منه. "هل جننت؟" ثمّ التفتت إلى ليام باكيةً: "ماذا تعتقد نفـسك فاعلاً هنا في سرير والدي؟ فيمَ تفكّران بحقّ السماء؟ أليس لديكما أيّ احترام لأبي؟" صرخت في وجه أمّها وتابعت: "كيف أمكنك إحضاره إلى هنا؟ كيف استطعتِ ذلك؟ أهذا ما كنتِ تفعلينه في باريس؟ تضاجعين فنانيك وتعبثين معهـم؟" ومن دون تفكيرٍ، وللمرّة الأولى في حياتها، ارتجفت ساشا من رأسها حتـى أخمـص قدمـيها، وصفعت ابنتها التي صفعتها هي أيضاً بدورها فيما صـرخ ليام ووضع المسعر جانباً. كان يرتجف هو أيضاً وركض مسرعاً إلى الغـرفة لوضع شيءٍ على جسده العاري. وكلّ ما استطاع إيجاده في فوضى الموقـف كـان سرواله القصير الذي لم يكن أيضاً لائقاً، ولكنّه بدا أفضل من الوقـوف خارجاً وهو عارٍ. فلم يتسنّ له الوقت لارتداء الملابس عندما اعتقد

بأنّه يحمي ساشا من أحد اللصوص. ولفضّل ألف مرّة أن يجد نفسه أمام رجلٍ يصوّب المسدّس إلى وجهه بدل أن يرى تاتيانا.

– "فليهدأ الجميع... أرجوكما..." قال للمرأتين الباكيتين، ولكن بدون فائدة. وكانت تاتيانا لا تزال تصرخ في وجه والدتها وتصبح حالتها أكثر هستيريّة. "توقفا! فلننزل إلى الأسفل ونتحدث"، قال لهما بنبرةٍ هادئة بأكثر ما يمكنه. غير أنّ كلتيهما لم تستمعا إليه، وللحال التفتت تاتيانا إليه مجدّداً.

– "اخرج من منزل والديّ أيّها اللعين! مكانك ليس هنا!" ولم يعرف بماذا يجيب، ضاعت منه الكلمات أمام غضبها، فلم يواجه أبداً موقفاً كهذا من قبل. فلحسن الحظّ بأنّ بيث لم تفاجئه مع بيكي تلك الليلة، وإلاّ لكان الموقف أسوأ مع أنّه لم يستطع تخيّل أسوأ من هذا، بأن تهاجمه ابنة ساشا الغاضبة وهو يرى الرعب والخوف في عيني ساشا. كان المشهد يفوق التصوّر.

– "لا تكلّميه بهذه الطريقة"، قالت ساشا لابنتها بصوتٍ عالٍ، "لأنّه ضيفي".

– "ليس ضيفك، بل عشيقك. وأنتما تثيران اشمئزازي". تفوّهت بتلك الكلمات لوالدتها ثمّ استدارت ونزلت السلالم راكضةً، وبعد ثوانٍ سمعا الباب يُغلق بعنفٍ وصوت السيّارة تبتعد مسرعةً. وإن كانت تاتيانا قد خطّطت لعطلة رومنسيّة، فقد نالت عكس ما تمنّت تماماً، وكذلك الأمر بالنسبة لساشا وليام. جلست ساشا على السلالم، ووضعت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء فيما لفّها ليام بذراعيه. فلم تكن هذه الطريقة التي أرادت أن تعرف من خلالها تاتيانا بعلاقتهما. شعرت باليأس والصدمة وبكت لساعات.

– "لن تحترمني أبداً بعد الآن ليام، فهي تعتقد بأنّني أهنت ذكرى والدها، وبدأت أفكّر بهذا أنا أيضاً"، قالت له وهي ترتجف، فيما بدت محبطةً. "لقد نعتتني بالساقطة، يا إلهي... لا أصدّق بأنّ هذا حدث". وليام أيضاً لم يستطع التصديق، ولم يكن هنالك ما يفعله باستثناء مواساتها لتتحسّن حالتها. وفكّر بأنّ تاتيانا تصرّفت كوحشٍ مهما كانت مغتاظةً أو مصدومةً. وقالت أموراً لوالدتها

لا يمكن أبداً نسيانها أو سحبها، حتّى لو أرادت ساشا مسامحتها، إلاّ أن ليام كان متأكداً بأنّه لن يفعل ذلك.

– "هذا ليس من شأنها"، أجابها بصرامةٍ بينما أعادها إلى السرير بعد أن استغرق الأمر ساعاتٍ عديدة. ولم يعد واثقاً إن كان عليه البقاء معها في السرير ولكنّها بحاجةٍ إليه، فقرّر البقاء. "لم ترتكبي أيّ خطأ، أنت امرأة ناضجة، ولقد توفي زوجك منذ سنتين تقريباً، وتملكين الحقّ بالعيش من دونه. كنت في منزلك الخاص ومع رجلٍ يحبّك. لست مجبرة على الاعتذار بأيّ شيء"، قال لها وقبّلها بلطف. "بل هي مدينة لك باعتذارٍ ساشا، فما قالته لك لا يُغتفر". وحتّى لو قامت تاتيانا بذلك، لم يكن ينوي أبداً أن يقبل الاعتذار منها أو مسامحتها، على الأقلّ في الفترة القريبة، وبخاصة بعد أن نعتته بالوغد والوصوليّ وهذا ما أثار غضبه. وتمنّى لو استطاع صفعها هو أيضاً ولكنّه لم يفعل بالتأكيد. لم يفعل من أجل ساشا وليس من أجل أحدٍ سواها. ولم يكن هنالك من داعٍ لإضافة المزيد من الوقود إلى النار الملتهبة التي خرجت عن السيطرة. ولكنّهما كانا أذكى من تاتيانا ومن هجومها الكلاميّ عليهما، ومن غضبها لرؤية أمّها برفقة ليام في ما كان في السابق سرير والديها.

– "إنّه منزلها أيضاً"، أجابت ساشا يائسةً، "لديها الحقّ بأن تكون هنا، غير أنّني لم أرد أن تعرف بشأننا، كما لم أردها أن تعرف بهذه الطريقة". وشعرت ساشا بأنّها امرأة رخيصة تمّ اكتشافها وهي تغازل أحد الرجال وتعبث معه. وجعلتها ابنتها تشعر بأنّها ساقطة، ووضعتها في مرتبة متدنيّة من بين النساء. غطّا في النوم مع ساعات الصباح الأولى عندما بدأت الشمس تشرق بعد أن تكلّما في الأمر لساعاتٍ. وبكت ساشا مطوّلاً إلى أن غفت بين ذراعيه، واستيقظا معاً على رنين الهاتف عند التاسعة والنصف صباحاً. وكان كزافييه يتصل من لندن. فلقد اتصلت به تاتيانا ليلاً، وأخبرته بكلّ شيء. كانت قصتها بشعة للغاية، إذ أخبرته بأنّ ليام كان يتجوّل في أرجاء المنزل عارياً عندما دخلت هي، ومن الواضح أنّه كان يعبث مع والدتهما. تفاجأ كزافييه في البداية،

وخاصةً مع المشهد الذي رسمته تاتيانا. ولكن بعد أن هدأ وفكّر في الأمر لساعاتٍ، وجد بأنّه لا يرفض هذا الالتقاء. أبداً في الواقع. فهو يحبّ ليام، غير أنّه شعر بالأسف من أن تتكشف المسألة على هذا النحو. كانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر في لندن عندما اتصل بهما، وبكت والدته لحظة سمعت صوته على الهاتف. وبدت محبطة ونادمة بشدّة.

– "عزيزي، أنا آسفة... لم أستطع... ظننت... ليس الأمر كما بدا لتاتي... يا إلهي... ماذا سأفعل؟" كانت متأكّدة بأنّ علاقتها مع ابنتها قد دُمّرت للأبد ولم تشعر بهذا الخجل والإحباط في حياتها. ولم يكن هنالك أسوأ من أن ترى عائلتها مفككة ومدمّرة. فهي تحبّ ليام أو اعتقدت بأنّها تفعل، ولكن ولديها يأتيان في المرتبة الأولى، وخشيت من أن يكون كزافييه غاضباً أيضاً.

قال كزافييه بلطفٍ: "أولاً عليك أن تهدأي"، وهذا ما قاله لتاتيانا أيضاً عندما اتصلت به في السادسة صباحاً بتوقيت لندن، وهي تصرخ بشكلٍ هستيريّ، وتنعت والدتهما بالساقطة. فأمرها بأن تصمت حالاً فسكتت. تحدثّا لساعاتٍ وأكّد لها بأنّ ليام رجل صالح وصديق له، وبأنه قام بتقديمه لساشا مع أنّه لم يتوقّع حصول هذا. في الواقع، لم يفكّر حتّى في الموضوع. ولكنّه اعتقد بأنّه يحقّ لوالدتهما أن تحظى بالسعادة مع من تختار، أيّاً كان. لم يكن هذا من شأنهما. ومن الواضح أنّها كانت متكتّمة حيال الموضوع، وهذا ما قاله لتاتيانا إذ لم يبدُ أنّ أحداً كان يعرف. حتّى أنّه لم يلاحظ أيّ شيءٍ عندما رآهما معاً، ومن المؤكّد بأنّها ليست "ساقطة" على الإطلاق. بل هي امرأةٌ وحيدة مع حبيبٍ صودف أنّه يصغرها ببضعة أعوامٍ وهذا أيضاً ليس من شأنهما.

– "كيف أمكنها أن تفعل ذلك في سرير أبي؟ هذا مثيرٌ للاشمئزاز!" صرخت تاتيانا عندما كلّمته. فكانت لا تزال تضع والدها في مقامٍ رفيعٍ ولا تصدّق حتّى الآن بأنّه توفي. ولزيادة حزنها، أخذ أحدهم مكان والدها ونام في سريره.

– "تاتي، إنّه سريرها هي أيضاً. أين تتوقّعين منها أن تذهب؟ نحن

محظوظان لأنها تسمح لنا باستخدام المنزل. ليس عليها ذلك، فأبي قد تركه لها".

– "كان يمكنها الذهاب إلى فندقٍ ما".

– "هذا قاسٍ، لديها الحقّ بفعل ما تريد تات، وأؤكّد لك بأنّه شابٌ صالحٌ. أعرفه جيّداً".

– "لا يهمّني أمره، فليذهب إلى الجحيم، إنّه فنّانٌ يتضوّر جوعاً ويسعى وراء ثروتها، بل ثروتنا". قالت هذا وكأنها تذكّر شقيقها بالموضوع آملةً أن تجعله يقف ضدّ صديقه. ولكن هذا لم ينجح. فكزافييه يعرف ليام جيّداً.

– "لا أظنّ ذلك"، أجاب كزافييه، "حقّاً، أظنّ بأنّه يحبّها فعلاً". على الأقلّ هذا ما أمله، وهذا ما أراد معرفته عندما اتصل بوالدته. "أهذا جديّ أمي؟" سألها بصدقٍ بينما ترددت في الإجابة. لم تعرف بماذا تجيب أو ماذا تدعو هذا. فهما يحبّان بعضهما، ولكنّهما لم يفكّرا في النهاية، وهذا ما حاولا فعله الآن.

– "لا أدري"، أجابته ساشا، فلطالما كانت صادقةً مع ولديها، ولم تكذب بشأن ليام بل إنّها لم تخبرهما بالعلاقة وحسب. كانت كلّ خطيئتها بأنّها حذفت الأحداث، ولم ترتكب أي سوءٍ أو جرم.

– "كم مضى على علاقتكما؟" سألها آملاً ألا تكون نزوة عابرة أو ليلةً وحسب ممّا سيجعله كاذباً بنظر تاتيانا عندما قال لها بأنّ أمّهما لا تقدم على شيءٍ بدون تفكيرٍ ولعلّ هذا الأمر مهمٌ بالنسبة لها. ولكنّ هذا ما جعل تاتيانا تبكي أكثر لأنّها لم تُرد أن تتزوّج أمّها بفنّانٍ شابٍ سخيف. فمن شأن هذا أن يُشعرها بالإحراج، وكان هذا أكثر ممّا تقدر على تقبّله. أرادت أن تبكي أمّها على موت زوجها للأبد، وكان هذا تفكيراً صبيانياً من قبلها.

– "ستّة أشهرٍ، على نحوٍ متقطّعٍ منذ كانون الثاني/يناير"، قالت ساشا ببؤسٍ. وكان ليام يستمع إليها مستلقياً إلى جانبها في السرير، ثمّ قرّر تركها بمفردها لتتكلّم مع ابنها. فنهض ونزل إلى المطبخ ليعدّ القهوة.

– "هل ستتزوّجينه؟".

- "يا إلهي... لا أدري... أقول له باستمرار بأنّ هذا مستحيل. وأظنّ بأنّ تاتيانا أثبتت الأمر ليلة أمس. لن أقدم على أيّ عملٍ يبعدني عنكما. لم نفكّر أنا وليام إلى أين ستقودنا العلاقة، فقد تفشل في النهاية".

- "لـن يـبعدك أيّ شيءٍ عنّا أمي. فنحن نحبّك، وستتخطّى تاتيانا ذلك، كانت مفاجأة بالنسبة لها وهذا كلّ ما في الأمر. نريدك أن تكوني سعيدة". تكلّم كزافييه باسمهما معاً، وعلمت ساشا بأنّ هذا ليس صحيحاً، أو على الأقلّ ليس حالياً.

ثـمّ بكت بكآبة لتذكّرها مشهد الليلة السابقة عندما كانا هي وليام عاريين والجـمـيع يصرخ. وكانت تاتيانا قد وصفت المشهد بدقّة لشقيقها. "كان المشهد رهيباً، ظننّا بأنّها لصٌّ وخرج ليام عارياً وحاملاً المسعر".

- "وهـذا مـا قالته لي"، قال كزافييه بهدوءٍ. وكان يكبر شقيقته بعامين، وهـذا مـا شكّل فارقاً في التعامل. كما أنّ ليام صديقه فلم يكن رجلاً مجهولاً بالنسبة إليه. تفاجأ في البداية من علاقة والدته بليام، غير أنّه كان يعرف على الأقـلّ بأنّه شخصٌ صالحٌ. أمّا تاتيانا فلم تكن تعرف شيئاً عنه. وتابع كزافييه قائلاً: "لحسن الحظّ بأنّه لم يهاجمها ويضربها بالمسعر في الظلام".

- "لقـد أضـاء النور وهذا ما جعل الأمور تسوء عندما رأتنا". وضحك كزافييه هذه المرّة.

- "حسناً أمّي، انكشف أمرك، ولكن كل ما يهمني هو أن تكوني سعيدة. سأكلّم تاتيانا في ما بعد. قلت لها بأنّ تتناول دواءً مسكّناً وتنام".

- "هل تتناول المسكّنات؟" قالت ساشا مصدومةً، فلم يدمن أيّ من ولديها على الأدوية أو المخدرات على حدّ علمها.

- "كـلا، ولكنّنـي واثـقٌ بأنّ أحد معارفها لديه بعض الدواء. بدت لي وكأنّهـا بحاجةٍ لذلك مساء أمس. كان يجدر بك أن ترشّيها بخرطوم ماءٍ، فقد جُـنّ جـنونها وفقـدت صوابها عندما اتصلت بي". وكانت قد تناولت بعض الـشراب وبـدت ثملةً بعض الشيء، كانت في فوضى عارمة فطلب منها أن

تحظى بقسطٍ من النوم وتكلّمه فيما بعد. "هل يمكنني التحدّث مع ليام؟" فذهبت ساشـا تـبحث عنه في المطبخ، وناولها كوباً من القهوة وأعطته الهاتف. فرح كزافييه ما إن سمع صوتاً مألوفاً وقال: "إذاً، هل أدعوك أبي الآن؟".

- "هـذا أفضل بكثيرٍ ممّا نعتتني به أختك، اسمع يا رجل أنا آسف، أنا حقـاً آسـف. لم أقصد أن أنشر كلّ تلك الفوضى، لم أكن لأفعل ذلك بأمك أو بك".

- "لا تقلق بهذا الشأن، فهذه الأمور تحدث". وكأنّ كزافييه بذلك قد أدّى دوره كرأس العائلة والمسؤول عنها في الدفاع عن مصالح والدته، ثمّ سأل ليام بجدّيّة: "أتحبّها؟" وأمل ذلك فعلاً لأنّه رجلٌ صالحٌ، ولأنّ كزافييه أراد فعلاً أن يعـرف بـأنّ صـديقه كان يتصرّف بلياقةٍ وصدقٍ ولا يتعامل مع الأمر كأنّه نـزوة. فلم يُرد أن يتمّ استغلال والدته وخصوصاً من قبل صديقه.

- "نعـم، أنـا أحبّها"، أجاب ليام بصوتٍ مرتفعٍ وواضحٍ بينما التفت إلى ساشا التي جلست حزينةً على كرسيّ إلى طاولة المطبخ. وكانت لا تزال تشعر بأنّها أهينت.

- "هل من المبكر أن أسألك عن نواياك؟".

- "ربما، فنحن ما زلنا نحاول تحديد الأمور بيننا، من المبكر طرح هذا السؤال، ويستغرقني الكثير من الوقت لأقنع والدتك بأنّ علاقتنا فكرة جيّدة، ولا أظنّ بأنّ الليلة السابقة ساعدت كثيراً، كما أنني لم أحصل على الطلاق بعد". ثمّ طرح سؤالاً على كزافييه: "إذا ما وصلنا إلى حدّ الارتباط، فهل ستوافق؟".

تـردّد كـزافييه لوقتٍ طويلٍ وهو يفكّر في الأمر. كان هذا جديداً عليه أيضاً. ثمّ أجاب: "أعتقد ذلك إن كنتما فعلاً قادرين على إسعاد بعضكما البعض. ليس هذا ما توقّعته ولكنّ الحياة تتّخذ اتجاهات مضحكة أحياناً. ربما ينجح هذا معكما، سأدعكما تحذدان المسألة بينما أهتمّ بأختي".

- "أقـدّر لك هذا فعلاً"، قال ليام ذلك فيما ارتجف صوته. فلقد قدّر حقّاً مـباركة صديقه لعلاقتهما، أكثر من مساعدته لأخته الغاضبة مع أنّ هذا أيضاً

سيساعد وسيعني الكثير لساشا التي ما زالت محبطة. أعطاها ليام الهاتف ثمّ خرج إلى الشرفة ونظر إلى البحر. كان يوماً ضبابيّاً وبدا مناسباً له.

حاول كزافييه أن يُهدّئ من روع والدته عندما عادت إلى الهاتف لمكالمته. كانت تبكي بهدوءٍ وشعر هو بالأسف من أجلها واستطاع بسهولةٍ تخيّل كم كان الأمر رهيباً بالنسبة لها. "أمّي، حاولي أن تهدأي، سأتحدث تاتي. حاولي فقط أن تحظي بعطلةٍ ساكنة، وستتخطّى تاتيانا الأمر وأنتِ كذلك. إنّه رجلٌ صالح، ويقول إنّه يحبّك. هذا كلّ ما تحتاجين معرفته".

- "أنا أيضاً أحبّه"، أجابت ساشا بما يشبه الهمس، "ولكنني لن أخسر ولديّ من أجله".

- "هذا لن يحصل، ستصرخ وتصيح لفترةٍ وتجعل من ذلك عرضاً، تعرفين كيف هي. لديك الحقّ بفعل ذلك إن كان هذا حقّاً ما تريدين. إنني أدعمكِ، وإن تابعتِ العلاقة ونجحت ستدعمك هي أيضاً. وإن حدث خلاف ذلك، ستكون إحدى التجارب التي تُضاف إلى سلسلة خبراتك وستضحك كلّنا على الأمر يوماً ما". ولكن لم يكن أحدٌ يضحك بعد. عبّر كزافييه عن نضجٍ كبيرٍ وعاطفةٍ جيّاشة تجاه والدته أكثر بكثيرٍ من أخته.

شكرته ساشا بشدةٍ وتحدثا لدقائق ثمّ أقفلا الهاتف، وخرجت إلى الشرفة تبحث عن ليام. كان ينظر إلى البحر مفكّراً والتفت إليها بينما جلست على الأرجوحة قربه.

- "أنا آسف ساشا، لم أقصد أن أنشر الفوضى في حياتك". وبدا يائساً للغاية بسبب ما حدث.

- "لم تقم بأية فوضى، كانا سيعلمان بالأمر عاجلاً أم آجلاً". وكذلك الآخرون. ولكنّها لم تكن الطريقة التي أرادت أن تنكشف من خلالها علاقتهما، وهذا ما ظنّه هو أيضاً.

أمضيا بقيّة العطلة بهدوءٍ وعادا إلى المدينة مساء الأحد. حاولت الاتصال بتاتيانا عدّة مرّاتٍ على هاتفها الخلويّ ولكنّ مجيبها الصوتي كان

يجيب دائماً. وكذلك الأمر في شقّتها أيضاً، فتركت لها رسائل حنونة. ولم يحبّ ليام أن يراها بهذه الحالة اليائسة، ولكنّه علم كم تحبّ ابنتها وكم تعني بالنسبة لها. واعتقد بأنّ تاتيانا يجب أن تُلقَّن درساً غير أنّه لم يقل شيئاً لساشا، إذ إنّ التعامل مع هذه المسألة كان من شأنها.

ترك كزافييه لأخته بضع رسائل، إلى أن اتصلت به في لندن. ولكنّها كانت صارمة وعنيدة عندما حاول التحدث معها بعقلانيّة، وغضبت منه لأنّه وقف إلى جانب ليام.

- "أنت مجنونٌ مثلهما، بحقّ السماء كزافييه، يصغرها بعشرين عاماً، ما مدى جنونها؟!".

- "ليست مجنونة تاتي، بل هي وحيدة. كما أنّه أصغر منها بثماني أو تسع سنواتٍ ليس إلا"، أجابها كزافييه بهدوءٍ محاولاً بدون جدوى التحدث معها بتعقّل.

- "يبدو كالولد".

- "هو كذلك في بعض الأحيان. يتصرّف كولدٍ، ولكنّه ليس كذلك، إنّه راشدٌ. يقول بأنّه يحبّها وأعتقد بأنّها تبادله المشاعر نفسها. سواء أحببنا ذلك أم لا، يحقّ لها أن تكون مع من تريد. وأفضّل أن تكون برفقته على مرافقة رجلٍ سيّئ لئيم نكرهه، أو شابٍ يسعى وراء مالها".

- "هذا ما هو عليه زاف، وهو على الأرجح يلاحقها للاستيلاء على ثروتها".

- "لا أظنّ ذلك، فكلّ ما يهمّه هو الفنّ، وهو رجلٌ محترمٌ وصالحٌ تزوّج لعشرين سنةً، ولديه ثلاثة أولادٍ". ولكنّه لم يخبرها بأنّ الزواج انتهى لأنّه قام بخيانة زوجته مع أختها. "عليك أن تثقي بها في هذا الخصوص، ربما سينجحان في العلاقة وهما فعلاً لا يؤذيان أحداً".

- "ستبدو كالمجنونة، وكذلك نحن إن اكتشف أحدهم بأنّها تخرج برفقته".

– "فعلت أموراً أسوأ من هذا، صدقيني، وأنتِ أيضاً". فهو يعلم كلّ أسرارها وكان لديها بضع علاقاتٍ لم تودّ إظهارها للعلن. ولم تكن ساشا تنوي من جهتها أن تجعل علاقتها بليام علنيّة. بل على العكس، سعت إلى إبقائها سريّة والاختباء في هامبتونز. ولكن حتّى ولو اكتُشف أمرهما، فلم يكن هنالك ما يُشين في ليام.

– "إنّها أمّنا بحقّ السماء!" صرخت تاتيانا به مجدداً. ولم تكن تقدم أيّ تنازلٍ في هذا الأمر، فعندما تصمّم تاتيانا على شيءٍ، ما من قوّةٍ تردعها أو تجعل عنادها يتراجع ولو للحظةٍ واحدة.

– "هذا بالتحديد ما أعنيه. دعيها وشأنها تاتي! وتصرّفي باحترام معها. تحتاج إلى ذلك، فقد كانت بغاية الحزن عندما توفي أبي وأريدها أن تكون سعيدة".

– "ليس معه". بذلك أعلنت تاتيانا الحرب عليهما، وصمّمت على الاستمرار فيها. أرادت إخراج ليام من حياة والدتها مهما كلّفها الأمر. كما صمّمت على حماية والدتها من نفسها من أجل ذكرى والدها إن لم يكن من أجل شيءٍ آخر.

وناقشا المسألة لساعةٍ تقريباً، ولم تقتنع تاتيانا أبداً أو تستسلم. وأخبرت كزافييه بأنّها لن ترتاح قبل أن يرحل ليام. ومن وقع صوتها وتصميمها على الهاتف، صدّقها كزافييه واعتقد بأنّ موقفها مؤسفٌ. وكلّ ما أمله الآن هو أن يكون ليام قويّاً ومتماسكاً أكثر من شقيقته. فتاتيانا كانت تنال كلّ ما تصمّم عليه ولا تستكين إلّا حين تحقّق مبتغاها.

الفصل الرابع عشر

بدت ساشا بغاية اليأس والإحباط عندما ذهبت إلى المعرض صباح الاثنين. فلاحظت كارن مديرة المعرض ذلك. وكذلك لاحظت ذلك مساعدتها مارسي. إذ بينما كانت تطلع ساشا على بعض التعليقات عن العرض الذي أقيم في الأسبوع المنصرم، سألتها بلطف إن كان كلّ شيء على ما يرام.

– "أنتِ بخير؟" سألت بإصرار فيما التفتت ساشا إليها والدموع في عينيها. إذ إنّ تاتيانا لم تُجب على أيّ من اتصالاتها، حتّى أنّهم قالوا لها ذلك الصباح في مكتبها بأنّها ليست موجودة. ولم ترد ساشا أن تلاحقها باتصالاتها، ولكنّ تاتيانا كانت ترفض بالتأكيد الإجابة عليها.

– "واجهتُ مشكلةً مع تاتيانا خلال نهاية الأسبوع"، أجابت ساشا بحزنٍ. ولم تستطع أن تصف لها المشهد حين وقف ليام في الممرّ عارياً وفي يده مسعر، بينما صرخت تاتيانا وأطلقت الإهانات عليهما. ففي كلّ مرةٍ تفكّر ساشا بما حدث، ينتابها اليأس وتبدأ بالبكاء مجدداً. كان الأمر رهيباً ومؤلماً بالنسبة لها.

– "هل هي على ما يرام؟" فعلى الرغم من أنّها لم تكن متزوّجة ولم تُرزق بأولاد، كانت مارسي كالأمّ الحنونة والعاطفيّة وهذا من الأشياء التي أحبّتها ساشا فيها. فهي لم تكن ماهرة في عملها وحسب بل حنونةً ولطيفةً ومحبّةً لساشا أيضاً.

– "لا أعرف، فهي لا تريد التحدث معي. تشاجرنا بعنفٍ، أكثر ممّا يمكنني أن أصفه لك". ولم يكن غريباً بالنسبة لمارسي أن تحصل مشاداتٌ بين

تاتيانا وأمّها حين كانت لا تزال مراهقة، ولكن خلال السنوات القليلة الماضية، بدت الأمّ وابنتها على تفاهم تام، حتّى الآن على الأقلّ.

- "ستتخطّى الأمر"، طمأنتها مارسي. ولكنّ المشكلة الآن تكمن في ما إذا كانت ساشا ستستطيع ذلك.

- "لست واثقةً بأنّها ستفعل"، قالت ذلك بينما كانت تمسح دموعها بمنديل. فلقد اعتادت من أمّها أن تحمل معها دائماً منديلاً، وشكّل هذا إحدى الذكريات التي احتفظت بها عنها فأبقت واحداً في حقيبتها طوال الوقت. "كان الأمر رهيباً"، تابعت ساشا بينما رمقتها مارسي بنظرة تعجّب، وخرجت ثمّ عادت مع كوب من الشاي وآخر من الماء وبعض الكعك. نظرت ساشا إليها وابتسمت قائلةً: "شكراً مارسي". تردّدت مارسي قبل أن تغادر، وسألت ساشا إن كان هنالك ما تفعله لمساعدتها. إذ لم تُرد التدخّل. فأجابت ساشا: "أتمنّى لو تستطيعين، ولكن هذا مستحيل"، وأجهشت بالبكاء بمرارة. ولم تقوَ مارسي على الخروج، فعادت إلى الغرفة وعانقت مديرتها وصديقتها بحرارة.

- "مهما كانت المشكلة، فإنها ستُحلّ، أعدك"، قالت مارسي بينما أوشكت على البكاء هي أيضاً.

- "لا لن يحصل هذا"، ومسحت ساشا دموعها التي تتدحرج على خدّيها بغزارة، واعترفت أخيراً بالأمر: "إنّه ليام!" فيما تسمّرت مارسي مكانها مرتبكة.

- "ليام؟ ما علاقته بالموضوع؟ لم تستطع مارسي التفكير، "هل تعرفه؟" وأخذت تتصوّر كيف تشاجرا وما علاقته بتاتيانا؟ كان الموضوع مربكاً ومشوّشاً بالنسبة لها.

- "تعرفه أكثر ممّا أردت في تلك الليلة. فلقد كان يقيم معي في هامبتونز". ولكن هذا لم يفسّر لمارسي سبب الجدال، ولكنّها تعاطفت مع ساشا وحاولت مواساتها قدر المستطاع.

- "وتعاركا؟".

- "نعتتنا أنا وهو بأسوأ الألفاظ والتعابير التي يمكنك تصوّرها، ساقطة، مومس، وصوليّ، لعين، وغد. ولم تكن سوى البداية".

- "يا إلهي ماذا حدث؟" وبدت الصدمة واضحة على وجه مارسي.

نظرت ساشا إليها مطوّلاً، وكانت تثق بها بعد أن عرفتها وأحبّتها لسنوات. ورغم أنها لم تكن تريد أن تشارك هذا مع أيّ أحدٍ آخر بعد أو ربما أبداً، إلا أنّه كان عليها إخبارها بالأمر. فقالت لها: "فاجأتنا في هامبتونز، فأنا لم أكن أعرف بأنّها ستستعمل المنزل. وبينما كنّا في السرير، دخلت إلى المنزل فاعتقدنا بأنّها لصّ. عندها خرج ليام من الغرفة عارياً وحاملاً المسعر بيده، وكاد يضربها على رأسها. بعد ذلك، فُتحت كلّ أبواب الجحيم".

- "ليام؟ ماذا كان يفعل ليام في سريرك؟" سألتها مارسي وقد أصابتها الدهشة، بينما ضحكت ساشا من خلال دموعها.

- "بحقّ السماء مارسي، ماذا تعتقدين أنّه فاعلٌ؟ صدقيني، تاتيانا اكتشفت الأمر، وبخاصةٍ عندما وقف هناك عارياً. والأسوأ أنّها كانت تصطحب شاباً معها، وعلى الأرجح أنها قد خطّطت لفعل ما كنّا نفعله أنا وليام منذ ستّة أشهرٍ على نحوٍ متقطّع. فلقد توقّفنا عن رؤية أحدنا الآخر مرّة أو اثنتين. أنا واثقة من أنّ هذا كلّه لا يساعد في حلّ المشكلة".

- "أنتِ وليام؟" بدت مارسي كمن تلقّت ضربةً على رأسها، وراحت تردّد: أنتِ وليام؟".

- "هل يبدو الأمر بهذا السوء؟" قالت ساشا مرتعبةً وخائفة.

وكانت الأيام الثلاثة الماضية الأكثر سوءاً وإذلالاً في حياتها، والآن مع صدمة مارسي، تمنّت ساشا لو لم تخبرها.

– "سيّئ؟ هل تمزحين؟ لو أمكنني فقط أن أواعد رجلاً مثله لأصبحت مؤمنةً إلى أقصى الحدود. إنّه رائعٌ ولطيفٌ وموهوبٌ. ماذا تريدين أكثر؟ وماذا تريد تاتيانا؟ ربما شعرت بالغيرة".

– "لا إنهـا لا تغار، بل تكرهه. فهي لم تحبّ يوماً الفنّانين، وخاصة بعد أن الـتقت عـدداً منهم طوال أعوامٍ وكانوا جميعاً مجانين. تظنّ بأنّهم غريبو الأطـوار، وهـي محقة في بعض الأحيان، فهذه هي حال ليام، ولكنني أحبّه ويقـول هو أيضاً بأنّه يبادلني نفس الشعور. والآن تريد تاتيانا أن تقتله، وعلى الأرجح لن تكلّمني بعد اليوم أبداً".

– "بالطبع سوف تفعل. لماذا لم ألاحظ الأمر سابقاً؟" قالت مارسي وهي تشعر بالغباء: "يا لي من عمياء غبيّة!".

– "كنّا نحاول إبقاء العلاقة سرّاً حتّى نقوم بتحديد الأمور بيننا. وكان كلّ شيءٍ يسير على ما يرام منذ نيسان/أبريل ولكنّها فقط ثلاثة أشهر".

– "ممّ تخافين؟" سألتها مارسي بلطف. فلطالما تشاركت مع ساشا من قبل في أمورٍ خاصة أخرى، ولطالما نصحتها بالصواب.

– "أتمزحين؟ إنّه كولدٍ في الثانية عشرة من عمره. أبدو كوالدته ولا أريد أن ألعب ذلك الدور سوى مع ولدي".

– "أولاً، لا تـبدين كـوالدته، حتّـى أنّك لا تبدين كبيرةً بما فيه الكفاية لتكونـي أمّ كـزافييه أو تاتيانا. وثانياً، إنّ كلّ الرجال كالأولاد الصغار، وكلّ امرأةٍ في العالم تنتهي بلعب دور الأمّ. وإن لم تفعلي ذلك، يتركونك ويلاحقون امرأةً سواكِ قادرة على تأدية هذا الدور".

– "أو شـابة في الثانية عشرة من عمرها. لا أريد أن أقع بحبّ رجلٍ قد يهجرني بعد سنواتٍ ساعياً وراء شابةٍ في العشرين. قد يحصل هذا".

– "هل هو هكذا؟" سألت مارسي قلقةً.

– "من يدري؟ لا أظنّ ذلك. كان متزوّجاً لعشرين سنةً قبل أن ينفصل

بطـريقة غبيّة. ولكنّه أيضاً عديم المسؤوليّة... ويعترف بالأمر، فهو فنّانٌ غـريب الأطـوار". مع أنّه لا يُظهر هذا مؤخراً. "لم أعرف بأنّني سأغرم يوماً برجلٍ يصغرني بتسعة أعوامٍ وهو أحد فنّانيّ أيضاً. الأمر أشبه بمشهدٍ مـسرحيّ أو بسخرية القدر أو نوعٍ من المزاح. كنت أعيش حياةً محترمةً إلـى أقصى الحدود مع أرثر وانظري إليّ الآن، ها أنا مغرمة بشابٍ غير ناضـجٍ، وانقلبت حياتي رأساً على عقب. وعلى الأرجح لن تكلّمني تاتيانا مجدّداً".

– "إن لم تفعل، سألقّنها درساً بنفسي. ستتخطّى الأمر. لعلّ المشهد برمّته كان صادماً للجميع". وابتسمت ساشا بكآبةٍ فيما نظرت إلى صديقتها. كان ذلك يفوق الوصف.

– "لقد وقفنا هناك عاريين، بينما كان ليام يحمل المسعر، وتاتيانا تصرخ وتطلـق الإهانـات فـي كلّ اتجاه. أمّا رفيقها فبدا وكأنّه أراد الاختفاء تحت الأرض. ومـن يلـومه؟ صفعتها فصفعتني بدورها، لم أمدّ يدي عليها من قبل ولن أفعل ذلك أبداً مجدّداً. بدا المشهد كفيلم سينمائيّ سيّئ. أنا في سرير والدها مـع حبيبي الشاب، والأسوأ بأننا وقفنا هناك عاريين. يا إلهي مارسي، إلى أي مدى ستسوء الأمور بعد؟".

– "لـيس كثيراً"، قالت مارسي مبتسمةً، "ولكن فكّري بالموضوع من ناحيةٍ أخرى، فيمكنه أن يكون رجلاً عجوزاً وسميناً وبشعاً، ثمّ تخيّلي كيف كـان سيبدو الأمر وأنتما عاريين أمامها وهو يحمل المسعر. وإن سألتني رأيي، أرى بأنّك محظوظة لأنّه هو ولا أحد غيره. اسمعي، أنتِ عزباء منذ بعـض الوقت أمّا أنا فكنت عزباء طوال حياتي وسأكون هكذا دائماً، ليس لأنّنـي أحبّ الوحدة بل لأنني لم أجد رجلاً مناسباً. صحيحٌ أنّ العالم مليءٌ بالـرجال المطلّقـين الذين يتحمّلون نفقات طليقاتهم، وبالعديد من الأرامل الـذين يظـنّون بـأنّ زوجاتهم اللواتي توفين كنّ كاملات ونسوا كم كانوا يكرهونهنّ وهنّ على قيد الحياة. ولا يمكنك أن تقيسي نفسك بهنّ ولو بعد

مليون سنة. كما أنّ هنالك الرجال الذين يخشون من الارتباط، والسكّيرين، ومدمني المخدّرات والوصوليين والاستغلاليّين، والرجال الذين يكرهون النساء ويعيشون حياة الشذوذ سرّاً ومنهم من يعيشونها علناً ويريدون ارتداء أثوابنا. بالإضافة إلى الرجال المملّين الذين لا يستحقّون خوض العلاقات، والرجال ذوي الرائحة الكريهة والمظهر السيّئ. لم أستطع إيجاد رجلٍ أقع في حبّه خلال الأعوام العشرة الماضية حتّى أنني لم أقم أيّ علاقة منذ ثلاثة أعوام. تخلّيت عن فكرة أن أغرم بالذين أعاشرهم، أو أن أجعلهم يُغرمون بي. لأنني لو تمسكت بمبادئي التي كانت مهمّةً بالنسبة لي، فمن المؤكّد بأنني لن أعاشر أحداً من جديد، وربما أبداً كما يبدو. إذاً، هل أنتِ قلقة بسبب فارق تسعة أعوام بينك وبين شابٍ رائعٍ وموهوبٍ ولطيفٍ تحبّينه وهو مجنونٌ بحبّك؟ حسناً قولي لتاتيانا أن تطبق فمها وتقنع بذلك، وإن لم تفعلي فسأقوم أنا بذلك".

كان خطاباً رائعاً وعلمت ساشا بأنّه صادق. فمارسي امرأةٌ رائعة، ليست جميلةً جدّاً، لكنّها فاتنة ولائقة المظهر وزائدة الوزن بعض الشيء، ولكن ليس بشكلٍ مفرطٍ، كما أنها ذكيّة ومثقّفة وتتقاضى راتباً جيّداً، وهي أحد أكثر الأشخاص لطفاً الذين تعرفهم ساشا. وها هي قد علمت بأنّ مارسي لم تحظَ برجلٍ في حياتها لسنواتٍ، ليس لأنّها تعاني علّةً بل لأنّها بكل بساطة لم تجد أيّ رجلٍ، ولم يكلّف أحدٌ نفسه عناء إيجاد شريك لها. وكانت كلتاهما تعرفان بأنّ هذا النوع من النساء منتشرٌ جدّاً في أروقة الحياة اليوميّة، وفي كلّ المستويات الاجتماعيّة والأعمار. فلقد أصبح من الصعب أن يجد كلّ امرءٍ شريكاً له ولهذا راجت فكرة المواعدة من خلال الإنترنت. ولطالما شجّعتها ساشا بأن تحاول ذلك، ولكنّها كانت خائفةً وكذلك الأمر بالنسبة لساشا التي وجدت أنّ مواعدة غرباءٍ على الإنترنت خطيرةً ومخيفةً. وكان كلّ ما قالته مارسي لساشا صادقاً ونابعاً من أعماقها وأدركت ساشا هذا بدورها. فلقد اعتقدت مارسي بأنّ صديقتها محظوظة

لوجود رجلٍ مثل ليام إلى جانبها وهو أيضاً كان محظوظاً بها. وإن رفضت تاتيانا علاقتهما، فلتفعل. وما أغضب مارسي هو سماعها ما قالته تاتيانا لوالدتها.

– "أحقاً لا تعتقدين بأنّه من الخطأ أن أكبره بتسعة أعوامٍ؟" سألتها ساشا باهتمامٍ وكانت لا تزال كئيبةً مع أنّها شعرت بالرضى والامتنان لأنّ الأمر نال استحسان مارسي.

– "ليس في الثانية والعشرين، بحقّ السماء ساشا. إنّه راشدٌ كما أنّه رُزق بأولادٍ يبدون في السنّ نفسها. كما أنّ العديد من الناس يقدمون على علاقاتٍ مماثلة وتنجح. فلقد حظيتِ بزواجٍ ناجحٍ، ولديك أولاد، ولا تحلمين بالأشياء ذاتها التي كنت تسعين إليها منذ خمسة وعشرين عاماً. كلّ ما تحتاجين إليه هو رجلٌ تقضين معه أوقاتاً جميلةً، ويعاملك جيّداً، وتملكان نقاطاً مشتركة مهما كانت. وأنتما بالتأكيد تملكانها. ليس عليكما أن تريا بعضكما كلّ دقيقة أو أن تقيما معاً إن لم تريدا ذلك، ويمكنكما أن تفعلا ذلك إن رغبتما. تستطيعان الحصول على حياتكما الخاصة ومشاركة بعضكما البعض فيها. يبدو هذا مثالياً بالنسبة لي. واسمعي، إن لم ترغبي به، سآخذه أنا، فهو يصغرني فقط بثلاثة أعوامٍ وسأكون سعيدةً بأن أعيش وأخرج معه، بل سأكون سعيدةً بذلك للغاية". توقّفت ساشا عن البكاء بينما كانت تستمع لها وبدأت تضحك. فلقد أشعرتها مارسي بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام وسيكون دائماً هكذا. وجعلتها تدرك كم هي محظوظة لوجوده معها وبأنّ الصدمة لن تكون بقدر ما توقّعت على المجتمع من حولها. كانت مارسي محقّةً في كلّ ما قالته، فلتذهب الأعوام التسعة إلى الجحيم. وإن كان حقّاً فنّاناً غريب الأطوار، فإنها تستطيع التعامل مع الأمر، كما أنّه كان يُحسن التصرّف مؤخراً.

– "ماذا سأفعل بخصوص تاتيانا؟" سألتها ساشا وقد بدت علامات الجدّيّة على وجهها من جديد.

– "لا شيء، دعيها تهدأ وحدها. من الواضح أنّها شعرت بأنّك قمتِ بخيانة والدها، فأنتِ تعرفين كم كانت مولعةً به، فلقد كانت تضعه في مرتبة عالية. كان رجلاً رائعاً ساشا، ولكن لنواجه الأمر، لقد رحل ولن يعود أبداً. وأشعر بأنّه سيُسرّ إن عرف بأنّك سعيدة، إن كنتِ حقّاً كذلك. كان أرثر أحد ألطف الرجال الذين قابلتهم في حياتي، ولا أعتقد بأنّه يريدك أن تكوني وحيدةً. على تاتيانا أن تنضج وتتخطّى الأمر. دعيها وشأنها لفترةٍ وسترين. لا يمكنها أن تقود هذه المعركة إلى ما لا نهاية". ولكنّ ساشا علمت بأنّها ستكون عنيدةً، ويمكن أن يكون ولاؤها لوالدها أعمى ووحشيّاً ولا محدود. هذا ما كانت عليه في مراهقتها عندما كان أرثر حيّاً، والآن وبعد أن رحل ازداد حبّها له، وكانت هذه طريقتها لكي تبقى متعلّقةً به. غير أنّ منحها بعض الوقت ليس بالفكرة السيئة.

– "تركت لها العديد من الرسائل على مجيبها الآلي ولم تردّ على أيّ منها".

– "إذاً دعيها وشأنها، ربما هي نادمة على ما قالته لكِ، يجدر بها ذلك. كيف تصرّف ليام مع الأمر؟".

– "بكلّ تعقّلٍ"، أجابت ساشا، "كان متفهّماً. اتصلت تاتيانا بكزافييه وأخبرته، فاتصل بنا صباح الأحد وكان لطيفاً معنا. إذ لطالما أحبّ ليام، فهما صديقان وهكذا التقيته للمرّة الأولى. وكان يحاول أن يُهدئ من روع تاتيانا. كزافييه وليس ليام. فليام خائفٌ جدّاً منها الآن، ومن شأن هذا أن يعقّد المسألة أكثر. لا بدّ أن الوضع كان بمثابة الجحيم بالنسبة له".

– "كوني لطيفةً معه، سيكون أفضل حالاً". وبعد نصف ساعة، وفيما انتهيا من التحدّث، دخل ليام إلى المكتب، ورأته مارسي يقترب من طاولة ساشا، فنظرت إليه وابتسمت. أرادته أن يشعر بأنّه موضع ترحيبٍ وخاصة بعد أن أمضى نهاية أسبوعٍ قاسية.

– "مرحباً ليام"، قالت مارسي بعفويّةٍ، فابتسم لها وبدا ممتنّاً.

– "مرحباً مارسي"، أجابها بينما أغلق الباب خلفه ونظر بقلقٍ. "كيف تجري الأمور اليوم؟" سأل ساشا بعد أن قبّلها.

– "بخير". ولم تخبره عن حديثها مع مارسي، فلقد كان ذلك موضوعاً بين امرأتين، ولكنّه أراحها للغاية.

– "هل من أخبارٍ عن تاتيانا؟" فلقد كان قلقاً بشأن ذلك طيلة اليوم عندما كان برفقة أصدقائه في تريبيكا.

– "كلا، أعتقد بأنني سأدعها تهدأ لفترةٍ".

– "فكرةٌ حسنة". وتأثّر بمدى حساسيّة ساشا التي بدا عليها الآن الهدوء أكثر من الصباح. "حصلت على بطاقات مباراة بايسبول هذا المساء. ما رأيك؟" أراد أن يُشعرها بتحسّنٍ، وكان هذا كلّ ما استطاع التفكير فيه.

– "رائعٌ". نظرت إليه وابتسمت. وفضّلت في قرارة نفسها أن يذهبا لمشاهدة فيلم سينمائي أو تناول العشاء في مكان هادئ أو حتّى مزدحم كمطعم لاغولو. ولكنّها تعرف كم يحبّ البايسبول وكانت سعيدةً للقيام بذلك من أجله. فبعد التحدّث مع مارسي، شعرت بالامتنان لوجودها بقربه، ولدخوله إلى حياتها.

في سنّ التاسعة والأربعين، علمت من نساءٍ أخريات بأنّه يندر وجود رجالٍ صالحين. فالخيارات التي قدّمتها لها مارسي بدت ساخرةً ولكن للأسف واقعيّة. ومقارنةً مع نوعيّة الرجال التي وصفتها، كان ليام رائعاً، وقرّرت الاستمرار معه سواء أحبّت ابنتها ذلك أو لا.

الفصل الخامس عشر

أمضى ليام وساشا عطلة الرابع من تموز/يوليو في هامبتونز. وكان الطقس حاراً والشمس ساطعةً ككلّ يوم. قضيا وقتهما ما بين إعداد الطعام، والخروج للعشاء، والتنزه على الشاطئ، والسباحة. وفي الرابع من تموز، الذي يصادف ذكرى الاستقلال، كانا مدعوّين لحفلةٍ كبيرة. كانت حفلة شواء أقامها أشخاصٌ تعرفهم ولكن ليس بشكلٍ وثيق. واعتقدا بأنّها تبدو مناسبة مرحة. فوافقت على الدعوة، وذهبا عند الساعة السادسة مساء بثيابٍ عاديةٍ كما تشير الدعوة. وارتديا سراويل الجينز، وانتعلا الصنادل الخفيفة. وكانت ساشا قد اشترتها كلّها باللون الأحمر والأبيض، ووضعا المناديل الزرقاء حول عنقيهما. ابتسم ليام عندما نظر إليها بينما خرجا وقال بأنّه يشعر بسعادةٍ لم يختبرها من قبل.

وتابع قائلاً: "الآن نبدو كالتوأم"، وضحكا معاً. وكان هو أشقراً وطويل القامة، أما هي فسمراء وصغيرة، وبدأت تنسى مسألة فارق السنّ بينهما. وساعد كلٌّ من مارسي وكزافييه من جهتهما في تقديم الدعم لهما والموافقة على علاقتهما. أمّا بشأن تاتيانا، فساشا لم تسمع أخبارها منذ الشجار الرهيب بينهما في هامبتونز الأسبوع الماضي. وكانت ساشا تتركها لتهدأ قليلاً وفقاً لنصيحة مارسي.

ضمّت الحفلة مئتي شخصٍ، وامتلأت موائد الطعام في المكان، وكانت هنالك أيضاً فسحةً كبيرةً للشواء، وفرقة راقصة لتسلية الجميع، وخيمة مليئة بألعاب الكرنفال. وحظي الجميع بكرةٍ وهما أيضاً.

جلسا جنباً إلى جنب على مقعدٍ خشبيّ وتناولا شطائر اللحم والنقانق.

وفجأةً لاحظت ساشا للمرّة الأولى بأنّ ليام ثملٌ بعض الشيء. ليس إلى حدٍّ كبيرٍ، ولكن بما يكفي ليخرج عن السيطرة. وفي منتصف العشاء، قال بأنّه يشعر بالحرّ، ثم خلع قميصه ورماه في النار، ورمق ساشا بنظرة. وبدأ الفتى الثائر في داخله يظهر للعلن وأخذ الأمر يسوء كلّما تقدّم الوقت. يسوء جدّاً. حاولت إقناعه بالعودة إلى المنزل معها، ولكنّه أصرّ بأنّه يحظى بوقتٍ ممتعٍ وأراد البقاء. وعندها كان ثملاً للغاية فلم يلاحظ بأنّها منزعجة وغاضبة. وبعد هذا، فقد السيطرة على نفسه بالكامل، بل وأسوأ، بعكسها تماماً. فهي كانت باردة كلوحٍ من الجليد، فيما كان غضبها يزداد أكثر فأكثر، الأمر الذي لم يلاحظه أيضاً. كان يستمتع إلى أقصى الحدود.

ورقصت الفرقة بجانبيهما، فوقف في حلبة الرقص، وأمسك بإحدى الراقصات، أجملهنّ وأكثرهنّ شباباً طبعاً، وأخذ يراقصها فيما يشبه الإثارة بينما فكّت الفتاة التي راقصها زرّ سرواله. لم يقوما بأيّ عملٍ أكثر من ذلك، ولكنّ هذا كان أكثر من كافٍ بالنسبة لساشا. واستطاعت أن ترى نظرات التسلية والرفض من حولها. وعندما عاد إلى جانبها، أقفل زرّ سرواله، ثمّ قبّلها بقوّةٍ على شفتيها أمام الجميع، وتحسّس صدرها بيديه ممّا لم يترك المجال أمام أحدٍ سوى لتخيّل طبيعة علاقتهما. وكانت قد قدّمته في بداية الحفلة كأحد فنّانيها، وبأنه جاء ليزورها من لندن.

– "ما الأمر حبيبتي؟" سألها وبدا ثملاً وكأنّه يهذي في كلماته وأخذ يترنح. كانت مستعدةً لقتله، وجلّ ما أرادته هو المغادرة. ولم يخفَ عليها بأنّ الفتاة التي راقصها شابة لم تتخطّ العشرين أي أصغر من ابنتها.

– "أريد العودة إلى المنزل ليام"، أجابته بهدوء. ولم تُرِد أن تفقد أعصابها معه، ولكنّها لم ترغب بالبقاء أيضاً. فقد خرج كلّياً عن السيطرة، وازدادت حالته سوءاً مع مرور الوقت. حتّى أنّه طلب شراباً آخر، فما كان من ساشا إلاّ أن أخذته من النادل عندما أحضره.

– "ماذا تفعلين؟" قال لها ليام محاولاً استعادة شرابه منها، فوضعه النادل

على الصينيّة من جديد واختفى بعد أن أدرك ما يحصل.

– "شربتَ بما فيه الكفاية، أعتقد بأنّ الوقت قد حان للعودة إلى المنزل".

– "لا تستطيعين أن تملي عليّ ما أفعله". قال لها بدون وعي، ووقف مترنّحاً أمامها. وكاد يقع بين ذراعيها، ثمّ حاول أن يتماسك وأن يغازلها مجدّداً. رمقته بنظرةٍ غاضبة، ولكنّها لم تحمله على المغادرة، وتابع قائلاً فيما وضع يده على كتفها: "لست ابنك".

– "إذاً لا تتصرّف كالولد"، قالت بنبرةٍ هادئة. وكان ليام يتصرّف كمراهقٍ متمرّدٍ أو كسكّير.

– "لا يمكنك التحكّم بي"، كرّر مجدّداً بينما استمرّ الجميع بالنظر إليهما ثمّ بإشاحة أنظارهم. وسمعت أحد الرجال يعلّق على تصرّفات ليام فيما ضحك آخر. وكانت تعرفهما، فهما صديقان لأرثر وهذا ما جعل الوضع أسوأ.

– "ليام، أنا متعبة، أريد المغادرة"، قالت له كمن تقنعه أو ترجوه حتّى.

– "إذاً خذي بطانيّة وانتظري في السيّارة. أريد البقاء والاحتفال، فأنا أستمتع بوقتي". وتمايل، ثمّ ذهب واختفى بين الجمع ممّا أخافها. ووجدته بعدها ممتطياً حصاناً بدأ يجفل، فيما المسؤول يطلب منه النزول عن الحصان دون جدوى، إلى أن أوقف الجولة في النهاية، وتجمّع الناس حوله يشاهدونه. واستغرق الأمر ثلاثة رجالٍ والمضيف لإنزاله عن الحصان بينما كان ليام يهتف للجواد "هيّا! هيّا! إلى الأمام!" ويرفسه برجله. أرادت ساشا أن تقتله لهذا واستشاطت غيظاً.

وساعدها المضيف باصطحابه إلى السيّارة حيث وضعاه في المقعد الجانبيّ وقادت هي نحو المنزل. ولم تستطع إيقاظه عندما وصلا فتركته ينام في السيّارة. وشعرت به ينزلق في السرير بجانبها عند الساعة السابعة

صباحاً. وعندما استيقظت في الساعة التاسعة، كان لا يزال نائماً من دون حراك، بعد أن غطّ في نومٍ عميق. لم ينزل من الغرفة إلّا عند الظهر، ووضع نظّاراتٍ شمسيّة متذمّراً من شدّة الحرّ ولهيب الشمس. لم تقل شيئاً بل جلست إلى طاولة المطبخ تقرأ الصحيفة بينما سكب لنفسه كوباً من القهوة كان يحتاجه بدون شكّ. جلس إلى جانبها بعد لحظاتٍ فنظرت إليه في النهاية وألقت عليه التحيّة بنبرةٍ باردةٍ كالثلج.

- "يا لها من حفلةٍ بالأمس"، وحاول أن يكون عفويّاً بينما نظرت إليه. "لا بدّ بأنّني شربت الكثير من الشراب نظراً للصداع الذي أعانيه". ثمّ ضحك، ولم تحرّك هي ساكناً.

- "نعم، فعلت"، هذا كلّ ما قالته.

- "إلى أيّ مدى كان الأمر سيئاً؟" سألها باهتمام. ولم يكن يتذكّر الكثير ممّا جرى الليلة الماضية، أمّا هي فبلى.

- "سيئاً للغاية"، أجابته، وأخذت تعدّد مآثره في الحفلة، ومن بينها كيف قبّلها أمام الجميع ممّا أثار حفيظة الجميع، ورفع الغطاء عن علاقتهما. "كان جزئي المفضّل الحادثة مع الحصان، بدوتَ وسيماً وأنتَ تلعب دور الفارس وتصرخ راكساً الحصان. أعتقد بأنّ الجميع سمع صراخك الذي وصل إلى شيكاغو". لم تكن تلهو، ولا هو أيضاً، فلم يكن يريد أن يُعامل كالولد أو أن تؤنّبه وتملي عليه ما يفعل. اعتبر نفسه راشداً ويمكنه التصرّف كيفما أراد أو هذا على الأقلّ ما قاله. وأخبر ساشا بأنّه كان يتصرّف بحذرٍ مؤخراً وكان بحاجةٍ لبعض التحرّر.

- "قلت لكِ، لا يمكنكِ التحكّم بي. حاولت عائلتي ذلك، ولن أدعكِ تفعلين الأمر نفسه معي. يحتاج كلّ شخصٍ للترويح عن نفسه أحياناً، فما العيب إن قمتُ بذلك؟" واتّخذ موقفاً دفاعيّاً للغاية، وشعر بأنه نكرة.

- "لقد أحرجتني"، أجابته ونظرت إليه. وبدأ من جديدٍ يدفع علاقتهما إلى خانة المستحيل بعد أن كانت تسير على ما يرام. كانت ساشا مستعدّةً

للوقوف إلى جانبه ودخول العالم برفقته، حتّى عالمها، ولكن ليس إن تصرّف على هذا النحو، وطالب بالحريّة المطلقة فقط لأنّه فنّان. فإن لم يشأ أن يتمّ التحكّم به، عليه إذاً أن يتعلّم كيف يضبط نفسه. "لن أخرج معك إن تصرّفت بهذا الشكل". تابعت بنبرةٍ حزينةٍ، وكانت مكتئبةً أكثر لأنّه لم يعبّر عن أيّ ندم.

- "إذاً، لا تفعلي"، قال لها ليام بصوتٍ مرتفع. "تبدين تماماً كأبي، ولن أسمح لك بالتصرّف معي هكذا. لا يمكنك معاقبتي وتركي في المنزل لأنّني تناولت بضعة كؤوسٍ من الشراب في الحفلة".

- "بضعة كؤوسٍ؟ بل الكثير منها، كما أنّك أظهرت للجميع في الحفلة بأننا على علاقة".

- "سئمت من إبقاء الأمر سراً". لم تعد علاقتهما سريّة للغاية وبخاصة خلال الشهر الذي أمضياه في نيويورك. فبرنارد علم قبل ذلك، ومارسي أيضاً عرفت وتاتيانا وكزافييه، والله وحده يعلم من سواهم. وكانت مستعدّةً لإظهار علاقتهما للعلن طالما أنه يتصرّف بلياقةٍ، ولكن ليس بهذا الشكل.

- "تصرّف كرجل ناضج، فلا يبقى الأمر سريّاً".

- "لو كنتِ تحبينني فعلاً، لما أردتِ إبقائي سرّاً". وبدا كطفلٍ مجروحٍ يشعر بالألم. جلّ ما أراده كان دعمها، وأن تفتخر به لا أن تخجل به.

- "أنا أحبّك، ولكنني لن أدعك تجعلني أضحوكة. فالأمر قاسٍ عليّ مع فارق السنّ بيننا، وأحتاج لبعض الوقت لأعتاد عليه. أمّا أنت فتحتاج لبعض الوقت لتنضج".

- "بحقّ السماء ساشا، تسعة أعوامٍ ليست شيئاً مهمّاً، اقتنعي بالأمر ولو لمرّة. كما أنني ناضج، وأنا فنّانٌ طليق الروح ولن أُساق كما لو كنت كلباً لإرضاء أصدقائك وابنتك. فإمّا أن تحبّيني كما أنا أو لا".

– "أهذا ما هي الأمور عليه؟ أيتعلّق الموضوع بتاتيانا؟ ليام، هي بحاجةٍ للوقت لتهدأ، كانت صدمةً كبيرةً لها. فهي تعتقد بأنني خنت والدها وكان الأمر برمّته قاسٍ بالنسبة لها. وتصرّفك الفظّ في الحفلات لن يساعد في معالجة المسألة، ولن يُقنع أحداً بأنّ علاقتنا صحيحة، أو على الأقلّ لن يقنعني أنا أيضاً". لم ينطق بأيّة كلمةٍ أخرى بل خرج من المطبخ، وأقفل الباب وراءه بقوّة. نظرت إليه من نافذة غرفة الجلوس وهو يسير باتجاه الشاطئ. كانا مستاءين، فالليلة الماضية كانت رهيبةً. والأسوأ من ذلك أنّهما سيعودان إلى أوروبا في اليوم التالي، هي إلى باريس وهو إلى لندن، فلم يبقَ أمامهما الكثير من الوقت لإصلاح الضرر وردم الهوّة بينهما إن عادا للمشاجرة في يومهما الأخير.

كان لا يزال عابساً بينما عادا إلى المدينة مساءً. وعندما عرضت عليه أن تعدّ له الطعام، قال بأنّه ليس جائعاً. فبعد كلّ ما شربه في الليلة السابقة، اعتقدت بأنّه ليس جائعاً في كلّ الأحوال. ولكنّها أعدّت له الباستا وجلسا إلى الطاولة معاً وبدأ أخيراً يهدأ.

– "أنا آسف لأنني تصرّفت كالمعتوه ليلة أمس. كان سلوكاً غبيّاً من قبلي، لا أعرف، فلست معتاداً على كلّ هذه المسؤوليات والضوابط. لا أريد أن أتصرّف بطريقة معيّنة لأنال موافقتك، أو لأرضي الآخرين وحسب، بل أريد أن أكون على طبيعتي وأن تبادليني الحبّ الذي أكنّه لك. بالله عليكِ ساشا، أشعر أحياناً بأنني أريد تناول الجعة مع البوّاب، يبدو لي رجلاً طيّباً".

– "أنا واثقة من ذلك، وأنا آسفة لأنّ حياتي كثيرة القيود بالنسبة لك". وبدا الحزن في عينيها من أجله. فهذا من الأمور التي خشيتها منذ البداية، وتحديداً خوفه من أن يتمّ "التحكّم" به. وكانت كلّ التوقّعات أو التصرّفات الحضاريّة التي تُطلب منه تبدو كالتحكّم به بالنسبة له. ولكن، هكذا تسير حياتها، ولم تكن تستطيع أن تفعل ما تشاء، وكذلك الأمر بالنسبة له إن كان

برفقتها. فلقد كان يجد صعوبةً بالغةً في العيش بهذا الشكل، تماماً كما خشيت. لعلّ علاقتهما مستحيلةً بعد كلّ ما جرى. "لا أعرف ماذا أقول ليام، لا أريد أن أجعلك تعيساً، ولكنّك لا تستطيع أن تتصرّف بجنونٍ وتفقد السيطرة كلّما أردتَ وفي أيّ وقتٍ كان". لحسن الحظّ بأنّ ذلك حصل لمرّةٍ واحدةٍ ولكنّه كان فظيعاً، لكليهما. فقد حاول أن يثبت شيئاً أو أن يفقد السيطرة.

– "ماذا سيحدث عندما نعود؟" سألها بقلق. لم يُرد أن يخسرها بسبب تصرّفاته كما في الليلة الماضية، غير أنّه لم يكن يرغب بأن تملي عليه ما يفعل أيضاً. كلّ ما أراده هو حبّها اللامشروط وتقبّلها لشخصه على ما هو عليه. ولكن أحياناً يكون هذا صعباً بين الراشدين، وخاصة إن كان هذا مكلفاً. وبرأيها كان كذلك، لقد شكّل الأمر معضلةً لهما، معضلة خطرة في الواقع. ففي سبيل إثبات حبّها له، وجب عليها المخاطرة بنفسها، وفي حال لم تنجح علاقتهما في النهاية، سيسخر الناس منها مطوّلاً، أو هذا ما اعتقدته. أزعجها الأمر كثيراً، وأرادت أن تبقى متحفّظة حتّى تتبلور الأمور بشكلٍ أفضل بينهما. ومن جهته، كانت القيود الموضوعة عليه تدفعه للجنون، وتجرح ثقته بنفسه المتزعزعة أصلاً. وفي حال استمرّا معاً، أراد أن يمتلك الحريّة في أن يكون على طبيعته. أمّا هي فأرادت منه أن ينضج وهو الأمر الوحيد الذي لم يرد فعله ولن يفعله أبداً. وكانت أولويّاتها منصبّة الآن على قلقها حيال ردّ فعل ابنتها تجاهه. وممّا لا شكّ فيه أنّ تاتيانا وليام حظيا ببدايةٍ سيئةٍ.

– "سأعمل في باريس لبقيّة تموز/يوليو"، أجابته عن سؤاله عمّا سيفعلانه عند عودتهما. "يمكنك المجيء ساعة تشاء، وأنا سأغادر مع الولدين في الأول من آب/أغسطس".

– "وعندها ماذا؟" سألها مجدداً، وبدت حائرةً ولم تعرف ماذا يعني.

– "ماذا يحدث عندما تغادرين مع الولدين؟".

– "سبق وأخبرتك. سنذهب إلى سان تروبيز، لقد استأجرت مركباً. سأتغيّب لثلاثة أسابيع، ويمكننا الذهاب معاً إلى مكانٍ ما إن أردت. وعليّ العودة إلى نيويورك لأسبوعٍ أو أكثر خلال أيلول/سبتمبر. يمكنك مرافقتي إن رغبت بذلك أيضاً. ولكن ربما عليك الاستعداد لعرضك عندئذٍ". بدت في كلامها كوالدته ووكيلته، وكان يضعها في هذه المكانة أحياناً عوضاً عن المرأة التي يحبّ والتي تحبّه بدورها.

– "ماذا عن الفترة التي ستكونين فيها برفقة الولدين؟ هل سيكون مُرحّباً بي معكم أيضاً؟" سألها بنبرةٍ مجروحةٍ ومتمرّدة معاً. فلقد سبق وتكلّما عن انضمامه إليهم على المركب لبضعة أيام خلال رحلتهم، وخاصة مع وجود كزافييه هناك أيضاً، فقد كان باستطاعته الذهاب معهم بصفته صديقاً له، ولكن ليس الآن. كان هذا ليحصل لو لم تفاجئهما تاتيانا في هامبتونز حيث حصل الصدام العنيف. أما الآن فلقد أصبح ولداها يعرفان بوضوحٍ من هو، وما دوره في حياتها.

– "ليام، بعد ما جرى مع تاتيانا، لا يمكنك أن تتوقّع مرافقتنا. يستغرق الأمر بعض الوقت لتهدأ الأمور". ومع هذا كلّه، لم تكن ساشا قد تحدّثت معها بنفسها، فما زالت تاتيانا ترفض الإجابة على اتصالاتها، وفي النهاية بعثت لها ساشا برسالةٍ آملةً أن تعلن السلام معها. غير أنّها لم تسمع أخباراً عنها بعد. وعرفت ساشا بأنّ الحرب ما زالت مستمرّة، حتّى أن كزافييه علم هذا أيضاً من جهته. وتكلّمت ساشا إليه بضع مرّاتٍ. وكان يعتقد بأنّ تاتيانا ستهدأ، ولكنّ هذا لم يحدث بعد. وظنّ كزافييه بأنّ تصرّفها صبيانيّ وعنيد ونعتها بالمدلّلة، فاغتاظت منه أيضاً.

– "ربما عليكِ أن تؤدّبيها وتهذّبيها". قال ليام بغضبٍ. كان مغتاظاً من ابنة ساشا ولم تكن تلومه على ذلك. ولكنّها لم تكن تنوي المجازفة أيضاً بعلاقتها مع ابنتها من أجله.

– "أحتاج للتكلّم معها أولاً قبل أن أتمكّن من شرح الأمر لها".

– "وهل ستفعلين ذلك؟ هل تنوين الوقوف إلى جانبي، أو ستتركينها تخرجني من حياتك فيما تتوسّلينها؟".

– "ليام، هذا ليس عدلاً"، أجابته ساشا والدموع في عينيها. "إنّها ابنتي، ولن أخاطر بخسارتها بسبب هذا وحتّى من أجلك. أحتاج الآن لعقد السلام معها، وسنرى إلامَ ستؤول الأمور. إن نجح الأمر، سأتعامل أنا معها، ولكن ما من شيءٍ مؤكد بعد". كان يعلم هذا بنفسه، ولكنّه لم يُرد الاعتراف به لساشا.

– "كم تتوقّعين منّي أن أدافع عن نفسي أمامك؟" قال لها فيما وقف ونظر إليها وبادلته النظرات.

– "إنك لا تدافع، كلّ ما نفعله هو أننا نحاول معرفة إن كان الأمر سينجح، فالاختلاف كبيرٌ بيننا، وليست علاقتنا واضحة".

– "كنت أعتقد بأنها كذلك"، ثمّ سار خارج المطبخ.

حزم أمتعته في غرفة الضيوف بينما كانت تحزم أمتعتها أيضاً. وتساءلت إن كان سينام بجانبها في تلك الليلة؛ وكانت سعيدةً لأنّه فعل. لم يمارسا الحبّ بل تعانقا وحسب. غفت ساشا وبقي ليام مستيقظاً معظم الليل وهو يحدّق إلى السقف بنظرة كئيبة. انفطر قلبه لمعرفة أنّها لن تقف في صفّه أو تدافع عنه أمام تاتيانا. وكان قد وعدها في نيسان/أبريل أن يُبقي علاقتهما سريّة لبعض الوقت، ولكنّه لم يكن يعلم بأنّه سيتألّم لذلك وسيتأذّى من ذلك. وفيما تمدّد على السرير في تلك الليلة مفكّراً بكلّ شيء، كان حزنه عميقاً وتعاسته واضحة.

الفصل السادس عشر

عـاد كـلٌ مـن ساشا وليام إلى أوروبا بشكلٍ منفصلٍ، اتّجهت هي إلى بـاريس فيما اتجه هو إلى لندن. وصلا تقريباً في الوقت نفسه واتصلت به في تلك الليلة. بدا بعيداً عنها، تحدثا لبرهةٍ ووعدها بالمجيء إلى باريس في عطلة نهايـة الأسبوع، في حين تساءلت إن كان سيفعل ذلك فعلاً. فشعرت بأنّه غير سـعيدٍ معهـا الآن، وقد جرحته تاتيانا كثيراً، وأذت علاقتهما أيضاً. كما أنّها جـرحت والـدتها أيضاً، ولكنّ ساشا لم تكن مستعدّةً لإعلان الحرب عليها من أجل ليام. فتاتيانا ابنتها ولديها الحقّ منذ الولادة بالحبّ اللامشروط الذي يريده ليام منها.

تـناول العـشاء مع كزافييه خلال الأسبوع وناقش الأمر معه، غير أنّ كزافييه حظي بطفولةٍ وبفترة شباب سهلتين أكثر منه. وقد حظي أيضاً بوالدين رائعين عرف بأنّهما يحبّانه على عكس ليام الذي أحدثت علاقته مع أهله ندبةً دائمـةً في أعماقه. وهذا ما يكلّف ساشا الآن كما يكلّفه هو أيضاً كلّ ما عانته فـي شـبابها. وبالإضـافة إلـى ذلك، لم يساعد فارق السنّ وأسلوب حياتهما المخـتلف فـي علاقتهما التي بدأت ساشا من جديدٍ تشكّ في إمكانيّة نجاحها. أرادت ذلك من صميم قلبها، ولكن ليس إن كان عليها الوقوف معه ضدّ ابنتها. فبالنسبة لها، سيكون ذلك ثمناً باهظاً تدفعه مقابل حبها له.

قـاد إلى باريس مساء الجمعة، وأمضيا نهاية أسبوعٍ هادئة معاً. بقي حتـى الـرابع عـشر من تموز/يوليو، وشاهدا معاً الاستعراض في جادة الإليـزيه. اعتقد بأن العرض ممتعٌ، ولكنّه كان يفتقد إلى مباريات اليانكيز وإلى أولاده أيضاً. أراد رؤيتهم مجدداً قبل أن يغادر الولايات المتحدة غير

أنّهم كانوا في رحلةٍ مع بيث، فوعد بزيارتهم في أيلول/سبتمبر.

لطالما كان المعرض هادئاً في تموز/يوليو، وكانت ساشا تتوق للعطلة مع الولدين. ولكنّها لم تكن تذكر الموضوع لليام كثيراً لئلا ترشّ الملح فوق جروحه لأنه ليس مدعواً. فبعد أن عادت تاتيانا تكلّمها من جديدٍ ولكن بشكلٍ نادرٍ، تحدثت ساشا مع كزافييه ووافق معها بأنّه من الأفضل ألا ينضمّ إليهم ليام خلال عطلتهم. فهذا سيقود تاتيانا إلى الجنون مجدداً، وسيحصل صدامٌ بينهما. كما أخبر كزافييه ليام وأمّه بأنّ تاتيانا ليست عقلانية في عنادها، ووحده الوقت كفيلٌ بإصلاح الموقف. وكانت ابنتها مشمئزة بشدة من وجود ليام في حياة ساشا، واعتبرت الأمر انتهاكاً لاحترام ذكرى والدها.

وخلال عطلتهما الأخيرة معاً قبل ذهاب ساشا في الرحلة مع الولدين، تنزها في بوا دو بولوني مع الجرو، فالتفت ليام إليها وقال: "ماذا ستفعلين بشأن عطلتك؟" فاجأها سؤاله. فلقد اعتقدت بأنّهما سوّيا المسألة مع أنّهما لم يحبّا التضحية التي سيقومان بها. رغبت بشدّة أن يأتي معهم، ولكن كان الأمر مستحيلاً. ومن الواضح أنّه كان ينتظر أن تبدّل رأيها أو رأي تاتيانا. وبما أنّها لم تفعل، شعر بأنّها خانته وفسّر الأمر على طريقته. أما ساشا ففشلت في الدفاع عنه والوقوف في صفّه. وبدا لها هذا التفكير صبيانياً وغير عقلانيّ، ولكنّ الأمر كان بمثابة الإخلال بالاتفاق.

- "ماذا تعني؟ بماذا سأفعل؟ ظننت بأننا اتفقنا على أنّ الأمر لن ينجح هذا العام". فلو استمرّا معاً وهذا ما أملته، ستكون هنالك العديد من العطلات الأخرى. ولكن هذه المرّة، لن ينجح ذهابه معهم، فقد كانت بحاجةٍ لبعض الوقت لبلورة الأمور مع تاتيانا.

- "لن تقوي على مواجهتها أليس كذلك؟" والتفت ساشا إليه، فبدا وجهه كحجرٍ باردٍ.

- "ليس الآن، سأفعل ذلك لاحقاً إن اضطررت، وأتمنّى ألا يكون عليّ القيام بذلك. ستعتاد على فكرة علاقتنا مع الوقت. ففي بعض الأحيان، حتّى

الراشدون يلاقون صعوبةً في تقبل فكرة أنّ أهلهم يواعدون أشخاصاً آخرين".

وعزت ساشا السبب إلى ذلك، وليس إلى المشهد الرهيب في هامبتونز الذي كان بدون شكٍ طريقةً مزعجةً لتعريفه بابنتها.

- "لن تتقبّلني أبداً إن لم تدفعيها لذلك"، أجابها بعنادٍ.

- "بالكاد بدأت تتكلّم معي من جديدٍ منذ أسبوعٍ"، قالت ساشا بحزنٍ. وعلمت بأنّ أحدهما سيخسر ولم تُرد أن يحصل ذلك لهما. "لا أستطيع إرغامها ليام، إنّها تحتاج للوقت".

- "إنّها تتصرّف كطفلةٍ مدلّلةٍ"، قال بصدقٍ وبنبرةٍ ساخرة. وعلمت ساشا هذا أيضاً، ولكنّ تاتيانا لا تزال ابنتها وأزعجها قوله ذلك عنها بتهكّمٍ.

- "وأنت أيضاً"، أجابت بهدوءٍ. وعندئذٍ ابتعد عنها ليلعب مع الجرو. وفي طريق العودة إلى المنزل، لم يتفوّه بكلمةٍ، بل بدا غاضباً وشارد الذهن كما لو كان ولداً تشاجر مع والدته. أو عاشقٍ خانته حبيبته.

شرعت بتحضير العشاء عندما تفاجأت به ينزل السلالم حاملاً حقيبته وتوجّه إلى المطبخ.

- "ماذا تفعل؟" سألته فيما تسرّب الخوف إلى كلّ أنحاء جسمها. وعلمت الجواب قبل أن يجيبها.

- "سأغادر، لن أقبل أن تعامليني كسرٍّ قذرٍ وأن تذلّني ابنتك".

- "ليام أرجوك..."، قالت وقد بدا الذعر في صوتها. "أعطنا فرصةً، لقد علمنا منذ البداية بأنّ هذا سيتطلّب وقتاً، كما أنّك لست سرّاً". كانت تاتيانا تعرف، وهنا تكمن المشكلة.

- "لا، أنا فقط أمرٌ مخجلٌ في حياتك، أنت تخجلين بي". وتذكّرا الحفلة التي قصداها في الرابع من تموز/يوليو، ولم تُجبه ساشا.

- "لا أخجل بك، أنا أحبّك. ولكنك تطلب منّي أن أختار بينك وبين أحد أبنائي. هذا ليس عدلاً، لا تطلب منّي ذلك". وبدت الدموع في عينيها. فقد كان

يطلب منها أن تفعل المستحيل من أجله أو ينتهي كلّ شيء بينهما.

– "هذا ما يتطلّبه الأمر أحياناً، أريدك أن تحبّيني وتحترميني، ولكنّك لا تفعلين ذلك".

– "إن كنتَ تحبّني وتحترمني بدورك، لما طلبت منّي أن أختار بينك وبين ابنتي". وقف ونظر إليها ولم يقل شيئاً. ثمّ تكلّم في النهاية بينما حمل حقيبته مجدداً.

– "انتهى كلّ شيءٍ ساشا، لقد اكتفيت. استخدمنا كلّ أوراقنا. كنتِ محقّةً منذ البداية. هذا مستحيل وأعتقد بأنّه لطالما كان كذلك. ظننت أنّه بإمكاننا إنجاح الأمر، وكنت مخطئاً وأنت محقّة". لم ترغب بأن تكون محقّة بل أرادت أن تكون مخطئة في ما فكّرت فيه، أرادت ذلك أكثر من ذي قبل وتمنّته من صميم قلبها. من الواضح أنّهما وصلا إلى خطّ النهاية هذه المرّة.

وبدأت تقترب منه فصدّها بيده قائلاً: "لا تفعلي! أنا أحبّك ولكنني سأعود إلى لندن. لا تتصلي بي، انتهى الأمر". ثمّ أضاف بقسوة: "بلّغي تحياتي لتاتيانا، وأخبريها بأنّها فازت". وبدون أن يضيف أية كلمةٍ أخرى، خرج من المنزل، وأغلق الباب هذه المرّة بهدوء. وبعد قليل سمعت البوّابة الحديديّة الضخمة تُقفل بينما وقفت في المطبخ وحيدةً تحدّق في المكان الذي وقف فيه ليام منذ برهة، وتدحرجت الدموع على خدّيها. لم تشعر بهذا الحزن الرهيب حيال أيّ شيء، أو أيّ أحدٍ منذ أن فقدت آرثر.

جلست على الأرض في المطبخ قرب الجرو وراحت تبكي. كان سوكس كلّ ما بقي لديها منه الآن. لقد رحل، عاد إلى حياته الخاصة، وأدركت بأنّه يعني ذلك هذه المرّة.

بقيت لفترةٍ طويلةٍ تبكي في الظلام، ولم تتكبّد أيّ عناءٍ لإضاءة النور. بل جلست هناك تبكي وتردّد كلمةً واحدةً في الظلام "مستحيل". وفي هذا الوقت، كان ليام في طريقه إلى لندن مقتنعاً بالأمر نفسه.

الفصل السابع عشر

كانت العطلة في سان تروبيز ستكون أكثر متعةً بالنسبة لها لو لم يكن قلبها منفطراً ومتألّماً. وعندما وصل كزافييه إلى فندق بيبلوس حيث نزلا وقابل والدته، أدرك فوراً بأنّ شيئاً رهيباً قد حصل. فهو لم يرها في هذه الحالة منذ اثني وعشرين شهراً، أي منذ أن توفي والده. وتسرّب الشكّ أكثر إلى تفكير كزافييه عندما التقى بليام في الليلة الذي سبقت مغادرته في إحدى الحانات برفقة شابةٍ كان يقبّلها، بينما بدا ثملاً للغاية. عندها شعر كزافييه بأنّ قلبه كاد يخرج من صدره، فلقد عرف عندئذٍ بأنّ علاقة ليام بوالدته قد انتهت. فباستثناء الهفوة التي ارتكبها ليام والتي أدّت إلى طلاقه، لم يكن خائناً أو مخادعاً، وما كان ليخرج علناً مع امرأةٍ أخرى لو لم تصل الأمور بينه وبين ساشا إلى نهايتها.

– "هل تشاجرتما؟" سألها كزافييه بلطفٍ بينما كانا يحتسيان القهوة على الشرفة.

– "أرادني أن أواجه تاتيانا، فقلت له بأنّه من المبكر القيام بذلك. ورغب بالمجيء معي في هذه العطلة. ربّما هو على حقّ، ولكنني لن أضع علاقتي بها على المحكّ. طلب منّي الكثير وفي أسرع وقتٍ، لم أستطع القيام بذلك، فهي ليست مستعدّةً بعد. أظنّ بأنّ الأمر يتعلّق بقصته مع عائلته، فلطالما أخبروه بأنّه ليس جيّداً وأبعدوه عنهم. إنه يعتقد بأنني أفعل الشيء نفسه معه، ولكن هذا ليس صحيحاً. كلّ ما أردته هو بعض الوقت لكي تهدأ تاتي بعد ما حدث في هامبتونز، كما أنّ موعد هذه الرحلة كان قريباً للغاية". كان ليام يتصرّف بصبيانية أحياناً وعرف كلاهما ذلك. فهو ولدٌ في كثيرٍ من النواحي. ولكنّه ولدٌ

لامعٌ وموهوبٌ يخرج عن السيطرة عندما يشعر بأنّه قد تمّ رفضه. والأسوأ أنها كانت تحبّه، ولكنها تحبّ ابنتها أكثر.

- "كان ذلك تصرّفاً غبياً من قبله"، قال كزافييه منزعجاً. ففي عمره البالغ السادسة والعشرين، لطالما كان أكثر نضجاً من ليام. "قلت له الشيء نفسه. كلّ ما عليه فعله هو أن يرتاح ويمنح المسألة بعض الوقت".

- "أظنّ بأنّه لم يستطع". فما زالت أصداء ماضيه قويّةً في حياته وتتردّد على الدوام وربما سيسمعها دائماً. عند بلوغ سنٍّ معيّنة، يجب على الذين يحبّون بعضهم أن يتكيّفوا مع ماضي بعضهم البعض مع كلّ ما ورثوه منه من عاداتٍ وخبرة، فإن لم يستطيعوا، لن ينجح الأمر وهذا ما حصل مع ليام.

ومن دون تفكيرٍ، نظر كزافييه إلى والدته وقال لها: "رأيته في الليلة التي سبقت مغادرتي لندن. كان في إحدى الحانات ثملاً وفاقد السيطرة. لم يبدُ لي الوقت الملائم لسؤاله، ولكنني عرفت بأنّ أمراً ما قد حدث". ومن الطريقة التي أخبرها فيها بذلك، استنتجت أكثر ممّا كان ينوي قوله. فالتفتت إلى ابنها وطرحت عليه سؤالاً من شأنه أن يجيب على كلّ ما هي بحاجةٍ لمعرفته.

- "هل كان بمفرده؟" وبالكاد استطاعت إخراج الكلمات من فمها، وشعرت بانقباضٍ في صدرها. لم يُجب كزافييه في الحال، ثمّ هزّ رأسه بعد فترةٍ.

- "كان برفقة إحدى الشابات. على الأرجح التقاها في الحانة، ولكن هذا لا يعني أيّ شيءٍ أمّي. كان ثملاً، وأنا واثقٌ بأنّه لا يعرفها". ولم يخبرها كزافييه بأنّه رآه يقبّلها، وبأنّها تبدو في العشرينيات من العمر. ولكن حتّى مع ذلك، شعرت ساشا بسكّينٍ تدخل مباشرةً في قلبها. فهذه المرّة انتهى الأمر حقّاً. وبعد ذلك، كانت بقيّة الرحلة ألماً بالنسبة لها. كانت ستكون كذلك على أيّ حالٍ. ولم تكن غلطة كزافييه، فليام قد رحل وهذا كلّ ما تمكّنت من التفكير فيه.

أمضيا أسبوعين في سان تروبيز في رؤية الأصدقاء والذهاب إلى البحر وارتياد المطاعم ليلاً، كما تناولا الغداء في كلوب 55 واحتسيا الشراب في حانة غوريلا. وعندما وصلت تاتيانا، جالت في الأسواق مع ساشا التي بدت تعيسةً من الصباح حتى المساء ولم تلاحظ تاتيانا ذلك. لم يذكر أحدٌ ليام ولم يجرؤ كزافييه على التحدّث عنه أيضاً. فلقد رأى كآبة والدته من مجرّد النظر في عينيها حتّى عندما تحاول أن تبدو سعيدةً وتتظاهر بالراحة كما فعلت في معظم الوقت. ولكنّها عندما تذهب إلى غرفتها ليلاً، كانت تبكي بشدّةٍ قبل أن تنام. كانت تفتقده كثيراً إلى حدّ يفوق الخيال وعلمت بأنّه لا يمكنها فعل شيءٍ لاستعادته. وكلّ ما تستطيع فعله الآن هو تقبّل الأمر، فما كان بإمكانها الاتصال به ودعوته إلى سان تروبيز، وإلا فإن تاتيانا كانت ستغادر غاضبةً، ولم تشأ ساشا المخاطرة.

تلقّوا دعواتٍ عديدةً من الأصدقاء، وكانت ساشا توافق على الذهاب عندما يكون للمضيف أولاد بسنّ ولديها أو عندما يكون المضيف من زبائنها. غير أنّ جلوسها في تلك الدعوات والتكلّم مع الناس جعلها ترغب بقتل نفسها. لم تشعر بهذا أبداً من قبل. فبعد وفاة آرثر، عاشت وحيدةً في كآبةٍ تامةٍ لبضعة أشهرٍ، أمّا الآن فلقد خرجت إلى العالم متظاهرةً بأنّها بخير، ولكنّ آلامها لم تكن تُحتمل. لم يكن أيٌّ ممّا تفعله يسعدها أو يُشعرها بالبهجة. فلقد كانت تتألّم نهاراً ومساءً لفقدانها ليام وهي تدرك بأنّها لا تستطيع الحصول عليه. لم تتصل به ولم يفعل هو أيضاً، وكانت تتخيّله ليلةً تلو الأخرى في الحانات يلاحق الشابات. وكادت تفقد صوابها نتيجة تفكيرها بالأمر. وشعرت ببعض الارتياح عندما صعدوا على متن المركب الذي استأجرته، وفرحت عندما رُفعت المرساة وأبحروا في عرض البحر مغادرين سان تروبيز.

دعا كلٌّ من كزافييه وتاتيانا بعض الأصدقاء كما اقترحت ساشا. واستمتع الجميع بوقتهم، بينما كانت هي تتمدّد على ظهر المركب طوال الوقت مغمضةً عينيها وهي تفكّر فيه وتتألّم بصمتٍ. وكانت تبقى على متن المركب عندما

يرل الآخرون إلى اليابسة ويسهرون ليلاً، وكانت تقول لهم إنّها لا تريد إفساد متعتهم. في الواقع، لم تمتلك القوّة لكي تتحدّث مع أحد، لقد كانت بحاجةٍ للوقت لتعيش حزنها.

ذهبوا جميعاً إلى بورتوفينو ونزلوا إلى اليابسة لبعض الوقت، كما تناولوا العشاء في سبلانديدو بعد أن وافقت ساشا على مرافقتهم في تلك المرّة. ولكن، على الرغم من جهودها، بدت في تلك الليلة تعيسةً للغاية. مما دفع بتاتيانا إلى سؤال أخيها عن حالة أمّهما، وذلك بعد أن غادرتهما عائدة إلى المركب مدّعية إصابتها بصداع.

– "هـل أمّـي مريضة؟" سألت تاتيانا غير مدركةٍ للضرر الذي ألحقته بـوالدتها، أو متظاهرةً بأنّه لم يحدث أبداً. ولم يعرف كزافييه أيّاً من الموقفين اتّخذت.

– "كلا"، أجاب كزافييه بحزنٍ، "إنّها تعيسة، لم أرها بهذا الشكل منذ وفاة أبـي". ولم تُجب تاتيانا فيما نظر إليها كزافييه نظرة اتهام. "لقد صعّبتِ الأمور علـيها تاتـي، لا تـستحقّ هـذا منك. انفصلت عن ليام قبل مجيئها إلى سان تروبيز". فلقد شعر كزافييه بالأسى عليهما وأدرك بأنّهما مغرمان حقّاً ببعضهما مهمـا كان سنّهما. إذ بدا ليام في الليلة التي رآه فيها فاقداً صوابه أيضاً، غير أنّـه عبّـر عن ذلك بطريقةٍ مختلفةٍ عن ساشا. فتصرّف بجنونٍ وأطلق العنان لحزنه. أمّا تاتيانا فلم تعبّر عن أيّ ندمٍ لسماعها ذلك.

قالـت تاتـيانا: "إنّها أفضل حالاً بدونه، فهو أخرق". فشعر كزافييه بأنّه يريد أن يصفعها.

– "هـذا كـلامٌ قاسٍ من قبلك. لماذا تريدينها أن تكون تعيسة؟" وغضب كـزافييه من أخته. "قلت لكِ بأنّه رجلٌ طيّبٌ ويحبّها، ومن الواضح أيضاً أنّها تحبّه. ماذا ستفعلين الآن؟ أستجلسين وتواسين وحدتها؟ بالطبع لا، فلديك حياتك الخاصة وكذلك أنا وها هي الآن وحيدة مجدّداً". وشعر كزافييه بالكآبة والشفقة لحال والدته.

– "إنّها تحبّ أبي"، أضافت تاتيانا بعناد.

– "كانت تحبّه وهي الآن تحبّ ليام".

– "كانـت تجعل من نفسها أضحوكة، وكان هو بدوره يسخر منها دون شكّ. كما أنّه أمرٌ فظيعٌ تفعله بأبي".

– "لم تفعل أيّ شيءٍ بأبي. إنّه ميت تاتيانا ولن يعود أبداً. لديها الحقّ بأن تعيش حياتها سواء وافقتِ أو لا. ولقد انفصلا لأنّها لم تشأ إزعاجك بدعوته إلى هنا. تدينين لها باعتذارٍ، ربما لم يفت الأوان بعد لإصلاح الأمور، فهما يحبّان بعضهما، ويملكان الحقّ بذلك وليس لديك الحق بالتدخّل".

– "لا أريدها أن تصلح الأمور"، قالت تاتيانا وبدت مدمّرةً.

– "بعد كلّ ما قامت به من أجلنا، كيف يمكنك أن تكوني بهذه الأنانيّة؟".

ورغـب بأن يخنق أخته بسبب موقفها العنيد، وعدم تعاطفها مع والدتها التـي كانـت بدون شكّ تعاني اليأس والألم من علاقتها المنتهية مع ليام، مما أثبت أكثر لكزافييه مدى حبّها له.

– "ربما أسديتها خدمة".

– "كـان يجـدر بأحدهما أن يلقنك درساً، أرى بأنّه محقٌّ في قوله بأنّك مدلّلة".

– "أهذا ما قاله؟" وبدت منزعجةً من جديدٍ عندما قال لها ذلك. "لقد وقف هناك عارياً ومستعداً للانقضاض عليّ بعد أن عبث مع والدتنا". وعبّرت تاتيانا عمّـا شعرت به من غضبٍ. أمّا كزافييه فاعتقد بأنّ موقفها رهيبٌ، وهي تبدو كالساقطة. وقال لها ذلك ممّا جعلها أكثر عصبيّة.

– "يـا لك من عنيدةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز، لعلّه كان يجب أن ينقضّ عليك، فأنـتِ تستحقّين ذلك"، صرخ كزافييه في وجهها غاضباً. واجتاحت تاتيانا نوبة غـضبٍ بعـد ذلـك، ولاحظـت ساشا في اليوم التالي بأنّهما لا يتكلّمان مع بعـضهما، ولـم يكن لديها فكرة عن السبب. إذ لم يخطر في بالها أبداً بأنّهما

تشاجرا بشأن علاقتها مع ليام. وتصرّف كزافييه بحنانٍ أكثر مع أمّه، فيما كانت تاتيانا سعيدةً، بعد أن أراحتها معرفة أنّ ليام أصبح الآن خارج الصورة، فاعتبرت الأمر نعمةً. ولم تقل عنه شيئاً لوالدتها التي قرّرت بدورها عدم التحدّث عنه لئلاً تزعج ابنتها. كما أنّ ذلك لم يعد ينفع الآن، فلقد رحل ومن المؤلم التحدّث عن ذلك أكثر.

أمضوا وقتاً ممتعاً على متن المركب على الرغم من تعاسة ساشا. وشعر الجميع بالحزن لوصولهم إلى مرفأ موناكو. تناولوا عشاءً أخيراً على متن المركب، ثمّ ذهب الشبّان في تلك الليلة إلى الكازينو بينما أوت ساشا إلى الفراش باكراً. وفي الصباح غادر الجميع، فعادت تاتيانا إلى نيويورك وكزافييه إلى لندن بعد أن وعد والدته بأن يزورها في باريس قريباً. واستقلّت ساشا الرحلة المتوجّهة إلى باريس بعد أن غادر الشبّان. كانت ثلاثة أسابيع طويلةٍ بالنسبة لها. ومع أنّها فرحت لوجود ولديها، إلاّ أنها شعرت بالراحة للعودة إلى المنزل، وأن تأوي إلى الفراش برفقة الجرو سوكس. بدا المنزل في باريس صامتاً وخالياً عندما عادت.

لم يعد لديها الآن ما تصبو إليه سوى العمل الذي أبقاها قويّةً بعد وفاة أرثر، ولكن بدا هذا أصعب. فمع وفاة أرثر لم يكن لديها أيّ خيارٍ آخر سوى التكيّف مع الأمر، والتعايش معه مهما كان صعباً. أمّا الآن، ومع معرفتها بأنّ ليام حيٌّ يُرزق، وبأنّه يعمل في محترفه ويلاحق على الأرجح شابات جميلات، شكّل الأمر خيبةً لها، وترك حزناً عميقاً في نفسها. فلقد كان لديها دائماً أمل ضئيل بأنّه قد يتصل بها أو يعود مجدّداً، ولكنّها تعلم بأنّ ذلك لن يحصل. فهي تدرك مدى عناده، ومدى شعوره بالخيانة لأنّها رفضت مواجهة ابنتها. وهذا ما فتح جروحاً من ماضيه كان قد نسيها، هي جروح التخلّي عنه ونبذه، الجروح التي علمت بأنّه لن يتخطّاها أبداً. كانت تعرفه بشكلٍ أفضل من ذلك وكانت محقّةً.

وقالت لبرنارد حال عودتها إلى العمل بأن يتدبّر أمر اتصالات ليام في

حال اتصل، فلن تجيب على اتصالاته وتركت المهمّة لمدير المعرض. فلقد علمت بأنّه قد يتصل بالمعرض بشأن عرضه الافتتاحيّ القريب، ولم تمتلك القوّة للتحدّث معه. كان ذلك قاسياً عليها.

- "هل من خطب؟" سألها برنارد بنظرةٍ قلقة.

فلم تكن ساشا تبدو بحالٍ جيّدة على الرغم من عطلتها الطويلة. فرغم السمرة التي اكتسبتها على متن المركب، إلاّ أنه استطاع رؤية دوائر سوداء حول عينيها نتيجة الإرهاق والكآبة. كما لاحظ أيضاً بأنّها خسرت بعض الوزن وهذا فعلاً ما حصل.

- "كلا"، بدأت تقول شيئاً، ثمّ قرّرت أن تكون صادقةً معه. "لقد انتهى الأمر". وبدت عيناها كئيبتين.

- "يا إلهي"، أجاب برنارد، ولم يعرف ماذا يقول فيما نظر إليها واستطاع رؤية مدى تعاستها مقارنةً مع السعادة التي عاشتها خلال الأشهر الماضية مع ليام. "أما زلنا نقيم له معرضاً في نيويورك؟" تساءل برنارد.

- "بالطبع، فنحن وكلاؤه"، أجابت وقد بدا عليها الاحتراف، ثمّ دخلت بصمتٍ إلى مكتبها، وأغلقت الباب تماماً كما أغلقت موضوع ليام.

ولاحظت أوجيني أيضاً كم كانت صامتة. وعندما ذهبت ساشا إلى نيويورك في أيلول/سبتمبر لتنسيق معرضٍ، قلقت مارسي بشأنها فيما أجبرت ساشا نفسها على عدم البكاء عندما كانت تخبرها بأنّ علاقتهما هي وليام قد انتهت. مضى على الأمر شهران حتّى الآن. وشعرت بأنّها كانت تزحف على معدتها فوق أسلاك شائكةٍ مؤلمةٍ منذ تموز/يوليو. وبدت شاحبةً ومنهكة القوى مع زوال سمرتها الصيفيّة. وأدركت مارسي كم أنّ حالتها مزرية. فلقد كان كلّ شيءٍ يذكّرها به، وكلّ شيءٍ يبدو فارغاً من دونه. فسريرها في باريس كان كبيراً وخالياً، وفي نيويورك كانت التعاسة بحدّ ذاتها. فلقد سألها البوّاب عن ليام، إذ على الرغم من محاولتهما إبقاء الأمر سرّاً، كان الجميع يسألها عنه. كان محبوباً والأسوأ أنّها هي أيضاً تحبّه. تاتيانا وحدها لم تحبّه، حتّى

أنّها لن تعترف يوماً بأنّها تعرف بشأن خروجه من حياة والدتها. أمّا كزافييه، فكان يتصل بوالدته مراراً، وكانت تفرح حين تتحدّث معه.

رأى كزافييه ليام عدّة مرّات، ولكنّه لم يخبر والدته بذلك، ولم يذكره أبداً أمامها. ففي كلّ مرّةٍ رآه فيها، كان ليام برفقة امرأةٍ مختلفة. وبدا بأنّه يملأ الوقت الضائع، ويتكلّم أكثر عن الطلاق. ولكنّه لم يذكر ساشا وهذا ما جعل كزافييه يشكّ بأنّه ما زال يحبّها. فلقد كان عدم ذكرها غريباً بالنسبة له.

في تشرين الأول/أكتوبر، أمضى كزافييه نهاية أسبوعٍ في باريس مع ساشا. كان الطقس جميلاً، وتناولا العشاء في مطعم لو فولتير الذي أحبّاه. بدت ساشا أفضل حالاً، وقد عادت للتوّ من أمستردام بعد أن وقّعت عقوداً مع فنّانين جدد. لم تذكر ما تشعر به لكزافييه، ولكنّها كانت تتمالك نفسها للذهاب إلى نيويورك لتحضير عرض ليام الذي كان بعد ستّة أسابيع. وعلمت بأنّ لديها بعض الوقت لتتحلّى بالقوّة والصلابة عندما تراه، ولكي لا تتصرّف بانفعالٍ مهما كان شعورها. وقرّرت أن تكون محترفةً حيال الأمر، فهي في النهاية وكيلته. وكان كزافييه قد رأى أعماله الأخيرة وقال لها إنّها رائعة. كما سافر برنارد إلى لندن لرؤية اللوحات الجديدة، وكان سعيداً للغاية وراضياً عنها واعتقد بأنّ ساشا ستكون كذلك أيضاً.

كان العرض في الأوّل من كانون الأول/ديسمبر. فاتّفقت ساشا مع الولدين بأن يلتقوا في نيويورك في مناسبة الشكر لأنّه كان عليها الذهاب إلى المعرض يوم الاثنين الذي يليه للتحضير للعرض. ولم تكن مناسبة الشكر تعني لها شيئاً في باريس أمّا في نيويورك فكانت مناسبة أكثر مرحاً.

التقى كزافييه بليام قبل مغادرته إلى نيويورك، بعد أن مرّ بمحترفه ورأى شابةً برفقته. لم يكن لكزافييه أدنى فكرة إن كانت حبيبته أو لا. بدت الشابة في الخامسة والعشرين من عمرها، وأمل كزافييه بألاّ يصطحبها ليام معه إلى نيويورك، لأن هذا سيتسبّب بقتل والدته. وتمنّى أن يتحلّى ليام ببعض اللباقة لئلا يفعل ذلك بساشا. فعلى الرغم من أنّ كلاً منهما يملك الحقّ بمواصلة حياته

الخاصة كما يريد، غير أنّ كزافييه كان يعلم كم سيكون مؤلماً بالنسبة لوالدته أن ترى ليام برفقة امرأةٍ أخرى. فلم تكن ساشا تواعد أحداً، وسألها كزافييه عن ذلك خلال عشائهما في لو فولتير فهزّت برأسها بينما امتلأت عيناها بالدموع. لذا لم يذكر الموضوع مجدداً، وتملّكه شعورٌ مخيفٌ بأنّها استسلمت في أمور الحبّ. وبدا هذا خسارةً كبيرةً بالنسبة له، وخاصة لأنها لا تزال في التاسعة والأربعين من عمرها، غير أنّها انسحبت على ما يبدو من الساحة ما عدا في ما يتعلّق بالعمل. وكان المعرض ملاذها الوحيد وكانت تشعر بالامتنان لذلك.

- "أراك في نيويورك!" قال ليام بسعادة بينما كان كزافييه يغادر المحترف. من الواضح أنّه متحمّسٌ لعرضه، ولم يذكر ساشا ولو لمرّةٍ واحدة.

احتفلت ساشا وولداها بمناسبة الشكر في شقّتها، ثمّ ذهبا هي وكزافييه لمشاهدة فيلم، بينما خرجت تاتيانا برفقة أصدقائها. كانت هذه مناسبة الشكر الثالثة التي تمرّ بدون آرثر، والأقلّ ألماً حتّى الآن. أمّا في بقيّة العطلة، فلقد انهمكت ساشا بالتحضير لعرض ليام.

كان عمله رائعاً كما توقّعت، ووقفت ساشا تتأمّل اللوحات فخورةً به، فقد قام بعملٍ عظيمٍ في التحضير لعرضه. فبعد أن وصلت اللوحات كلّها بحالةٍ جيّدة، قامت ساشا بتوزيعها قرب الجدران حيث قرّرت تعليقها. وبقيت مساء الأحد تعمل لساعةٍ متأخرة وهي تحاول أن تقرّر أيّ لوحةٍ من بين اثنتين ستعلّق في المقدّمة بحيث يراها الناس عندما يدخلون. لم تسمع أحداً يدخل، فباب المعرض لم يكن مقفلاً. إذ كان كزافييه قد مرّ بها منذ بعض الوقت، ونسيت ساشا إغلاق الباب وراءه. كانت منشغلةً في تعليق اللوحات ومحتارةً في أمر اللوحتين الكبيرتين عندما سمعت صوتاً مألوفاً جعل قلبها يخفق بسرعة. كان ليام. أتى مباشرةً من المطار بقميصٍ أسود، وسروال الجينز الاعتيادي، وقبّعته الرياضيّة، وحذائه، وسترته الجلديّة. وتدلّى شعره الأشقر على كتفيه فبدا كأحد ممثّلي هوليوود أكثر من السابق. لم يعد ملكها، هذا ما قالته لنفسها فيما استدارت للتكلّم معه بصوتٍ هادئ بينما التقت أعينهما. لم

يدرك كم كلّفها من عناءٍ لتقوم بذلك.

– قالت له بلطف: "قمتَ بعملٍ رائع". فلقد أصبحت الآن وكيلته الفنيّة فقط، وذكّرت نفسها بذلك مراراً وهي تقف أمامه. التقت أعينهما مجدداً فيما وقفا ينظر أحدهما إلى الآخر عن بعد. حتّى أنّه لم يقترب ليقبّلها على خدّها، بل بقي واقفاً في الصالة ينظر إليها فيما تبادله النظرات. لقد تغيّر مع الوقت، فبدا الآن جدّياً وحزيناً ومتعباً، ولكنّه بدا أيضاً وسيماً أكثر من السابق. "لقد قمتَ بعملٍ ضخم". كان ذلك مؤثراً.

– "كنت منشغلاً"، قال بهدوء.

– "هذا ما فكّرت به"، أجابت، ثمّ كرهت نفسها للتعليق الذي قالته. فما يفعله في وقت فراغه لم يعد من شأنها، وبدت مرتبكةً عندما كلّمته من جديد. "أيّ من اللوحتين أفضل للمقدّمة؟ أقف هنا منذ ساعةٍ وأنا أحاول أن أختار".

– "هذه"، قال لها وأشار إلى اللوحة الأكبر والأكثر إشراقاً بالألوان بدون تردّد. "ألا تعتقدين ذلك؟" فما يزال يقدّر رأيها بشأن عمله، إذ لطالما تميّزت بنظرةٍ محقّة. ولقد احترمها لما تقوم به، ولمدى الاتقان الذي تؤدّي فيه عملها.

– "نعم، أنت محقّ. وقفت هنا كالغبيّة لا أعرف ماذا أقرّر. ولكنك محقٌّ". حملت اللوحة إلى حيث أرادت وضعها فتقدّم نحوها لمساعدتها. كانت اللوحة كبيرة لتحملها بمفردها، ولكنّها لم تمانع. غالباً ما كانت تعمل لوقتٍ متأخرٍ في حمل اللوحات بمفردها، وتعليقها باستخدام السلّم والمسامير والمطرقة. ابتسم عندما دقّت المسمار في الجدار ثمّ حملت اللوحة التي ساعدها في رفعها وعلّقتها. بدت أكثر عناداً وتصميماً من السابق، لم يتغيّر شيء فيها. واستمرّ بالابتسام عندما نزلت عن السلّم لمشاهدة عمله. "رائع! يبدو هذا كاملاً!".

هزّ برأسه ونظر بدوره إلى اللوحة بعين الفنّان الناقد، ولكنّه كان راضياً عنها أيضاً "نعم، إنّها كذلك". ثمّ التفت من حوله وسُرّ بطريقة تنسيقها للعرض، وعلم مسبقاً بأنّها ستنال إعجابه. وفيما وقفت تنظر إليه، أدركت بأنّها لم تره

منذ أربعة أشهر وبضعة أيام. وحاولت عدم التفكير بالأمر بينما مرّت بجانبه لتضع أغراضها جانباً. فمجرّد الشعور بوجوده معها في الغرفة نفسها كان صعباً عليها، وما زالت تشعر بنفس الانجذاب نحوه غير أنّه توجّب عليها تجاهله الآن من أجلهما معاً. بدا وكأنّه لا يشعر بشيءٍ تجاهها ممّا أحبطها، ولكنّها قالت في نفسها بأنّه ربما يكون هذا أفضل. إنّها الطريقة الوحيدة لتسير الأمور.

أطفأت أنوار المعرض بعد أن رأى كلّ أعماله، وكيفية عرضها على الجدران. وحين مشيا إلى الخارج دُهشت لمشاهدة الثلج يتساقط. فقد بقيت في المعرض طوال اليوم حتى المساء للعمل على عرضه.

– "أين تنزل؟" سألته بعفويّة بينما أدارت جرس الإنذار وأقفلت الباب. تبعها إلى الخارج ولاحظ كم تبدو مرهقةً ونحيلةً. أمّا هي فنظرت إليه وفكّرت في سنّ الشابات اللواتي يواعدهنّ ربما، وشعرت بأنّها تكاد تبلغ المئة من عمرها. بينما فكّر بأنّها تبدو جميلةً ولكن ضعيفة وهزيلة، وتمنّى ألا تكون مريضة.

– "سأقيم مع بعض الأصدقاء في تريبيكا". كان جوابه مبهماً عن قصد، فلم يشأ الدخول في التفاصيل معها. "سأذهب لرؤية الأولاد في فرمونت الأسبوع المقبل بعد العرض. وستتزوّج بيث ليلة رأس السنة". لم يعلم لماذا أخبرها بكلّ هذا، ولكنّه كان سعيداً لرؤيتها مجدداً. كان ذلك جميلاً ولكن غريباً في الوقت نفسه لكليهما. فمن الغريب أن يُغرم المرء بشخصٍ ما كما كانت الحال معهما وبألا يتمكن من تكوين صداقة معه في النهاية. وهكذا كانا، فنّانٌ ووكيلته فحسب. ولم يكن لديها أدنى فكرة متى ستراه مجدداً بعد انتهاء العرض.

– "كيف حال الأولاد؟" سألته فيما انتظرا سيّارة أجرة. وكان الثلج يتراكم على الأرض وما من أثرٍ لأيّ سيّارات أجرة على الإطلاق. وفجأةً، ظهرت واحدة.

– "إنّهم بخيرٍ"، أجابها بينما تركها تستقلّ سيّارة الأجرة. كانا يسلكان

اتّجاهين مختلفين، ولم يكن بالإمكان اتّخاذ الاتجاه نفسه لتوصيلهما معاً. ولم تشأ ساشا أن تستقلّ السيّارة معه في جميع الأحوال، فمن الصعب عليها أن تكون بجانبه. ولكنّها أدركت بأنّه ربما لن تكون هنالك من سيّارات أخرى في هذا الوقت، بعد أن انتظرا عشرين دقيقة قبل أن يجدا واحدة.

- "أتريد أن تستقلّ السيّارة معي ثمّ يوصلك من بعدي؟ فمن الممكن أن تقف على الطريق لساعاتٍ"، عرضت عليه ذلك بكرمٍ. وبدأ الثلج يتساقط بغزارةٍ أكبر ويتكدّس على الطريق، ولو لم يكن البرد قارساً، لكان من الجميل مشاهدة المنظر. تردّد ثمّ هزّ برأسه، فما اقترحته يناسبه، واستقلاّ سيّارة الأجرة معاً.

أعطت السائق العنوان بينما لاذا بالصمت.

- "أتمنّى ألا تحدث عاصفة ثلجيّة، وإلا فسيكون من الصعب أن يأتي المدعوّون للعرض"، همست ساشا وهي تنظر من نافذة السيّارة.

- "أحبّ نيويورك هكذا"، قال ثمّ ابتسم وتأمّل مشهد الثلج المتساقط. وبدا كالطفل أكثر من قبل، ولم يكن هذا بالأمر الغريب. وسألها بتهذيب: "كيف كانت مناسبة الشكر؟".

- "جيّدة، فلم تعد العطلات كما كانت في السابق. ولكنّها كانت أفضل من العامين الماضيين"، أجابته وعنت وفاة أرثر بذلك. غير أنّها كانت أسوأ بطريقةٍ أو بأخرى بسببه هو. وعندئذٍ وصلا إلى منزلها، فتح لها البوّاب باب السيّارة فترجّلت وشكرت ليام على إيصالها. "أراك غداً، ستكون نجماً بعد العرض، حظاً سعيداً للغد".

- "شكراً ساشا". كان ممتناً لها على الرغم من أنّ الأمور لم تنجح بينهما.

وابتعدت سيّارة الأجرة، فالتفتت ساشا لتجد نفسها تصطدم بتاتيانا التي أتت لاستعارة ثوبٍ وعدتها ساشا به لحفلةٍ ستحضرها خلال الأسبوع. رأتها ساشا تنظر إلى سيّارة الأجرة وتعرف من في داخلها. وفي المصعد، لم تقل

شيئاً، ولكنّها ما إن دخلت إلى الشقّة مع والدتها، حتى بدت منزعجة.

- "من كان هذا؟" سألت تاتيانا والدتها بنبرةٍ فظّةٍ جعلت قلب ساشا ينقبض. وكانت قد أخذت على نفسها وعداً بألا تنفعل أو تأكل الطعم الذي توجّهه تاتيانا نحوها، فهما لم تتكلّما عن ليام منذ تموز/يوليو أي منذ خمسة أشهر.

- "تعرفين جيّداً من هذا"، أجابت بهدوءٍ. "تقيم عرضه غداً".

- "هل استأنفتما العلاقة؟" ونظرت إلى والدتها بانتقادٍ وكأنّ ساشا ستبدو فاشلة في نظر ابنتها إن فعلت ذلك، وهذا ما أزعجها أكثر. فقد أحدثت تاتيانا ما يكفي من الضرر حتّى الآن ولم تكن ساشا ستسمح لها باقتراف المزيد.

- "لا"، ولكنّها تمنّت لو أنّ هذا يحصل، غير أنّ الأوان قد فات.

- "لا بدّ أنّه يخرج الآن مع شاباتٍ بنصف سنّك"، أضافت تاتيانا مستهزئةً، بينما شعرت ساشا بوخزةٍ في قلبها من جواب ابنتها الحاد.

- "هذا يكفي"، قالت ساشا بصرامة، وبنبرةٍ فاجأت تاتيانا. "ما يفعله ليس من شأنك أو شأني".

- "ما زلت تحبّينه أليس كذلك؟" سألتها تاتيانا متّهمةً، فنظرت ساشا إليها وجهاً لوجه.

- "نعم، أحبّه".

- "كم هذا مثيرٌ للشفقة".

- "الأمر الوحيد المثير للشفقة هو أنّك بغاية القسوة لتقولي هذا، ولتستمرّي في هذا الانتقام السخيف، وأنت تزعمين الدفاع عن والدك. ليس لهذا الأمر علاقة به أو بك أو حتّى بي أنا في هذه المرحلة. ليام رجلٌ طيّبٌ تاتيانا، لم تنجح علاقتنا وأنا آسفة للغاية لهذا. ولكنّك إذا أردتِ رشّ الملح فوق جروحي، تستطيعين المغادرة على الفور. حياتي صعبة ووحيدة وتعيسة بما فيه

الكفايــة، ولست بحاجة لأن تزيديها سوءاً". وبدت الدموع في عينيّ ساشا فيما نظـرت تاتيـانا إليها مندهشةً من ردّ فعل والدتها القويّ. فلقد سبق أن أخبرها كـزافييه بأنّ أمّهما مغرمة بليام، ولكنها لم ترغب بتصديق الأمر، وخالت بأنّ علاقتهما ماديّة وجسديّة. وشعرت الآن بأنّها أكثر من ذلك ولم تتوقّع أن تتخلّى ساشا عنه من أجلها.

- "أمي أنا آسفة"، قالت بهدوء. "لم أدرك بأنّك تهتمّين لأمره بهذا القدر". وفهمت في النهاية الخطأ الذي ارتكبته، وماذا كلّف والدتها، ثمّ شعرت بالذنب لأول مرّة.

- "بـل أهتمّ أكثر من ذلك حتّى، ولكنّ هذا لا يفيدني الآن"، أجابت ساشا بـصدق، ومـسحت دموعها فيما خلعت معطفها. وللمرّة الأولى منذ تلك الليلة الرهيبة في هامبتونز، شعرت تاتيانا حقّاً بالأسى تجاهها. فهي لم تفكر أبداً من قـبل بمـدى وحدة والدتها، كلّ ما فكّرت فيه بأنّها تفتقد والدها، ولكن لم تفكّر بوحدة والدتها القاتلة أو تعاستها.

- "كلّ ما أردته هو أن تكوني برفقة رجلٍ يشبه أبي"، قالت تاتيانا بلطف وهـي تـشعر بالـسوء مـن تعليقاتها، ثمّ اعترفت بالحقيقة للمرّة الأولى فيما انهمرت الدموع من عينيها. "هذا ليس صحيحاً"، صحّحت لنفسها وأضافت: "لم أشأ أن تكوني برفقة أحدٍ سوى أبي".

- "أعـرف"، قالت ساشا بدورها من خلال دموعها، واقتربت من تاتيانا وعانقتها. "أنا أيضاً أفتقده حبيبتي، اعتقدت بأنني سأموت عندما توفي ولم أتوقّع أن أغـرم بلـيام. حـصل هذا الأمر بكلّ بساطة، لم أُرد ذلك ولكنّه حصل". وأغمـضت عينيها بينما تعانقتا وبكتا بقوّة. "ليس هذا مهمّاً الآن، لقد انتهى كلّ شيء". وانحدرت الدموع على وجنتيها.

- "ربمـا سيعود"، همست تاتيانا، وشعرت بالأسى على والدتها، وبالندم الشديد. استغرق ذلك وقتاً طويلاً، طويلاً جداً لتعي ماذا فعلت.

- "كـلا، هـذا مـستحيل"، أجابـت ساشا، واستمرّت تاتيانا بالبكاء بين

ذراعـيها. "ليس ذنبك تاتيانا، فإن أحبّني لكان بقي معي. هذا ما كان سيحدث على أيّ حال، فالعلاقة كانت مستحيلة منذ البداية. كنتِ محقّة". وابتسمت ساشا بحزن لابنتها وتابعت: "أنا كبيرة عليه، إنّني بحاجة لرجل ناضج مهما يكن".

- "أبـي كـان كذلك"، قالت تاتيانا بنظرةٍ تعيسة، وشعرت بأنّها مسؤولة عمّا حصل.

- "نعـم، كـان كذلك، ولا نجد الكثير مثله هذه الأيام". وتذكّرت كلمات مارسي في الصيف عن الرجال الأنذال وغير المخلصين. صدّقت كلامها، وقد الـتقت ببعضهم خلال ترمّلها لعامين حتّى الآن. على الأقلّ، كان ليام صادقاً، وأحـبّها مـع أنّه تصرّف بصبيانيّة وبغير نضج في بعض الأحيان. ولكنّه في الـنهاية كـان محترماً وطيّباً بخلاف الآخرين. وهي تعلم بوجود رجل لطيف خارجاً في مكان ما، غير أنّها لم تعد تمتلك الطاقة ولا القلب لإيجاده أو الوثوق به. كان الأمر صعباً عليها، ولم ترغب بمواعدة أحد الآن، وخاصة لأنها تتألّم على فقدان رجلين، أرثر وليام.

قبّلتها تاتيانا متمنّيةً لها ليلةً سعيدةً ثمّ غادرت مع الفستان الذي استعارته مـن أمّها، فيما فكّرت ساشا بما حدث تلك الليلة بينهما. فقد بدأت تاتيانا تحدّثها بـشأن ليام مجدّداً وهذه المرّة اقتنعت، وهذا ما أراده ليام منها منذ تموز/يوليو ولكـنّها لـم تـستطع القيام به وقتها. كانت عندئذ فكرة جيّدة في وقتٍ سيّئ. وشعرت ساشا بأنّها مدينة له وحقّقت له أخيراً ما أراد ولو بعد وقت. وللأسف بالنسبة لها وله، فات الأوان الآن بعد أن انفصلا، غير أنّها كانت سعيدةً لقيامها بـذلك، وخاصـة لأن تاتيانا كانت بحاجة لسماع الأمر منها. وكان هذا بمثابة هديّـتها الأخيـرة له إذ سدّدت ما عليها. لم يعد هذا مهمّاً الآن، ومع أنّه جاء متأخراً، إلاّ أنها شعرت بتحسّنٍ لتسوية المسألة وإخبار تاتيانا بأنّها تحبّه. كانت هذه هديّتها الأخيرة له.

الفصل الثامن عشر

توقّف الثلج في الصباح، وتمّ جرفه عن الطرقات. وكان المساء صافياً وبارداً للغاية بينما ارتدت ساشا ملابسها لافتتاح معرض ليام. وكالعادة، ارتدت ثياباً داكنة اللون وبسيطة، كان فستانها هذه المرّة أسود، وبدون كشاكش ولا تطريز، فقد أرادت أن يكون التركيز على اللوحات وليس عليها.

وكانت مارسي قد طلبت من ليام أن يصل عند الخامسة والنصف للتحدث مع أحد النقّاد الفنيّين الذي أراد التقاط صورٍ له إلى جانب لوحاته. وكان المدعوّون الذين تلقّوا الدعوات سيصلون عند السادسة.

تركت ساشا مارسي تتدبّر أمر ليام والناقد. وعندما خرجت من مكتبها عند ساعة الافتتاح تماماً، كان الناقد والمصوّر قد غادرا. وقف ليام بقلقٍ في الصالة، مرتدياً بزّةً سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنقٍ حمراء داكنة، ومنتعلاً حذاءً رسميّاً أسود مع شريطٍ، وقد ربط شعره بترتيب. ابتسمت ساشا عندما وقع نظرها عليه وأدركت بأنّه يرتدي جوارب سوداء. بدا أنيقاً للغاية ووسيماً وعلى الرغم من كلّ محاولاتها، تسارعت دقّات قلبها عند رؤيته، ولكنّ شيئاً ممّا شعرت به لم يظهر على وجهها. بل كانت عفويّةً، وتصرّفت كالوكيلة الفنيّة المحترفة التي تنتظر أن توجّهه من خلال أوّل عرضٍ له.

– "تبدو رائعاً ليام"، بادرت بالقول بتهذيبٍ بينما جالت عيناه عليها وعلى الفستان الأسود الحريري الذي ارتدته.

– "وأنت أيضاً"، أجابها بدوره. وقدّم له النادل كأساً من الشراب فأخذه، والتفت إليها قائلاً: "لا تقلقي سأحسن التصرّف".

– "لا أشكّ في أنّك ستفعل". وابتسمت له بتحفّظ.

- "لـن يكـون هناك من امتطاء للجياد الليلة على ما أظن"، قال مذكّراً حفلة الشواء التي حضراها، حين ثمل وأساء التصرّف.

- "كلا"، أجابته ولمعت عيناها. "أظنّ بأننا سنقوم بالتزلّج على الجليد بعد العرض".

هـزّ برأسـه بينما عادت إليه ذكريات الرابع من تموز/يوليو، وأضاف مازحاً: "حاذري من الجواد".

ابتسمت ولم تجب ثمّ شربت نخبه. "نخب نجاح عرضك الأول في صالة سوفيري".

- "شـكراً ساشا، نخب وكيلتي الفنيّة!" وشربا النخب بينما بدأ المدعوّون بالوصـول، وكانت فوضى منظّمة بعد ذلك. سار مئات الأشخاص في أرجاء المعـرض لـرؤية عملـه، وهم يتحدّثون ويضحكون ويلتقون بعضهم البعض ويلقـون التحيّة على هذا وذاك. وتخلّل الافتتاح مقدمات وأسئلة ولوائح أسعار وانتقادات، وبدا أنّ النقّاد وجامعي الأعمال الفنيّة قدّروا موهبته. لم يتسنّ لساشا فرصة أخرى للتحدث معه مجدداً طوال الأمسية، وكانت قد طلبت من مارسي الوقوف بجانبه وتقديمه للمدعوّين، وإبقاءه سعيداً، والتأكّد من تصرّفاته فقط في حال أساء السلوك.

لـم تحدث أية مفاجآتٍ أو مشاكل أو اعتراضاتٍ خلال العرض، وكانت المفاجـأة الأولـى التـي لم تدهش ساشا كثيراً أنّه تمّ بيع كلّ لوحاته باستثناء اثنـتين. لـم يصدّق ذلك ووقف بدون حراكٍ يحدّق في ساشا عندما نقلت إليه الخبر السعيد وكان على وشك البكاء.

- "هـذا مؤثّرٌ جداً ليام. نادراً ما يحدث هذا إلا مع أكبر الأسماء الفنيّة. يعنـي هـذا الأمر بأنّهم يفهمون عملك ويقدّرونه، ينبغي أن تفخر بنفسك". ثمّ أضافت: "أنا فخورةٌ جداً بك".

ومن دون أن يضيف أيّة كلمة، عانقها وشعر بعدها بالإحراج، فلقد كان بغايـة الـسعادة. أمّـا هي فتابعت قائلةً: "إذاً أنت الآن فنّانٌ موهوبٌ، ولكنك

ستـصبح ثـرياً أيـضاً فـي وقتٍ قريبٍ جداً". وقرّرت أن ترفع أسعاره بعد العرض. "أعتقد بأنّه يجب أن تقيم معرضاً في باريس الآن، صحيحٌ أنّ السوق هـناك ليست بهذه الحيويّة، ولكنّك ما إن تحصد النجاح هنا في نيويورك حتّى يكون الوضع مماثلاً هناك أيضاً. سنتكلّم في الموضوع قبل مغادرتك".

شـعر بأنّه في حلمٍ ولم يصدّق ما جرى، وبدا مصدوماً في الطريق إلى مطعـم لاغولـو. كانت ساشا قد أرسلته قبلها إلى هناك برفقة كارن ومارسي بينما وصـلت هي مع الباقين. وكان بعض الذين دعتهم للعشاء من أصدقائه والآخـرون من الزبائن الذين أرادت تعريفه بهم والذين ابتاعوا من لوحاته في تلـك الـليلة. حجزت طاولةً لعشرين شخصاً، جلس ليام على رأسها وهي من الجهة الأخرى. أحاطته بأصدقائه، وشعرت بالغرابة لوجودها هناك معه، ولكن كـان عليها القيام بعملها بإتقانٍ مهما كان شعورها نحوه. وكان معظم الفنّانين الـذين طلـب مـنها دعـوتهم من النساء، وكانت قد التقت معظمهنّ من قبل وأصـبحن فـي النهاية من صديقاتها. ولم تكن لديها أدنى فكرة مع من يخرج حالـياً ولـم تـودّ أن تعرف. كان الزبائن الأشخاص الوحيدين من سنّها على الطاولـة، أمّا البقيّة فكانوا حتّى أصغر من ليام. لم يتغيّر شيء في عاداته فما من سببٍ لذلك، عاد مجدداً إلى عالمه الخاص، ولم يعد بحاجةٍ للقيام بالتعديلات أو التـنازلات من أجلها، أو أن يتصرّف كما تريد. غير أنّه كان حذراً للغاية خـلال الأمسية إمّا لأنّه أراد ذلك أو مراعاةً لها. شكّلت تلك الليلة نقطةً مهمّةً وانتصاراً كبيراً له.

أرادت ساشا القيام بإعلانٍ خلال العشاء، فأحد الزبائن الجالس بقربها إلى الطاولـة قرّر شراء اللوحتين المتبقيتين. وبهذا يكونون قد باعوا جميع لوحاته فـي لـيلة العـرض الافتتاحـيّ. وقفت ساشا في الجهة المقابلة من المائدة، وتـشاركت الخبـر السعيد مع الموجودين، ورفعت كأسها وشربت نخب ليام مجدداً. أمّا هو فبقي هذه المرّة جالساً في مكانه ناظراً إلى ساشا.

ثـمّ شـرب نخبها ونخب الزبون، وقال بأنّه لا يعرف ماذا يقول فشكر

الجميع وخاصة ساشا وكارن ومارسي والزبائن الذين ابتاعوا لوحاته. بدا عفوياً للغاية وهذا ما أثّر بساشا.

ابتسمت لـه مرّة أو اثنتين من مكانها على الطاولة، ولكن لم تحمل نظراتها أيّ معنىً عميق. بل كانت سعيدةً وحسب لنجاح عرضه، فهذا ما شكّل سبب شراكتهما منذ البداية، والباقي لم يكن سوى إضافاتٍ لم تكن هي الدافع للتوقيع معه. ولقد حقّقا تماماً ما أرادته فعلاً له: النجاح.

استمرّ العشاء حتّى بعد منتصف الليل، وكالعادة بقيت ساشا إلى حين مغادرة آخر المدعوّين. سدّدت الفاتورة وشكرت المطعم، ثمّ سارت برفقة ليام إلى الخارج في تلك الليلة الصافية والباردة من شهر كانون الأول/ديسمبر. كان البرد قارساً فشعرت بألمٍ في رئتيها عندما تنفّست.

– "لا أعرف كيف أشكرك"، قال ليام، وبدا وكأنّه سيطير من السعادة. وكان الشراب الذي طلبته في المطعم ممتازاً، إلاّ أنه كان من الواضح بأنّه لم يشرب كثيراً. وكان مثالياً طوال الأمسية من خلال تصرّفاته اللائقة وبدا لها بأنّه أصبح ناضجاً بطريقةٍ ما.

– "ليس عليك أن تشكرني"، أجابته ساشا ببساطة، "هذا واجبي، يقتضي عملي أن أقدّم الفنّانين الجدد للعالم". ومن الواضح أنّه خلال تلك الليلة أطلّ ليام إلى العالم من الباب الواسع. "كما أنني أجني نصف المال، أنا من يجدر بها أن تشكرك".

– "شكراً لأنّك آمنتِ بي وأعطيتني فرصة. انتظري حتّى أخبر الأولاد"، وابتسم ثمّ نظر مجدداً إلى ساشا التي بدت في حذائها الشتويّ المنخفض الكعب صغيرةً جدّاً وهي تقف بقربه. "هل أستطيع اصطحابك لاحتساء شرابٍ ما؟" أرادت ساشا أن ترفض في البداية، إلاّ أنها هزّت برأسها. فلقد كانت هذه على الأرجح فرصتها الأخيرة مع أنّه لن يحدث أيّ شيءٍ، لأنّه يبدو أنّهما تخطّيا الأمر.

قرّرا أن يقصدا كارليل، وفي سيّارة الأجرة تحدّثا عن العرض. وأراد ليام معرفة كلّ التفاصيل وما قاله المدعوّون فأخبرته ساشا بكلّ ما تعرف، وبكل ما سمعته من الحاضرين.

عندما وصلا، طلب شراباً خفيفاً أمّا سائلت الشاي بعد أن احتست الكثير من الشراب في تلك الليلة على العشاء. كان آخر ما أرادته هو أن تثمل برفقته. ولم تشأ أن تفقد سيطرتها على نفسها معه. سيكون ذلك سهلاً في النهاية، ولكن كانت هذه هي المرّة الأولى التي تراه فيها بعد علاقتهما المضطربة. وكان عليها إيجاد طريقة جديدة لرؤيته والتعامل معه. ولا تزال علاقتهما المهنيّة الصرف غريبةً بالنسبة لها.

تحدّثا في مواضيع عدة ثمّ فاجأته وتفاجأت بدورها إذ وجدت نفسها تخبره عن حديثها مع تاتيانا في الليلة السابقة. لم تكن تنوي إخباره، ولكنّها لم تستطع منع نفسها من ذلك.

– "لا أعرف لماذا أخبرتك بذلك"، قالت وقد بدا عليها الإحراج. "ربما أردتك أن تدرك بأنني وقفت في صفّك في الأوقات الأولى بالنسبة لنا، ولكن ليس لك أنت. وما يدعو للسخرية أنّ تاتيانا تراهن أن اعتمدتُ أسلوباً متشدّداً معها". ثمّ نظرت إلى ليام كمن تعتذر منه وأضافت: كلّ ما في الأمر أنني لم أكن مستعدةً في تموز/يوليو. ربما كان يجدر بي، وأعلم بأنّ هذا ما أردتني أن أقوم به، ولكنّني في النهاية حقّقت لك ذلك الآن. لم تكن تخبره بهذا لتؤثّر فيه، بل أرادته أن يعرف بأنّها دافعت عن شرفه وعن شرفي أيضاً في نهاية المطاف.

– "لا بأس بهذا ساشا"، قال لها بلطف، "أفهمك، لقد كنتِ في موقفٍ صعب، كلانا كان كذلك. من المضحك كيف تأخذ الأمور بعض الاتجاهات أحياناً. تحطّم كلّ شيءٍ دفعةً واحدة، الماضي والحاضر والمستقبل. وكأنّ أشباح الأشخاص الجدد والقدامى عادت لتظهر دفعةً واحدةً من الماضي. تختلط عليّ أحياناً عائلتي والأشخاص الباقين. إنها طريقة ابنتك أيضاً، كان يجدر بي أن أفهمك. والآن أفعل ذلك مع أنّ الأمر استغرقني وقتاً طويلاً، طويلاً للغاية". قال بنبرةٍ حزينة.

– "شكراً لكونك متفهماً حيال المسألة"، أجابته بابتسامة، "أعلم بأنّ الأمر كان رهيباً بالنسبة لك، ولقد كان كذلك أيضاً بالنسبة لي. ولكنّك محقّ، إنّها ابنتي. والحقيقة أنّها راشدة الآن ولا تتصرّف على هذا الأساس في ما يختصّ بك. لعلّنا نتصرّف أحياناً كالأولاد من دون أن نعلم".

– "في الواقع، لطالما فعلت ذلك"، قال ممازحاً، "فأنا أفتخر بهذا واعتدت على أن أكون غير ناضج".

– "ما الذي فتح هذا الموضوع الآن؟" سألته وقد بدت مستمتعة. فعلى الرغم من كلّ شيء، كان مرحاً في أوقاتٍ كثيرة. وعندما نظرت إليه، أدركت كم افتقدته خلال الأشهر الأربعة الماضية، وبأنّها ستفتقده على الدوام.

– "أظنّ بأنّه العمر، سأبلغ الواحدة والأربعين قريباً". وتأوّهت لسماعها هذا.

– "أرجوك، لا تقصّ عليّ حكاياتك المحزنة، فأنا سأبلغ الخمسين في أيار/مايو. يا إلهي، كيف أصبحت بهذا السنّ؟" وبهذا الغباء، أرادت أن تضيف. ولبرهة، تمنّت لو أنّها واجهت تاتيانا في تموز/يوليو ولكنّ الوقت لم يكن مناسباً لذلك.

– "لستِ كبيرة في السنّ ساشا، بل ما زلتِ شابةً وجميلةً. لا أعرف لماذا يخاف الجميع من فكرة التقدّم في السنّ. أنا أشعر بهذا أحياناً، وأودّ الاستمرار في التصرّف كالطفل وعدم النضوج أبداً، غير أنني لست كذلك، بل أنا راشدٌ أكثر ممّا أحبّ أن أعترف. لا أعرف لماذا نظنّ بأنّ الشباب أمرٌ رائعٌ. فلو تذكّرت شبابي بشكلٍ صحيحٍ، لوجدت بأنّه كان سيئاً ومقرفاً. هكذا كان حكمي على الأمور حينها ولكنّ الأمور أفضل الآن".

– "أتمنّى لو أستطيع أن أقول الشيء نفسه عنّي". وأرجعت ظهرها على المقعد، ونظرت إليه. كان الأمر برمّته مثيراً للحزن والغرابة. فقد تحوّلا من حبيبين إلى وكيلة وفنّان، وربّما الآن في النهاية ينتهي بهما الوضع كصديقين. وكانت تتكلّم معه بشكلٍ أفضل وأسهل بكثير منه مع معارفها الآخرين. ما عدا

كزافييه ربما. ولكنّه ابنها، وكانت تستطيع إخبار ليام ببعض الأمور التي لا يمكنها أبداً الإفصاح عنها لكزافييه. "أظنّ أحياناً بأنني كلّما تقدّمت في السنّ، تراجعت معرفتي في الأمور".

– "أنتِ تعرفين الكثير، فأنتِ أذكى شخصٍ عرفته في كثيرٍ من الأمور. وأفضل وكيلة فنيّة في العالم".

– "نحن نشكّل فريقاً جيّداً"، ثمّ سكتت وأدركت ما قالته للتوّ، وشعرت بالإحراج. لم ترغب بأن يفكّر أنّها تلاحقه، وهذا ليس صحيحاً. كلّ ما تفعله هو أنّها تبذل جهداً كبيراً لئلاّ تقدم على ذلك ولم يكن بالأمر السهل. ثمّ استدركت الأمر وأضافت: "أعني فريقاً في مجال الفنّ".

– "لم نكن سيئين في الأمور الأخرى على ما أعتقد. بل خرجنا عن السيطرة في بعض الأحيان". كان هذا الوصف ناقصاً من وجهة نظر ساشا، فخلال أحد عشر شهراً من معرفتهما، انفصلا مرّتين لستّة أشهرٍ كاملةٍ ممّا يعني أنّهما لم يكونا معاً معظم الوقت.

– "كم أنت كريم"، قالت له بينما أنهت الشاي.

وكانا قد جلسا في كارلايل لساعتين، وحان وقت العودة إلى المنزل. لم يستطيعا البقاء أكثر، لأن كارلايل كانت ستقفل.

استدعى البوّاب لهما سيّارة أجرة أقلّتهما إلى منزلها. وحاولت أن تطلب منه أن يصعد ولكنّها لم تستطع. لأن ذلك كان سيجعلها ترغب به أكثر، ولن يؤدّي هذا إلى أيّ نتيجةٍ، فعلاقتهما انتهت وهذه المرّة بشكلٍ جيّدٍ. لم يعد يخفى عليهما هذا الأمر الآن، فلم يكن فارق السنّ هو السبب بل الحياة والقيم وأسلوب العيش وتاتيانا. إنّه القدر. لم يكن بيدهما حيلة، ومهما شعرا بالانجذاب تجاه بعضهما البعض، فمن الواضح أنّهما ما زالا يكنّان نفس الشعور.

نظر إليها لوقتٍ قبل أن تخرج من السيّارة وقال: "شكراً على الافتتاح الرائع". تردّد لبرهةٍ ثمّ أمسك بيدها. "سأغادر إلى فرمونت يوم الجمعة". لم يعرف كم ستبقى في نيويورك. "هل يمكنني اصطحابك للعشاء غداً ساشا؟

لأشكرك على الليلة ومن أجل الأيام الخوالي؟" لم تكن تعرف حتّى إن كان يخرج برفقة إحداهنّ، وفكّرت بصدقٍ أنّه يريد اصطحابها بصفتهما صديقين.

- "لست واثقةً إن كانت فكرة جيّدة، فغالباً ما نقع في المتاعب عندما نفعل هذا"، أجابته ببساطة، فضحك لكلامها.

- "يمكنك الوثوق بي، سأحسن التصرّف أعدك".

- "المشكلة أنني لا أستطيع الوثوق بنفسي". كانت صادقةً معه كالعادة؛ وكما كانت منذ البداية.

- "الآن هناك دافعٌ لذلك، فما رأيك أن تكتب الصحف عن فنّانٍ جديدٍ يرفع دعوى ضدّ وكيلته الفنيّة بسبب تحرّشها به. هيا، بحقّ السماء، أنا أثق بك، وإن اقتربتِ منّي سأصرخ". قال ممازحاً. "لماذا لا تحاول؟" أصرّ على دعوتها ووافقت في النهاية. ففي أعماق نفسها، أحبّت التواجد معه والتحدّث إليه.

- "سأحاول أن أتحكّم بنفسي"، قالت له بقلق. أمّا هو فكان يتوق لتقبيلها ولكنّه لم يفعل. لم يشأ إفساد الأمر بينهما الآن، واستطاع رؤية الخوف في عينيها وشعر هو أيضاً به.

- "سألقاك إذاً من المعرض عند السادسة مساءً. أريد المجيء ومشاهدة عملي للمرّة الأخيرة وخاصة أنّ اللوحات قد بيعت كلّها". ضحكت وخرجت من السيّارة، ولوّحت له بيدها بينما اتّجهت نحو المبنى، ولوّح لها بدوره من داخل سيّارة الأجرة التي انطلقت مبتعدة.

جلست في شقّتها الهادئة في سكون الليل، وأخذت تفكّر متى سيكون هنا معها. بدا المكان مليئاً بالأشباح الآن، أشباح آرثر وليام. حتّى أنّ الولدين رحلا أيضاً. وكان واقع حياتها الآن مطبوعاً بالوحدة من جديد، ربّما للأبد هذه المرّة. وبينما خلعت معطفها، فكّرت بأمر واحد لن تسمح لنفسها بأن تقترفه مجدّداً وهو أن تضعف مجدّداً أمام ليام مهما كان الأمر مغرياً أو جذّاباً. فلقد أثبتا مرّتين من خلال تجربتهما بأنّ هذا مستحيل، ولم يكونا بحاجةٍ لتكرار المحاولة.

الفصل التاسع عشر

أتى ليام لاصطحابها من المعرض في تمام الساعة السادسة كما وعدها. التفت إلى لوحاته فيما همّا بالمغادرة، وغمره شعورٌ حزينٌ بأنّه لن يراها مجدّداً، وشعر كمن وضع أولاده للتبنّي. وشعر بالحنين بينما كانت سيّارة الأجرة تأخذهما نحو وسط المدينة. وكان قد حجز في مطعم دا سيلفانو الذي ذهبا إليه غالباً خلال شهر تموز/يوليو. كان مطعماً إيطاليّاً مشهوراً مع خدمٍ يغنّون على طريقتهم ويقدّمون أطباقاً شهيّة.

تحدّثا عن الفنّ كالعادة وعن الأشخاص الذين يعرفانهم، وعن أصدقاء له التقتهم مؤخّراً وعن أولادهما. وأخبرها بأنّ توم على ما يرام في الجامعة والآخرين بخيرٍ أيضاً. وتكلّم عن بيث هذه المرّة، واعترف بأنّه لشعورٌ غريبٌ بأنّها ستتزوّج ثانيةً. وكان طلاقهما سيصبح نهائيّاً في الميلاد. وأخبر ساشا بأنّها لم تسامحه بعد على نزوته مع بيكي، وعرف بأنّها على الأرجح لن تفعل ذلك أبداً.

- "اعتقدت على الأقل بأننا سنكون أصدقاء في نهاية الأمر، ولكن يبدو أنّنا لا نستطيع ذلك أيضاً. وفي حالتنا أنتِ وأنا يبدو أننا وجدنا طريقنا نحو الصداقة، وهذا يعني شيئاً على الأقلّ". ولكنّهما يعلمان بوجود تيّار ما يسحبهما، وبوجود انجذاب قوي بينهما. وهذا ما سبّب القلق لساشا في تلك الليلة حين جلسا إلى الطاولة متقابلين، وتناولا الباستا الإيطاليّة، واحتسيا الشراب الرخيص.

تذكّرا رحلتهما إلى إيطاليا وكم كانت الأوقات التي قضياها هناك ساحرة لهما معاً. ومن دون تفكيرٍ، وقع نظره على معصمها ورأى السوار الذي أهداها

إيّاه. لا تزال تلبسه حتّى بعد أن انتهت علاقتهما، فهي لم تنزعه أبداً من يدها. وشعرت بالارتباك لمعرفة أنّه لاحظ ذلك.

- "هذا غباءٌ منّي، ولكنني لطالما كنت حسّاسةً بشأن هذه الأشياء وأتعلّق بها".

- "وأنا أيضاً"، أجابها ولم يعلّق أكثر من ذلك.

- "إذاً ماذا ستفعل في عطلة الميلاد ليام؟".

- "لا أعرف، سأعود إلى لندن بعد رؤية أولادي. سأقضي أسبوعاً في فرمونت وسننزل في فندقٍ، لأنّ الكوخ على البحيرة ليس ملائماً لفصل الشتاء". هزّت برأسها، وفكّرت بأولاده الذين لم تلتقيهم أبداً، وتمنّت لو أنّها فعلت. ربما ستفعل ذلك في أحد الأيام إذا أحضرهم إلى المعرض لحضور أحد عروضه. ولكن سيستغرق الأمر سنة قبل أن يُقام عرضه المقبل أو ربما سنتين. وكانت ساشا تخطّط لإقامة معرضٍ له في باريس، وبعده في نيويورك مجدّداً خلال العام المقبل. وكان لديها خطط كثيرة له بصفتها وكيلته الفنيّة، ولكنّها لا تحمل أيّ خطط بصفتها امرأة. فبعد كلّ ما مرّا به، تبلورت الأمور بالنسبة لها.

- "ماذا عنكِ؟ ستمضين الميلاد في باريس؟".

- "لست متأكّدة بعد، تاتيانا ستذهب برفقة أصدقائها، وكزافييه لديه صديقة جديدة يريد قضاء العطلة معها. سأكون هنا لبضعة أسابيع. وقد أعود إلى باريس في الميلاد. كنت أفكّر بالطلب من كزافييه أن يُحضر صديقته معه. الحياة تستمرّ". وابتسمت محاولةً أن تكون شجاعةً، ولكنّ قلبها ما زال ينكمش عندما تفكّر في الميلاد من دون آرثر ومن دونه هو الآن.

نجحا بأن يتجاوزا العشاء من دون أن يجرح أحدهما الآخر، أو أن يستحضرا الذكريات المريرة المؤلمة. بل كانا يمرّان بجانبها بكلّ حذرٍ وكانت الأمسية ناجحة بشكلٍ عام. عرض عليها أن يقلّها في سيّارة الأجرة إلى منزلها، واعتقدت بأنّ هذا سخيفٌ لأنّه كان عليه أن يذهب بعدها إلى تريبيكا

في وسط المدينة التي لا تبعد كثيراً عن المطعم. في حين كان عليها أن تذهب إلى ضاحية المدينة للوصول إلى شقّتها.

- "لا أمانع"، قالت بإصرارٍ. وكان الأمر بمثابة الصفقة السيئة بالنسبة لها مهما كانت الطريقة، فإن كان ودوداً معها فقط، ستشعر بأنّها تتعرّض للرفض. وفي حال التفت إليها من جديدٍ كامرأةٍ، عرفت بأنّهما سيندمان على ذلك. وكان عليها أن تترك الأمور تسير كما هي.

عانقته وقبّلته على خدّه وشكرته على العشاء ثمّ ركبت سيّارة الأجرة وحدها. شعرت بالغباء لذلك، وبكت طوال طريق العودة. وتذكّرت بأنّه مهما تكون بعض الأمور جذّابة وبرّاقة، فهي في الواقع عكس ما تبدو عليه. وكان هذا أحدها، وشعرت في النهاية بأنّها محظوظة لأنها تعرّفت عليه. ووجدت بأنّ كلاً منهما أضفى نعمةً على حياة الآخر لفترةٍ قصيرة. ففي الواقع، لم يُمضيا معاً سوى خمسة أشهرٍ وهذا ليس بالوقت الكبير في الحياة، ولا يُقارن بأيّ شكلٍ من الأشكال بالأعوام العشرين التي أمضتها مع آرثر. فلقد كانت علاقتهما العاطفيّة مع ليام قصيرةً وجميلةً ومليئةً بالإثارة والشغف وبالبرق والرعد أيضاً. وأدركت بأنّها على المدى البعيد، بحاجة لعلاقة بسيطة وسهلة وهادئة وأكثر صلابة. وليست هذه الحال مع ليام أو معها.

أضاءت الأنوار عندما عادت إلى المنزل، وارتدت ثياب النوم، ونظّفت أسنانها ثم أوت إلى الفراش. وما إن أطفأت الأنوار حتّى سمعت صوت الجرس يرنّ. كان البوّاب يطلبها من الردهة، ولم تعرف لماذا طلبها، فخرجت من السرير للإجابة عليه. قال لها بأنّ لديها ضيفاً.

- "لا، لا أنتظر أحداً"، قالت له مرتبكةً. "من هو؟" وأعطى الهاتف للضيف.

- "هذا أنا"، أجاب الصوت عالياً. "هل يمكنني الصعود؟" كان ليام.

- "لا!" وكادت تصرخ عبر الهاتف. "لا يمكنك، أنا في السرير، ماذا تفعل هنا؟" كان تصرّفاً غبياً منه، وأثار غضبها. لم تشأ أن تقع في التجربة

مجـــدداً مع أنّها فعلت في الواقع. ولكنّها لم تكن لتسمح له بأن يفعل ذلك بها، ليس مجدّداً.

– "أريد أن أتكلّم معكِ"، قال لها بهدوءٍ منتبهاً أنّ البوّاب كان يسمعه. كان بوّاباً جديداً لم يعرفه من قبل.

– لا أريد التكلّم معك الآن، اتصل بي في الصباح".

– "سأصعد حالاً"، أجابها وابتسم للبوّاب وأقفل الخطّ. توجّه إلى المصعد مـــن دون تردّدٍ وكان واضحاً بأنّه يعرف الطريق جيّداً. ولم يمنعه البوّاب فيما لـــوّح لـــه ليام شاكراً. وبعد دقيقتين، رنّ جرس منزلها، سمعته ولم تُجب. ولم تكـــن تملـــك الجـــرأة لتطلب من البوّاب الصعود وإخراجه من المبنى، ولكنّها تستطيع ذلك وهذا ما قالته له عبر الباب.

– "ارحل!".

– "لن أذهب"، أجاب بهدوء.

– "لن أفتح الباب".

– "حـــسناً. نـــستطيع التكلّم هكذا. أنا واثقٌ بأنّ جيرانك سيستمتعون بحديثنا"، قال غير مبالٍ، فيما استندت على الباب، وشبكت ذراعيها وأغمضت عينيها.

– "لا تفعل ذلك ليام. ليس لدينا ما نقوله".

– "تكلّمـــي عن نفسك، أنا لديّ الكثير لأقوله". وبدأ يغنّي بصوتٍ مرتفعٍ، وعلمت للحال بأنّ جيرانها سينزعجون. ولم تملك خياراً سوى بأن تفتح الباب. ففتحت له الباب، ورمقته بنظرةٍ غاضبة.

– "إذا لمستني، سأتصل بالشرطة وأتهمك بالإعتداء".

– "ممـــتاز. هذا سيعزّز من سمعتي. وإن لمستني فأنا سأتهمك بالاعتداء عليّ".

– "لا تقلـــق، لـــن أفعـــل". مرّ بجانبها وكأنّه ما زال يقيم معها، وتبعته مرتدية ثياب النوم. دخل إلى المطبخ وفتح الثلاجة.

– "رائع، مثلّجات". بدا مسروراً، وأخرج علبة المثلّجات، وأحضر طبقاً ووضع لنفسه بعضاً منها بعد أن عرض عليها بعضاً منها فرفضت وبدت كمن تـــريد ضربه. ولكانت فعلت ذلك لو أنّها تجرأت. أمّا هو فجلس غير مكترثٍ بهـــا. وقد رمى معطفه على كرسيّ في الرواق، وكان لا يزال يرتدي القميص والـــسروال الأسودين اللذين ارتداهما على العشاء. والجوارب طبعاً لأنّ البرد كـــان قارساً في الخارج. وحتّى لو لبس الجوارب في الشتاء، فهو لم يتغيّر، ما زال لـــيام الـــذي لا يمكن قمعه أو التحكّم به. إنّه ليام فنّانها المفضّل وغريب الأطوار.

– "لا تأكـــل مـــنها. لا بـــدّ أنّها فسدت في الثلاجة لأنّها بقيت فيها منذ غادرت".

– "لا أبه"، قال ببرودةٍ بينما تناول المثلّجات ونظر إليها.

– "إذاً ماذا أردت أن تقول لي؟" وبدت مغتاظةً منه فيما ابتسم.

– "أردت أن أقول بأنني أحبّك. اعتقدت بأنّك يجب أن تعرفي هذا".

– "أنـــا أيـــضاً أحبّك. هذا لا يغيّر الوضع. إنّنا نقود بعضنا البعض إلى الجـــنون. فأنـــا جرحت مشاعرك وأنت كسرت قلبي وغادرت. هذا مستحيل، كلانـــا يعرف ذلك ولسنا بحاجة لإثبات الأمر مجدّداً فقد حاولنا مرّتين وفشلنا، هذا أكثر من كافٍ بالنسبة لي".

حـــدث ذلـــك مـــنذ أربعة أشهر، ولكنّها لم تتجاوزه بعد، فإن غادر هذه المرّة، سيستغرقها الأمر أكثر لتخطّي المسألة. فلقد شكلت خسارته مرّتين ألماً مـــوجعاً بما فيه الكفاية، ولم تكن لتحاول من جديدٍ مهما كانت مقاومته صعبة. ستستمع إلى عقلها هذه المرة لأنّ قلبها ورّطها في مشاكل معه سابقاً، وفي كلّ مرّةٍ.

– "الثالـــثة ثابتة"، قال لها بينما انتهى من تناول المثلّجات، فمسح الطبق ووضـــعه فـــي آلة غسل الأطباق. "انظري كم أجيد القيام بالأعمال، لماذا إذاً إضاعة الوقت على شخصٍ آخر؟".

– "تبدو كذلك، فأنت تشبه أحد تلك الكلاب المدرّبة التي تقوم بكلّ الحركات داخل المنزل، ولكنّها لا تتصرّف هكذا في الخارج وكلانا نعرف هذا".

– "أنتِ أيضاً كذلك، يستحقّ أحدنا الآخر، فنحن متشابهان"، أجابها بثقة.

– "أنا متحضّرة إلى أقصى الحدود في كلّ المجالات". ووضعت نفسها في موقع المترفّع والأعلى مرتبةً، ولكنّها فشلت في ذلك لأنّ ليام يشعر بالحبّ نحوها لا بالخوف.

– "نعم أنتِ متحضّرة، أعترف بذلك، ولكنّك أيضاً المرأة الأكثر عناداً التي قابلتها في حياتي".

– "هل كنت تُجري استطلاعاً؟" سألته مشكّكة. "أخبرني كزافييه بأنّه رآك مع إحدى الشابات وهي تصغر ناتي سنّاً".

– "كان هناك الكثير من الشابات من حولي منذ أن كنت غبياً كفاية لأهجرك. إنّهنّ يُضجرنني للغاية فأشعر برغبة بالبكاء ساشا. لا أعرف ماذا فعلتِ بي عندما التقينا، ولكنّني لا أستطيع العيش بدونك. أريد العودة. أحبّك. أعدك بأنّني سأحسن التصرّف هذه المرّة".

– "كنت كذلك في المرّة الأخيرة"، قالت له بحزن. "بل كنت مدهشاً وكنتُ سعيدةً برفقتك. أنا أحبّك أيضاً، ولكنّني لا أستطيع التعامل مع سلوكك الغريب. وفي كلّ مرّةٍ أتوقّع منك أن تتصرّف بلياقة، تظنّ بأنّني أتحكّم بك. كما أنّ مشاعرك تُجرَح إن شعرت بأنّني أنتقدك وتعتبر بأنّني أعاملك كوالدك. هذا ليس صحيحاً، ولكنّني لا أستطيع أن أفعل دائماً ما تريده. وبالنسبة لك، هذا بمثابة الانفجار النوويّ، ففي كلّ مرّةٍ تنزعج فيها ترحل بكلّ بساطة".

– "كلّ ما في الأمر أنّني أشعر بأنّني منبوذ"، شرح لها وكأنّ هذا يُحدث فرقاً. ولكنّ النتيجة النهائيّة تبقى بأنّه هو من أنهى الأمر ورحل. ومضى على ذلك أربعة أشهر وقد فات الأوان بالنسبة لها، أو على الأقلّ هذا ما أرادت منه أن يعتقده.

– "أعرف بأنّك شعرت بالإهمال. لقد أمضيت أوقاتاً رهيبة من دونك. ولكنّني لم أشأ أن أخسر ابنتي للأبد لأنّني وقفت إلى جانبك. كان الأمر مبكّراً وقتها".

– "أفهم ذلك الآن، استغرقني الأمر بعض الوقت لأدرك هذا، ولكنّني أفهم الآن". وكان جالساً إلى طاولة المطبخ، وكأنّه ينتظر أن يوقّع اتفاقاً معها.

– "ما الذي تريده منّي ليام؟" سألته بخوفٍ وقلق. "أنت تدفعني للجنون".

– "نحن مجنونان بحب بعضنا. ربّما هو مرض، لا أعرف، ربما علينا إيجاد العلاج له. كلّ ما أعرفه هو أنّني في كلّ مرّةٍ أراك فيها، أدرك بأنّني لا أستطيع العيش من دونك. ولا تقولي لي بأنّك لا تشعرين بالشيء نفسه. أعرف جيّداً بأنّك مثلي ولكنّك أكثر تهذيباً منّي في التعبير وأكثر نضجاً أو ما شابه. جلّ ما أردته هو أن أركب سيّارة الأجرة برفقتك الليلة، ولكنّك رفضت ذلك فاستقلّيت سيّارةً أخرى وأتيت لرؤيتك. كان يمكنك دعوتي لكي آتي معك لاحتساء شرابٍ ما"، قال وكأنّه أهين، ولكنّه كان يمازحها وعلمت ذلك. "عرضت عليك أن أقلّك وعنيت ذلك جدياً".

– "ثمّ ماذا؟ نقوم بتصرّف غبي؟ وماذا يحصل بعد ذلك؟ نقضي شهراً أو اثنين أو ثلاثة معاً ثمّ ترحل بكلّ بساطةٍ عند أول شجارٍ. ليام، لن أقوم بذلك مجدداً".

– "حسناً، لن أغادر قبل أن تقولي لي بأنّك ستفعلين. أريد أن أمضي الميلاد معك. في الواقع، أودّ أن أمضي معك بقيّة حياتي. أحتاجك، أنتِ المرأة الوحيدة في العالم التي تفهمني، وتهتمّ لأمري، وتعتني بي".

– "لا أريد أن أكون أمّاً لك ليام"، قالت بصرامة، "مهما بلغ سنّي".

– "كلّ رجلٍ يحتاج أن يحظى بامرأةٍ تلعب دور الأمّ أحياناً. إنّها الطبيعة البشريّة". سمعت هذه الجملة مسبقاً. حاولت أن تفكّر، ولكن هذا ليس مهمّاً. وكان ما يقوله جنونياً مهما بلغت جاذبيّته أو وسامته. "أحبّ واقع أنّك تكبرينني سنّاً، لأنّك تفكّرين بعقلانيّة أكثر منّي".

- "هذا لأنك لا تريد أن تتضح".

- "يمكنك أن تلعبي هذا الدور من أجلنا معاً، أسمح لك بذلك". بدا سعيداً وكأنّه حلّ المسألة، ولكن هذا ليس صحيحاً على الأقلّ بالنسبة لها.

- "عليك أن تتضح أنت أيضاً".

- "أكره هذا الجزء"، أجابها بينما طقطق أصابعه. "ألا يمكنني أن أكون الفنّان الغريب الأطوار إلى أن أبلغ الثمانين من العمر؟ يمكنك أن تقولي للناس عندئذٍ بأنني أُصبت بالخرف".

- "يمكنك أن تكون الفنّان الغريب الأطوار الآن، ولكن ليس طوال الوقت". على الرغم من أنّه لم يكن كذلك معظم الوقت من قبل، بل في بعض الأحيان مثل ما حدث في حفلة الشواء عندما ثمل وخرج عن السيطرة. لن ينسى أحد هذا أبداً وبالطبع هي أيضاً. "لا يهمّ ما الذي نتفق عليه ليام، هذا لا ينجح وحسب. لم ينجح في السابق، ولن ينجح الآن. هذا مستحيل فعلاً".

- "هراء، إنّه ممكن. أنتِ فقط لا تريدين هذا".

- "لماذا قد أريد ألا ينجح الأمر؟ لماذا قد لا أريد أن أكون معك إن كنت فعلاً أحبك، وهذا صحيح؟ لم أتوقّف يوماً عن حبك. أنت الذي رحلت وليس أنا. أنت من جعل الأمر مستحيلاً وأثبتّ هذا بنفسك وأقنعتني به. كنت لا أزال أعتقد بأنّه ممكن حتّى أُصبتُ بالجنون من تاتيانا وغادرت، مع أنّني أقرّ بأنّها تصرّفت بشكلٍ رهيبٍ معك".

- "كنت أحمق وهي أيضاً. لا أعرف ساشا، ماذا أقول لك؟ أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها إلى جانب بيث. ربما أنا بطيء بالتعلّم أو بإدراك الأمور. كلّ ما أعرفه هو أنّني فهمت الآن".

- "فات الأوان"، قالت بحزن. لم تكن تريد هذا، ولكن للأسف هذا هو الواقع بالنسبة لكليهما. لم تستطع فعل ذلك مجدداً مهما كان مغرياً.

- "لا لم يفت الأوان"، أجاب بإصرار.

- "بلى". وكانت عنيدةً أكثر منه هذه المرّة.

- "سأشرب حتّى الثمالة إن لم تتوقّفي عن مناقشتي. فأنتِ لا تعطينني خياراً آخر".

ولوهلةٍ فكّرت بأنّه يعني هذا فعلاً، ثمّ سألته: "أتريد شراباً؟".

- "كلا، أريدك أنتِ". وجثا على ركبتيه في المطبخ، فضحكت قائلة:

- "أنت سخيف، توقّف عن ذلك. قف أرجوك".

- "لن أفعل حتّى توافقي على أن نبدأ من جديد. هيا ساشا بربك، ماذا سنخسر؟".

- "رشدنا. على الأقلّ سأفقد أنا رشدي، وكنت سأفعل ذلك في المرّة الأخيرة".

- "لن أقوم بهذا مجدداً، أعدك".

- "بل ستفعل ما هو أسوأ، أعرف ذلك".

- "ماذا إذاً؟ سنتعارك لبعض الوقت ونرى ماذا سيحصل. إنّها عمليّة تعلّم، وأنا بطيء بهذا، ولكنني أحبك فعلاً يا امرأة".

- "أنت مستحيل".

- "ربما أنا كذلك، ولكن هذه العلاقة ليست مستحيلة". واقترب منها، وفعل ما رغب به طوال الأمسية وفي الليلة السابقة أيضاً حين لم يجرؤ على ذلك. قبّلها وطوّقها بذراعيه ولم يتوقّف إلى أن أصبحا لاهثين. "أحبك"، قال لها هامساً.

- "أنا أيضاً أحبك، أرجوك ليام... لا تفعل هذا بي". كانت عاجزة كليّاً عن مقاومته وعرفت ذلك. أرادته بكلّ قوّتها.

- "أرجوك ساشا، امنحينا فرصةً..." تابع بهمس.

ونظرت إليه طويلاً ثمّ شعرت وكأنّها شخص آخر. فقدت السيطرة على نفسها، وهزّت برأسها موافقةً وأغمضت عينيها.

وبحركةٍ واحدةٍ، حملها بين ذراعيه وسار نحو غرفة النوم ووضعها على السرير الذي تشاركا فيه الليالي خلال الصيف. تمدّدت تراقبه وهو يخلع ملابسه متسائلةً عن جنون ما يفعلانه، وعاجزة كلياً عن مقاومته.

– "أظنّ بأنّ روحاً شريرةً تسكنني"، قالت له فيما خلع حذاءه وسرواله. "أحتاج إلى من يطرد الأرواح الشريرة".

– "وأنا أحتاج إليكِ"، أجابها ورمى سرواله على الأرض ثمّ قميصه. كاد يُغمى عليها وهي تنظر إليه وأطفأت النور. "كلّ ما أريده هو أنتِ"، أضاف وانضمّ إليها في السرير.

– "أحبك ليام... من الأفضل أن تنجح الأمر هذه المرّة"، حذّرته بينما بدآ بمارسان الحبّ.

– "سنفعل، ساشا، أعدك".

مارسا الحبّ وكأنّهما مدمنان. وتخطّى ما تشاركا به حدود العقل، والود، والكلمات. كلّ ما عرفاه فيما تمدّدا معاً هو أنّهما آمنا تلك المرّة بأنّ علاقتهما ممكنة مجدداً.

الفصل العشرون

استيقظت ساشا في الصباح ووجدت نفسها قرب ليام، فلم تستطع سوى الضحك هذه المرّة. "قُل لي بأنّني أحلم، لا بدّ بأنّني تناولت مخدّراً... نحن مجنونان لأنّنا نحاول ذلك مجدداً".

– "نعم"، أجابها بينما تمدّد على ظهره إلى جانبها، وقد علت وجهه ابتسامة. "نحن فعلاً مجنونان، وأنا أحبك، فكّري كم ستكون الحياة مملّةً لو لم نكن كذلك".

– "نعم، وقد تكون منطقيّةً أيضاً. الله وحده يعلم ماذا سيخبّئ لنا ذلك. أنا لم أعد أتذكّر شيئاً".

– "المنطق شيءٌ مملّ"، قال لها ممازحاً.

– "يا إلهي... لا تقل لي ذلك...".

– "ماذا سنفعل اليوم؟".

– "لا أعرف بشأنك سيّدي الفنّان الغريب الأطوار. ولكن أنا لديّ عمل أقوم به لأكسب عيشي، كما لديّ ولدان وفنّانون أعيلهم".

– "ليس أنا، فلقد بعت جميع لوحاتي"، قال متباهياً فيما اقترب منها وقبّلها. وكانا سعيدين من جديد، وعادت الحياة لتصبح عذبة وجميلة. "سأعود إلى هنا بعد زيارتي لفرمونت". وكان قد خطّط أن يسافر من لندن باتّجاه بوسطن ولكن الآن، بسرعةٍ كبيرةٍ، تبدّلت جميع خططه. "يمكنني أن أعود إلى باريس برفقتك إذا أردتِ فلا أودّ أن أتطفّل بوجودي عليكما أنتِ وكزافييه في الميلاد. يمكنني أن أبقى في لندن لبضعة أيام".

– "لا"، أجابته بحزم، "أريدك أن تكون معنا، سيحبّ كزافييه هذا". أمّا

تاتيانا فلن تكون هناك في الميلاد على أيّ حال، ومع وفاة والدها، أصبحت تجد الميلاد محبطاً مع والدتها وشقيقها فقط. غير أنّ كزافييه كان أكثر وفاءً لوالدته ولم يتمكّن أبداً من تركها بمفردها. ثمّ نادته بجدّية "ليام" وجلست في السرير. بدا وكأنّ لديها خبراً تعلنه. "لن أخسرك هذه المرّة، لا أهتمّ أبداً بما يتطلّبه ذلك، فلا أودّ أن أُفسد الأمر مجدداً. وفي حال ثار غضبك سآتي معك عندما ترحل. أردتك أن تعرف هذا، فإمّا أن نقوم بإنجاح العلاقة، أو نقتل بعضنا في المحاولة. سأصبح مجنونة إن خسرتك هذه المرّة".

– "نعم سيدتي". وألقى التحيّة العسكريّة ممازحاً، ثم مشى باتجاه الحمّام. كان من الجميل رؤيته مجدداً مع جسمه الطويل العاري والرائع وشعره الأشقر المتدلّي.

– "أنا أعني ذلك فعلاً!" صرخت بصوتٍ عالٍ بينما فتح المياه وبدأ بالاستحمام. "وسأخبر تاتيانا بالأمر اليوم". أرادت أن تقول ذلك لنفسها أكثر ممّا أرادت قوله له هو. وعلمت بأنّ تاتيانا ستكون متفهّمةً هذه المرّة، كما أنّ هذه حياتها وليست حياة ولديها.

– "أحبّك"، أجابها ردّاً على كلّ ما قالته، فهذا يجيب على كلّ شيء.

أعدّت البيض المخفوق والشطائر لهما وبعد ساعة، كان يقرأ الصحيفة في السرير، بينما كانت هي مستعدّةً للمغادرة إلى العمل. شعرت بأنّه لم يغادر أبداً وهذا ما بدا عليه أيضاً.

– "الخادمة تأتي عند الظهر"، ذكّرته بينما وقفت تبتسم له حاملةً حقيبتها.

– "أعرف، أذكر ذلك. سأكون قد نهضت حينها. تبدين ناضجةً جدّاً اليوم"، علّق ممازحاً.

– "أنا كذلك".

– "كلا، لستِ كذلك. لا تكذبي عليّ ساشا. فلم تعودي ناضجةً بل أنتِ مثلي، فلو كنتِ ناضجةً لما كنتِ تقومين بذلك". في الواقع كانت سعيدةً بما

يقومان به، سعيدة للغاية. وهو أيضاً. وشعرت بأنّها استعادت حياتها مجدداً، واستعادته هو. فلقد كانت هي تجعله ينضج، وهو يجعلها أصغر سنّاً، وفي وسط ذلك، تتراءى إمكانيّة النجاح التي لاحقاها طوال عام، ويبدو أنّهما وجداها في نهاية المطاف. ويكمن السرّ الآن في المحافظة عليها. وكان كلاهما مستعدّين للتحدّي، وعرفا بأنّه لن يكون سهلاً، ولكنّه يستحقّ العناء من أجلهما معاً.

– "أتستطيعين تناول الغداء معي؟" هزّت برأسها موافقة. "سألقاك عند الواحدة فعليّ القيام ببعض المشتريات. سأشتري بعض هدايا الميلاد للأولاد. ماذا تعتقدين بأنّهم يريدون؟".

– "ليام، أنا لا أعرفهم حتّى"، أجابته مبتسمةً بينما استلقى على السرير وكأنّه ملك.

– "أريد تغيير الوضع في القريب العاجل، لنذهب إلى فرمونت معاً في المرّة المقبلة التي تأتين فيها إلى نيويورك".

– "اتفقنا". فلم يعد من سرٍّ في علاقتهما الآن، وعرفت بأنّهما إذا أرادا القيام بذلك على نحوٍ صحيح هذه المرّة، فلا يجب أن تكون هناك عوائق. وكانت مستعدّةً للقيام بذلك الآن وهو أيضاً، وخاصة بعد أن استغرقهما هذا عاماً كاملاً، ولم يكن في النهاية سيئاً. فبعد أن فقدته لأربعة أشهر، علمت ما يعنيه بالنسبة لها الآن وقد استأنفا العلاقة. واكتشف هو الشيء نفسه. قبّلته قبل أن تغادر. وبعد وقتٍ قليلٍ خرج من السرير. أراد أن يشتري لها هديّة الميلاد أيضاً وسيقوم بذلك بعد الظهر. لن يبتاع لها سواراً من الذهب هذه المرّة، بل شيئاً أفضل. فبعد أن جنى الكثير من المال ذلك الأسبوع، لم يستطع الانتظار حتّى يُنفق بعضاً منه عليها.

أقلّها من المعرض عند الواحدة، وذهبا إلى مطعم جينو للغداء، ثمّ أعادها إلى المعرض قبل أن يذهب للقيام ببعض المشتريات. عاد متأخراً بعد الظهر وتحدّث مع مارسي بينما كانت ساشا تنتهي من عملها مع أحد الزبائن. قدّمته

لليام قبل أن يغادر وقالت بأنّه أحد أهمّ الفنّانين الشباب لديهم. وقبّلت ليام على خدّه، وبدا واضحاً بأنّه يعني أكثر من مجرّد فنّانٍ بالنسبة لها. ولكنّ هذا لم يعد سرّاً بعد الآن. وكان ليام يبتسم مسروراً عندما غادرا المعرض.

– "كان رائعاً ما فعلته هناك للتو".

– "ماذا؟ تقديمك لأحد الزبائن؟" وعرفت ساشا ماذا يعني، وشعرت بالسعادة لأنّه أحبّ ذلك، وقد عرفت ماذا يعني له أن يشعر بأنّه مقبول من الجميع والتباهي بذلك أحياناً. كان بحاجة لهذا وإن كان هذا ما يتطلّبه الأمر لجعله سعيداً فستقوم بذلك من أجله دائماً. أرادت أن تفعل أيّ شيءٍ من أجله لأنّها تحبّه، وتعرف بأنّه يبادلها الشعور نفسه.

بدا من المذهل لهما كيف استعادا بسرعة العلاقة بينهما وكأنّهما لم ينفصلا أبداً. وانتقل ليام إلى شقّتها تاركاً منزل أصدقائه في تريبيكا. وأخبرت ساشا تاتيانا وكذلك اتّصلت بكزافييه في لندن. ولم تتفوّه ابنتها بكلمةٍ هذه المرّة، فمع أنّ ليام لا يعجبها كثيراً، إلاّ أنّها أيّدت قرار والدتها، كما أنّها أرادت أن تمنحه فرصةً أخرى لأنّها أدركت الآن كم تحبّه ساشا.

وعادت كلّ الأمور إلى المسار الصحيح وأفضل حتّى ممّا كانت عليه. وكأنّهما في كلّ مرّةٍ يفترقان يصبحان أكثر تعلّقاً أحدهما بالآخر عندما يستأنفان العلاقة، وكأنّ رابطاً قويّاً يجمعهما. شعرت ساشا بأنّهما متزوّجان هذه المرّة، وعلّق هو أيضاً على الأمر. وتساءلت إن كانا سيقدمان على ذلك يوماً ما، ولكنّ هذا ليس مهمّاً. فكلّ ما يهمّهما بأنّهما معاً من جديد، ولم يبدُ في أي وقت مضى بأنّ علاقتهما ممكنة أكثر ممّا تبدو عليه في تلك اللحظة، وأحسّت ساشا بأنّهما في النهاية سينتصران بالتأكيد وستستمرّ علاقتهما. وأخبرت مارسي بذلك في الصباح وكانت صديقتها سعيدةً من أجلها.

خرجا كثيراً خلال اليومين التاليين، وذهبا لتناول الغداء والعشاء وذهبا للتسوّق. وكان ليام يأتي إلى المعرض، وينتظرها بينما تعمل. واستعادا وتيرة حياتهما السابقة، إذ كانا يمارسان الحبّ صبحاً ومساءً وفي ما بينهما في بعض

الأحيان. كان ليام سيغادر إلى فرمونت في الصباح التالي وقد أعدّ هدايا أولاده ليأخذها معه. كما أحضر هديّةً لساشا خبّأها في غرفة كزافييه. ابتاع لها هذه المرّة سواراً ماسيّاً ناعماً يشبه الذي أهداها إيّاه في السابق، ولكنّ هذا أكثر لمعاناً وإشراقاً. أصبح بوسعه تحمّل الإنفاق الآن، وهذا ما لم يستطع فعله في أيار/مايو. فقد تبدّل كلّ شيءٍ بعد عرضه، وأصبح في النهاية يملك المال وكان يتوق للعودة إلى الرسم من جديد.

رنّ هاتفه الخلويّ في وقتٍ متأخرٍ تلك الليلة بعد أن خلدا إلى النوم فلم يسمعاه في البداية. وكان ليام قد وضعه على الشاحن في الحمّام. ولم يتوقّف رنينه، وبدا مستمرّاً بحيث سمعته ساشا في النهاية وأيقظت ليام الذي كان يغطّ في نوم عميقٍ وطلبت منه أن يجيب. سار مترنّحاً إلى الحمّام للردّ على الهاتف متسائلاً عن من عساه يكون المتصل. كانت بيث. ولم تمضِ بضع ثوانٍ حتى كان مستيقظاً، وأخذ يحدّق في ساشا وقد بدا الذعر على وجهه.

– سأل: "ما مدى خطورة الوضع؟" وساد صمت لوقتٍ طويل بينما كانت تشرح له. وجلست ساشا لا تعرف ما الأمر، ولكنّه بدا سيئاً بالنسبة لها وشحب وجه ليام. وبدت الدموع في عينيه عندما أقفل الخطّ.

– "ماذا حدث؟" سألت ساشا بقلق. فالاتصالات في هذه الساعة ومع هذا النوع من الأسئلة لم تكن جيّدة أبداً. وشعرت بأنّ الأمر يتعلّق بأحد أولاده.

– "إنّها شارلوت. كانت بيث المتصلة. ذهبوا لرؤية المنزل الذي يبنيه لها زوجها العتيد، ولم تكن الأعمال منتهيةً بعد، فتعثّرت شارلوت ووقعت في حفرةٍ كانت مغطاة بالأخشاب واستقرّت في أسفل البناء على كومةٍ من معدّات البناء".

– "يا إلهي". واجتاح الذعر ساشا أيضاً بينما ارتجفت يده عندما أعاد الهاتف، ولمس يد ساشا وشدّ عليها بقوّةٍ فيما أخبرها بالبقيّة.

– "كسرت ظهرها ولا يعرفون مدى خطورة الوضع بعد. قد تتمكّن من السير مجدّداً أو قد تصبح مشلولة بالكامل. لا يعرفون بعد. كما أُصيب رأسها،

ولكنّه ليس بسوء إصابة ظهرها. إنّها واعية الآن ولكنّها تتألّم بشدّة". وبدأ يبكي فيما ضمّته ساشا. كان عليه المغادرة على الفور فلم يستطع الانتظار حتّى الصباح. اتّصلت ساشا لاستئجار سيّارة له وأرادت مرافقته ولكنّها فكّرت بأنّ الأمر سيكون صعباً على بيث والأولاد مع وجود شخصٍ غريبٍ. غير أنّها تمنّت لو تكون هناك برفقة ليام، فلقد علمت بأنّه يحتاجها.

كانا خارج المنزل في أقلّ من عشر دقائق، وكان يحمل حقيبته واستقلاّ سيّارة أجرة لتوصله إلى السيّارة التي استأجرتها له. وبعد نصف ساعةٍ كان مستعداً للانطلاق إلى فرمونت.

- "أتمنّى لو أستطيع مرافقتك"، قالت وعنت ذلك بصدقٍ. ولكنّه أيّدها هذه المرّة، فسيكون الوضع مربكاً إن ذهبت معه، خاصةً وأنّهم سيكونون إلى جانب شارلوت في وحدة العناية الفائقة وعلمت بأنّ بيث ستستاء إذا رافقته ساشا.

- "سأتّصل بك ما إن أعرف أيّ جديدٍ"، قال لها ثمّ ضمّها بقوّةٍ لمرّةٍ أخيرةٍ، فلقد كان بحاجةٍ لكلّ القوّة التي تمنحه إيّاها. كانت الساعة الواحدة فجراً وكان أمامه ستّ ساعاتٍ من القيادة وربّما أقلّ في حال كان الطقس جيّداً، غير أنّ بيث أخبرته بأنّ الثلج يتساقط حيث كانوا.

- "سأفكّر فيك كلّ دقيقةٍ"، همست وقبّلته من نافذة السيّارة، ثمّ لوّحت له بيدها بينما قاد مبتعداً. وبعد دقيقةٍ استقلّت سيّارة أجرة تقلّها إلى المنزل. كان هاتفها الخلويّ بحوزتها، فاتّصل بها قبل أن تصل حتّى إلى شقّتها. كان متأثّراً للغاية وبكى عندما سمع صوتها.

- "أحبّك ساشا... شكراً لوجودك هنا من أجلي عندما أحتاج إليك...".

- "أنا هنا عزيزي وسأكون بجانبك دائماً. سأصلّي لكم". يا لشارلوت المسكينة، لحسن الحظّ بأنّها لم تمت وأمل كلّ من ساشا وليام ألا يكون الوضع بالسوء الذي خشياه. "قُد بحذرٍ عزيزي... اتّصل بي إن استطعت عندما تصل".

اتّصل بها مرّاتٍ عديدةٍ في تلك الليلة، ونقل إليها تقارير عن حالة شارلوت عرفها من خلال بيث. كانت حالتها سيئة ولكنّها صامدة، وعندما

وصل في الصباح كانت ستخضع لعمليّة جراحيّة. شعرت ساشا بالمرارة وهي تفكّر بما سيمرّون به جميعاً، كان كابوساً ولم تتمكّن من التفكير بأيّ أمرٍ أسوأ من طفلةٍ مصابة بشدّة. وصل ليام إلى هناك عند التاسعة صباحاً، بينما جلست ساشا طوال الوقت تنتظر أخباراً منه. بقيت مستيقظةً طوال الليل معه، وتحدّثا كلّ نصف ساعة خلال الليل. فعندما لا يتّصل بها، كانت تتّصل هي. وكانت ممتنّةً لأنّهما عادا معاً، فيمكنها بذلك مساندته لاجتياز هذه المحنة.

لم تسمع أيّ أخبارٍ منه قبل وقت الغداء عندما كانت شارلوت في غرفة العمليّات. فلقد أخبروهم بأنّها لن تخرج منها قبل المساء. ولم يتمكّن ليام سوى من التكلّم بحزنٍ وكاد يبكي على الهاتف بينما وصف لها حالة شارلوت. أمّا ساشا فجلست كئيبةً في المعرض تنتظر الأخبار. وبدت نتائج الجراحة واعدة، فلم تكن الحالة بالسوء الذي توقّعوه، ولكنّها كانت سيئة بما فيه الكفاية. وعندما حدّثها ليام، أخبرها بأنّ الرجل الذي سيتزوّج بيث كان يلوم نفسه لأنّ شارلوت كانت برفقته تنتظر إلى حيث ستكون غرفتها، فأغفل عنها لبرهةٍ ليري بيث شيئاً وعندئذٍ وقعت. وقال ليام بأنّ بيث كانت تلومه أيضاً ولكن ليس أكثر ممّا كان هو يُلقي اللوم على نفسه. وبدا المشهد مؤلماً للجميع. وكان توم، ابنه البكر، سيصل قريباً من الجامعة ليكون بجانب أخته، وعلى الأقلّ ستكون العائلة مجتمعةً في هذه المرحلة. وشعرت ساشا بالأسف لعدم تمكّنها من الانضمام إليهم. وفكّرت بأن تسافر وتنزل في أحد الفنادق قرب المستشفى لتساند ليام، ولكنّه أخبرها بأنّهم كانوا ينامون في غرفة شارلوت وعلى المقاعد في الردهة. فلم يكن سيتمكّن من رؤيتها في كافة الأحوال، ولهذا بقيت في نيويورك وأمسكت بهاتفها طيلة الوقت.

تركت المعرض عند السابعة وبقيت قرب الهاتف في شقّتها. وفي تلك الليلة، اتّصل بها عدّة مرّاتٍ وكانت الأخبار أفضل نوعاً ما من الصباح بعد قضاء ليلة مرهقة أخرى بدون نوم لهم جميعاً ولساشا أيضاً. أخبرها بأنّ بيث كانت متوتّرةً، ولكنّها تصرّفت معه بلباقةٍ، وقال بأنّها تكاد تفقد عقلها من شدّة

الخوف. وكانوا سيلغون الزواج الذي كان مقرّراً موعده خلال ثلاثة أسابيع، وقاموا بتأجيله حتّى كانون الثاني/يناير لتتسنّى لهم معرفة حالة شارلوت. وكأنّ حياتهم جميعاً أصبحت رأساً على عقب، بينما كانت شارلوت لا تزال صامدة.

بدت الأيام طويلةً وكأنّها بدون نهاية، ومع نهاية الأسبوع علموا بأنّها لن تُصاب بشللٍ تام ولكنّهم لم يكونوا واثقين بعد بشأن رجليها. ويتعلّق الأمر الآن بكيفيّة تعافي عمودها الفقري، غير أنّ احتمال سيرها من جديدٍ كان كبيراً، ولكن ما من شيءٍ أكيدٍ بعد. وحتّى إن حصل هذا، فسيستغرق ذلك شهوراً أو سنواتٍ لجعلها تمشي مجدّداً، وكانت ستخضع لعدّة عمليّاتٍ جراحيّة أخرى. ولم تحبّ ساشا أن تسأله عن المال، ولكنّها ارتاحت لمعرفة أنّ لديهم تأميناً جيّداً وإلاّ لكانت كارثة ماليّة عليهم جميعاً. فالأمر سيستغرق أعواماً ربما، وسيكلّف الكثير من النفقات لتتعافى الفتاة التي سيكون عليها تخطّي الكثير من الفترات الصعبة، وكذلك بيث التي ستهتمّ بها. وشعر ليام بالذنب عندما تكلّم معها عن هذا على الهاتف. لكن على أحدهم الاعتناء بشارلوت ولن يستطيع التواجد هناك لذلك، فهو يعيش في لندن وسيكون مع ساشا في باريس. وكان قلقاً بشأن تفويت الميلاد معها ولكن شكّل هذا آخر اهتماماتهما. وقرّرت ساشا أن تمضي الميلاد في نيويورك لأنّه إن كان هنالك من إمكانيّة لمغادرته ولو ليومٍ واحدٍ لقضاء الميلاد معها، فسيكون من الأسهل له الوصول إلى نيويورك بدلاً من باريس حيث خطّطا في البداية لقضاء الميلاد. كما أنهم سيتدبّرون الأمر في المعرض من دونها في باريس كالعادة بفضل برنارد.

اتّصلت بكزافييه وأخبرته بما جرى فشعر بالأسى من أجل ليام مثلها تماماً. وكان كزافييه يعرف شارلوت وقد التقاها عدّة مرّاتٍ قبل مغادرة بيث. وانفطر قلبه لمجرّد التفكير بأنّها قد تصبح مشلولة وأمل ألا يحدث هذا. وطلب من والدته أن تنقل تحيّاته إلى ليام وقال بأنّه سيصلي من أجل الصغيرة. وفي ذلك الصباح كانت ساشا قد أضاءت شمعةً من أجلها ولم يكن هذا من عادتها.

وعرض عليها كزافييه أن يأتي إلى نيويورك لقضاء الميلاد معها، ولكنّه بدا من الواضح أنّه يريد البقاء في لندن برفقة صديقته الجديدة التي دعته للتزلّج معها، فأطلقت ساشا سراحه وخاصة لأنّها عرفت بأنّه سيستمتع هناك أكثر. فرح لذلك ووعدها بأن يمضي الميلاد معها في العام المقبل وأملا بأن يكون ليام وتاتيانا معهما عندئذٍ. ولكن الميلاد هذه السنة حمل أموراً كثيرة يقلقون بشأنها.

واستمرّت التقارير تردها من ليام خلال الأسبوعين التاليين. وكان الميلاد بعد بضعة أيامٍ. غير أنّ الفرحة توقّفت عن الوجود بالنسبة لهم جميعاً في المستشفى فيما كانوا قلقين باستمرار بشأن شارلوت، وينتظرون التقارير الطبيّة التي كانت أفضل ولكن غير مطمئنة بالكامل. وبدت الأوقات قاسيةً لهم. أمّا ليام فكان متعباً وسريع الغضب، وتضاءلت اتّصالاته بها لأنّه كان يناوب في البقاء مع شارلوت لثماني ساعاتٍ ليريح بيث قليلاً. وبعد ذلك، كان ينام على مقاعد الردهة قبل أن يتسنّى له الوقت للاتصال بها. وفهمت ساشا الضغط الذي يمرّ به أو حاولت ذلك، وسئمت من سماعه من بعيد، وتخيّلت كيف هو الوضع بالنسبة لهم، وهم يجلسون في وحدة العناية الفائقة ليلاً ونهاراً لمساندة الفتاة الصغيرة. وأخبرها ليام بأنّها كانت تتوجّع كثيراً وهذا ما آلمه بشدّة. كان الأمر بمثابة الكابوس بالنسبة لهم، وشعرت ساشا بالحزن في كلّ مرّةٍ يتّصل بها. ووعدها بأن يأتي إلى نيويورك لرؤيتها حالما يستطيع، ولم تستطع التخيّل متى سيكون هذا، ولكنّها لم تسأله أبداً. فجلّ ما أرادته هو أن تخفّف من حمله لا أن تزيد عليه.

وقبل يومين من حلول الميلاد، منح الأطباء شارلوت وعائلتها أفضل هديّة على الإطلاق. إذ أخبروهم أنّ شفاءها سيستغرق وقتاً طويلاً جدّاً، ولكنّها ستتمكّن من السير مجدّداً. ربما ستعرج قليلاً أو ستسير بضعفٍ أو على عكّازين، غير أنّها ستسير وهذا هو المهمّ. فلقد نجا عمودها الفقريّ من إصابة بالغة، وعلى الرغم من أنّ فترة الشفاء ستكون طويلةً وقاسيةً، ولكنّ الوضع

أفـضل ممّـا توقّعوا. وستبقى في المستشفى على الأقلّ لثلاثة أشهرٍ أو حتّى أكثر، غير أنّهم اعتقدوا بأنّها تعافت بشكلٍ جيّدٍ في نهاية الأمر، ولن تعاني من أيّ خلـلٍ فـي الـدماغ. وعلـيها الآن أن تتحلّى بالشجاعة لتخطّي العمليّات الجـراحيّة، ولكنّهم كانوا متفائلين. وعندما اتّصل ليام بساشا ليخبرها، تأثّرت كثيـراً وبكت معه. كان الوضع لا يزال محزناً ولكن على الأقلّ لاح بصيص من الأمل. وكان يمكن أن يكون الوضع أسوأ بكثيرٍ كما بدا في البداية.

– "أريد المجيء لرؤيتك"، قال لها وقد بدا عليه الإرهاق.

– "لماذا لا آتي أنا إليك؟ لا أريدك أن تقود وأنت بهذه الحالة المزرية".

– "أنا بخير"، أجابها. ولكنّ هذا لم يقنعها، وخاصة لأنّه كان بحالةٍ يُرثى لهـا، وكاد ينهار خلال الأسبوعين الأخيرين. ولم تحبّ التفكير بأنّه سيقود كلّ هذه المسافة، ولكنّه أصرّ بأن يأتي في اليوم التالي لقضاء عشيّة الميلاد معها، وقال بأنّ عليه العودة بعد ذلك لأنّه لا يزال يتناوب مع بيث وبيكي وهذا ما بدا غـريباً لها. ولكن في هذه الأزمة لم يكن أمامهم خيار آخر. وكان أحدهم يبقى معها طوال الوقت، كما كان جدّاها يساعدان قدر الإمكان بالإضافة إلى خطيب بـيث. فكانـت شارلوت محاطة بجيشٍ من المحبّين، ومدعومة بصلوات ساشا وكـزافييه. وذكرت ساشا الأمر لتاتيانا التي أُصيبت بالذعر، وطلبت منها أن تـبلغ ليام مدى أسفها وتعاطفها معه. وعندما أبلغته ساشا بالرسالة، تأثّر وقال لهـا أن تـشكر تاتيانا التي تميّزت بطيبة قلبها على الرغم من دلالها وصعوبة مزاجها.

قلقـت ساشا بشأن ليام طوال طريقه من فرمونت إليها، فكانت تتصل به كـلّ سـاعةٍ، وبـدا يقظاً وبحالٍ جيّدة. وكان قد حظي ببعض النوم في الليلة الماضية. ولم تستطع ساشا الانتظار لرؤيته، وشعرت بالامتنان لأنّه آتٍ لقضاء العطلة معها على الرغم من كلّ ما حدث.

وكانت قد وضعت زينة الميلاد عندما غادر من أجله. كما وضعت بعض الهـدايا لـه: قميص مضحك، وقبّعة بايسبول جديدة، وكتاب فنيّ كان لوالدها،

وسـاعة كارتـيـيه ثمينة. انتظرته بفارغ الصبر، ووصل في السادسة من تلك الليلة، فلم تستغرق رحلته الكثير من الوقت لأنّ الطقس كان صحواً.

ولم تستطع ساشا حبس دموعها عندما رأته. بدا مرهقاً ومتألّماً، وحين عانقته بـدأ يبكي بين ذراعيها. فقد شعر بأنّه كان يغرق في الأسبوعين الماضيين لأنّه لم يتعرّض لمثل هذه الانفعالات المخيفة في حياته. ولم يعد يبدو طفلاً بالنسبة لها، بل أصـبح رجـلاً بـين لـيلةٍ وضحاها. بدا وكأنّه كبر عشرة أعوامٍ خلال الأسابيع الأخيرة. وآلمتها رؤيته بهذه الحالة والوجع الظاهر في عينيه. حاول أن يصف لها الوضـع، فـشعرت بانكماشٍ في معدتها لسماع ذلك. كان الأمر رهيباً، ولكن على الأقلّ، الآن كانت شارلوت أفضل حالاً، وكان الأمل يعود إلى حياتها.

– "كيف تصمد بيث؟" سألت ساشا لأنها كانت قلقةً بشأنها.

– "إنّهـا مذهلة، لم تترك المستشفى أبداً. أمّا جورج فيقيم مع أصدقائه، ويتـبادل نـوم المناوبات معنا". كانت العائلة كلّها موحّدة، وحتّى بيكي التي لا يذكرها ليام كثيراً. فما زال يشعر بالغرابة من وجودها ولعلّه سيفعل دائماً. ولم تقلـق ساشا بشأنها لأنّ ما حدث بينهما كان ليلةً جنونيّةً، ونزوةً عابرةً وقد دفع ثمـناً باهظاً بسببها. وكانت ساشا سعيدةً لتمكّنه من التواجد بقرب شارلوت في المستـشفى. وستشكّل هذه الحادثة أحد تلك الأمور التي لا ينساها أيّ طفلٍ ولا حتّى ليام أو ساشا.

أعدّت له عشاءً ميلاديّاً رائعاً، وحضّرت له الحمّام ثمّ وضعته في السرير كالطفل. وتمدّد ينظر إليها لفترةٍ طويلةٍ وهو ممسك بيدها. كان مرهقاً للغاية فلم يـتكلّم كثيـراً. ثـمّ تبادلا الهدايا عند منتصف الليل. أحضرت له هداياه إلى السرير، وتوجّه هو إلى غرفة الضيوف لإحضار هديّتها. ذُهلت لرؤية السوار الماسيّ الذي اشتراه لها ووضعته فوراً في معصمها.

– "كـم هـو جمـيلٌ ليام، أنت تدلّلني كثيراً". وقبّلته وهي سعيدة للغاية لوجوده معها. أحبّ جميع الهدايا التي قدّمتها له، وخاصة الساعة، وكتاب الفنّ الذي كان لوالدها في ما مضى.

تمدّد على السرير، وأخذ ينظر إلى السقف عندما انضمّت إليه. ولم يقم بأيّ خطوة لممارسة الحبّ معها ولم تفعل هي أيضاً. فبعد كلّ ما مرّ به، فكّرت بأنّ مزاجه ليس جيّداً لذلك، وقد بدا عليه الإرهاق. وكانت ممارسة الحبّ آخر ما فكّرا فيه. كلّ ما أراداه هو أن يكونا معاً، والتمدّد جنباً إلى جنب متشابكي الأيدي.

- "تبدو منهكاً حبيبي، لماذا لا تنال قسطاً من النوم؟" أرادت أن تعامله كالطفل وتهزّ له لينام، وكان بحاجة لذلك لأنّه سيسافر مجدداً في الصباح. وكانت هذه فترة الاستراحة الوحيدة التي قاد من أجلها سبع ساعات.

- "لا أريد أن أنام، بل أودّ أن أكون برفقتك هذه الليلة، وأن أستفيد من كلّ دقيقة". وأراد أن تستمرّ كلّ دقيقة إلى الأبد.

- "أنا هنا إلى جانبك، ولكن عليك أن تنام وإلاّ ستكون متعباً للغاية وأنت تقود غداً في طريق العودة". وكان قد أراد أن يكون برفقة الأولاد في الميلاد، وأن يصل قبل حلول المساء. وكان سينطلق عند الساعة السابعة صباحاً، فبقيت أمامهما ستّ ساعات فقط ليقضيانها معاً. "عندما تهدأ الأوضاع قليلاً، سأذهب لرؤيتك هناك". وبرأيها كان من المبكر التطفّل عليهم، غير أنّ ليام لم يكن يملك أدنى فكرة كم سيطول الأمر، وكم من الوقت سيبقى هناك. أمّا ساشا فكانت تنتظره بصبر.

- "عليّ أن أتكلّم معك ساشا،" قال لها بينما تمدّد على جانبه.

- "عن ماذا؟" ولوهلة، خالت بأنّه أراد طلب يدها للزواج، ولكنّ الوقت كان غير مناسب لذلك. وكانت المشاعر تتخبّط في صدرها، فنظرت إليه مبتسمةً، وكانت سعيدةً لوجوده معها وهو أيضاً. وعلى الرغم من ابتعاده عن جوّ المستشفى المخيف، بدا حزيناً. فقد اعتراه خوف كبير، ورأى آلاماً كثيرة ليس من السهل تجاوزها. وكان ما حصل سيتطلب منه بعض الوقت وكذلك العائلة كلّها وليس فقط شارلوت لتخطّي المسألة لأنّ حادثها أصاب العائلة أيضاً.

- "لا أعرف من أين أبدأ"، أجابها وأغمض عينيه. وعندما فتحهما مجدداً، كانت ساشا تنظر إليه مباشرة، بدا لها الأمر مهمّاً وكانت توليه اهتماماً كبيراً. "ستحتاج شارلوت إلى عناية كبيرة، وإلى إعادة تأهيل وعلاجات كثيرة. وستبقى في المستشفى لأشهرٍ عديدة، ويمكننا بعدها أن نقوم ببعض التمارين لها في المنزل لأنّها لا تزال صغيرةً، أو ربما سيكون عليها البقاء في مركز التأهيل. لديهم واحد في بورلينغتون". وفهمت ساشا ما الذي يقلقه، ولم يكن هنالك أدنى شكّ لديها. فهي ستفعل أيّ شيءٍ لمساعدته وأرادت أن تعرض عليه ذلك سابقاً، ولكنّها لم تشأ التطفّل أو الفضول.

- "الجواب هو نعم"، قالت على الفور بينما التفتت نحوه وقبّلته، ولكنّ ليام بدا مندهشاً.

- "نعم لماذا؟" وقد أفقدته التركيز وشعر بالارتباك فكان مجرّد إخبارها يتطلّب منه عناءً كبيراً.

- "نعم إن كنتَ تريد دفعةً مسبقةً، فمن المؤكّد أنّ حادثاً كهذا يكلّف ثروةً. سأفعل أيّ شيءٍ للمساعدة، المعرض سيفعل وأنا أيضاً". واغرورقت عيناه بالدموع لسماعها.

- "أحبّك، لستِ مضطرّةً لفعل ذلك".

- "أريد ذلك". كان الأمر بهذه البساطة.

- "نحن بخير ونتدبّر أمورنا. تأميننا مذهل. لحسن الحظّ أنّ بيث كانت مهووسة بأمور التأمين بعكسي أنا. فلطالما اعتقدت أنّه من الجنون أن ندفع أقساط التأمين، والآن أشكر الله لأنّنا فعلنا ذلك، فنحن نحتاجه. وأظنّ بأنّ والدي بيث سيتدبّران الباقي، فقد ادخرا الكثير من المال خلال السنوات الماضية، كما يريد خطيب بيث المساعدة أيضاً. لا أعتقد بأنّ عليه ذلك ولكنّه يشعر بأنّه مسؤولٌ عمّا حدث. سنعرف كلّ شيءٍ لاحقاً، غير أنّنا لم نتلقّ أي فاتورة حتّى الآن وشكراً على عرضك على أيّ حال".

- "حسناً إذاً، ما هو السؤال؟" سألته ساشا مبتسمةً. فتنفّس بعمق.

– "ليس هناك من سؤالٍ ساشا، أردت أن أخبرك بشيءٍ لا أن أطلب منك أيّ أمرٍ. لهذا أتيت إلى هنا، لأخبرك". وبدأت الدموع تنهمر من عينيه.

– "تخبرني ماذا؟".

أغمض عينيه لدقيقة ثمّ فتحهما كمن يبحث عن الكلمات. وشعر كأنّه قاتلٌ مجرمٌ عندما بدأ يتكلّم ولكنّه لم يملك أيّ خيارٍ. "سأعود إلى بيث". حدّقت ساشا به لوقتٍ طويلٍ، وكأنّها لم تفهم. "أنا عائدٌ إلى بيث". ردّد مرّةً أخرى بينما نظرت إليه كمن أُصيب بطلقٍ ناريّ، وفجأةً جلست في الفراش.

– "تعني أنّك عائدٌ إلى فرمونت غداً أليس كذلك؟" ولم تستطع التنفّس، وتمسكت بالسرير، فهزّ برأسه نافياً.

– "أعني سأعود إليها، إلى زواجنا. لا تستطيع فعل ذلك وحدها، سيستغرق الأمر أشهر أو حتّى سنواتٍ لتعود شارلوت كما كانت وتمشي مجدّداً، ومن المحتمل ألا تتمكّن من ذلك بالكامل. لا نعرف بعد". وجلس هو أيضاً في الفراش. "لم أكن بجانب بيث من قبل، وعليّ أن أفعل ذلك الآن. تريدني أن أعود، الله وحده يعلم لماذا. أظنّ بأنّها مجنونة، فأنا كنت الزوج الفاشل على مدى عشرين عاماً، وكنت منشغلاً بلعب دور الفنّان الغريب الأطوار، والقيام بالرسم الذي لم يجد نفعاً بالنسبة لها. ولكن عليّ القيام بذلك الآن، لا أستطيع تركها وحدها مع كلّ هذا ساشا، لا أستطيع. فلقد أنهت ارتباطها بخطيبها فور حدوث الأمر، وقالت بأنّها لن تسامحه أبداً. وسألتني أن أعود". وجلس ينظر إلى ساشا والدموع في عينيه تنهمر على خدّيه. فهو يحبّها، ولكنّه أحبّ زوجته أيضاً. وهي تحتاجه الآن أكثر ممّا فعلت طوال حياتها. فكلّ ما أوصله إلى هنا وجعل ساشا تُغرم به هو نفسه ما سيجعله يتركها الآن.

– "هذا ليس سبباً لتعود إلى زواجك مجدّداً. ابقَ معها ستّة أشهرٍ إن احتجت لذلك، أو حتّى سنةً، ولكنّ ليس من المنطق أن تعود إلى زواجٍ للاهتمام بطفلةٍ مريضةٍ فقط. وماذا سيحصل عندما تتحسّن حالها؟ ستبقى في زواجك مع بيث لبقيّة حياتك".

– "لم أتركها ساشا"، قال مذكّراً، "هي من تركتني وأستحقّ ذلك، لم أكن لأتخلّى عنها أو عن الأولاد أبداً".

– "يا إلهي. لا أستطيع أن أصدّق". عادا معاً مجدّداً، وكان هو في السرير مع ساشا، ولكنّه لم يلمسها طوال الليل. بل أتى فقط ليكون معها مرّةً أخيرةً، ولكي يقول لها بنفسه بأنّه سيتركها هذه المرّة من دون مشاكل. "لا أعتقد بأنّ تفكيرك واضح الآن لتتّخذ هذا القرار ولا بيث أيضاً". وكانت ساشا كمن تدافع عن حياتها، ولكنّها نظرت في عينيه وعرفت بأنّها خسرته، لم يُكتب لها الانتصار هذه المرّة. كانت علاقتهما مستحيلةً هذه المرّة، ولكن لأسبابٍ مختلفةٍ تماماً. كما أنّها لم تكن تملك أيّ سلاحٍ للدفاع من أجله، أمّا بيث فلديها عشرون عاماً من الزواج في جعبتها، وثلاثة أولادٍ أيضاً أحدهم مريض للغاية. لم تكن ساشا تملك أيّ حظ بالفوز. "ألا تستطيع الانتظار لاتّخاذ هذا القرار إلى أن يصفو ذهنك وتنال قسطاً من النوم؟".

– "ليس هنالك من قرارٍ لأتّخذه هنا ساشا. لا أستطيع ترك بيث تتعامل بمفردها مع هذا، ولا أستطيع ترك أولادي أيضاً". وبدا وكأنّه كبر وأصبح ناضجاً ومسؤولاً، ولم يعد يريدها بعد الآن. لم يعد بوسعها مناقشته لأنّها عرفت بأنّ ما يفعله هو الصواب لهم جميعاً، ما عداها هي. وشعرت بأنّه وجّه إليها ضربةً قويّةً أصابتها في الصميم. ثمّ ضمّها بذراعيه وبكيا معاً بمرارةٍ. "أنا آسفٌ ساشا، أحبّك وأردت إنجاح علاقتنا، أردت ذلك فعلاً... ولكن عليّ العودة الآن. أقسم بأنّني كنت لأتزوّجك لو لم يحصل هذا، تمنّيت ذلك، ولكنّني لا أستطيع الآن". كان مشهداً مأساويّاً لكليهما، غير أنّه يحبّ بيث أيضاً وعلمت ساشا بذلك. تمكّنت أن ترى ذلك في عينيه، كان الأمر غامضاً ومشوّشاً ولكنّه حقيقيّ، هو يحبّهما معاً وهو مدين لبيث أكثر. كان على ساشا أن تخسر هذه المرّة، وكانت هي بمثابة التضحية البشريّة التي شعر بأنّ عليه تقديمها من أجل طفلته المريضة.

استمرّا بالبكاء متعانقين لساعات، يتأوّهان ويتمنّيان لو كانت الأمور

مختلفة. أرادت أن تغضب وأن تثور وأن تكرهه ولكنّها لم تستطع. لم تكن غاضبة بل مكسورة الفؤاد. كان هذا الحزن مشابهاً لفقدانها أرثر أو حتّى أكثر، لأنّه سبق وعاد ليام من أجلها ولكن عليها أن تعتبره ميتاً الآن لأنّه لن يعود أبداً وكلاهما يعلم ذلك.

– "سأنسحب من المعرض إذا أردتِ، فلا أريد أن أصعّب الأمور عليك أكثر".

– "لستَ مضطراً لفعل ذلك، فهذا ليس عدلاً. تستطيع التعامل مع كارن وبرنارد". لأنّها عرفت بأنّها لا تستطيع رؤيته أو حتّى التحدّث إليه بعد هذا، فهذا سيقتلها. ولم تختبر حزناً كهذا في حياتها، أو على الأقلّ منذ وفاة أرثر.

قاربت الساعة على السادسة صباحاً، وكانا لا يزالان متعانقين. وعند السادسة والنصف نهض ليام من السرير وبدا الأمر وكأنّهما تلقّيا ضربة قويّة. وكان الجزء الأسوأ في ذلك أنّها عرفت بأنّ ما يفعله هو الصواب، فلم تكن شخصيّة الفنّان الغريب الأطوار سبب هذا القرار، بل شخصيّة الرجل اللطيف والشهم الذي أدرك بأنّه مدين لعائلته وزوجته وصمّم على الالتزام بتعهّداته، في السرّاء والضرّاء. وهذا ما جعلها تحبّه أكثر.

– "ماذا لو لم ينجح الأمر؟" سألته ساشا بينما كان يرتدي ملابسه. "ماذا إن تحسّنت حالة شارلوت واكتشفتما بأنّكما لا تستطيعان الاستمرار معاً؟ ماذا سيحصل عندئذٍ؟".

– "لا أعرف"، أجابها بصدقٍ ونظر إليها، كانا يبدوان كئيبين وبحالة مزرية.

– "لا بدّ أنّ شيئاً ما لم يجرِ على ما يرام بينكما لتخونها مع بيكي. فالرجال لا يقدمون على أمرٍ كهذا إلاّ إذا كانوا تعساء في زواجهم".

– "ربما هذا ليس صحيحاً، أعتقد بأنّنا مللنا من بعضنا، وكانت بيث متعبة من العيش في الفقر، كما أنّني شعرت بحمل ثقيل مع الأولاد لأنّها كانت

مسؤوليّة كبيرة أكثر من طاقتي أو أكثر ممّا كنت مستعداً له. لقد تزوّجتها في التاسعة عشر بحقّ السماء".

– "وهذا ما ستقترفه من جديد"، قالت ساشا كئيبة. "فكّر في الأمر قبل أن تُقدم عليه، تستطيع أن تهتمّ بشارلوت قدر ما تشاء من دون العودة إلى بيث".

قال لها: "ساشا، انتهى الأمر". وشعرت كأنّه دقّ آخر مسمارٍ في قلبها. "عليّ أن أقوم بذلك ساشا، فهي تحتاج إليّ. لقد طلبت منّي هذا، لا يمكنها تدبّر الأمر بمفردها، فهي ليست بهذه القوّة". وهزّت ساشا برأسها، لم يبقَ الآن من شيءٍ لتناقشه فيه. جرّبت كلّ الحجج ولم تنجح، ولم تقوَ على إقناعه بما تعرف أنّه خطأ في الأصل. عرف بأنّ عليه العودة إلى بيث فقط لأنّه أراد ذلك، وليس لأنّها طلبت منه. فلا بدّ أنّه فكّر في الأمر بنفسه، أصبحت ساشا تعرفه بشكل جيّد الآن. فوراء كلّ تصرّفاته الجنونيّة وسلوكه الثائر، كان يُخفي رجلاً طيّباً ونبيلاً.

عرضت عليه أن تعدّ له الفطور ولكنّه هزّ برأسه لأنّه لم يستطع الأكل. لم يناما طوال الليل، وشعر بأنّه يتخلّى عن حياته من خلال تركها. جلّ ما أراده هو تكوين حياةٍ معها وقد تمّ انتزاع هذا الحلم منهما بلعبة القدر وليس بخطأ أحدٍ منهما. إنّه القدر الذي كسر كلّ أحلامهما. حان دور بيث الآن وشارلوت والصبيّان، فهو ينتمي إليهم. قطع عهداً على بيث منذ عشرين عاماً وحان الوقت ليلتزم به الآن، شعر بأنّه لا يملك أيّ خيار آخر. كانت ساشا حلمه وبيث حياته.

وضع هداياها في الحقيبة التي أحضرها، ونظرت هي إلى السوار الذي أهداها إيّاه وقالت: "لن أنزعه أبداً، سأحبّك إلى الأبد ليام".

– "لا تفعلي ذلك"، أجابها والدموع في عينيه ثمّ ركض نحوها وقبّلها قبلة الوداع. "انسيني، انسي كلّ ما يتعلّق بنا، احتفظي بعلاقتنا في مكان ما في قلبك وسأفعل أنا الشيء نفسه، ستبقين هنا دائماً معي". وأشار إلى قلبه بينما هزّت

ساشا برأسها. تمسكت به وكأنّها ستموت عندما يرحل وشعرت بأنّها ستموت فعلاً. كان هذا الوداع الذي لم يتسنّ لها أبداً قوله لأرثر. وفي تلك الليلة مع ليام قالا كلّ شيء، كان سيتركها وهو يحمل لها الحبّ في قلبه أكثر ممّا فعل خلال العام المنصرم بل كما لم يحبّ أحداً من قبل.

كانت تئنّ عندما رافقته نحو المصعد وضغط على الزرّ. وقفت حافية القدمين بثياب النوم وبشعرها المنسدل المبعثر. وعندما وصل المصعد نظر إليها، ثمّ دخل إليه، والتقت أعينهما وأُقفل الباب ورحل. وفيما مشت عائدةً إلى شقّتها، أدركت بأنّها كانت صبيحة الميلاد.

الفصل الحادي والعشرين

كان الميلاد مؤلماً بالنسبة لها، كابوساً لا يمكن احتماله. اتّصل بها كلٌّ من كزافييه وتاتيانا ليتمنّيا لها ميلاداً مجيداً، وللاطمئنان عليها، فأكّدت لهما بأنّها بخير. ولكنّ كزافييه شعر بأنّها تبدو غريبةً بعض الشيء، فاتّصل بها ثانيةً في تلك الليلة وسألها إن كان ليام برفقتها. فقالت له بأنّه كان معها وعاد إلى فرمونت. كانت تتألّم لدرجة أنّها لم تستطع أن تشارك حزنها مع أيّ أحد. كان الوضع محبطاً، فجلست على كرسيٍّ طوال اليوم ولم تتحرك، جلست بلا حراك وراحت تحدّق في الفراغ. كانت بحالة صدمة.

في اليوم الذي تلا الميلاد، ذهبت ساشا إلى المعرض عند الساعة العاشرة كعادتها، وعندما دخلت مارسي رأتها جالسةً إلى مكتبها. كان شعرها مشدوداً إلى الوراء، لم تتبرّج وبدا وجهها شاحباً. وكانت تراجع بعض الأوراق في المكتب وبدت طريقة جلوسها جديّة. ومن النظر إلى حالة الصدمة التي كانت فيها، تأكّدت مارسي بأنّ شارلوت توفيت. في الواقع، كانت ساشا هي التي توفيت.

"يا إلهي، هل حدث شيء...". قالت مارسي ثمّ أطبقت فمها بيدها ولم تستطع المتابعة. وعرفت أنّ شيئاً رهيباً قد حدث وبخاصة أنّ ساشا بدت كالشبح بينما هزّت برأسها ونظرت بعيداً. بكت كثيراً وعلمت بأنّها لن تسمع صوته مجدداً، وكانا وقد وعد أحدهما الآخر قبل أن يغادر بألاّ يتّصلا ببعضهما لأنه سيكون من القساوة أن يفعلا ذلك. ولم تختبر موقفاً أصعب من ذلك في حياتها وخصوصاً أنّها تقدّر ما فعله، ووافقت على ذلك لأنّها تحبّه، لطالما عرفت ذلك ولكنّها لم تدرك مدى حبّها له إلاّ عندما تركها.

"ساشا أأنتِ بخير؟" ونظرت إليها مارسي خائفة.

وبدا صوت ساشا متخشّباً عندما تكلّمت من دون أن تنظر إلى مارسي. "أنا بخير"، ثمّ ناولتها بعض الأوراق التي وقّعتها للتوّ. بدأت تعيش ما تبقّى من حياتها التي بدت بالنسبة لها واحة من الفراغ والصدى والخسارة. وشعرت بأنّ كلّ جزء وكلّ خليّة منها ماتت.

خرجت مارسي من الغرفة من دون أن تتفوّه بكلمة، ثمّ أخبرت كارن بوضع ساشا فذهبت تلك الأخيرة إلى مكتبها للاطمئنان عليها من دون يبدو عليها ذلك ثمّ عادت إلى مارسي بسرعة.

- "لا بدّ أن أمراً رهيباً قد حدث. هل سألتها؟".
- "لن تتكلّم".

وأدركتا بأنّ حالتها تبدو أسوأ بكثير ممّا كانت عليه عند وفاة آرثر. ولكن كان ذلك قبل عامين، وكانت هذه الخسارة الثانية التي تتكبّدها ممّا يضاعف وقع الصدمة. وكأنّ ذلك بمثابة خسارتين كبيرتين أصبحتا واحدة، ككرة الثلج التي تكبر عندما تتدحرج. فلقد عادت إليها كلّ الذكريات التي عاشتها عندما توفي آرثر، وبالإضافة إلى ذلك كان عليها أن تحتمل خسارة ليام أيضاً، وهذه المرّة إلى الأبد. لن يكون هنالك من إرجاء للحكم، لقد تمّ تنفيذه ولا عودة عنه، فليام لن يعود مطلقاً إلى حياتها، وهو على أيّ حال أصبح في عداد الأموات.

لم تحلّ أيّ من المرأتين اللغز ولم تقل ساشا شيئاً لهما طوال النهار. لم تأكل ولم تشرب، ولم تتحرك بل جلست تتخبّط في الأوراق على مكتبها. وفكّرت في قتل نفسها ولكنّها عرفت بأنّها لا تستطيع فعل ذلك بكزافييه وتاتيانا. حُكم عليها بالحياة، وهي في حالتها هذه أصعب من أن تكون محكومة بالموت، عليها الآن تحمّل العيش المؤبّد من دونه.

أمّا ليام، فشعر بالشيء نفسه وهو يقود سيّارته متّجهاً إلى فرمونت،

ولكنّه لم يتّصل بها. وعلم بأنّه لن يفعل ذلك مجدّداً، بل عليه تركها في أيدي القدر حيث وضع نفسه هو أيضاً. كلّ ما يمكنه فعله الآن هو أن يتذكّر تلك المرأة التي لن يراها أبداً من جديد، والتي أحبّها ذات مرّة من كلّ جوارحه.

وقامت ساشا بإخبار مارسي بعد الظهر بأنّها ستذهب إلى باريس في اليوم التالي، وطلبت منها أن تقوم بالحجز لها. قالت لها مارسي بأنّها ستفعل، ثمّ وقفت لبرهة للتكلّم مع ساشا مجدّداً. "أأنتِ واثقة بأنّك على ما يرام؟" فهزّت ساشا برأسها، وتساءلت مارسي إن حصل شيء مع ليام، لعلّهما تشاجرا وانفصلا من جديد. وسألتها: "أين ليام؟" فأجابتها ساشا بأنّه في فرمونت وهو بخير. وعلمت ساشا بأنّ الأمر سيستغرقها شهوراً أو حتّى أعواماً قبل أن تخبر أحداً بما حدث. فالهوّة التي تركها ليام في حياتها لم تكن مليئة سوى بالحزن والأسى. تركتها مارسي في المكتب وذهبت لتولّي أمر الحجوزات، ثمّ قامت بما لم تفعله أبداً، حتّى عند وفاة آرثر. اتّصلت بكزافييه وأخبرته بأنّها قلقة على ساشا. وقال بدوره إنها بدت غريبة بالنسبة له عندما اتّصل بها في الميلاد. "تبدو في حالة مزرية"، أقرّت مارسي. ولم تكن تحبّ أن تجعله يقلق، ولكنّها لم تعرف بمن تتّصل. فتاتيانا مسافرة ولا تعلم مارسي ولا كزافييه أين هي.

"ربما سأسافر إلى باريس لرؤيتها في نهاية الأسبوع"، قال كزافييه بعد التفكير في الأمر. لم يكن منزعجاً من تغيير مخطّطاته لأنّها كانت ليلة رأس السنة، بل كان قلقاً بشأن والدته أكثر من أيّ شيء آخر. فقد حدث أمر ما بالتأكيد ومهما كان فهي لا تتكلم عنه مع أيّ أحد.

وفي تلك الليلة، اتّصل بها كزافييه إلى المنزل ولم تُجب على الهاتف. كانت مستلقية في الظلام على سريرها تفكّر في ليام وتتساءل ماذا يفعل وكيف هي شارلوت وماذا قال لبيث. ولم تكن تعلم حتّى إن كانت بيث تعرف بأمرها. وأصبحت بين ليلة وضحاها امرأة منسيّة، وشعرت بأنّها غير مرئيّة ومنبوذة

وغيـر محبوبة ومعزولة بالكامل عن بقيّة العالم. بالكاد ودّعت كارن ومارسي عـند مغادرتهـا، فتمنّت لهما ليلةً سعيدةً كالعادة وخرجت إلى الشارع. سارت نحو المنزل وكانت على بعد نصف المسافة عندما أدركت بأنّها تمطر. وعندما وصـلت إلى المنزل، كانت مبلّلةً بالكامل، ولكنّ هذا لا يهمّ بعد الآن، ولم يعد هناك من شيء يهمّها.

وفـي اليوم التالي استقلّت الطائرة إلى باريس. لم تتحدّث إلى أحد على متنها، ولم تأكل، ولم تشاهد أيّ فيلم، وفي النهاية استسلمت للنوم. كانت الرحلة قـصيرةً نـوعاً ما. وعندما وصلت إلى المنزل أدركت بأنّها لم تأكل منذ أيام، ولكنّها لم تهتمّ لذلك أيضاً.

وعـندما وصل كزافييه إلى باريس يوم السبت، صُدم عندما رآها. كانت قـد خـسرت الكثيـر مـن الوزن، وكانت عيناها جاحظتين، وبشرتها تميل إلـى اللـون الـرماديّ. وتمكّـن كـزافييه من إطعامها ولو قليلاً، وكان قد أحـضر صـديقته الحالـيّة معـه. وعـندما سأل والدته عن ليام، حاولت أن تجيبـه بمـزاح وبـشكل مـبهم. وكـلّ ما قالته هو بأنّه مع بيث وأولاده في فرمونت.

وبعـد مـضيّ أسبوع، أراد كزافييه معرفة كيف تسير الأمور مع ليام، فاتّـصل به على هاتفه الخلويّ. ولم يذكر له حالة والدته لئلاّ يقلقه، فكان ليام يعانـي بما فيه الكفاية ممّا حدث لشارلوت. ثمّ سأله كزافييه عن موعد عودته إلى لندن.

– "لـن أعود"، أجاب ليام بنبرة كئيبة أقلقت كزافييه. ولم تكن هذه النبرة تختلف عمّا سمعه من والدته كلّما اتّصل بها.

– "مـاذا تقـصد؟" وبدا كزافييه مرتبكاً. "هل ستبقى في فرمونت لوقتٍ طويلٍ؟".

– "إلـى الأبد، حسبما أعتقد"، قال ليام بشكلٍ مبهم. "سيكون عليّ العودة إلـى لـندن فـي وقتٍ ما لإقفال محترفي". وأخبره بأنّ شارلوت ستكون في

المستشفى لعدّة أشهر، وستخضع للتأهيل بعد ذلك.

– "إنّـه لتصرّف جيّد منك أن تكون هناك معها"، أطرى عليه كزافييه. وساد صمتٌ من جهة ليام الذي عرف بأنّ عليه أن يخبره. ولم يكن لديه أدنى فكرة عمّا أخبرته به ساشا، ولكن بدا لليام بأنّ كزافييه لا يعرف بما حدث وهذا ما فاجأه. فقد علم كم هو مقرّب من أمّه وكان واثقاً بأنّها ستخبره، ولم يستطع التخـيّل لماذا لم تفعل ذلك. ولم يفكّر مطلقاً بأنّها ما زالت بحالة من الصدمة، ومحبطة كلّياً لتخبره.

– "عدت إلى بيث"، قال أخيراً، فلم يتفوّه كزافييه بأيّ كلمة. وكان صمت رهـيب من جهته. "كان عليّ ذلك، فهي تحتاجني هنا والأولاد أيضاً. سأتّصل بك عندما آتي لإقفال المحترف". تمنّى كزافييه له التوفيق وأقفل الخطّ، ثم جلس يحـدّق في الفراغ لوقتٍ طويلٍ مفكّراً في ما قاله ليام للتوّ. وشعر كزافييه كمن تـمّ إطلاقـه من مدفع وارتطم بالجدار. واستطاع شيئاً فشيئاً أن يتصوّر بماذا شعرت والدته عندما سمعت هذه الكلمات نفسها، وفسّر هذا كلّ شيء بالنسبة له الآن.

الفصل الثاني والعشرون

عادت ساشا لمواصلة حياتها كالرجل الآليّ خلال شهر كانون الثاني/يناير. فكانت تذهب إلى المعرض منذ الصباح ولا تعود إلى المنزل حتى يحلّ المساء، وكانت لا تتكلّم سوى قليلاً، وتنجز عملها بصمت. وأعطت كلّ ملفّات ليام إلى برنارد من دون تعليقٍ، ولكنّ بما أنّه لم يكن يعمل حالياً بسبب اهتمامه بشارلوت، لم يكن هنالك من شيء يفعله المعرض من أجله في كلّ الأحوال.

وطُلب من المعرض أعمالاً لليام، ولكنّهم أبلغوا الطالبين بأنّه لا يستطيع القيام بأيّ شيء قبل ستّة أشهر، وبهذا تمّ تعليق كلّ ما يخصّ ليام أليسون، ومعه عُلّقت حياة ساشا.

عاد كزافييه لزيارتها عندما عرف الحقيقة، ولكنّها رفضت التكلّم عن الأمر. ذهبا للتنزّه في الحديقة العامة مع الجرو. وحاول كزافييه اصطحابها للعشاء ولكنّها لم تشأ الخروج. وبدا له بأنّها لا تفعل شيئاً هذه الأيام، وأخبرته أوجيني بأنّها ترفض تلبية جميع الدعوات وهذا ما فعلته خلال شباط/فبراير في نيويورك أيضاً. فلقد أسدلت الستار على كلّ شيء في حياتها ما عدا العمل.

تحدّث كزافييه مطوّلاً مع تاتيانا حول المسألة، وأمضت هذه الأخيرة ليلةً مع أمّها. ولكن لا يبدو أنّ شيئاً يستطيع إخراج ساشا من حزنها. وبذلك مرّ شباط/فبراير، وآذار/مارس، ونيسان/أبريل عندما عادت إلى باريس. ثمّ سافرت بعدها إلى نيويورك لتنسيق أحد العروض. وشعرت مارسي بالراحة لرؤيتها بحالٍ أفضل. كانت نحيلةً وشاحبة اللون وبدت متعبة ولكن على الأقلّ زالت تلك النظرة الكئيبة والمحبطة التي انطبعت على وجهها خلال الأشهر

الأخيرة. بدت حزينة ولا يخفى على أحد ممّن يحبّونها ويهتمّون لأمرها بأنّها مرّت بوقتٍ عصيب. وتهامس الجميع من حولها عن سبب حالتها، ولكنّهم لم يفتحوا الموضوع معها لأنّه كان من الواضح أنّها لا تريد ذلك. وأبعدت ساشا نفسها عن العالم كليّاً، كان جسمها على الأرض، ولكنّ عقلها وتفكيرها في مكان آخر.

أتى ليام إلى لندن في آذار/مارس وأقفل المحترف حيث كان يقيم، وأرسل كلّ أغراضه إلى فرمونت، وترك رسالةً لكزافييه. وعندما اتصل به هذا الأخير كان قد غادر المدينة. فلقد أمضى هناك يومين وحسب، واستنتج كزافييه بأنّ ليام ربما لا يودّ رؤيته، فكلّ ما حدث سواء أكان حادث شارلوت أو قرار ليام كان قاسياً بالنسبة لهما، وقد فعلا ما في وسعهما لدفن الماضي والشفاء منه. ولم يذكر كزافييه أبداً لوالدته بأنّ ليام أتى إلى المدينة، وبدا له أنّه من الأفضل عدم ذكر اسمه أمامها وهذا ما فعله الجميع.

وفي نيسان/أبريل لم يكن ما رآته مارسي يُسمّى شفاءً، ولكنّه على الأقل وقف للنزيف في حياة ساشا وروحها. بدت وكأنّها ارتطمت بالقعر، واستقرّت هناك وهذا ما بدا تحسّناً ملموساً لما رآه الجميع من قبل. وكان من المخيف مشاهدتها تتّجه نحو اليأس، ولكنّها كانت تصرّ بأنّها تشعر بالتحسّن. حتّى أنّها ذهبت إلى منزلها في هامبتونز عندما أتت إلى نيويورك في أيار/مايو.

وككلّ الأمكنة الأخرى، كان هذا المنزل أيضاً مليئاً بالذكريات عن ليام، ولكن مهما كان الذي تفكّر فيه، فهي لا تشارك أحداً معها في ذلك. ومرّت أشهر لم يسمع عنه أحد في المعرض شيئاً أو يراه، وكان كلّ ما يعرفونه من ساشا يرد عن طريق البريد الإلكترونيّ، ويقول فيه بأنّه مع عائلته في فرمونت، وبأنّ شارلوت تتحسّن. فلقد دخلت إلى مركز للتأهيل وأصبحت قادرة على الوقوف وكذلك كانت حالة ساشا. فقد كانت روحها قادرة على الوقوف، ولكنّها لم تكن تسير بعد. وبدا ولداها والموظّفون متفائلين لرؤيتها تُظهر بعض الإشارات الحيويّة مجدّداً. وكادت مارسي تطير فرحاً عندما رأتها تبتسم من

جديدٍ في أيار/مايو فهي لا تذكر متى رأتها تبتسم للمرّة الأخيرة، ربما كان ذلك منذ كانون الأول/ديسمبر عندما عادت إلى ليام قبل أن يتركها من جديد.

سافر كزافييه إلى نيويورك للاحتفال بذكرى ميلاد أمه الخمسين. وكان كلّ ما أرادته هو قضاء أمسية هادئة معها ومع تاتيانا. ولكنهما أصرّا على اصطحابها إلى أحد المطاعم. فاختارت مطعماً إيطالياً صغيراً في البلدة وقالت بأنّه سيكون هادئاً. وعلى الرغم من الأشهر العديدة التي أمضتها في الحزن على ليام، أمضت وقتاً ممتعاً مع الولدين.

- "لا أصدّق بأنّني بلغت الخمسين"، قالت بحزن. "كيف حصل وأصبحت عجوزاً هكذا؟".

- "لست عجوزاً أمّي"، أجابها كزافييه بلطف. ثم قدّما لها دبّوساً من الماس عليه قلبين متداخلين فأحبّته كثيراً. وكانت لا تزال تضع السوار الماسيّ الذي قدّمه لها ليام في الميلاد، والذي لم يفارق معصمها أبداً.

اقترحت مارسي وكارن أن تقيما لها حفلةً صغيرةً للمناسبة ولكنّها رفضت، فالحفلات الوحيدة التي كانت تحضرها هي حفلات الافتتاح في المعرض. وخلال الأشهر الخمسة الأخيرة منذ رحيل ليام، لم تفعل سوى تنسيق العروض. وكانت كالحيوان الصغير المتعب الذي ينام طوال الشتاء، وانتظر كلّ من أحبّها حلول فصل الربيع لتستيقظ من جديد. وكان عليها تخطّي حزنها على ليام مهما تطلّب الأمر، ولكن بدا أنّ ذلك يستغرق وقتاً طويلاً أو حتّى إلى الأبد. وكأنّ روحيهما متداخلتان، ومن دونه تُصاب بالتلف وتموت تماماً كالتوائم السياميّة. وخلال عام واحد، أصبحا جزءاً لا يتجزّأ، وتبدو حياتها الآن من دونه سوداء ومنعزلة.

وفي ذكرى الشهداء، كانت ساشا لا تزال في نيويورك، وكانت قد قرّرت الذهاب إلى هامبتونز. بينما كانت تاتيانا خارج المدينة وكزافييه في لندن. وقرّرت العودة إلى باريس خلال الأسبوع المقبل، وتحمّست لقضاء نهاية الأسبوع الأخير على الشاطئ قبل أن تغادر. كان الطقس بارداً بعض

الـشيء ولكنّ نسمات الربيع الدافئة كانت تهبّ بين الحين والآخر. وعندما غـادرت المعرض مساء الجمعة، رأتها مارسي بحالٍ أفضل. وكانت ساشا كمن يخضع لمراقبة الجميع فكان كلّ محبّيها يتشاورون في ما بينهم لمعرفة حالـتها. ولـم يستطع إصرارها بأنّها بحالٍ جيّدة أن يقنع أحداً بذلك سوى نفسها.

وبيـنما كانت تقود باتّجاه هامبتونز ليلة الجمعة، بدا وكأنّ الرحلة ستدوم إلى الأبد بسبب الازدحام. وحين كانت تتوقّف بين الحين والآخر بسبب السير، كانـت تفكّر بليام، وكان هذا ترفاً نادراً ما كانت تسمح لنفسها به لأنّها عرفت بأنّهـا لا تستطيع تحمّله. وعلى الرغم من أنّ الآخرين لا يرون ذلك، إلاّ أنّها كانت تبذل مجهوداً كبيراً لتتحسّن. وكان تساهلاً من قبلها أن تفكّر فيه، وعندما وصـلت إلـى المنزل بعد أربع ساعات، وكان لا يزال يشغل فكرها وعقلها. كانـت الـساعة قد تخطّت الحادية عشرة ليلاً فخلدت إلى النوم عند منتصف اللـيل. غفت وهي تفكّر فيه، وفي الصباح شعرت بالتحسّن. وكأنّها من خلال الذكريات التي تسمح لنفسها بها تستعيد بعضاً من نشاطها وتزيل عنها الضغط.

أصـبح الاسـتغراق في الحزن أمراً مألوفاً بالنسبة لها. وعرفت منذ أن فقـدت أرثـر بأنّ فقدان شخصٍ عزيزٍ هو بمثابة عمليّة لا تتمّ دفعةً واحدةً بل رويـداً رويـداً وبـبطء شديد. وتطلّب منها الأمر بعد موت أرثر سنةً قبل أن تشعر بأنّها إنسانة مجدّداً. ولقد مضى على غياب ليام خمسة أشهرٍ حتّى الآن. وعرفت بأنّها ستحقّق ذلك يوماً ما، وستستيقظ في أحد الأيام من دون أن تشعر بالـضيق، أو بحمـلٍ ثقيلٍ على صدرها. فكان هذا الحمل يتقلّص شيئاً فشيئاً، وكانـت تتساءل بين الحين والآخر كيف تجري الأمور مع ليام، أو إن كان قد نـسي لأنّ لديه أموراً أخرى تشغله. وفرحت عندما أخبرتها مارسي نقلاً عن لـيام بـأنّ شارلوت تحسّنت. ولم تستطع ساشا منع نفسها من التساؤل إن كان سـعيداً مع بيث، ولم يكن من سبيلٍ لمعرفة ذلك وربما لا يهمّ. فهو ملكها الآن فـي السراء والضراء مهما حدث، وعلمت بأنّه لن يتركها أبداً وما كان ليفعل

فـي المرّة الأولى. فلقد كان من ذلك النوع من الرجال الذين يبقون على العهد إلـى الأبـد في حال التزموا. غير أنّ الأمر كان مختلفاً مع ساشا لأنّه لم يكن هـنالك أيّ التـزام مهما بلغ مقدار حبّهما. وكما توقّعت منذ البداية، كان ذلك مستحيلاً ولكن ليس للأسباب التي توقّعتها. فلم يتراءَ لها مطلقاً بأنّه سيعود إلى بيث يوماً ما، ولم يكن ليفعل لولا حادث شارلوت الذي كاد يودي بحياتها. فلقد تدخّل القدر هذه المرّة.

فـي تلـك اللـيلة، وبينما كانت تمشي على الشاطئ عند مغيب الشمس حاولـت إخـراج ليام بقوّة من عقلها. وجعلت فكرها يسرح بأمورٍ أخرى مثل أرثر والولدين. وكانت تاتيانا تواعد شاباً بشكلٍ جديّ منذ شباط/فبراير ووافقت ساشا عليه. أمّا كزافييه فكان يفكّر بالانتقال للعيش مع المرأة التي يواعدها منذ المـيلاد وشكّل هذا تغييراً جذرياً في حياته. حان الوقت لذلك فقد بلغ السابعة والعشرين.

للمرّة الأولى شعرت ساشا بالطمأنينة والسلام بينما جلست تراقب الغروب، وكان الهواء بارداً قليلاً ولكنّ الشمس كانت ساطعةً طيلة النهار. تمدّدت على الرمال تفكّر بولديها وبالأوقات التي تشاركوها، والأعمال التي أنجزتها، والفترات السعيدة التي حظوا بها. واستأجرت مركباً آخر للصيف، ولكنّ أوقاتها الخاصة وذكرياتها كانت على الشاطئ، وعلق الكثير منها في ذهنها. وكانت أوقاتاً للتفكير وللامتنان على حياتها التي بدأت من جديد. وعرفت بأنّه على الرغم من الخسائر التي تكبّدتها، حظيت بالكثير من النعم وكانت ممتنّة من أجلها كلّها.

أخذت تنظر إلى الشمس وهي تنزل في البحر، وتساءلت إن كانت سترى ذلك الوميض الأخضر عندما ترتطم الشمس بالأفق. إذ لطالما أحبّت مشاهدته. وبينما تمدّدت هناك، تذوّقت متعة اللحظة. لم تشأ أيّ شيءٍ آخر عندئذ فكلّ ما أرادته تجلّـى أمامها في المشهد. لم ترغب بشيء ولا بأحد. وشعرت كأنّها معلّقة في الفضاء بدون وزن ولا أطراف، وشعرت بالراحة التامة للمرة الأولى

منذ كانون الأول/ديسمبر. على الأقلّ كان هذا بداية الشفاء الذي استغرق الكثير من الوقت ليحصل.

رأت الوميض الأخضر فابتسمت، فلقد كان هذا بمثابة وعد بحصول الأفضل ونذير خير. كانت أشعّة الشمس الأخيرة أمام عينيها وبدا لها أنّ ما تراه حلماً أو خيالاً. لم تستطع تمييزه بوضوح ولكنّها استطاعت تلقّفه. علمت بأنّها تتخيّل الأمر أو حتّى تهلوس ثمّ سمعت صوته. إنّه ليام. كان واقفاً أمامها يدير ظهره إلى المغيب كما في الأفلام. أمّا هي فبقيت مكانها ممدّدةً على الرمال تحدّق فيه بصمت.

– "مرحباً ساشا". لم يكن لديها أدنى فكرة لماذا حضر، فالمرّة الأخيرة التي رأته فيها كانا يبكيان. وهذه المرّة، نظرت إليه وحسب ثمّ ابتسمت. وكانت قد مرّت خمسة أشهر منذ أن رأته للمرّة الأخيرة.

– "كنت أشاهد الغروب".

– "رأيتك من على الشرفة".

– "كيف حال شارلوت؟" لم تشأ أن تعرف شيئاً عن بيث.

– "أفضل بكثير، بدأت تمشي للتوّ".

لم تدعه للجلوس، بل هزّت برأسها وسألته: "لماذا أتيت؟".

– "سأعود، أردت فقط أن آتي وأودّعك".

– "سبق وفعلت ذلك". كان حديثاً غريباً ومفكّكاً بين شخصين أحبّا بعضهما، ثمّ تباعدا وخسر أحدهما الآخر. سبق وودّعا بعضهما قبل خمسة أشهر، فما الجدوى من العودة لفعل ذلك مجدّداً؟ "متى ستعود؟" كان سؤالاً من دون معنى، فلم يعد هذا يهمّ، لأنّه سبق وعاد قبل خمسة أشهر.

– "غداً"، أجابها. ثمّ جلس أخيراً على الرمال بقربها وقد شعر بأنّه من الغريب أن يبقى واقفاً أمامها وهي ممدّدة أمامه. وبدت أصغر حجماً ممّا تذكّر، وأكثر شحوباً. وكان شعرها حالك السواد مقارنةً مع وجهها الأبيض الشاحب.

ولكنّها بدت أكثر جمالاً، ولطالما فكّر فيها كما لو أنّها سكنته كشبح القتيل الذي لا يترك القاتل بل يعيش معه دائماً. "أردت فقط أن أراك مرّةً أخرى قبل أن أعود".

– "اعتقدت بأنّنا لن نفعل ذلك". والتقت عيناه بعينيها وتذكّر كم هي ثاقبة ولطيفة في الوقت نفسه. وكانت قد حافظت على وعدها بعدم الاتصال به، كما أنّها لم تنسَ الوعد فلم تذهب إلى فرمونت لرؤيته مثلما فعل هو الآن. وبدا لها أنّ عودته مرة أخرى لتعذيبها هي أمر غير عادل لأنّه سيتوجّب عليها سلوك درب الشفاء مجدّداً بعد ذهابه، والتجرّع من كأس العذاب بعد أن عانت منه في السابق وكان ذلك كافياً لها.

– "لم أتصل بك لأنّني خشيت ألا تريني".

– "أنت محقّ، ما كنت لأفعل، فوداع واحد يكفي". وحظيا بأكثر من وداع خلال العام الذي أمضياه معاً. "لماذا أتيت؟" سألته وكانت تعرفه أكثر ممّا يعرف نفسه، ورأت كم تغيّر خلال الأشهر الأخيرة. فلم يبقَ في وجهه الوسيم أيّ مخلّفات صبيانيّة بل ظهرت عليه الرجولة والنضج. وبدا بأنّه نال نصيبه من العذاب، وقلم برحلة الألم بعد مغادرته. ورافقه أولاده الثلاثة وزوجته يومياً خلال هذه الرحلة. أما هي فلم يكن يرافقها أحد وكان عليها السير بدرب الجلجلة وحدها.

– "هل تكرهينني؟" كان عليها أن تفعل، ولكنّها لم تصل إلى هذا الحدّ، فهزّت برأسها. فلم تكن غلطته.

– "لا، بل أنا أحبّك وربما سأفعل ذلك دائماً". والتفت إلى يدها ورأى السوارين اللذين أهداها إيّاهما ما زالا في معصمها.

– "وأنا أيضاً". غابت الشمس وبدأ الطقس يبرد. "أتريدينني أن أذهب الآن؟".

وكانت صريحة معه. "ليس بعد". فلعلّها المرّة الأخيرة التي تنظر إليه فيها، وأرادت أن تتذوّق كلّ لحظة من ذلك قبل أن يذهب.

- "عليّ الذهاب إلى نيويورك هذا المساء"، أضاف قائلاً لأنّه لم يعرف ماذا يقول. وبدا أنّ كلّ ما أراد قوله لها أصبح من دون معنى الآن، فقد أصبحت ساشا إنساناً آخر، أكبر وأفضل وأقوى وأعمق. وجعلتها هذه التجربة المريرة تخرج أنقى، وطهّرتها بطريقة غريبة.

- "لماذا نيويورك؟".

- "لأنني سأعود". أجابها بغموض أربكها.

- "تعود إلى أين؟ إلى فرمونت؟".

ابتسم ثمّ هزّ برأسه فلم تفهم شيئاً. "كلا، بل إلى لندن".

- "لماذا إلى هناك؟".

وأدرك حينها بأنّ عليه إخبارها فلهذا السبب أتى. وعرف عندما رآها بأنّه سبق له أن تسبب لها بالكثير من الألم. وحتّى إن كانت لا تزال تحبّه فالأبواب موصدة في وجهه، هذا ما رآه في عينيها.

- "تركت بيث، لم تنجح الأمور. علمنا ذلك منذ الشهر الأول، ولكنّنا حاولنا من أجل الأولاد. ولكنّ الأمور لم تنجح وانفصلنا كأصدقاء". وضحك ثمّ أضاف: "إنّها سعيدة لأنّها تخلّصت منّي".

نظرت إليه ساشا بدهشة، وحاولت أن تفهم ما قاله للتوّ. وفجأة تساءلت إن كانت تتخيّل أنّها رأته أو سمعت ذلك منه. ربّما لم يكن هناك وربما كانت تهلوس أو ترى حلماً.

- "ماذا قلت؟".

- "قلت بأنني تركت بيث وأنهيت الأمر. الطلاق أصبح نهائيّاً وسأعود غداً إلى لندن، ولكنني أردت أن أراك قبل أن أغادر. أدين لك باعتذار بعد كلّ شيء". عرف بأنّ ما فعله بها في كانون الأول/ديسمبر لا يُغتفر ولكنّه قام به من أجل زوجته وأولاده، إنّه عذر ضعيف غير أنّه بدا صائباً في ذلك الوقت حتّى أنّ ساشا عرفت هذا.

- "لا تدين لي بأيّ اعتذار"، قالت بلطف. "لقد فعلتَ ما كان عليك فعله".

- "وكدت أقتلك".

- "ما زلتُ صامدة". وجلست بهدوء. "أنا أقوى ممّا تظنّ".

- "بل أقوى ممّا تظنّين أنتِ. لقد فكّرت فيك كلّ يوم باستمرار". ثم مدّ ذراعيه، فرأت ساشا الساعة التي قدّمتها له.

- "وأنا أيضاً"، اعترفت بدورها. "والآن ماذا سنفعل؟" والتقت نظراتهما، ولكنّها لم تبلغ أحدها الأخرى. لم يلمسا بعضهما وربما لن يفعلا مطلقاً.

- "مستحيل أو ممكن؟ الأمر يعود إليكِ"، سألها بهدوء بينما داعب النسيم وجهيهما ثمّ اقترب منها وكادا يتلاصقان. "ماذا تقولين؟".

- "لم أفكّر يوماً بأنّك ستعود ليام"، قالت بحزن. فمن الصعب عليها التصديق بأنّه فعل أو معرفة سبب عودته. فهذه ليست المرّة الأولى التي يتركها فيها، وشعرت بأنّها ماتت عدّة مرّات على يديه.

- "ولا أنا أيضاً فكّرت بذلك".

أراد تقبيلها ولكنّ القرار أصبح الآن بيدها بعد أن كان آخر مرّة بيده. وكان سيحترم كلّ ما تقرّره.

- "أيّهما؟ مستحيل أو ممكن؟" لم يشأ الضغط عليها، ولكن كان عليه أن يعرف الجواب.

- "لا أعرف". وجلست تنظر إلى البحر ثمّ التفتت نحوه وابتسمت. "أو ربّما أعرف. ربّما لا يهمّ أيّ من الاحتمالين بعد الآن. فالحياة تمنح الإنسان فرصاً عديدة ثمّ تحصل على فرصة إضافيّة من دون سبب. وفي الحياة أيضاً، يموت أشخاص ويعيش آخرون ويعود البعض. لعلّه لم يعد يهمّ كم يحبّ الواحد الآخر. أنا أحبّك ليام، لطالما فعلت، أحبّك أكثر ممّا عرفت".

- "وأكثر ممّا عرفت أنا أيضاً. اعتقدت بأنني سأموت عندما تركتك، ولكن كان عليّ فعل ذلك".

- "أعلـم". وابتـسمت مجـدداً، فقبّلها برفقٍ ولطفٍ وكأنّه يلامس نسيم الصيف. ففي النهاية، لقد اصطحبها معه إلى فرمونت، في قلبه، وأدركت بيث هذا قبله ولهذا أرسلته.

قـبّلها مجـدداً وعانقها بينما همست في صدره كلمة لم يسمعها بل شعر بها. ونظر إلى وجهها وسألها: "ماذا قلتِ؟".

- "ممكـن". كانت همساً خفيفاً ولكنّه سمعها هذه المرّة. "ممكن". ردّدت مـن جديـد. وكانت هذه الكلمة كلّ ما أراد أن يسمعه منها، وكلّ ما عاش من أجله خلال الأشهر التي كان فيها بعيداً. ضمّها بقوّةٍ بين ذراعيه، ونظرت هي إلـى الوجه الذي أصبح جزءاً منها ولطالما كان كذلك منذ البداية، ثمّ ضحكت وقالت: "ممكن. لا شكّ بذلك هذه المرّة".